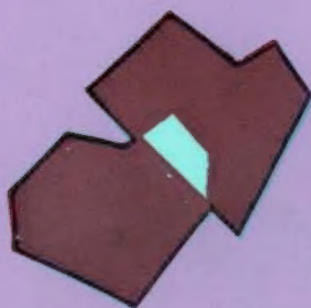


کوله ولسه

اصول
الادب
الجنسی



دارالآداب

أَصُولُ الرَّافِعِ الْجَنِيِّ

كولين ويلسون

أصول الدافع الحسني

ترجمة
يوسف شرورو وسمير كساب

منشورات دار الآداب - بيروت

حقوق الترجمة الى العربية
محفوظة لدار الآداب

الطبعة الثالثة

١٩٨٦

تعريف لأهداف الكتاب

بقلم المؤلف

كتابي هذا هو بمثابة « التوأم » لمؤلف آخر كنت أعده في الوقت نفسه بعنوان « عرض عام لوجودية جديدة »^(١) . إنه أضيق مجالاً من توأمه الآخر ، مع أنني أعتبره في الواقع ، جزءاً من البحث العام . إن موضوع الجنس وعلم النفس الوجودي يتطلب مجالاً واسعاً . وإذا كنت أريد أن أعالجه معالجة وافية ، وجب عليّ تمديد الكتاب الأم إلى ألف صفحة . لكنني أخترت المجازفة ، وهي استعادة بعض الآراء من كتابي « عرض عام لوجودية جديدة » وترديدها في هذا الكتاب .

ينبغي أن أبدأ ، إذن ، بتحديد عام للأهداف التي أريد شرحها . لقد بدا لي بكل وضوح ، أن كل مؤلفاتي تدور حول نقطة واحدة ، وهي خلق وجودية جديدة .

وقد يخيل للقارئ العادي أن هذا موضوع تكنيكي محدود المدى ، فالوجودية قد تكون بالنسبة له فلسفة عصرية مبهمه كونهها بعض المفكرين الفرنسيين والألمان ، وقد تكون أقل انطباقاً على المجتمع العام من آراء ديوي وبرتراند رسل .

١ - نشر هذا الكتاب بالإنكليزية والعربية بعنوان « ما بعد اللامنتهي » . (م.٨)

ولكن هذا تعريف مفلوط .

فالوجودية هي « تطرّق » إلى أي نوع من المعرفة ، وبالرغم من أنها نشأت على شكل ثورة في الفلسفة ، إلا أنها امتدت كذلك إلى علم النفس ، وربما يستمر إنتشارها لتشمل كل العلوم . أما هذا الكتاب فيقتصر في الغالب على معالجة تأثير الوجودية على علم النفس وخاصة على نظرية الجنس . وفي فصل من كتاب « عرض عام لوجودية جديدة » بعنوان « ماذا يحدث للعلم الحديث » ، قلت أن العلم الحديث راح يبتعد عن الأسلوب التحليلي المحض الذي امتاز به منذ نيوتن وديكارت . إن العلم يدرك أنه لا يستطيع أن يحدد « الحياة » في أي جسم بواسطة التشريح ، ولذلك فإنه كان ميّالاً إلى أن يقول « في القرن التاسع عشر » :

— في هذه الحالة ، فإن هذه الحياة لا تعنيني كما لم .

فإذا لم يكن باستطاعة عزل « المبدأ الرابط والملمزم » ، وجب تجاهل الأمر إذن . كانت هذه حجة معقولة ، أما الأمر الأسوأ فكان الإتجاه نحو انكار أي ضرورة للمبدأ المذكور . إن فرويد على الأقل لم يشتطّ إلى هذا الحد ، بل إنه أثبت وجود مبدأ رابط وملمزم اسمه الليبيدو أو الطاقة الجنسية الفريزية ، إلا أنه صبّ كل إهتمامه على تحليل آثاره . وظلت الليبيدو تقبع في الظل . فإذا ما إعترض أحد الناس على أن فرويد يحلل الحياة من خارج الوجود ، ما كان على المدافع عنه إلا أن يشير إلى تلك « الفرضية الغامضة » ليدلل على أن فرويد يعترف بالقوى والمحركات الأساسية . إن هذا الكتاب « معنى » في الغالب بالثورة ما بعد الفرويدية التي قامت ضد الإتجاه التحليلي المطلق ، وهو كذلك يطرح عدة تساؤلات عما إذا كانت أساليب « جيستالت » ، في علم النفس ، وأساليب هوسرل في علم الظواهر تنطبق على سيكولوجية الجنس .

وعلى صعيد آخر ، فإن هذا الكتاب هو مواجهة شخصية للجنس . لقد عالجت موضوع الجنس في مناسبات ماضية ثلاث : في روايتي « طقوس في

الظلام ، وفي فصل من كتاب « القوة على الحلم »^(١) وفي مقال « دراسة في جريمة القتل ، الذي قدمت به مؤلفي المسمى « موسوعة جريمة القتل ، Encyclopaedia of Murder » .

وكتابي هذا محاولة لتوحيد جميع هذه الأفكار وتحديدها ولقد كانت من الضروري أن تتكرر في هذا الكتاب بعض الأفكار الواردة في كتي السابقة ، ولهذا فأنا أقدم بإعتذاري لكل من يلاحظ هذا التكرار .

كلمة حول : « الوجودية الجديدة »

قد يتساءل البعض : لماذا الوجودية الجديدة ؟ وما هو عيب الوجودية القديمة ؟

الجواب هو أن الوجودية القديمة قد ماتت منذ زمن قريب (وعلى وجه التقريب في عام ١٩٥٠) وينبغي اعتبارها مندثرة مثل رومانسية القرن التاسع عشر ، وسأحاول قبل نهاية هذا الكتاب أن أبين لما أعتبر الجنس مدخلا إلى وجودية جديدة .

ولإنقاذ القارئ من أي التباس قد ينشأ عن أسلوب هذا الكتاب ، أود أن أشير إلى أن هناك طريقتين متبعيتين في وضع أي كتاب تحليلي .

الأولى هي أن يُعرف الكاتب كل مصطلحاته بدقة علمية في الفصل الأول من كتابه ، ثم يتمسك بهذه التعريفات ويتابعها إلى آخر الكتاب .
والثانية هي أن يعتمد الكاتب على فraise قارئه وإدراكه .

وكل الناشئين في حقل الفلسفة مضطرين إلى الإعتماد والإرتكاز على الطريقة الثانية (لأن الكثير من أعمالهم تعتمد على الفطنة البدئية) وهذا يفسر لماذا يجد القارئ كتابات أفلاطون وهيوم وبركلي ونيش أكثر استساغة وعذوبة من كتابات أرسطوطاليس وكانت وهيجل وهيدجر . فالجموعة الأولى لا تتقسل كتاباتها بتعريفات كثيرة ولهذا فهي أكثر التصاقاً بالقارئ .

إن أرسطوطاليس بلا شك أكثر دقة من أفلاطون ، ولكن من الصعب أن

١ - وقد ترجم الى العربية تحت عنوان « المعقول واللامعقول في الالام الحديث » .

نتوقع أن يقرأ الإنسان للمتعة وللعذوبة . وكل كاتب محترف ، أو بالأحرى أي كاتب يُعنى بالإتصال المباشر مع قارئه ، ميّال بالفعل الى تفضيل اسلوب الإدراك البدهي واجتناب تحميل نصوصه بالتعريفات الكثيرة . وهذا الكتاب لا يخلو من التعريفات ، ولكن التعريفات أخضعت الى حد أدنى . ولقد التجأت بشكل واسع إلى استعمال الفواصل المقلوبة « الأقواس » ، للتدليل على الكلمات أو الجمل التي يرد استعمالها بمعنى محدود أو خاص (مثل « الطبيعة » و « الشذوذ » و « قوة الحياة ») بينما تجنبت التعقيد والالتفاف حول المعنى .

وقد يكون من المناسب هنا أن أذكر بعض الافتراضات التي يحملها هذا الكتاب ، والافتراض الأول مرتبط باستعمالي لكلمة « الطبيعة » . فهذا الكتاب يمكن إلى حد ما تلخيصه بأنه « وثيقة إتهام ضد الطبيعة » ونحن نميل إلى أن نعرف كلمة « شذوذ » تعريفاً أخلاقياً (على نقيض التعريف العملي الذي يعني « غير مناسب للمجتمع ») وأن نمنحها معنى « مطلقاً » يدل على أنها « ضد الله » أو « ضد الطبيعة » . وهذا هو المعنى البدهي الذي نلصقه بالكلمة . ولقد قبلت أنا بهذا المعنى على اعتبار أن « الشذوذ » هو عمل ضد الطبيعة يقوم به الإنسان بمحض إرادته .

ونحن ننظر « للطبيعة » هنا على أن لها في أذهاننا غرضاً محدداً يتعلق بتنظيم الجهاز الانساني . فالشذوذ إذن متناقض لغرض الطبيعة ، وقد يسهل فهم المعنى إن عقدنا المقارنة التالية :

إذا إبتاع رجل ما « جراراً » للحرثة وراح يسير به المسافات الطويلة بسرعة خمسين ميلاً في الساعة فليس من حقه أن يشكو إن تعطل الجرار عن العمل . وإذا احتج لدى الشركة صاحبة الجرار ، فإن الشركة ستقول له : إن اللوم يقع عليك ، فالجرار لم يصنع لمثل هذا . (المركيز دي ساد يعتبر « الشذوذ » عطباً في الجهاز الانساني بسبب سوء الاستعمال وينظر إليه على أنه بمثابة تفكك عام للجهاز ناشيء عن « التشبع ») .

فإذا أجاب الرجل : « بل على العكس ، فإن بالجرار الكثير من الخلل ،
كان عليه أن يثبت مسؤولية الشركة .

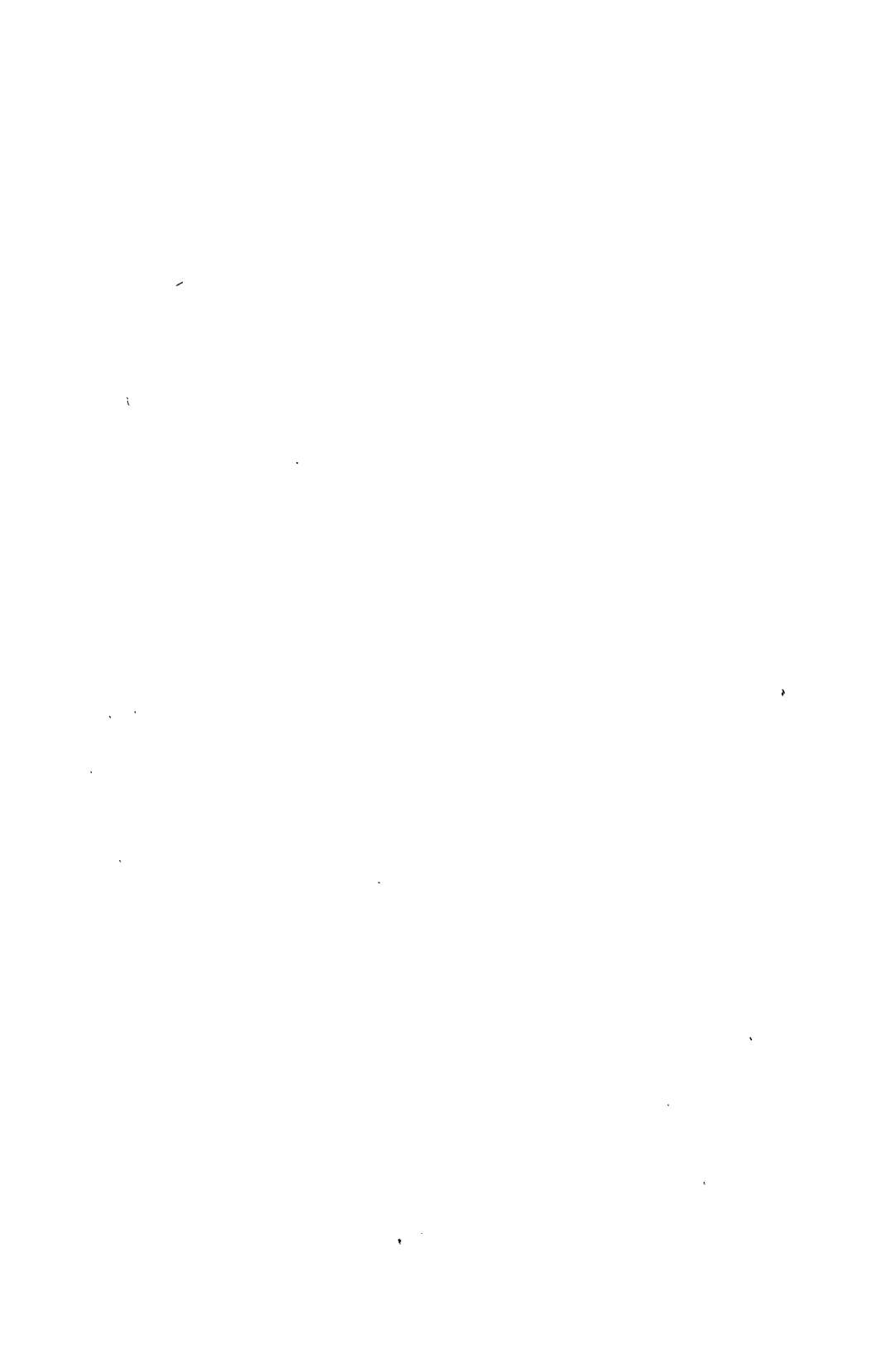
وعلى ضوء هذا المثال ، فإن الغاية من هذا الكتاب هو تبيان أن مسؤولية
الشذوذ الجنسي تقع على « الشركة » . ذلك أنه يمكن اعتبار الشذوذ خللاً
ميكانيكياً ناشئاً عن خطأ في تصميم الجهاز الجنسي .

وهذا الاستنتاج البسيط هو إلى حد ما حصيلته تقبلنا للتعريف « الفطري »
للشذوذ القائل بأن الشذوذ عمل إرادي حرّ ضد الطبيعة . لكن الإنسان ليس
مخلوقاً ذا إرادة حرة كلية كما أن الطبيعة ليست آلة الهية ذات إنتاج هائل تصنع
نماذج رخيصة .

إن هذا المفهوم هو نتاج نسق قديم وغامض من التفكير ، يؤمن بأن في السماء
إلهاً واعياً قادراً على كل شيء وبأن الإنسان هو ملاك ساقط . إننا ندرك اليوم
أن الإنسان يملك بعض الإرادة الحرة ، ولكن ليس بالقدر الذي كان يظنه ،
وأنه يمكن اعتباره شريكاً في عملية التطور وليس مجرد سلعة مصنوعة .

وهكذا فإن هذه الكلمات البسيطة « الإنسان » و « الطبيعة » و « الشذوذ »
تستبطن دلالات أعمق . وعلى هذا المنوال فأننا « نتهم المجتمع » أحياناً بسبب
ظلم أحاق بأحد الأفراد ، مع أننا ندرك أن المجتمع هو مجموعة من الأفراد ولا
يمكن إتهامه اذن . كما أنه لا يمكن اتهام « الطبيعة » لأن الطبيعة ليست منفصلة
تماماً عن الإنسان ، بل يمكن اعتبار الإنسان أداة التطور لدى الطبيعة . إن
الأمر ليس ببساطة مجرد لوم « الشركة » لخلل فني في الآلة ، لأن الآلة في هذه
الحالة هي إلى حد ما شريكة في صنع نفسها .

ولو بدأت هذا الكتاب بتحليل للعلاقة بين الجسم والعقل ، وبين الإنسان
والطبيعة على طريقة سي . دي . برود ، ومن ثم حاولت تحليل الشذوذ الجنسي
بفيض من المصطلحات الميتافيزيقية ، فإنني أشك في أن يكون هذا الكتاب قد
أنجز . ومن الأهمية بمكان أن يولي القاري عنايته الكاملة للكلمات الموضوعية
داخل الأقواس الصغيرة مثل « الطبيعة » و « الشذوذ » وأن يدرك أنها قد
تحمل معاني مزدوجة لم يسمح البحث بتبيانها .



الفصل الأول

بحث عام حول الانحراف الجنسي

عرض للقضية الأساسية في هذا الكتاب : أي دور
يلعبه الجنس في وجود الإنسان الشامل ؟
آراء تولستوي وجيد . فرويد وجورديف . الدوس
هكسلي والجنس . نويس والـ « كاريزا » Karezza .
د . هـ . لورنس واللواط .

من المناسب أن أبتديء هذا الفصل بطرح السؤال الذي هو محور هذا الكتاب : أي دور يلعبه الجنس في وجود الإنسان الشامل ؟ وهذا السؤال يجزئ مباشرة إلى سؤالين آخرين . الأول ، وهو الأكثر إلحاحاً ، يتعلق بطبيعة الدافع الجنسي . أما الثاني فهو : ما هو المقصود بـ «وجود الإنسان الشامل ؟» ، إن الوصول إلى جواب مرضٍ للسؤال الأول سيمكّننا من لقاء الضوء على السؤال الثاني .

إن أكثر الأمور جلاء بالنسبة للدافع الجنسي هو أن الإنسان و « الطبيعة » لهما ، في هذا المجال ، غايتان متباينتان . إن التماسك هو غاية الطبيعة كما يبدو . أما غاية الإنسان فهي أن يحصل على أكبر قدر من الاستمتاع بالنشوة الجنسية . ومن الصحيح القول إن أغراض الإنسان والطبيعة قلما تتوافق وتلتقي التقاء تاماً . فالطبيعة تقتضي من الإنسان أن يهتم بالطعام بالقدر الذي يضمن له البقاء والصحة الجيدة . ولكن معظم الناس المتمدنين لا يكتفون بذلك فيتعدى قولهم بالطعام القدر الذي تتطلبه الطبيعة ، والنهم يقود بعضهم إلى حتفه . لكن معظم الناس في الغالب يبقون ضمن حدود « ما تتطلبه الطبيعة » . وينطبق هذا المثال على حالات الشرب والنوم والتمرين . وفيما يتعلق بالدافع الجنسي ، يبدو أن الهوة بين غاية الإنسان وغاية الطبيعة واسعة بشكل غير عادي . ولهذا السبب فإن الإنحرافات الخاصة بالدافع الجنسي هي أكثر من تلك التي تصيب أي دافع إنساني آخر من دوافع حفظ النوع .

هنا تنشأ المشكلة الأولى . فالشذوذ يفسر عادة بأنه « عمل غير طبيعي » ومن السهل بمكان فهم كلمة « غير طبيعي » عندما يحس الإنسان بميل غريزي قوي نحو

ما هو طبيعي . وعلى سبيل المثال ، فإن أحداً لا يشك في أن أكل الفائط هو عمل غير طبيعي لأن ما لفظه الجسم لا يمكن بطبيعة الحال أن يكون غذاء للجسم .

لكن السؤال هو : « كيف نستطيع أن نحكم بما هو طبيعي في حالة مثل حالة الجنس حيث تتسع الهوة بين غاية الطبيعة وغاية الإنسان ؟ » .

تفسير تولستوي للعادية :

إن المنطق العادي يساعد إلى حد ما ، وقد حدد تولستوي في روايته « سوناتا كرويتزر » The Kreutzer Sonata جوهر النظرة إلى الجنس المستقاة من المنطق العادي . وروايته هذه تحمل في الأساس طابع الكتابات الوسلانية (نسبة إلى القس الإنكليزي جون وسلي مؤسس مذهب النظامية الديني) ضد الحرية الجنسية .

فبودسنشيف ، قاتل الزوجة ، يشعر بأن المجتمع المعاصر قد غلظه نوع من الجنون الجنسي . وذلك أن الزيادة في أوقات الفراغ قد منحت الإنسان مزيداً من الطاقة الفائضة التي يصرفها في سعي محموم لاهت وراء المتعة . إن الزوج أو الزوجة حسب النظام الطبيعي للأشياء لا يملكان القدرة على ممارسة الجنس بكثرة ، فهي منهوكة بإعجاب الأطفال وهو يُنهك بالعمل اليومي ويحدد عمله من انصرافه إلى الجنس . أما الطبقة الأرستقراطية العاطلة (وبالذات الأرستقراطية « المثقفة ») فهي تصرف أيامها وساعاتها في التفكير في الجنس ، وهو التفكير الذي يختفي في مراحل الأكثر براءة تحت ستار رقيتي من الحب . وقد بدأت غيرة بودسنشيف من زوجته حين قامت بعزف « السوناتا التاسعة » للبيانو والكان لبيتروفن بمرافقة شاب أرستقراطي .

وقد بين تولستوي أن مثل هذه المشاركة الثقافية الفنية ما هي إلا عذر جديد لإقامة علاقات قد تؤدي إلى الخيانة الزوجية . وقد توصل في روايته هذه إلى أن العلاقة الجنسية الطبيعية الوحيدة هي التي تهدف بالذات إلى إعجاب

الأطفال . وكل ممارسة جنسية أخرى تجري بقصد المتعة الخالصة ، حتى بين الرجل وزوجته ، فهي عمل « غير طبيعي » .

وميزة هذا الرأي على الأقل هي ثباته وتماسكه ، فهو يتجاوز تعاليم القديس بولس بمرحلة واحدة ويمائل تعاليم الكنيسة الكاثوليكية حول منع الحمل . إنه في جوهره رأي ديني ، فهو يعلن أن ميول الإنسان ليس لها أي دور في تحديد ما هو طبيعي وأنه يجب الانصياع لرأي « أعلى » ، حتى وإن كان هذا الرأي مناقضاً لما يعتبره الإنسان « طبيعياً تماماً » .

إن عدداً قليلاً من الناس هم على استعداد لأن يتفقوا مع تولستوي على تفسيره للعادية أو الطبيعية . وقد عرّف معظم الذين كتبوا عن الجنس ، من « إلّيس » إلى « كرافت أبننج » ، الجنس الطبيعي بأنه « نشاط جنسي يؤدي في النهاية إلى عملية التناسل » . وهذا الرأي يعكس بعض التناقضات . إنه يقول إن الجنس يكون طبيعياً إذا كانت النتيجة الأخيرة هي حدوث قذف في المهبل ، بفضّ النظر عما إذا كانت قد سبقت عملية القذف ممارسات غير طبيعية ، وبالتالي ، إذا تمعد الرجل القذف خارج المهبل أو استعمال مانعاً للحمل اعتبر أكثر « شذوذاً » من الرجل الذي يضرب زوجته يحنون لغرض التهيّج الجنسي أو الرجل الذي يقتصب فتاة بعد أن يفقدها رشدًا .

لكن الاعتراض الرئيسي على هذا الرأي هو أنه يسيء إلى المنطق السليم حين يجعل الغاية ، وليس الوسيلة ، هي التي تقرر الشذوذ من عدم الشذوذ . فإذا كان القذف هو أصلاً الغاية من معظم الممارسات الجنسية ، أفليس من المؤكد إذن أن الوسيلة التي تتبع للوصول إلى هذه الغاية هي التي ينبغي أن تكون المقياس الذي يقرر الشذوذ من عدمه ؟

إن المفهوم « السيكلولوجي » للشذوذ هو حكم عملي مناسب ، لكنه لا يبدو مصيباً إلا لأن معظم الرجال الذين يتمون عملية القذف في داخل المرأة يصلون إلى التهيّج الجنسي بالطرق العادية .

جيد وكوريدون^(١):

كتب « جيد » ، الذي لم يخف ميوله اللواطية يوماً ، أربعة حوارات بين قاصّ يتمتع بميول جنسية عادية وبين صديقه « المنحرف جنسياً » كوريدون ، حاول فيها أن يأتي بتبرير فلسفي للشذوذ الجنسي ، وقد أعتبر الكتاب مجرد دفاع عن اللواط ، ولقد قال جيد عدة مرات بأنه يعتبر هذا الكتاب أهم أعماله ، وهو ليس من السذاجة بحيث يلقي بهذا الحكم لمجرد أن الكتاب يدور حول أحد أهوائه المحببة إليه . ذلك أن التساؤلات التي يطرحها هذا الكتاب تتمدى بكثير قضية ما إذا كان الشذوذ الجنسي « طبيعياً » أو « مستوجباً للزجر » . إن جيد يشير إلى أن الرغبة الجنسية عند الحيوانات تنشأ عادة من الرائحة التي تصدرها انثى الحيوان في حالة التهيّج الطبيعي ، ولذلك يمكن اعتبارها حالة « جسدية » طبيعية . ثم يضيف : ومع ذلك فإنه من الخطأ القول إن ذكر الحيوان لا يحسّ بالرغبة الجنسية إلاّ حين يشم رائحة الانثى هذه ، لأن الرغبة الجنسية عارمة وقوية لدى الذكور إلى حد أن الذكر يلجأ أحياناً إلى ركوب ذكر آخر أو الاحتكاك بجسم ما ، لاستحضار الفشوة الجنسية .

وعلى كل حال فإن رائحة الانثى هذه توحد وتوجه غرائز الحيوانات الجنسية . والآنسان يفيض كذلك بالرغبة الجنسية . وفي حالته لا توجد هناك رائحة الأنثى التي توحد غرائزه وتقودها نحو الجنس الآخر في لحظة معينة . فالخافز الذي يوحد غرائزه ويحرضها هو حافز عقلي محض . وهذا هو السبب في كثرة أنواع الحوافز أو بتعبير آخر « الشواذ » . فالرجل « الطبيعي » يتهيّج لدى رؤية امرأة عارية ، لكن الرجل الذي يفضل امرأة ممينة جداً أو نحيلة جداً أو متوسطة السن ذات مظهر أمومي ليس بالضرورة « غير طبيعي » إن لم تهيجه المرأة العارية التي لم تتوافق مع ميوله الجنسية . وكذلك فإن الرجل الذي يهيجه أكثر من أي شيء آخر منظر امرأة في ثيابها الداخلية ، أو امرأة

١ - هذا الاسم يرمز في الأصل إلى راع شاب ورد اسمه في الأساطير الإغريقية .

ذات شعر طويل منسدل خلف ظهرها قد لا يكون شاذاً أبداً .

يقول جيد : وعلى هذا فإن الرجل الذي يفضل صبيّاً أو رجلاً آخر ، لا يكون قد ارتكب عملاً شاذاً على الإطلاق . ومن المعروف جيداً أن اللواط لا ينتج نسلًا ، ولكن جيد يورد في كتابه أمثلة عن بعض اللواطيين الذين مارسوا حياة عائلية معتادة مع زوجاتهم وأنجبوا أطفالاً ، ويبدو أن جيد يفتح هنا إلى أنه يجوز للرجل أو المرأة أن يمارس أو تمارس علاقات جنسية ، كل مع جنسه ، شريطة أن يؤديا واجبهما في إقامة الحياة العائلية وانجاب الأطفال .

وكل هذا يطرح تساؤلات ذات دلالات كبيرة وعميقة . ففي مقالي « دراسة في جريمة القتل » كنت قد قلت إن الرغبة الجنسية عند الأطفال « غير مميزة » بمعنى أنها ليست أكثر من مجرد الحاجة إلى إثارة العضو التناسلي فهي إذن حاجة بسيطة كالخاجة إلى الطعام . ففي مثل هذه السن المبكرة تكون الشهية الجنسية خاضعة للتأثير « التنويمي » لشيء ما ، بحيث يرتبط هذا الشيء بالاستمتاع الجنسي . وقد يكون هذا الشيء دمية أو طاقية نوم أو لباساً . وقد يكون أيضاً أعضاء الطفل التناسلية نفسها أو الأعضاء التناسلية لطفل آخر . ومن حسن الحظ أن « الشيء » الذي يمارس مثل هذا التأثير على معظم الرجال هو الجنس الآخر . وينبغي هنا أن أشير إلى حقيقة أساسية وهي أن الرغبة الجنسية في أبسط صورها هي أحد مطالب العضو التناسلي وهي ملازمة له تماماً ، كما أن الجاذبية المغناطيسية ملازمة لحجر المغناطيس ، والفرق بينهما هو أن العضو التناسلي أكثر شَبهاً بالمغناطيس الكهربائي الذي إما أن يكون ممغنطاً أو « هامداً » بلا حياة . إن ما يحتاج إليه العضو التناسلي هو نوع من الكهرباء الأستاتييه .

وقد نكون على علم بسيط بـ « المولد » الذي يولد الكهرباء الجنسية ، لكننا لا نستطيع أن ننفي وجود هذه الكهرباء . وينبغي علينا عند بحث الدور الذي تلعبه الخيلة في الجنس ألا ننسى هذه الحقيقة الواقعية التي هي أحد العوامل الجسدية فينا . وقد يفاجأ رجل منغمس في أفكار بعيدة عن الجنس برعشة

داخلية حين يحتكّ بجسم ما، ذلك أن كهرباء جنسية سرت في جسمه حينذاك .
عند هذا الحد يمكن لنا أن نطلق تعميماً واحداً فقط حول الغريزة الجنسية،
وهو أنها تعمل على مستوى أعمق من أي دافع إنساني آخر ، بما في ذلك دافع
السلامة الشخصية .

وعلى العموم ، فإن بإمكان الرجل أن يفهم ميوله وأذواقه . فإذا كان الرجل
يسعى وراء المال أو الشهرة ، أو السلطة ، أو حتى إذا كانت به رغبة عارمة
لاقتناء لوحات الرسم أو الكتب القديمة ، فإن بإمكانه أن يستقصي منشأ هذه
الرغبة وأن يتفهم العوامل والظروف التي كونتها ونمتها فيه . إن استيعاب الدافع
الجنسي وإدراكه إدراكاً واعياً ، أكثر صعوبة من استيعاب وإدراك أية دوافع
أخرى . فقد يظن الإنسان أنه يدرك هذا الدافع تمام الإدراك ، فإذا به يباغت
بمعكس ذلك تماماً . ففي رواية برناردشو « الإنسان والسوبرمان » مثلاً ، نرى
أن رجلاً مثل « تانر » Tanner تستيره رغبة عارمة في أن يصلح العالم ، ينجرف
بالرغم من سداد رأيه الى مضاجعة امرأة لا يكنّ لها احتراماً كبيراً . بل نسمعه
يقول وهو يحتضن « آن » : « إن قوة الحياة تسحرني ، وحين أضمك إليّ فإنني
أضم الدنيا كلها بين يدي » ثم يقول : « قوة الحياة » انني في قبضة قوة الحياة » .
ويشير رومان رولان إلى هذه النقطة بالذات في روايته « جان كريستوف » .
حين يقول : « إنه ليس هناك أية رابطة مشتركة بين والدي كريستوف ؛ وإن
والده في الواقع ليست لديه أية فكرة عن السبب الذي حدا به إلى أن يضحي
بمهنة ذات مستقبل باهر ، لكي يتزوج من خادمة صغيرة » . ويردف رولان :
« لكن ذلك ما كان ليؤثر على القوة المجهولة التي ألقت به في أحضان الخادمة
الصغيرة الشقراء . لقد لعب دوره في (انجذاب رجل عبقرى) .

لكنني لا أملاً أية رغبة عند هذا الحد في أن أحاول تقديم أية تعميمات عن
« التطور » ، فكل ما أريد أن أشدد عليه هو القوة الفعلية للدافع وقدرته على
اكتساح كوابح الوعي .

بروي هيرشفلد « Hirschfeld » حكاية طريفة عن طبيب في الخامسة

والثلاثين من عمره يعاني نوبات من اليقظة النومية ، منذ طفولته ، ومن الصرع أيضاً . وقد وجهت إليه يوماً تهمة الاعتداء الجنسي على طالبة صغيرة في الثالثة عشرة من عمرها . كان الطبيب يعالج الفتاة التي كانت مصابة بمرض « الأكزيما الجلدي » المنتشر فوق جسدها .

يقول هيرشفلد : « جلس الطبيب على الأريكة وجذب رأس الصبية إليه بحيث أن جسدها قارب جسده ، فأثار غرائزه الجنسية وأحدث عنده حالة انتصاب . وعند ذلك شد الصبية إليه . أما ما حدث بعد ذلك فإن المتهم لا يذكر شيئاً بوضوح ، فعندما عاد إليه وعيه ألقى نفسه جالساً على الأريكة ، بينما وقفت الصبية تبكي بين فخذيه ... ولم يَصفُ ذهنه إلاّ حين عاد إلى شقته ... »

والذي حدث أن الطبيب استطاع أثناء « غيبوبته » أن يتوصل إلى النشوة الجنسية عن طريق الاحتكاك بجسد الصبية . ويذكر هيرشفلد أن الطبيب كان يعاني في ذلك الوقت من حالة انقباض ، وكذلك من حالة إرهاق بسبب كثرة العمل .

وقد يبدو من الوهلة الأولى أن قصة الغيبوبة ، وأن التركيز على حالة الإنقباض النفسي هما محاولة عرجاء لتبرير عمل واع تماماً . وقد يكون ذلك صحيحاً . لكن هناك عدة حقائق يجب التنبيه لها ، وأول هذه الحقائق هي أن وعي الإنسان محدود بشكل غريب جداً . فمع أن كل الكائنات البشرية تمتلك ذاكرة قوية ، فإن مقدار وعيها الفعلي للحياة اليومية ضئيل وباهت نسبياً . فالإنسان لا يستطيع الولوج إلى ما يخترنه وعيه الباطن من المعرفة والحوادث إلا في حالات نادرة ، وسبب ذلك لا تعلمه إلاّ « قوانين التطور . (لقد شبهت الوعي الإنساني في مكان آخر بحصان عصبت عناءه بفهامات في طريق مزدحم بحركة السير لأن كثيراً من « الإدراك الواعي » لما يجري حوله سوف يلجئه عن حرية الحركة) . والكائنات البشرية تحدّ من مقدار وعيها عن تعمد لأن انصراف الذهن إلى شغل واحد لا يتمشى مع إتساع الوعي . بل إن أغلب الناس في حاجة إلى أن

ينصرفوا بأذهانهم إلى شاغل واحد من أجل البقاء والاستمرار . ويبدو في الغالب أن « الطبيعة » لا تبدي أي اعتراض حين يستغني الإنسان عن احساس الدهشة والمجب . فهي لا تصر على أن تكون حواس الانسان متشعبة وحادة كحواس الطفل . فإذا حاول الإنسان في حالة ارهاق أو انقباض أن يستغني عن شهوته الجنسية ، فهي قد تتردد ضده بطريقة سوف تصدمه .

إن الدافع الجنسي هو ابن الطبيعة المفضل ، ومهما تكن طاقة الإنسان مثقلة بالمشاغل والمشاكل فإن الدافع الجنسي لا بدّ من أن ينال نصيبه^(١) . ومن الطريف أن نلاحظ أن كثيراً من الجرائم الجنسية التي رافقتها حالات من الغيوبة أو النزعات الجائعة العنيفة قد صدرت عن رجال كانوا يعانون من حالة اعياء أو انقباض^(٢) .

وينبغي علينا ألا نلتسرع فنفرض الإدعاء القائل بأن نزوة عنيفة مباغتة تنبعث من الوعي الباطن قادرة على أن تطوّع الإرادة الواعية وتسخرها ، أقول ينبغي علينا ألا نرفض هذا القول على اعتبار أنه محاولة للتخلص من عواقب الفعل . ولقد وصلنا هنا إلى الحد الذي يمكننا فيه أن نطلق التعميمات التالية حول الجنس عند الإنسان :

١ - هناك قصة تؤكد هذا سمعتها من جندي اشترك في « تحرير » معتقل الماني عام ١٩٤٥ . لقد روى الجندي أنه لدى « تحرير » المعتقل ، انطلق المعتقلون والمعتقلات وراحوا يرتقون في أحضان بعضهم البعض بشبق حيواني مهجي على الرغم من حالة شبه الجوع التي كانوا يعيشون فيها . ويبدو أن الجوع ألهم شهوتهم الجنسية بدلاً من أن يخمدها .

وللانصاف أقول إنني سمعت نفيًا قاطعاً لهذه القصة ، لكن النفي جاء من إنسان لم يشهد أو يشترك في أية عملية « تحرير » مماثلة . وهذه المناسبة فإن كرافت انج يقول : « إن الشهوة الجنسية عند المسؤولين تكون قوية بصورة غير عادية » .

٢ - راجع على سبيل المثال قضية روبرت إيرون الواردة في كتاب « قاعة المحكمة » Courtroom تأليف كوينتن رينولدز ، وكتاب « عرض العنف » Show of Violence تأليف فردريك وراثام ، وكذلك في كتابي « عصر التخاذل » . لقد حاول إيرون بالفعل أن يبتز عضوه التناسلي لكي يحتفظ بكامل قواه وطاقته لممارسة تمرين للمخيلة أسماه « التصور الذهني » وقد قام إيرون بعد ذلك بثلاث جرائم قتل بسبب الغيرة .

(١) إن الجنس عند الإنسان كما هو عند الحيوان له مظهر فزيولوجي واضح ،
الا وهو توك الأعضاء التناسلية إلى الوصول إلى النشوة الجنسية ، ومن ثم القذف ،
الذي يشبه « رعشة » ناتجة عن تيار « كهربائي » جنسي يريد أن ينقذف إلى
الخارج .

(٢) إن رائحة الأنثى ليست هي العامل الذي يوحد الحوافز الجنسية
عند الرجل ، مع أنها قادرة طبعاً على التأثير عليه . والعامل الذي يوحد ويوجه
الحوافز الجنسية الإنسانية هو عامل عقلي أو تصوّري محض مع أنه يرتبط
إرتباطاً قوياً ، عادة ، بانفعالات شهوانية جسدية .

٣ () إن الفريزة الجنسية من دون كل الفرائز والرغبات الإنسانية كلها ، هي
التي تتخطى أكثر من غيرها إدراك الإنسان الواعي لنفسه ولأهدافه ومطالبه .
وهي أشبه ما يكون بـ « كيان منفصل » يحمله الإنسان معه ولا يعيه أو يفهمه
في الغالب .

فرويد وكورديف :

لم يرق أي عالم نفسي أو فيلسوف حتى الآن بوضع نظرية جامعة حول
الدوافع الجنسية . وأما فرويد فقد اقتصر إسهامه في الغالب على التأكيد بأن
الطاقة الجنسية الفريزية (وهي ما يسميه بالليبدو) ، هي من أقوى وأعقق
النوازع الكامنة في وعي الإنسان الباطن . وقد أثار هذا الرأي ضجة عامة حينما
أعلنه فرويد في بداية القرن الحالي ، فقد كان القرن السابق هو عصر المثالية
الاجتماعية ، وكان رجُل القرن التاسع عشر يحب أن يعتقد أن أعقق نوازعه
ذات طبيعة أسمى مما يدعيه فرويد وانها تنتمي على سبيل المثال إلى أمور ،
كالثقافة والتقدم الاجتماعي . ومنذ ذلك الحين وإنسان القرن العشرين أكثر
إدراكاً للدافع الجنسي ، حتى أنه بات « اليوم » يلمسه في معظم النشاطات التي
تحفل بها حياته اليومية .

يدعي الفرويديون أن بعض الفضل في نمو الإدراك الجنسي يعود إلى التحليل

النفساني . لكن هذا الإدعاء قابل للأخذ والرد . الا أن الأمر المؤكد هو أنه لو لم يظهر فرويد ويؤكد غلبة الدافع الجنسي ، لكانت هذه النظرية قد ظهرت تدريجياً من تلقاء نفسها بفعل « الجو الفكري » الذي يسود القرن العشرين .

فيلسوف واحد فقط من بين الفلاسفة المعاصرين هو الذي حاول أن يأتي بنظرية جامعة عن الجنس . هذا الفيلسوف هو جورج جوردييف . ومع ذلك فإن كتابات أتباعه تحتوي على النثر اليسير حول هذا الموضوع . وقد أعلن جوردييف أنه توجد في الإنسان سبعة « مراكز » تتحكم بأعماله وتصرفاته . هناك مركز غريزي ومركز عقلي ، ومركز عاطفي ومركز حركي (وهو الذي يتعلق بمحركات الجسم) ومركز جنسي . وهناك كذلك « مركزان أعليان » . وكل مركز من هذه المراكز يعمل بطاقة مختلفة ، ومن سوء الحظ أن البشر يعملون إلى الخلط بين كافة هذه الطاقات . فهم يستعملون طاقة العاطفة لتسيير العقل ، وطاقة الغريزة لتسيير العواطف ، وطاقة العمل أو العاطفة لتسيير المركز الجنسي وهكذا .

والظاهر أن كل المراكز تعتمد إلى اختلاس الطاقة من المركز الجنسي ، وتستخدمها لأغراضها الخاصة . (إن جوردييف كان سيقول بأن روبرت إيروين استخدم طاقته الجنسية لتسيير عقله وعواطفه) . ثم هي تعطي المركز الجنسي مقابل ذلك طاقة عديمة النفع من عندها بحيث يضطر هذا في كثير من الأحيان إلى أن يعمل بطاقة العاطفة أو حتى بطاقة العقل . وقد قال جوردييف لأوسبنسكي يوماً : « إنه لشيء عظيم جداً أن يعمل المركز الجنسي بطاقة الخاصة » .

وقد تبدو هذه الملاحظات حول « المراكز » غير علمية على الإطلاق بالنسبة لبعض القراء ، والواقع أن جوردييف لم يحاول أن يضع نظاماً فلسفياً فحسب ، بل حاول كذلك أن يخلق ديانة جديدة ، لها شعائر ورقصات خاصة (وهي تكون جزءاً هاماً من « نظامه » هذا) ولها كذلك نصوص شبه ميتولوجية لا يقبلها معظم الناس بسهولة . وليس هناك أي « دليل علمي » فيما يتعلق بوجود

مثل هذه « المراكز » . ومع ذلك فسواء أصبح ما يقوله جورديف عنها عموماً أم لا ، فإن أحداً لا يستطيع أن ينفي أن هناك بعض الحقيقة في قوله « إنه لشيء عظيم جداً أن يعمل المركز الجنسي بطاقته الخاصة » وهذا القول على الأقل ، يتطلب تأملاً دقيقاً^(١)

وليس باستطاعة من قرأ رواية « عشيق الليدي شاتلي » أن يشك في أن أحد الدوافع التي حدث بلورنس أن يكتب روايته هذه ، هو إحساسه بالتقصير الاجتماعي ، وأنه كان يتمثل نفسه في مكان الحارس الذي يضاجع سيدة ارستقراطية تحمل لقب « ليدي » .

وهذه المشاعر الاجتماعية ليست عاطفية فحسب ولكنها فوق ذلك عاطفية بطريقة سلبية (يعلن جورديف أن العواطف السلبية مثل الخوف والكراهية والاشمئزاز عديمة النفع تماماً بالنسبة للجهاز الانساني ، وأنها مجرد نفايات) . وبالنتيجة فإن العاطفة الجنسية في رواية لورنس ليست خالصة وصرفة . وبالطريقة ذاتها فإن كل من يقرأ مذكرات كازانوف لا بد أن يحسّ كذلك بأن دوافعه ليست جنسية صرفة . فعلى الرغم من كونه كاتباً رائعاً فإن كازانوف يظهر بمظهر الرجل الضعيف المغرور الذي يُعنى في الغالب بما يخلفه من أثر في نفوس الآخرين . وبالتالي فإنه من الصعب أن نصدق أن طاقة المركز الجنسي هي وحدها التي دفعته إلى الفجوة . ويبدو أن ما دفعه إلى ذلك كان نوعاً من حب النفوذ والسيطرة لإقناع نفسه بأهميته الشخصية^(٢) .

هكسلي والجنس :

هل توجد هناك أمثلة في الأدب على المركز الجنسي الذي يعمل بطاقته الخاصة ؟ ليس هناك مثال واحد على ما أعرف . وقد يكون سبب ذلك أن

١ - يتضمن كتابي « اللامنتمي » موجزاً قصيراً عن آراء جورديف . أما كتاب «دراسة في تعاليم جورديف » فهو أفضل مرجع عن هذا الموضوع .
٢ - راجع الفصل الثاني من هذا الكتاب .

الذين كتبوا عن الجنس خلطوا بينه وبين طاقة العقل أو طاقة العاطفة .
والطاقات الجنسية الحقيقية تكون دائرية كهربائية مغلقة . والرجل الذي خبر
هذه « الدائرة » لا يحس بأي دافع للكتابة عنه ، مع أن هناك عدداً قليلاً من
الأمثلة التي يبدو وكأنها اقتربت من وصف المركز الجنسي حين يعمل بطاقة
الخاصة ، وبعض هذه الأمثلة موجودة في كتابات الدوس هكسلي . فروايتيه
« أنتيك هاي » ، « Antic Hay » ، مثلاً تدور في الغالب حول مواقف جنسية
غير صادقة وغير أصيلة ، ومواقف وضعية من اللاتميز ، ولا هي بمجدبة ولا
بمرضية .

ولكن هناك بالمقارنة موقفاً جنسياً واحداً كامل الارضاء :

كان جبريل على علاقة بريئة بفتاة يحبها اسمها إميلي . وذات ليلة وبعد حفل
موسيقي أحساً بعمده بنشوة عاطفية تطهرانها ، اقتاد جبريل حبيبته إلى
الفراش :

« وبرقة متناهية ، راح يضم إليه كتفها ثم ذراعها النحيلة الطويلة ، بينما
راحت أطراف أصابعه تمرّ برفق وببطء رائع على جلدها الناعم الأملس ،
وتنسل ببطء من جيدها إلى كتفها ثم تتلصق عند مرفقها وتعود تنسل إلى
يدها ... ومن خلال ملابسها الحريرية الداخلية تلمس تكويرة جانبها ، وظهرها
الأملس المستقيم وتتواءم عمودها الفقري .. ثم راحت أصابعه تتحسّس جسدها
الدافئ من تحت رداثها ، وتضمه برفق وببطء منتشّر . إنه يعرفها . وأحسن أن
أصابعه يمكنها أن تنحنتها تمثالاً دافئاً متموجاً في الظلام . ولم يشتهها ، لأن
الشهوة كانت ستبطل نشوة السحر . وراح يفوس أعرق فأعرق في غيبوبة السعادة
التي كان يحس بها في الظلمة . كانت ثامة بين ذراعيه ، وسرعان ما وجد نفسه
يغبط في نوم عميق » .

ومن الطريف أن هذا الوصف الغنائي شبه الغيبي للعاطفة الجنسية يخالف
المواقف الجنسية المعتادة في كتابات هكسلي . وهناك مثال على هذه المواقف
جاء في رواية هكسلي المسماة « Point Counter Point » ففي رسالة إلى والتر

تصف « لوسي نانتماونت » كيف انتقلت شاباً إيطالياً وأخذته بسيارتها إلى أحد الفنادق :

« ودنا مني وهو يصير على أسنانه كأنه بهم بأن يقتلني . أغضت عيني كشهيد مسيحي يواجه الأسود الجائعة . غريب أن يترك الإنسان نفسه عرضة للأم والاذلال ، لأن يصبح ممسحة للأرجل . لقد أعجبني ذلك ... كان منظره وحشياً جميلاً كهندي أحمر . وكان هو وحشياً رائعاً كمنظره . ما زالت آثار عضاضه بارزة على عنقي . ولا بد أن أسترها بوشاح لمدة أيام . ترى أين شاهدت تمثالاً لمارسياس وهم يسلخون جلده ؟ كان وجهه شبيهاً بذلك ، حتى أنني غرزت أظافري في ذراعه ، حتى نقر الدم منها ... »

وهناك في رواية العبقرى والآلهة (The Genius and The Goddess) منظر آخر أفترض فيه على ما يبدو أن يحسد موقفاً جنسياً كاملاً ، لكنه هذه المرة يعبر عن موقف كلامي لا حركي في غالبية :

« ليلة الثالث والعشرين من نيسان تلك ، كنا في العالم الآخر هي وأنا ، في سماء مظلمة خرساء من العربي والفس والإنصهار . أية رؤى تلك التي تجلت في سمائنا هذه ، أية أعياد !! كانت ضماتها كملائكة فجائية . »

وفي هذه الحالة ، فقد تم الجماع ، لكن الوصف هنا أقل اقناعاً من وصف المنظر السابق في روايته (Antic Hay) حين ينام الحبيبات . وفي الفهرس الملحق بكتاب « أدونيس والأيجدية »^(١) ، (Adonis and the Alphabet) يثير هكسلي سؤالاً طريفاً يلقي بعض الضوء على المشهد الوارد في (Antic Hay) يتحدث فيه عن « جون همفري نويس » مؤسس طائفة الأونيدا (Oneida) في الولايات المتحدة وعن نظريات نويس حول « العفة عند الذكور » .

كانت طائفة أونيدا هذه تجربة أسماها نويس « مشايعة التوراة » وهي تقوم على أساس « المشاركة للجميع » وأغرب خصائصها هي المشايعة في الجنس .

١ - يسمونها في أميركا « غداً وغداً وغداً » (Tomorrow and Tomorrow and Tomorrow) .

لأن نويس يعتقد أن امتلاك المرأة لرجل واحد هو إثم ، فالمرأة في المجتمع الأونيدي يجب أن تكون للجميع ، ولثلا يكون ذلك سبباً في حالات محرّجة مثل أن تصح النساء عرضة للعمل المستمر ، فقد قضى نويس باتّباع نظام « الكاريتزا » (Karezza) (وهو عبارة عن « الفكرة القائلة بأنه يمكن فصل الوظائف الغرامية للأعضاء التناسلية عن الوظائف التناسلية ») ، وذلك بأن يحجم الرجل عن الوصول إلى الذنوة الجنسية وبالتالي القذف .

ويدعي نويس أن هذه الطريقة أكثر إرضاء من الجماع العادي الذي يبلغ ذروته في القذف . والهدف من دعوة نويس هذه ، هو إقامة « المسيحية الكمالية » والترويج لفكرة الكاريتزا والزواج الجماعي .

وقد دافع مختلف معنقي فكرة الكاريتزا دفاعاً جاداً كبيراً عنها ، بل إن كتاباً معينين ذهبوا إلى أبعد مما ذهب إليه نويس واقترحوا على المتزوجين بأن يتركوا رغباتهم الجنسية أن تصل إلى نقطة التوتر الشديد على الأقل تبلغ مرحلة الجماع . وهم يؤكدون أنه حين يقوم الرجل بعد فترة طويلة من التحضير بإبلاج عضوه التناسلي في المرأة - شريطة ألا يقوم بأية حركة قد تدفعه إلى حالة القذف - فإن الرجل والمرأة معاً سيأرسان حالة من الإنفعال الجنسي العارم تفوق أي إحساس ينجم عن الجماع العادي . وهناك من يصف هذه الحالة بأنها تماثل أحياناً الشعور بالتحليق في الهواء .

ومن الواضح أن هكسلي في روايته (Antic Hay) كان يصف شيئاً شبيهاً بذلك ، ويؤكد بهذا تقبله لفكرة الكاريتزا في ملحق « أدونيس والأيجدية » .

قد يبدو ، من الممكن إذن ، أن نويس قد توصّل إلى طريقة تمكن المركز الجنسي من العمل بطاقته الخاصة . فالتشديد على الإرتقاء التام وعلى السيطرة سيطرة كاملة على الرغبة في الوصول إلى القذف من شأنه أن يضمن عدم تدخل المركز العاطفي أو العقلي في عمل المركز الجنسي . فمن المؤكد تقريباً ، أن العملية الجنسية لا بد وأن تتداخل فيها عواطف وأفكار خارجة على الجنس ، إلا في الحالات التي تتم فيها العملية بعد طول انتظار . وفي عملية الكاريتزا فإن المسد

الزمني الذي تنطوي عليه من شأنه أن يمكن الطاقة الجنسية من أن « تتصنى » وتعزل عنها كل أنواع الطاقة الأخرى .

إذن فإن جورديف يناقض جيد ويقترح بأنه يوجد هناك بالفعل شيء اسمه « الجنس الطبيعي » وذلك حين يعمل المركز الجنسي بطاقة الخاصة . وهو يلجأ إلى أنه حين يحدث ذلك فإن كل رغبة في اللاتميز سوف تختفي لأن الرجل والمرأة يصبحان بالنسبة لبعضهما البعض عندئذ تجسماً حياً لمبدأ التحام الذكر والأنثى ولا يمكن لأي شريك جنسي آخر أن يقدم أكثر من ذلك .

« الدأصالة » في الدافع الجنسي :

من الضروري ، حتى عند هذا الحد المبكر ، أن نحاول التوصل إلى تعميم أوسع حول علاقة الدافع الجنسي « بالطبيعة البشرية » لأن اصطلاحات البحث قد أثبتت محدودية كبيرة حتى الآن . وبوجه عام فإنه يمكن القول إن النشاط الأساسي لكل الكائنات الحية هو تصريف أشكال مختلفة من التوتر ، وأن عملية التصريف هذه تؤدي إلى « توسيع » الوعي مؤقتاً .

إن رجلاً جائعاً مثلاً يحس بتوتر جسدي يتولد عن عملية الأكل ، يصحبه إحساس يقيني « بالحياة » . لكنه لن يمارس هذا الإحساس اليقيني بنفس الدرجة إذا أكل على دفعات كل ساعتين لأنه بذلك لا بدع للتوتر أية فرصة للتفاعل .

وقد يتم اعتناق التوترات بطرق متنوعة وعلى مستويات مختلفة : جسدياً عن طريق الأكل أو الشرب أو تدخين سيجارة ، عاطفياً عن طريق الاستماع إلى الموسيقى أو مشاهدة فيلم أو قراءة رواية غرامية ، فكرياً عن طريق حل مسألة رياضية أو لعبة الكلمات المتقاطعة . وكل الألعاب تهدف إلى اعتناق التوتر عن طريق شحنه وتنميته ثم السماح له بالإستكانة والإرتخاء (ولكنه يجب الإنتباه إلى أن اللعبة التي لا تؤدي إلا إلى اعتناق التوتر الذي ولدته ونمته ، هي لعبة سيئة ، لأن وظيفة اللعبة هي أن تمتق كذلك العواطف التي كانت حبيسة قبل أن تبدأ اللعبة .) وبعض هذه التصريفات تؤدي فقط إلى تهدئة

الأعصاب في حين يؤدي بعضها الآخر بصورة أكيدة إلى تعميق حالة الوعي .
ولقد أشرت في مكان آخر إلى أنه من السهل نسبياً الوصول إلى حالة تعميق
الوعي « من خلال الجسد ... عن طريق الجنس أو أشكال أخرى من الانفراج
الجسدي . كما أنه ليس من الصعب الوصول إليها عن طريق المواقف . لكن
الأكثر صعوبة هو الوصول إلى حالة تعميق الوعي فكرياً .

إن النشوة الجنسية تجرف معظم الرجال « بعيداً عن أنفسهم ، وإن
نسبة كبيرة منهم قد خبروا الإنعتاق عن طريق المواقف العنيفة . وقليلون جداً
هم الذين خبروا زخاً وعمقاً كالذين تميز بها أيلشتاين أو نيوتن .

ومع ذلك فإن هذه الحاجة إلى الإنعتاق ، إلى تعميق الوعي ، هي من أولى
الفعاليات البشرية الأساسية . يستدل من هذا أنه مهما تكن الغايات النهائية
لقوة التطور التي تسيطر الإنسان ، فإن الوعي المعمق يلعب بلا شك دوراً هاماً
في هذه الغايات . وقد يكتب إليوت بكآبة أن الحياة الإنسانية كما تبدو ليس
لها معنى آخر غير « الولادة والإنصال والموت » لكنه يغفل عاملاً أساسياً لا
يقل منزلة عنها ، وهو الحاجة إلى وعي أكثر شدة يتحكم في كل النشاط
الإنساني ، والغريب أننا لا ندخل هذه الحاجة التي نحس بها في حسابنا أبداً .
بل نعتبرها نزوة غير هامة في حقل النشاط الإنساني ، إن الإنسان لا يتساءل
عندما يستيقظ صباحاً :

« هل سأحصل على لحظة من تعمق الوعي اليوم ؟ » إنه يفكر فقط فيما يجب
عمله وليس في حالة الوعي التي سترافق هذا العمل . فإذا كان هذا الشخص رجلاً
عاملاً مقبداً بوظيفة روتينية تمنحه قدراً ضئيلاً من الرضى ، فإنه يشعر أحياناً
بأن الحياة عقيمة ومجربة تماماً .

« إنني أعمل لا كل ، وآكل لكي أقدر على العمل . » إنه لا يحلم بأن يضع في
حسابه تلك اللحظات العرضية من « الإنسراح » التي قد يولدها فيه قسح من
الجنة أو يوم من أيام الربيع أو التي قد يحس بها بدون أي سبب بالذات . إن
الناس يسلمون جداً بوعيمهم وحالاته المختلفة .

وأنا أحاول أن أبين أن الأشياء التي يعتبرها الناس عادة « غاياتهم » هي في الواقع « سطحية » ولا يحتاج الأمر لفيلسوف ما لكي يكتشف أن معظم هذه الغايات بلا جدوى. لكن كل الألعاب، وبالطريقة نفسها، هي كذلك بلا جدوى لأنها تتطلب جهداً عظيماً في حين أن نتائجها لا تؤدي إلى أي تغيير جذري. وما يعطي هذه الألعاب غاية ومعنى هي حالات الوعي التي تتواجد أثناءها. وعلى هذا فإن الدافع الجنسي يملك عاملاً هاماً كما هو الحال بالنسبة لكل الدوافع الإنسانية الأخرى. إنه ليس شيئاً فريداً تقريباً ينتمي إلى نظام آخر للأشياء، نفع أن تفهم الإنسان لدوافعه الجنسية وسيطرته عليها هما أقل مثلاً من رغبته في جمع المال لتأمين حياته ونفسه، فهذا لا يعني أنه دمية أو عبد في يد قوة غامضة خفية. إن الرغبة الجنسية تختلف عن باقي الرغبات الإنسانية في ناحية هامة واحدة فقط، إنها أقصر وأسهل السبل إلى « تصريف التوتر » وتعميق الوعي. فهي ترضي وتلائم غاية الإنسان وطبيعته.

وقبل أن ننتقل من هذه النقطة إلى غيرها فإنه من المفيد أن نعقد مقارنة بين الفقرات المكتسبة التالية :

« واجتاحت حواسي لذة رائعة لكنها منفردة، منعزلة، بدون أي إحياء عن مصدرها. وفي الحال بدأت أشعر باللاإكثراث نحو صروف الحياة وتقلباتها، وراحت مآسيها تبدو لي مسالمة غير مؤذية وقصرها ضرباً من الوم. هذه اللذة الجديدة، إنها تؤثر فيّ كالحب، تملأني بجوهر نفيس. لا بل إن هذا الجوهر ليس فيّ، إنه أنا. ولم أعد منذ تلك اللحظة أحسّ بالعادية، بأنني مجرد إنسان ثانٍ، شيء عارض. »

.....

« ... وانطلقت في داخلي ضحكة منعشة، وفجأة عادت إلى ذاكرتي نوات البيانو المنسية وراحت تملو في داخلي كفقاعة من الصابون تمكس على صفحتها القزحية صورة مصغرة للعالم بأسرها ثم تنفجر بركة ... كانت الدرب الذهبي

متوهجاً . انه يذكرني باللانهاية ، بتوسارت ، بالنجوم . وصرت لساعة قادراً
على أن أتنفس مرة أخرى ، أن أحيأ وأواجه الوجود . ولم تعد هناك حاجة
لأن أتعذب وأحسّ بالخوف والعار .

.....

« ... فجأة طرأ على حواسي تغيير غامض . ورحت أعبّر حالة من الوجود
حيث لا شيء يهمّ سوى انتشار الفرح المحترم في جسدي . ما كان قد بدأ
كامتداد حلو لأعق أعماق جذوري قد تحول الى رعشة مضطربة راحت
تتنامي حتى وصلت الآن الى حالة من الشعور بالأمان المطلق والثقة والاعتماد على
النفس ليست موجودة في الوجود الواعي . وإذا تملكنتني هذه العذوبة الدافئة
العميقة وبدأت تنسلّ نحو انتفاضتها الأخيرة ، أحسست بأنني أستطيع أن
أبتاطاً لكي أطيل الوهج الذي في » .

الفقرة الأولى من الفقرات الثلاث السابقة مقتبسة من بروس . إن مارسيل
يتحدث فيها عن اللحظة الغريبة ، لحظة « استذكار الأشياء الماضية ، التي أثارها
في نفسه مذاق كعكة مغموسة بالشاي .

أما الفقرة الثانية فهي من أحد مؤلفات « هيس » (Hesse) المسماة « شتيبينولف
(Stsppenwolf) وهي تصف لحظة من الإنعقاد ولدها قدح من النبيذ .

والفقرة الثالثة مأخوذة من رواية « لوليتا » لنابوكوف وهي وصف للحظة
يمارس فيها « هوبرت » الاستمناء بحذر شديد وذلك عن طريق حك قضيبه
المنتصب يجسد لوليتا « الغافلة عما يجري » .

إن أوجه الشبه في اللغة تلفت النظر ، ولتأكيد هذا التشابه نسوق هذه
الفقرة من « شتيبينولف » وهي تصف امتداداً للوعي الناجم عن نشوة
شوانية :

« .. وبلمسة سحرية من إيروس^(١) انفتح معين الذاكرة وراح يتدفق

١ - إله الحب في الأساطير الإغريقية .

بغزارة ، ولبعض لحظات رقف قلبي ساكناً بين الفرح والأسى ليكتشف كم هو غني روائى حياتي ، وكم تزخر روح شتيدنولف البائس بالنجوم والكواكب الأبدية السامقة .

من الصحيح أن تأكيد الدافع الجنسي لا يؤدي بالضرورة إلى مخاطبة العقل ، أو حتى العواطف بهذا الشكل ، وأنه قد لا يكون أكثر من مجرد شعور بالدفء الجسدي الداخلي وبالارتياح . لكنه ينبغي أن نأخذ بالإعتبار أن هذه التجارب كالتي وصفت أعلاه يمكن أن تمتد من بين أسمى أنواع التجارب الجنسية .

د . هـ . لورنس واللواط

تشير الفقرة المقتبسة من لوليتا ، بل وتشير لوليتا « بأكملها » السؤال الرئيسي مرة أخرى عن « الشذوذ » . فلماذا أمكن الوصول إلى أرفع أنواع الخبرة الجنسية بمثل هذه الأساليب ، ألا يصبح من الممكن أن نصف هذه الأساليب « بالأصالة » ؟ وهذا السؤال يفتح مشكلة « الإنحراف الجنسي » على مصراعيها . وهذا نجد أيضاً أنه من المفيد لنا أن ندرس بعض الحالات .

يعتبر د . هـ . لورنس عادة الكاهن الأعظم لنسوع من الجنس « الطبيعي » . ومع ذلك فقد أشار البروفسور « ولسون فايت » في مقال يمتاز أن لورنس قد شدد كثيراً في كتاباته على عملية اللواط . ونجد أن معظم الأحداث الجنسية في بداية رواية « عشيق الليدي شاترلي » هي أحداث « طبيعية » . إلا أنه عند نهاية الفصل السادس عشر نرى مليونرز يضاجع كونيستانس شاترلي « على الطريقة الإيطالية » . ولورنس يعتمد بحذر ألا يكون صريحاً جداً ، ولكن ، هناك عدة اشارات أولية في الكتاب تؤدي في النهاية الى هذه العملية الأخيرة . فكونيستانس شاترلي « خائفة قليلاً ، لكن لتدعه يتصرف على هواه ، والشهوة تضطرم في « العورات » ، في أعرق وأقدم العورات ، في أكثر الأماكن الخصوصية المستورة » ، وشعلة الرغبة « تنقض على أحشائها ونهديها » ، وبهذا لا يترك فلورنس مجالاً للشك في أنه يعتبر هذه العملية نوعاً ما أعرق كلاً وبلوغاً من الجنس

« الطبيعي » (مع أنه لا يوجد هناك طبعاً أي دليل على أنه يعتبرها بديلاً للجنس الطبيعي) .

وبالطريقة ذاتها ، فإن رواية « نساء في الحب » (Women in Love) تحتوي على مشهد غريب يحري بين أرسولا و بيركين في الفصل المسمى (Excuse) ، وفيه تبقى التفاصيل المحددة غامضة ؛ وكل الذي نعرفه هو أن أرسولا تركع أمام بيركين وتجمله يبلغ ذروة النشوة الجنسية ، وذلك بأن تتحسس بأصابعها الطويلة الرائعة « ما خلف أسفل الخاصرة » ، إلى « قرار سلطان الظلمة » . ولورنس يوضح أنه لا يتحدث بذلك عن العضو التناسلي ، إذ أنه يكرر كلمة « خلف » عدة مرات . ويعلق قائلاً إن أرسولا كانت تظن أنه « ليس هناك مصدر للذة أعمق من ذلك المرتبط بذكر الرجل » ، إلى أن مرت بهذه التجربة ، التي يكشف فيها لورنس النقاب عن أن بيركين كان قد ضاجع أرسولا بالفعل « على الطريقة الإيطالية » ، إلا أن أرسولا قد اكتشفت الآن كيف تمنح بيركين أبلغ رَأْمَقِ متعة . وهو يقول في مكان لاحق أن أرسولا « كانت بواقعية أطراف أصابعها الرائعة تلمس مكن الواقعية فيه » . ويبرز هذا المعنى في قصيدة للورنس بعنوان « البيان » (Manifesto) حيث يقول :

« أريدها أن تلمسني في الأخير ، آه ، في جذر وقعر ظمقي ، وفي عملية اللواط التي تم بين بيركين وأرسولا يشير لورنس كذلك إلى « جذر ظمقتها » .

ويؤكد البروفسور ولسون نايت بكثير من الوضوح أن لورنس كان يعلق أهمية عظيمة على هذه العملية الأخيرة ، وهو يقدم في مقالته المعنية عدداً ضخماً من الأدلة الكتابية على ذلك^(١) .

ومن الصحيح القول إنه لا حاجة هناك لأن نجد تفسيرات سيكولوجية معقدة لظاهرة قد تكون ذات أساس جسدي محض . فالمناطق الأستية

١ — « لورنس ، جويس وبويس » دراسات نقدية . أكتوبر ١٩٦١ . « Lawrence , Joyce and Powys » .

« الشرجية » على كل حال تشارك الأعضاء التناسلية بعض الحساسية الجنسية . وقد فات البروفسور نايت أن يشير إلى تلك الفقرة في مونولوج مسز بلوم التي تذكر فيها أن عشيقها « جعلني أقضي اللقاء الثاني وهو يدغدغي بإصبعه من الخلف » والتي تصف فيها بعد ذلك فرط استمتاعها الجنسي .

ويروي هيرشفيلد قصة مومستين شقيقتين تخصصتا في عملية إثارة زبائنهما عن طريق القضيب والشرج في الوقت نفسه . ويضيف هيرشفيلد : « يقول فرويد إن إخلاء الأمعاء والبول تصاحبه أحاسيس مماثلة من اللذة . » لكنه يشير إلى أن بعض الناس لا يمارسون التقبيل وأنهم لذلك لا يعتبرون الشفاه من بين « المناطق الحسية الشهوانية » .

كما يروي هيرشفيلد قصة مومس كانت تقوم أحياناً بلعق العضو التناسلي بينما كانت في الوقت ذاته تولج منديلاً حريرياً في شرج الزبون ثم تسحب المنديل عند بلوغ ذروة النشوة .

وكانت هذه المومس تدّعي أن هذه العملية تؤدي إلى تجربة جنسية عميقة وأروع من « الجماع الطبيعي » .

وعلى هذا فإنه من غير الضروري تقريباً أن نتكهن كيف انجرفت عملية الجنس الطبيعي عند لورنس إلى مبدأ التهيّج الأسّي . إن البروفسور نايت يقتبس فوق ذلك فقرات من رواية بويس « غرام في جلاستونبيرى » (*Glastonbury Romance*) ليسند حجته بوجود علاقة بين المناطق الأسّية والنشوة الغامضة . وكل من قرأ « نساء في الحب » و « عشيق الليدي شاترلي » بعطف وبعثى قلن يفوته أن يلاحظ « أن المشاهد المرتبطة بالعلاقات الأسّية » ليست في الواقع إلا تطوراً طبيعياً لما سبقها . ولا شك أن الأمر كان سيكون منطقياً كذلك لو أن العملية كانت عملية إثارة متبادلة عن طريق الفم . وعلى هذا ينبغي القول إنه إما أن تكون الممارسات الجنسية « طبيعية » أو أن غيبية لورنس الجنسية خاطئة في الأساس بطريقة ما . ولا يعني الآن أن أناقش أياً من الرأيين ، بل إن ما أريد أن أشير إليه هو أن الحد الفاصل بين ما يبدو طبيعياً

« ما يبدو « غير طبيعي » وإن جداً .

ومن ناحية أخرى فإن بول دي ريفر يسوق في الفصل السادس من مؤلفه « المجرم الجنسي » (The Sexual Criminal) حالة مفيدة . فهو يروي قصة حارس مدرسة أبله قتل ثلاث بنات (ما بين سن السابعة والتاسعة) وارتكب مع ثلاثتهن اللواط والجماع « الطبيعي » . وكان هذا الحارس متزوجاً إلا أنه تملكه الشعور بأن مهبل طفلة ضيقاً هو الوحيد الذي يستطيع أن يوصله إلى أعماق حالات الاستمتاع الجنسي . فبعد أن أغرى الطفلات بالذهاب معه إلى مكان منزول بحجة أنه سيرهن بعض الأرناب ، اعتدى عليهن واحدة واحدة ثم خنقهن . وقد اعتدى على اثنتين منهن اعتداءً مزدوجاً . وحين تم استجوابه فيما بعد اعترف بأنه خبر أكبر قدر من اللذة مع أكبرهن سنّاً . وهنا يتضح مدى اضطراب وتشوش رغباته : فقد كان يتصور بأنه لا يستطيع أن يبلغ أكبر قدر من المتعة إلا مع بنت صغيرة ، لكنه في الواقع فضل البنت الكبرى الأقرب إلى الأنوثة .

واللوهلة الأولى فقد تستخدم هذه الحادثة كحجة لنقض الفكرة القائلة : « إن بلوغ أقصى مدى من الالتقاء الجنسي يجب أن يكون هدفاً في حد ذاته » لكن تشوش الرجل الحارس ينسف هذه الحجة ويبرهن على أنه لم يكن يدرك ما يريد تماماً . والواقع أن هذه الحادثة تؤيد موقف لورنس من أن بعض التطورات التي تتفرع من عملية الجماع العادي ليست « غير طبيعية » . إن « لا طبيعية » الحارس ناشئة عن إرتباكها وتشوشه وعن سوء إدراكه لرغباته ، ومثل هذا التشوش غير موجود عند لورنس ، بل إن مناوئته يقرّون أن هناك منطقاً داخلياً قوياً في سياق تطور غيبوبته الجنسية .

وهذه المشابهة بين لورنس وحادثة الحارس التي سردها بول دي ريفر ، توضح لنا أن نظرية تولستوي في الجنس هي الوحيدة التي تطرح رؤياً متسككة ثابتة عن الشذوذ . وقد يكون لورنس وحارس المدرسة على طرفي نقيض ، لكن الفارق بينهما هو فارق « كمي » ، ذلك أن كليهما كان يؤمن بأن الجنس « يجب » أن

يؤدي في النهاية الى التقاء جنسي عميق ومرض يتجاوز العملية العادية « للجماع الجنسي » .

وينبغي أن نلاحظ أن هذه النظرة موجودة ضمناً في تسامحنا المتزايد نحو الكتب التي تدور حول الجنس . فحين تم نشر كتب مثل « يوليس » (Ulysses) و « بشر الوحدة » (The Well of Loneliness) « ولوليتا » و « عشيق الليدي شاترلي » بحرية ، فمعنى ذلك أننا على استعداد لأن نتقبل النظرة القائلة ان العمليات الجنسية الواردة في هذه الكتب ليست « غير طبيعية » كلية .

إن تولستوي كان سيحجبها كلها كما شجب رواية « الصديق الجميل » (Bel Ami) لموباسان على اعتبار أنها كتب داعرة ، لأنه يؤمن بأن أي نوع من التشديد على المتعة في الجنس هو عمل « شاذ » . وبهذا المقياس فإن « عشيق الليدي شاترلي » شاذ تماماً ، كـ « بشر الوحدة » أو رواية انجوس ولسون « العلقم وما بعده » (Hemlock and After) ومع ذلك فإن هناك القليل منا ممن هم على استعداد لأن يتقبلوا نظرية تولستوي كحل . فتولستوي يعتقد أنه إذا بلغ النوع البشري يوماً مرحلة الكمال شبه الالهي ، فإن الجنس سيختفي الا « كواجب » (لإستمرار النسل) يُقضى بين الحين والحين . ومن الصعب الاعتقاد ان تولستوي قد توصل الى رؤيا متزنة للدور الذي يلعبه الجنس في تكوين الانسان الشامل .

هذا وأود في الفصول اللاحقة أن أحقق في مسألة الدور الذي يلعبه الجنس ، وذلك من خلال دراسة دور الجنس في حياة عدد من الرجال والنساء والنظريات الجنسية التي تستبطنها مواقفهم واتجاهاتهم .

الفصل الثاني

اللامتيز والدافع الكازانوفي

- سيكولوجية الجنس عند جورديف . مان وفاوست .
- كازانوفا ، فوانك هاريس ، و «حياتي وغرامياتي» .
- هنري ميلر . قضية . «م» . قضية أرتسيباشيف الغريبة.
- الجنس والوراثة .

الرغبة العنيفة في الجنس الطبيعية

وحدودها القصوى



أصله

يأتي الشذوذ
في نهاية المطاف
لهذه المرحلة (الارتفاع)

الى أي حد يعتبر اللاميز أمرًا غير طبيعي؟ هذا السؤال يصح أن يكون نقطة انطلاق مواتية لبحث قضية الشذوذ. ولقد اعتبره تولستوي على وجه التأكيد اختلالاً جنسياً يستحق الردع كالوحشية والسادية وإن يكن أكثر منها شيوعاً. وقد قلت في مكان سابق إن نظرة «جورديف» إلى «المركز الجنسي» تقوم ضمناً فيما يبدو على نظرية «الجنس الطبيعي» الذي يُمارَس بين رجل واحد وامرأة واحدة، وهي نظرية مماثلة لنظرية لورنس، إلا أنه من الطريف أن نعلم أن «جورديف» كان يُعتبر «دون جواناً» إلى حد ما.

يروي «روم لاندو» في كتابه «الله هو مغامرتي» حكايات عن «خلود» جورديف بالنسبة لتلميذاته، ومن ضمنها حكاية امرأة كانت تجلس في مطعم عام حينما أحست فجأة بتهيج جنسي مرتفع، كأن أحداً «اخترق مركزها الجنسي». ولما تلفت وجدت جورديف يجلس قريباً منها، وقد كانت عيناه مسطرتين عليها^(١).

وسواء أصبح أم لم يصبح أن جورديف كان يمتلك مثل هذه القدرة العجيبة على التأثير على امرأة عن بعد، فإن للحكايات التي تشبه الأساطير عن دون جوانيته أساساً من الصحة بلا شك، كما وأن عدداً من أبنائه غير الشرعيين يعيشون الآن في أميركا^(٢).

١ - مثل هذه الحكايات، تُنسب إلى جورديف طاقات وقدرات روحية غريبة، كما أن وسبنسكي يعلن أنه قد اختبر شخصياً مقدرة جورديف «التلبائية» «In Search of the Miraculous».

٢ - ربما كان هذا هو السبب الذي من أجله عدل لورنس في «فوتيتيلو» عن أن يصبح تلميذاً لجورديف.

إن التناقض الملاحظ هنا على قدر كبير من الأهمية ؛ ولقد أدلى جورديف ببيانات متعددة عن المركز الجنسي ، وقال إنه أعلى المراكز الخمسة وهو يعمل بطاقة صافية ، وهناك مركزان فقط يعلوان عليه : المركز « العاطفي الأعلى » والمركز « الفكري الأعلى » ، ويعمل المركز العاطفي الأعلى بنفس الطاقة التي تسيطر المركز الجنسي ، وهذا يعني ضمناً أنه في نفس مستوى المركز الجنسي . وقد عبّ جورديف اهتمامه الأكبر على دراسة « الجهاز الإنساني » وعمله ، واستنتج أن « المعمل الإنساني » قد صمم للإنتاج الضخم لكنه لا يصل الى أكثر من جزء بسيط من « قدرته الإنتاجية الكاملة » لأن الناس ، بسبب قصر نظرهم ، لا يهتمون إلا بحاجاتهم ورغباتهم الخاصة ، ولا يقومون أبداً باستكشاف كامل امكانياتهم . ولكي نوضح ذلك بتشبيه أبسط نقول : إن الجهاز الإنساني يشبه طائرة بأربعة محركات ، لكنها لا تستعمل إلا محركاً واحداً . وفي الواقع فإن النشوة الجنسية غالباً ما تخلق في الإنسان شعوراً بقوة عظيمة ، كأنما راحت كل المحركات الأربعة تعمل معاً لفترة مؤقتة ، ولكن هذه القوة تختفي بعد لحظات قليلة . ويقول جورديف كذلك إن حالات « الوعي الأعظم » التي يحس بها الغيبويون والصوفيون هي نتيجة لعمل « المركزين الأعلىين » ، إلا أن معظم الناس يقضون حياتهم وهم مجهلون تماماً أنهم يملكون مراكز عليا .

وسواءً أكنّا مبالين الى قبول سيكولوجية جورديف أم لا ، فإنه لا يمكن انكار أن الناس يحسّون أحياناً بلحظات من « الرؤيا الداخلية » ومن اليقين والوثوق « بالحياة » عامة ، وهو أمر يدل ضمناً على أن حالة الوعي العادية التي نعيشها كل يوم ، هي حالة فقيرة وساحلة وناقصة . وهذا المؤذرع يصلح لأن يكون مدخلاً الى دراسة الجنس .

والتناقض في آراء جورديف بدأ يبرز لنا الآن : « فالعادية » تعني أن يعمل المركز الجنسي « بصدق » مستعملاً طاقته الخاصة . وهذا يذكرنا بحالة مثالية لورنسية يرضي فيها الرجل والمرأة بعضهما البعض بطريقة ما إرضاء تاماً ،

ومن الناحية الأخرى فإن « اللاطبيعية » تبدأ حين يعتبر أحد الشريكين شريكه الآخر مجرد أداة سلبية للمتعة ، وهي حالة يمكن أن تؤدي الى ذلك النوع من جرائم القتل الجنسية التي وصفها بول دي ريفر . لكن هذه « الغرابة » أو « الاحساس اللاشخصي » هي أصل الدون جوانية . ومن الصعب أن نتخيل رجلاً متزنًا تمام الاتزان ، رجلاً قوياً غير عصبي يمتلك مركز ثقل فعلياً ومعرفة عميقة بواقعه الخاص ، وشخصية « جوهريّة » ، يقضي حياته في ممارسة الإغراء بتحمس . فإما ان تكون نظرية جورديف حول المركز الجنسي هي أكثر تناقضاً مما يبدو ، أو أن جورديف نفسه كان شخصية أقل تكاملاً مما كان يتظاهر به .

المسألة الأخيرة على كل حال تكاد تكون غير ذات علاقة في هذا السياق ، أما المسألة التي سبقتها فتستحق أن نبقىها في اعتبارنا .
إن الحافز إلى اللاتمميز الجنسي يعتبر عموماً مرضاً حين يصل الى نقطة « فقدان السيطرة عليه » .

يطلق على هذه الحالة ، بالنسبة للنساء ، اسم « الشبق النسائي » أو « النيفومانية » . أما اسمها بالنسبة للرجل فهو « Satyriasis » « شراهة الجماع » . ولقد أشار علماء الجنس الى أن النيفومانية ، هي في الغالب نتيجة للبرود الجنسي عند النساء ، لأن المرأة المعنية لا تستطيع أن تكتسب رضى عميقاً من العملية الجنسية فهي تندفع إلى إعادة هذه العملية بغية الوصول إلى المتعة . وقد تضمنت السجلات والوقائع التي أمكنني الاطلاع عليها عند تحضير هذا الكتاب الحالة الطريفة التالية :

« أصيب (...) وهو شاب في أوائل العشرينات بإنهيار عصبي بعد أن عاش مدة ستة أشهر مع امرأة ، وصفها على حد قوله ، بأنها مصابة بالشبق ، وقد كانت يهودية تكبره بعدة سنوات وتعمل بالصحافة . ولم تكن قادرة على الاخلاص له ، لأنها كانت تجد متعة كبيرة في وصف خياناتها له ، وقد كانت تشعر بأن المتعة التي كانت تستنبطها من وصف هذه الحيات ستنتقل بالتبعية له

كما وأنها كانت كثيراً ما تنهيج جنسياً وهي تنساق في سرد حكاياتها . ويذكر (...) حادثة معينة ادعت المرأة بأنها حدثت لها في إحدى الحفلات ، فقد دخلت إلى غرفة المعاطف لتأخذ معطفها ، وهناك انحنت إلى الأسفل لتمسك رباط جوربها ، وبينما كانت في وضع الانحناء هذا ، دخل رجل الغرفة ووقف خلفها يراقبها ، ولم تستطع إلا أن ترى بنطلونه وحذاءه ، وبعد لحظات قليلة تقدم الرجل ورفع ثوبها من الخلف ، وأولج قضيبه فيها ، وبعد أن تمت عملية القذف ، غادر الغرفة دون أن يقول كلمة لها ، أما هي فقد ظنت بأنه مثل . طوال « التجربة » هذه لم تنظر إلى وجهه ، ولذلك فإنها كانت واثقة من أنه لن يمكنها التعرف عليه إذا قابلته مرة أخرى .

وهنا يظهر لنا بوضوح أن بعض المتعة التي تحققت لدى المرأة كانت ناتجة عن مجهولية الشخص الآخر . ولقد أبرز وضع الإنحناء ، الحيوانية الجائمة فيها بينما كان الرجل مجهولاً بلا هوية وبلا وجه مثل كلب شريد . ومن الملاحظ هنا ، أن هذه المرأة لم تذكر إن كانت قد أدركت ذروة النشوة الجنسية أم لا ، وأغلب الظن أنها لم تدركها وأنها من نوع « الشبقات الباردات » . ومن الخطأ أن نعتبر أن كل النساء الشبقات بطيئات في بلوغ ذروة النشوة الجنسية .

يروى الشاعر الأميركي « ركسروث » حالة قدحض هذه الفكرة :

فقد ألقى القبض على فتاة ووجهت إليها تهمة البغاء ، إلا أن الشرطة لم تستطع أن تثبت التهمة لأن الفتاة لم تأخذ ثمناً لقاء خدماتها مع الرجال . ولذلك أحيلت إلى لجنة نفسانية كان المستر « ركسروث » عضواً فيها . وروت الفتاة للجنة أنها ، في يوم زواجها ، قضت هي وزوجها عدة ساعات في الفراش في غرفة بأحد الفنادق ، وعلى أثر ذلك مباشرة نزلت إلى الشارع وسارت إلى حديقة « سنترال بارك العامة » وأغوت رجلاً بان يصطحبها معه إلى غرفة بأحد الفنادق وأن يضاجعها . واستطاعت في ذلك اليوم أن تمارس العملية الجنسية مع رجال آخرين قبل أن تعود إلى زوجها . وفي الأيام اللاحقة حين كان زوجها

غالباً في سلة ، اتخذت من مضاجعة رجال غرباء تلتقطهم في الشوارع ، عادة يومية .

وقد سألتها اللجنة إن كانت عملية الجماع الأصلية بينها وبين زوجها قد فشلت في ارضائها جنسياً إلى حد دفعها للبحث عن المتعة في مكان آخر ومع رجال آخرين ، فأجابت قائلة :

— « لا أبداً . فقد استمتعت بها إلى درجة دفعتني لأن أعيد ممارستها مباشرة » .

وقد أكدت الفتاة أنها كانت تبلغ النشوة الجنسية مع كل رجل ضاجعها ، وأنها كانت تشعر بالإكتفاء أيضاً ، إلا أن الرغبة كانت تجتاحها مرة أخرى بعد ساعة واحدة . وقد اعتبرتها اللجنة حالة غير عادية من الشهوة الجسدية المتعاطشة أبداً . وكلا هاتين الحالتين تؤكدان عنصر « الإحساس اللاشعبي » أو (الغرابة) الذي هو فيما يبدو على قدر كبير من الأهمية في الجنس .

ويبحث توماس مان هذا الموضوع في روايته « دكتور فاوست » :

يتحدث « أدريان ليفركون » ، بعد زواج أخته ، عن قيام الكنيسة

بـ « توليف الجنس » فيقول بأن العلاقة بين المحبين تقوم على الغرابة ، ولذلك فإن

القول : إن هذين الاثنين (أي الزوج والزوجة) سيكونان جسداً واحداً ، هو

قول غير دقيق ، لأن ذلك سيعني انتهاء هذه الغرابة . ويقول ليفركون إن

شهوة جسد لجسد آخر ليست مجرد رغبة شهوانية ، بل هي كذلك حب ، لأن

« الجسد ، عادة » ، غير مؤثر مع نفسه فقط ، فإذا كان هناك جسد آخر على

شاكلته فإنه لن يجد شيئاً نفعله . وإن إنهار هذه المقاومة في الاتحاد الجنسي هي

ظاهرة » تسميتها بالشهوانية مجرد كلمة فارغة » .

ولقد وضع « مان » يده هنا على نقطة هامة وعميقة . إلا أنه ينبغي لنا أن

نلاحظ أن مقاومة أي جسد غريب هي جزء من تربية المجتمع المتمدن . فإن

الرجل المتمدن لا يمكنه أن يأكل صحن طعام رجل آخر ، أو يلبس سترته ،

لكن الأطفال والحيوانات لا يباليون عادة بمثل هذه الأشياء ، وكلما ازداد الإنسان

تمدناً ، إزداد تمسكه في علاقاته مع غيره من الناس بمبدأ « لا تفسني » ، وهي الجملة التي كان لورنس مغرمًا بترديدها . ولقد قال برنارد شو على لسان ثانر ، أحد أبطاله : « كلما ازدادت الأشياء التي ينجعل منها الإنسان ، كلما إزداد اعتباره » . وفي رواية جورج أورويل « ١٩٨٤ » نجد أن إحدى « الفظاعات النفسانية » الأساسية التي تشتمل عليها الرواية هي فكرة فرض رقابة دائمة على الناس حتى وهم في المرحاض ^(١) .

وحين نشرت رواية « يوليس » لجيمس جويس أول مرة ، وجد كثير من الناس أن أحد المشاهد التي كانت تبعث على الاشمئزاز فيها ، هو المشهد الذي قبضت فيه المسز بلوم قطعة جاتو كانت تمضغها ، في فم زوجها وذلك أثناء المداعبة الجنسية .

كل ذلك يدل على فكرة هامة ألا وهي ان الحضارة تكيّفنا بحيث يتولد عندنا كره للجسد الغريب « الآخر » وأن الجنس هو وسيلة هامة لإبطال مفعول هذا التكييف . ونحن نجد كثيراً من الأطفال والمراهقين ، الذين يحدون في فكرة الجنس نفوراً واشمئزازاً ؛ وهذا يتحول فيما بعد إلى عامل هام من عوامل الإفتتان بالجنس ، فمثلاً عملية استعمال اللسان عند التقبيل تبدو لهم منفرة ومزعجة في آن واحد ، وبذلك تصبح رمزاً لهذا العالم الغريب ، والسام والمريع الذي هو الجنس ، وبهذا يربط الجنس عند الانسان منذ سن مبكرة بفكرة انتهاك نقاء الإنسان ، وبرغبته في أن لا « يُلَس » وباشمئزازه من القذارة ومن الجسد الغريب ، وكلما إزداد « طهر » الإنسان ، إزداد معه احتمال ربط الجنس « بالخطيئة » . ولا بد من إثارة هذه الفكرة في مكان لاحق وخاصة عند بحث موضوع السادية ^(٢) .

١ - في روسيا ، لاحظت أن كثيراً من المراحيض العامة هي عبارة عن مجرد ألواح من الخشب فيها تجويفات يقعي فوقها الرجال جنباً إلى جنب وسراويلهم منزلة ما حول أقدامهم المؤلف

٢ - ربما تجدر الإشارة هنا إلى أن الحاجة الى تحقيق « الغرابة » - أي إيهام النفس بخصانة الشخص الآخر ، وهو ما تقوم عليه كل الرغبات الجنسية تصل إلى حالة متطرفة لطيفة تعرف =

ولذلك يبدو جائزاً أن كثيراً من حالات الشبق النسائي تشتمل على ثورة ضد تكميف التمدن . ويبدو ذلك بوضوح خاص في حالة الفتاة التي سمحت لنفسها بأن «تستعمل» وهي منحنية لتعديل رباط جوربها . فاللافتيز ، على الأقل عند النساء ، قد يكون ضرباً من الهروب ، من الثورة على تعقد المدينة .

إن اللافتيز عند النساء والرجال له سمة مشتركة واحدة وهي الاحساس اللاشخصي نحو الطرف الجنسي الآخر . وأول ما يلفت انتباه القاريء في كتب مثل «مذكرات» لكازانوف ، و«حياتي وغرامياتي» لفرانك هاريس هو أمانية المؤلف المطلقة . حتى حين يؤكد أحدهما أنه كان شديد الوله أو التعلق بإمرأة معينة فإن المرأة المعنية لا تترك أي انطباع عند القاريء .

ولن أقول إن هذين الكتّابين من مستوى أدبي واحد . فإن «مذكرات» كازانوف ، هي تحفة أدبية رائعة ، وقد ظن بعض النقاد أن مؤلفها هو «ستندال» (التحقيقات التي أجريت في الآونة الأخيرة أثبتت اصالتها بدون أدنى شك) . أما كتاب فرانك هاريس فليس من مستوى جيد ، كما أن عدداً من أجزائه الأخيرة « في طبعة باريس المخطورة » مكتوبة بلا شك من قبل كتاب

بالم « التيهيج الذاتي ») ، (وهذه الحالة هي غير الحالة الأخرى المعروفة باسم الاستمناء أو الأوفانية) التي يثير فيها الإنسان نفسه جنسياً عن طريق تخيل وضع ، أو لقاء جنسي ، مثل نزوة من نزوات شخص من الجنس الآخر مثلاً ، فالذي يمارس « التيهيج الذاتي » يتيهج جنسياً عن طريق رؤية جسده هو .

وقد سمعت عن حالة طريفة حدثت في نوتنهام ، لشاب كان يمشي وحيداً في بيت ريفي قدر ، وكان يخاف من قوة ورغباته الجنسية ، وكان يملك ميولاً لواطية دنيئة ومستترة إلى حد أن منظر بنطال من تلك التي تستعمل لركوب الخيل ، كان يهيج به إلى مرحلة القذف ، ولكنه كان يتيهج كثيراً لدى رؤية جسده هو شخصياً في المرأة ، ولذلك حطم المرزبا في بيته ، وسمح لواطيه آخر بأزمة هذا الشاب ، « فآخذ بيده » وأعاناه على تحويل ميوله ورغباته إلى أجساد ذكور آخرين ، وقد يكون في ذلك شذوذ لا يقل عن شذوذ حالته السابقة ، والمهم أن الشاب توقف عن الشعور بالذنب والاثم .

المؤلف

مستترين^(١) .

وحين يعود القاريء بذاكرته إلى مثل هذين الكتابين فإنه لا يتذكر الأشخاص بل أحداثاً معينة . ولا يمكننا القول بأن كازانوفاً كان مصاباً بالشذوذ ، ولكن مذكراته تحتوي على كل نزوة جنسية يمكن للإنسان أن يحلم بها ، وأنا لا أؤكد بأن هذه المذكرات هي بالضرورة غير صادقة ، بل انني في الواقع أعتقد بأن كازانوفاً كان رجلاً صادقاً بصورة مذهشة^(٢) . وهذا مما جعل مذكراته مادة ممتعة للدراسة السيكولوجية الجنسية .

وقعت أول حادثة غرامية لكازانوفاً وهو في سن المراهقة . أما تجربته الجنسية الأولى فلم تحدث مع امرأة واحدة بل مع اثنتين . فهو يضطجع بين أختين ويفض بكارتها خلال نصف ساعة ، ونقرأ بعد عدة فصول من الكتاب بأن كازانوفاً يعيد هذه التجربة مع أختين جديدتين طبعاً (الجزء الأول ، الفصل العاشر) وفي الجزء الثالث تطالعنا حادثة تعكس تصرفاته .

يجلس كازانوفاً أثناء إحدى حفلات لعب القمار ، قرب المدفأة . وينغمس في حديث جذاب مع فتاة صغيرة كانت قد تركت ديراً للراهبات منذ مدة قصيرة ، وينتقل الحديث إلى موضوع الجنس ، وترتفع الفتاة عندما يخرج كازانوفاً عضوه التناسلي أمام عينيها لتراه ، ثم يختطف يدها ويستعملها في اداء العادة السرية . وتصبح الفتاة فيما بعد عشيقته بعد أن يعدها بالزواج . والطريف في الأمر أن كازانوفاً لا يستطيع حتى أن يتذكر اسم الفتاة بل يرمز إليها باسم العائلة ، وهذا أمر ملازم له .

ومثالنا السابق يوضح كغيره من الأمثلة تلك الظاهرة عند كازانوفاً والتي يمكن أن نسميها ظاهرة « تحقيق الرغبات » أي الحكايات التي يهيا للقاريء أنها

١ - الكاتب المستتر ، وهو ما يطلق عليه بالإنكليزية اسم Ghost (أي الشبح) ، هو في الواقع كاتب مرتزق يكتب لغيره من الناس ، ويأخذ ثمناً لكتابته ، ويبقى بعيداً عن الأنواء . (م . ه)

٢ - كل النقاط التي ستورد حول المذكرات من الآن فصاعداً ، تملق ، أو هي مأخوذة من طبعة « اليك E lek » وهي ترجمة آرثر ماشن .

ابتدعت خصيصاً لغرض تحقيق كسب من ناشري أدب الدعارة. (في الواقع أن « المذكرات » لم تكن قد أتمت عند موت كازانوف ولم تنشر قط أثناء بقائه على قيد الحياة) .

ومن النادر أن يلاقى كازانوف إغراضاً أو مهانة من النساء التي وقع عليهن اختياره ، وإن حدث وعارضت واحدة منهن غزله ، فنجده قد التجأ الى الحيلة (الجزء الثالث ، الفصل السادس) وهناك حكاية الفتاة التي هجرته واتخذت لها عشيقاً ، ثم حملت من عشيقها الجديد ، فعادت إلى كازانوف طالبةً منه المساعدة في إجهاض الجنين ، فأقنعها بأن لديه طريقة فعالة للإجهاض ، وفعاليتها لا تتحقق إلا إذا استعمل السائل المنوي فيها . وعرض كازانوف ، بصدق عميق ، خدماته في توفير السائل المنوي لتنفيذ « العملية » . وسمحت له الفتاة الساذجة بإمتلاكها عدة مرات اقتناعاً منها بصدقه ، ثم اضطرت أن تذهب إلى دير لوضع وليدها بعد أن فشلت طريقة كازانوف في الإجهاض .

وفي حادثة أخرى ينجح كازانوف في فض بكارة فتاة تزوجت حديثاً من رجل مصاب بالعجز الجنسي ، كما أنه يقضي حفلة تهكية خاصة مع ثلاث فتيات يمتنع عن وصفهن ويتكتم أمرهن بشكل غير عادي . وفعجأة يتحول كازانوف في « مذكراته » إلى صاحب مصنع ، ويضاجع معظم الفتيات العاملات في مصنعه ، وهو يعتبر هذا حدثاً لا أهمية له . ويصفه بشكل عابر . أما كتاب « فرانك هاريس » فيطابق هذا النسق تقريباً ، بل إن أسلوبه يبدو في بعض الأحيان تقليداً لأسلوب كازانوف ، ويشتهر هاريس بدوره في فض بكارة الفتيات وممارسة علاقات غرامية مع فتيات بريئات . ويبدو عليه أنه أقل تمييزاً من كازانوف ، فالأخير كان رجلاً يتمتع بالحياة في كافة صورها ، وخاصة حياة الترف والمجتمعات الراقية ، وكان يعطينا الانطباع بأنه كان يفكر في أشياء كثيرة إلى جانب الجنس ، أما هاريس فلم يكن يتوقف عن التفكير في الجنس ، ولم يكن ينظر إلى أية فتاة دون أن يتخيلها معه في الفراش . لكن هاريس وكازانوف يملكان صفة مشتركة وهي أن كلاهما مخادع ،

وسيرتها الذاتية ذات مظهر خارجي خادع ، كلاهما يروي قصصاً كثيرة ضد شخصيته ، ويروي أيضاً قصصاً تأفقه لا مغزى لها ، مما يجعلها تبدو أكثر صدقاً . ولا يدعان شكاً في ذهن القارئ بأنها محتالان راسخان في الاحتيال ، فكلاهما قضى عمره وهو يحاول الحصول على إعجاب الناس به ، وتوطيد شخصيته في المجتمع ، بما يدعيه لنفسه من صفات . فقد ألصق كازانوفاً على اسمه لقباً كبيراً رناناً ، وهو ابن الممثل المغمور ، ولم يكلف نفسه أبداً عناء خداع القارئ فيما يتعلق بلقبه هذا وبأصله ونسبه . وكلاهما عاش حياة اكتنفها مصاعب كثيرة ، بل إنها في فترة من الفترات دُمغا بالنصب والاحتيال . ثم إن كليهما كان يحيط نفسه بهالة من النزاهة والاستقامة . (يصف برنارد شو ، هاريس بأنه قرصان كثير التهويش ذو موهبة خطابية رابيلية^(١) . لكن الذي يقرأ سيرة هاريس الذاتية لا يمكنه أن يلاحظ ذلك) .

إن كل ما تقدم من شأنه أن يساعد القارئ على تفهم سبب « جنون الاغواء » التي كانت تنقص كلا الرجلين . كلاهما بدأ بداية صعبة ، وكلاهما كان شاباً شديد الذكاء ، لكنه غير مقبول اجتماعياً في عصر كان يعلق أهمية كبيرة على مثل هذه الأمور ، فقد كان موقفها تجاه المجتمع موقفاً دفاعياً . كانا « ناشئين » اختلطا بمن كان أرفع مقاماً منها في المجتمع ، وكانا يفعلان ذلك بشعور واع بالخداع ، ولم يشعر أبداً بالانسجام الطبيعي مع المجتمع ، كالانسجام الذي حققه رجال مثل بيتهوفن أو برنارد شو اللذين قبلهما المجتمع لما لهما من صفات . والواقع أن هاريس وكازانوفاً كانا يملكان من المواهب ما كان يؤهلها للمطالبة بمثل هذا القبول ، لكنها بدأت ببداية خاطئة عن طريق خادع ، وظل شعور الخداع يلزمها طيلة الوقت^(٢) .

١ - نسبة الى الكاتب الفرنسي الساخر الشهير فرانسوا رابيلي (١٤٩٥ - ١٥٥٣) .

٢ - كان برنارد شو من القلائل الذين عاملهم هاريس معاملة طبيعية ، وسبب هذا بأن شو كان يعامله دائماً بصراحة على اعتبار أنه مغامر ، وهذا ما جعل هاريس يحس بأنه لا يحتاج إلى أن يتظاهر معه أو يحاول خداعه .

وهكذا أصبح « الظفر الجنسي » بالنسبة لكل من هاريس وكازانوفاس أساس الكرامة الشخصية والقيمة الذاتية . فقد يدفعها المجتمع المثقف إلى تلك الحالة النفسية التي يضطران معها إلى الكذب والنفاق، ولكن نجاحها كعاشقين يعطيها شعوراً بالتفوق والجدير بالملاحظة أن كلاهما أنهى حياته بالبؤس والمرارة، فقد عاد كازانوفاس إلى البندقية التي كان قد هرب منها منذ سنين عديدة ، كجاسوس وواش ، وقضى نحبه في « دو كس » ببولنده حيث كان يعمل كأمين مكتبة الكونت والدشتاين . وقد قضى سنواته الأخيرة في كتابة مذكراته ، وفي تخيل مهانات وهمة والتحسّر على انقضاء « عصر الفروسية » . وقد اعتبره الجيل الأصغر كهلاً غريباً من عصور فات وانقضى . وهذا ما حدث لفرانك هاريس الذي مات فقيراً ومغموراً في جنوب فرنسا . وكلا الرجلين كتب مذكراته الشهيرة بعد أن أفل نجمه ولم يتبق له إلا ذكريات غزواته الجنسية ؛ وقد كانت الغزوات كما وردت في كتابيهما صحيحة إلى مدى بعيد ، ولكنها قد تكون كذلك « مزركشة » ، وعلى كل حال فقد كان الرجلان وهما يكتبانهما يحسان مرة أخرى بالقوة والرجولة . (وقد شدّد كلاهما على عدد المرات التي كانا « يُشبعان » فيها امرأة ما في ليلة واحدة) . فإذا اعتبر هاريس وكازانوفاس مثالا على النفسية الدون جوانية ، فإن هناك إذن على ما يظهر فارقا شامعا بين مسببات اللاتميز لدى النساء ولدى الرجال . بالنسبة للنساء فإن اللاتميز قد يكون ناتجا عن نوع من التمرد المقلوب والمعوج عن دافع محطم للذات ، أو عن حاجة لتحدي المجتمع بإشارة بذيئة ، أما بالنسبة للرجال، فإن اللاتميز ينشأ فيما يبدو عن عامل أبسط الا وهو التطلع الإرادي المباشر إلى القوة التي لا تعتبر دليلا على القوة ، فإن الدون جوانية قد تدل على فقدان الإيمان الأساسي بالنفس ، لأن الرجال الذين يعجزون عن اثبات شخصياتهم بين الرجال ، يفعلون ذلك بين النساء . والرجل غير العادي أو الخلاق والذي لم يجد الطريق الواضح لإبراز موهبته كفنّان رائع ، أو مفكر أو عسكري، يلتجئ إلى الغزوات الجنسية لتأكيد اعتباره الذاتي ولإبراز شخصيته . والدون جوانية بين الرجال ذوي المواهب الأصلية ، هي في

الغالب مرحلة مبكرة تدمج محل تدريجياً ليحل محلها انتاج أكثر جدية^(١) :
والشيء الرئيسي الذي نتوصل إليه من دراستنا لكازانوف و هاريس هو أن
النفسية الدوت جوانية غالباً ما تكون مصحوبة بإحتيال مألوف وميول
إجرامية . وقد روى لنا برنارد شو حكاية طريفة عن زميله الاشتراكي « ادوارد
أفيلنج » الذي اقتبس شو منه بعض ملامح شخصية لويس دويدات في مسرحيته
« ورطة الطبيب » .

كان أفيلنج كما يقول شو ، اشتراكياً مؤمناً من ذلك النوع من الرجال الذين
يموتون في سبيل عقيدتهم ، إلا أنه كان متجرباً تماماً من الأخلاق ، فيما يتعلق
بالنساء والمال ، وقد كان يعطي دروساً خصوصية في علم الطبيعة لعدد من
الطالبات ، فكان يغري الجميلات منهن ويحتال على غير الجميلات ، وعاش مع
اليانور ماركس لسنوات عديدة ، ثم طلقته زوجته ، فتزوج من امرأة أخرى ،
وشجع اليانور على الإنتحار (وقد انتحرت بالفعل) .

وقد كان شو مبهوراً بما يحمل أفيلنج في شخصيته من مثالية شيلي ومن دهاء
مطلقة مع النساء . (إن هذا المركب قد لا يكون بالغربة التي يبدو فيها ،

١ - مثال على ذلك ، جيمس جويس . فهو يكتب في قصيدة « ذاتية » من بواكير انتاجه
اسمها « المنصب المقدس » :

ولكل فتاة خجولة ومضطربة الأعصاب
أهب خدمة لطيفة ممائلة ...
وفي الليل حين تستلقي بقربي على الفراش
وتحس بيدي بين فخذيها ...
تدرك حبيبي الصغيرة المرتدية لباساً خفيفاً
معنى الشعلة الرقيقة التي اسمها الرغبة .

وهذه القصيدة هي من أحلام التمني عند جويس ، فعلى الرغم من تصريحاته الكثيرة ، من أنه
فد في اغواء الفتيات ، فإن مغامراته كانت في غالبيتها تتم مع المومسات ، بل إنه في روايته
« Stephen Hero » لا يخفي فشله في تقليد كازانوف . وقد اختفى هذا التظاهر بالمقدرة
الفوازية الفذة حين كتب جويس روايته « A Portrait of the Artist as a Young
Man » ولم يظهر مرة أخرى في انتاجه اللاحق .

فإن آراء شيلى حول النساء لم تكن تحبذ الزواج أو الإخلاص الزوجي ، وقد كان أفيلنج تلميذاً وفاقاً لشيلى بل إنه توفي وهو ينشد أبياتاً من قصيدة شيلى « بروميثيوس طليقاً » . لكن الربط بين الإحتيال والدون جوانية قد يكون أمراً غير صائب تماماً . ولعله من الأصح أن نقول إن هناك نوعاً من الرجال الموهوبين الذين تكون ثقتهم بشخصياتهم أقل من مستوى حيويتهم ، والأمير المثالي هو ذلك الذى يجمع بين الموهبة والثقة بالنفس . مثل بيتوفن وشكسبير وبرنارد شو ، ولعل أبلغ مثال على أقصى حد تبلغه حالة الموهبة التي تفقد الثقة بالنفس هو مثال د. هـ . لورنس الذي أثر مركب النقص عنده حتى على مقدرته الجنسية . على أن هاريس وكازانوفتا حالتان أقل حدة من حالة لورنس . ومن وجهة النظر هذه فإن كتابات هنري ميلر لا تقل متعة عما تقدم .

هنري ميلر :

ميلر شخصية أكثر تعقيداً من شخصيتي كازانوفتا وهاريس ، كما أنه كاتب أروع منها ، والخصائص الأولية التي تطالع كل من يقرأ روايته « مدار الجدي The Tropic of Capricorn » ورواية « الصلب الوردي Rosy Crucifixion » ، هي عمق إدراكه الوجدانية ومقدرته اللغوية الممتازة ، وصحيح أن ميلر ليس مفكراً ، لكنه مع ذلك يُكسب كتاباته الذاتية نوعاً من الإدراك الملمح العميق الذي يمكن مقارنته بكتاباته د. هـ . لورنس .

سأكون مسروراً لو أمكنني القول إن ميلر كاتب يمكن النظر إلى أعماله بنفس الجدبة التي ننظر بها إلى لورنس ، ولكن ذلك مستحيل مع الأسف ، نظراً لأن ميلر شخصياً لا ينظر إلى نفسه نظرة جدية^١ . وسيدقى ميلر لسنين طويلة بسبب حرجاً للنقاد ، وذلك لأن خمسة وسبعين بالمئة مما يكتبه يعتبر كتابه جدية تفكيرية ، في حين أن الخمسة وعشرين بالمئة الباقية ، هي بالفعل

١ - بالرغم من أن الكثير من النقاد الكبار مثل سير هوبرت ريد ، لا يترددون في أن يضعوه في منزلة واحدة مع لورنس .

دعارة مكشوفة .

وإلى أن تم نشر روايتي ميلر « مدار الجدي » و « مدار السرطان » The Tropic of Cancer ، في الولايات المتحدة ، فإن ميلر كان يعيش مما يباع من هاتين الروايتين المطبوعتين في باريس للسواح الأميركيين والبريطانيين الذين كانوا يردون باريس لشراء « الكتب البذيئة » . وقد كانت هناك همسات تدور في الجوقائلة بأن ميلر حينما كتب روايته الأولى « مدار السرطان » كان يفكر بالسواح ، ثم قرر أن يضع بعضاً من كتاباته الجديدة ، التي لم يجد لها سوقاً بعد ، في كتاب كان لا بد له من أن ينتشر انتشاراً واسعاً .

إن من المستحيل القول ما إذا كان ميلر سيصبح كاتباً أفضل لو أنه لم يبدأ انتاجه بكتب الدعارة . فهو لم يكن داعراً بالحرفة ، ولم يكتب عن الجنس لأن الجنس يمتلك عليه تفكيره ، والكثير من كتاباته تعطينا الانطباع بأنه كان يضحك على نفسه ... وعلى القارئ ... حينما يسرد بعضاً من مغامراته الجنسية المضحكة ، فروح الفكاهة عنده تذكرنا بالبطاقات الفكاهية ، شبه البذيئة التي تباع أحياناً في برايتون وبلاكبول^١ . وكان يحدد متعة شرسة في التشديد على إبراز الأمور غير المحتشمة المتعلقة بالعملية البراز الجنسية ، وبعملية أيضاً . وأهم كتبه حتى الآن هي « مدار الجدي ومدار السرطان والصلب الوردي » المكون من ثلاثة أجزاء (سكسوس ، نكسوس ويليكسوس) . ويعتبر ميلر كتابه الأخير هذا ، رائعته الأدبية .

والكتب الثلاثة تتحدث كلها عن شخصية الكاتب ، وهي تتحدث في الغالب عن مغامرات وعلاقات ميلر الجنسية ، وتعتبر هذه المغامرات والعلاقات أكثر شمولاً من مغامرات كازانوف ، أو أنها على الأقل مكتوبة بتفصيل أكثر ، فرواية « مدار السرطان » هي أكثر هذه الكتب غنائية ووجدانية ، ولكنها أقلها استحقاقاً للقراءة . ولغة الرواية تبدو وكأنها مستوحاة من رامبو ولوتريامون ، أما فكرتها فهي ضحلة ، تدور حول حياة بعض الأميركيين المغتربين والمقيمين

١ - مدينتان سياحيتان في انكلترا . (م . م)

في باريس .

أما رواية « مدار الجدي » فهي رواية أفضل بكثير وهي تتحدث عن فترة سابقة من حياة ميلار في أميركا . وسردها القصصي مشتمل بالحياة ، ولقتها أقل زخرفة ، ونجد فيها نقطة معينة نلاحظها مباشرة ، وهي أن ميلار ، على خلاف معظم الذين يكتبون عن أشخاصهم ، لا يهتم مطلقاً بأن يكسب شخصه أي قسط من الوقار أو الإحترام . كما لو كان قد قرر أنه ما دام سيؤلف كتاباً بذيئاً ويسرد فيه كل أنواع الكذب فليذهب الى نهاية الشوط وليمتنع عن تقريظ نفسه بقدر الإمكان .

إن هاريس وكازانوفا يرويان ، من جملة ما يرويان ، قصصاً تسيء لشخصيهما ؛ لكن ميلار لا يفعل غير ذلك ، ولو أنه كان أقل براءة ومرحاً ، لشكّ المرء في أنه من نوعية أبطال دستوفسكي الذين يتلهفون إلى اذلال أنفسهم والادلاء بإعترافات عنيفة أمام الناس . وفي الواقع ، فإن المرء سرعان ما يشبه في أن هذه « الاعترافات » ما هي إلا وسيلة من وسائل « إعطاء القارئ تسليّة بقيمة نقوده » ... ووسيلة أخرى من وسائل الضحك عليه ، بل إن القارئ يشعر بأن ميلار على استعداد لأن يضمن إحدى رواياته مشهداً يحامع فيه فيلاً لو أن ذلك سيسلي القارئ .

وفي رواياته يتحدث ميلار عن خياناته الزوجية المستمرة وپروي حوادث متعددة تظهره كإنسان يستدين أو « يتسول » أو حتى يسرق ، وكذلك يروي قصصاً غير مؤدبة مسرحها مرحاض وبراز . ومثال على هذه « الإعترافات » حكاية وردت في « مدار الجدي » حينما كانت زوجته طريحة الفراش بسبب مرض ألمّ بها ، وجاءت جارها لتعني بها ؛ وفي مرة من المرات انحنّت الجارة ، وكانت تلبس قميص النوم ، على فراش الزوجة . فأقبل ميلار ووقف خلفها ثم رفع قميص نومها وراح يقوم « بالعملية » بينما راح الإثنين يتابعان حديثهما مع الزوجة للترويح والتخفيف عنها .

ومع أن ميلار يظهر نفسه بلباس اللامؤمن مطلقاً من أجل الجنس والنقود ،

فإنه بلا شك لا يخلو من عاطفة اجتماعية ، كما أنه يمتقت القسوة ، وينفق وقتاً طويلاً لكي يشرح للقارئ عيوب الحضارة الغربية وأمراضها . ولهذا السبب فإن رواية « الصلب الوردي » هي من الغرائب الأدبية . فقد تخلل الرواية عدة عمليات تفصيلية للعملية الجنسية ... التي كثيراً ما تشارك فيها أكثر من امرأة واحدة ... وكذلك عدة مشاهد من الإغتصاب والحفلات الجنسية المأجنة . ويبدو أن الكاتب يريد أن يوقع القارئ في الحيرة ، وذلك بأن يخلق شخصيتين متضادتين لهنري ميلر :

شخصية ميلر المولع شغفاً بالقراءة والكتب والأفكار ، الذي كثيراً ما يشابه جدله جدل دستوفسكي ، والذي يهتم بأمور الناس ومشاكلهم . وهناك شخصية ميلر الدجال والمتسول الذي لا دافع عنده في الحياة إلاّ الرغبة في « كبسة » سريعة غير لائقة والذي يسمى عضوه التناسلي « منقاراً » .

وميلر نفسه ينفي أن يكون القصد من وراء كتاباته هو الدعارة ، ومع أنه أقر بأن بعض ما ذكره من بطولات جنسية ليست صادقة كلية ، إلاّ أنه يدعي بأن رواية « الصلب الوردي » هي محاولة نزهة لسرد « الحقيقة الكاملة » . وقد يؤخذ القارئ بهذا إلى أن يفتح الكتاب ويطلع بعضاً من الحوادث الجنسية غير المعقولة التي ترد فيه والتي تعجّ بالكلمات الداعرة .

« وغرقنا في (...) عماية . كان التاكسي يهتز ويتأيل وكانت أسناننا تصطك وتعض على لسان الآخر ، بينما كان السائل يطفح منها كالحساء الساخن ، الخ ... » .

« بلغت ذروة النشوة مرتين أو ثلاثاً ثم ارتقت منهوكة الى الوراء ، وابتسمت لي بوهن كظبية في كمين » .

إذن فإن الدون جوانية في ميلر هي أكثر تعقيداً حتى من هاريس وكازانوفاف ، فقد كان هدف الأخيرين هو تمجيد نفسيهما ، أما ميلر فيهدف كما يبدو الى العكس من ذلك .

لكن الحكم العام الذي ينطبق على هاريس وكازانوفاف يسري كذلك على ميلر ،

فإن موهبته تفوق ثقته بنفسه ، ومن ثم جديته كفنان . إن فقدان الإيمان بالنفس هذا يكاد يكون مرادفاً للزيف ، تماماً كما أن العنفوان المستعلي الذي يميز موسيقى بيتوفن مرادف للصدق العنيف . وقراءة كتابات ميلر يجرحنا كبيرة لها تأثير غريب : فهو مفكر مثير يخلص لإدراكاته وأحاسيسه الوجدانية دائماً . وحين يتحدث عن كُتُوبٍ يحبهم ، كرامبو مثلاً ، فإنه يستطيع أن يكون ناقداً أدبياً من الطراز الأول . وهناك أوقات تنهمر فيها أفكاره على الورق في دفقٍ لاهت من الكلمات . إنه دائماً « رجل حي » مثل لورنس ، وهناك فترات تنصر فيها مع حيوية وقوة فكره انصاراً تاماً رانماً يخلّف الإنسان مأخوذاً بسحر عظمته .

ومع ذلك فمن الغريب أن قراءة مقاطع طويلة من كتاباته تترك أثراً كئيباً في الإنسان ، ذلك أن الجزء الخلفي لهذه الكتابات ميت ومشط ومتعفن بعض الشيء . وهناك انسحاق وانعدام الكرامة الشخصية ، متعب وكئيب ، وإحساس بالهزيمة أعنف من إحساس سارتر وجويس .

إن كتبه لها سقف خلقي واطىء بحيث أن القارئ يجلس فيها بصعوبة ، رأسه مخني ، وركبته مطويتان ، وهي تحمل في ثناياها حيوية توماس وولف^(١) ، ولكنها تفتقد الشاعرية والمثالية والحس البطولي والمأساوي ؛ وبإختصار فهي تفتقد العظمة . وحتى رابيلي يبدو متديناً ومثالياً إذا قورن بميلر . وإن ميلر في أسوأ حالاته ، أي حين لا يأتيه الإلهام من الجنس أو الناس ، يكتب بلهجة شبه عدمية ، فكتابه « الكابوس المكيف الهواء » « The Air - Conditioned Nightmare » مثلاً - وكله تهجم على أميركا - مليء بالمرارة والسأم والطعن ، ولا يحتوي على شيء من مزايا أعماله الجيدة .

إن القصد من هذا البحث المطول عن هاريس وكازانوف وميلر هو محاولة إظهار العلاقة بين الدون جوانيه وانهيار القيم ، وكتاباتهم فيما لو أخذت على دفعات كبيرة تخلف في القارئ إحساس ضيقاً يصعب تحديده . هناك حركة

ولون في صفحاتها ، ولكنها حركة ولون أرجوحة الأطفال الدوارة .
وفي النهاية فإن رؤية هذه الكتابات للحياة هي رؤية عدمية . إنها كلها
« صخب وغضب يدلان على لا شيء » ، فأعمال الكتاب والشعراء والفلاسفة
المثاليين ترتفع إلى ذرى تحاول أن تعطي للحياة معنى . وهناك ذرى كثيرة في
كتابات ميلر وكازانوف ، لكنها كلها عبارة عن ارضاء لشهوات وميول إنسانية
عادية ، وهي لا تترك أثراً وراءها . فما دام الاثنان يعتبران الحياة مجرد مسرح
لرغباتها ونزعاتها البيولوجية فإن حسها الخلفي لا يختلف بطبيعة الحال عن
الحس الخلفي « لثعلب في مزرعة للدواجن » . بالنسبة لهما ، يجب توقع السأم من
الحياة إلا إذا أمكن إيجاد تسليات ما . وما يلجأان إلى الخدع الصغيرة بنفس
الفطرة التي يلجأ فيها الأطفال إلى الكذب للخروج من مأزق ما . وما يزخران
بالحياة وهذا ما يمنعها من أن يصبحا مجرمين خطيرين ، ومع ذلك فإن عدميتها
الخلفية هي أصل كل إجرام . (هذه نقطة سوف تتكرر في فصول لاحقة) .
وإذا كانت شهواتها وحشية كشهوات كورت أو غي دي ري ، فلن يكون
هناك سبب يمنعها من إشباعها . ويبدو أن حياة كازانوف لم تكن تحتوي على شيء
لم يشر إليه في هذه الأبيات القاسية لإليوت :

هؤلاء الذين يشحدون قاب الكلب ، يعنون الموت
هؤلاء الذين يلعبون بمجد الطائر الطنان ، يعنون الموت
هؤلاء الذين يحلسون في زريبة القناعة ، يعنون الموت
هؤلاء الذين يعانون نشوة الحيوانات ، يعنون الموت (١) .

هذه هي حياة كازانوف في أربعة أبيات :

الجنس ، الطعام الجيد ، الغرور الشخصي والاستياء . وملخصها هو الموت .
(إن هذه الفكرة تجدها تعبيراً قوياً في رواية من تأليف آرثر شينزلر اسمها
« عودة كازانوف إلى الوطن » ، Casanova's Homecoming ، وهي « إضافة »

١ - من قصيدة « مارينا Marina » - ت . س . إليوت . « مجموعة قصائد
Collected Poems » صفحة ١١٣ .

من الخيال لمذكرات كازانوفا ، وتصور الرواية كازانوفا وهو مسنّ وخائب
الآمل وقبيح وعلى وشك أن يصبح خبيراً للشرطة .

إن تقديم مثال واحد آخر سيساعد على توضيح هذا الموضوع ، وفيما يلي
أقتبس من مسودة كتاب لم ينشر بعد ، والكتاب ترجمة لسيرة حياة الكاتب^(١) .
حيث نجد تحليلاً رائعاً لشخصية ضابط سابق رمز إليه بحرف (م) ، وهذا
الضابط من نوع « الدون جوان » الذي تحدثت عنه حتى الآن .
واليكم المقطع :

« م » ضابط سابق في سلاح الحرس ، كان حين تعرفت عليه لأول مرة في
منتصف العشرينات ، وكان قد تلقى تعليمه في إحدى المدارس الخاصة ثم في
ساندهرس^(٢) ، ولقد عمل في الجيش لمدة عامين ثم قرر أن يساعد والده في
تجارته . كان وسيماً وذا بنية رياضية ، يحب الشراب ، ويحسد المتعة في اللعب
بالمسدسات ، وكثيراً ما كان يسرف في الحديث عن تجاربه عندما كان ضمن
قوات الاحتلال في ألمانيا . وهو يود لو أن روسيا تشعل الحرب مع العالم لكي
يذهب ويحارب ، وكان يؤمن بأن زمن السلم يشبط الهمم ويقتل الروح المعنوية ،
بل إنه كان يشعر باحتقار ضابط الجيش التقليدي للمدنيين وغيرهم . ويعتبرهم
أناساً رخوين وفي حاجة الى انضباط صارم ، وكان يمتلك نوعاً من الايمان الغيبي
بالقوة التي كانت تبرز باستمرار في أحاديثه ، وخاصة حين يسرف في الشراب ،
وكان معجباً بهتلر « كرجل قوي » وعلى الرغم مما كان يقوله عن العنف الجسدي
والانضباط ، فإنه لم يكن يفتقر الى الذكاء أبداً ، فكتبته المزلية كانت تحتوي
على تشكيلة واسعة من الاهتمامات . وحين كنت أدخل معه في مناقشات أو
أحاديث عامة ، كانت قوة حجته ومنطقه كثيراً ما تدهشني . ومع ذلك فإنه
كان يتصنع شعوراً بالاحتقار نحو كل « المثقفين » وإن يكن هذا الشعور مناقضاً

١ - مخطوطة الكتاب هي الآن في حوزتي بإذن من المؤلف ولقد أغفلت ذكر أية أسماء
لأسباب واضحة . (المؤلف)

٢ - الكلية الحربية البريطانية . (م.م.)

للود الذي كان يديه نحوي .

« تلي هذه الفقرة عدة فقرات تتحدث عن فلسفة القوة عند «م» ، وسأحذفها لعدم علاقتها بموضوع حديثنا) .

«... لكن ذلك كان أكثر ما يتضح في موقفه من الجنس، فقد كانت تجاربه مع النساء واسعة جداً ؛ وكان يدّعي أن عدد النساء اللواتي جامعتهن مساو لعدد الأشهر التي مرت منذ عيد ميلاده الرابع عشر (١٤٠ على وجه التقريب) ، وبينهن خليلتان كان يعيش معها في ألمانيا .

وكان «م» صاحب الكثير من النظريات والمعتقدات عن الجنس . فمثلاً كان كثيراً ما يصرح بأنه وجد القيام بالعادة السرية أكثر ارضاءً من مجامعة امرأة «لأنه يمكن التحكم بها بدقة أكثر» . وكان شديد المبالاة بقدرته الجنسية . وكان يعتقد أنه إذا استطاع الرجل أن يبلغ النشوة الجنسية مرة ثانية مباشرة بعد المرة الأولى فإنه سيتمكن من ممارسة العملية طوال الليل بدون أية صعوبة تذكر . وقد ادعى أنه قد أثبت ذلك ، بأن أمكنه بلوغ النشوة عشر مرات في ليلة واحدة .

ومع أنه كان يتحدث كثيراً عن الجنس - لا لأن الجنس و «إرادة القوة» كانا موضوعيه المحبين - إلا أنه من الغريب أن اتمامه به كان تجريبياً . ولا أستطيع اتهامه أبداً بأنه كان يتحدث عن المثيرات الجنسية لمجرد ذلك .. « وهناك قصة توضح بصورة عملية مدى سيطرة فكري الجنس وإرادة القوة على ذهن «م» . وقد وجدت هذه القصة ذات مغزى كبير ، وأنا أسردها الآن بأكبر ما تسمح به الذاكرة من الدقة » .

« أقام «م» حفلاً بمناسبة عيد ميلاد عشيقته في أحد الفنادق الكبيرة ، وكانت بين المدعوين طالبة تدرس الرسم ، عُرف عنها بأنها مصابة بالشبق النسائي ، وصديق قديم من أيام الجيش . وكان هذا الأخير عملاقاً جسد وصفه «م» بأنه «جسد إله اغريقي» . وقبل نهاية الحفل جاء إلى «م» وأسرّ إليه أن الطالبة تريد أن يضاجعها ، ولكنه مع الأسف لا يملك غرفة

تصلح لهذه العملية . وكان « م » ينزل في غرفة مزدوجة ذات سريرين منفردين في الفندق ، ولذلك عرض على صديقه بلا تردد أن يستعمل أحد السريرين . « انتهى الحفل وصعد « م » وعشيقتة إلى غرفتها . كانت العشيقة مثلة جداً ، وما أن انتهى « م » من العملية الجنسية معها حتى راحت في نوم عميق . وبعد عشر دقائق دخل صديق « م » الغرفة ومعه الطالبة . خلعا ملابسهما في العتمة ثم صعدا إلى السرير . وظل « م » مستيقظاً ، وسرعان ما سمع الفتاة تصدر أصواتاً تدل على أن الرجل لم يشبعها جنسياً . فصبر « م » قليلاً ثم سأها :
- « ما هي المشكلة ؟؟ » .

فأجابت الفتاة بأنها لم تشبع بعد ، وإن الرجل قد غرق في نومه . وهنا سأها « م » ، إن كان بإمكانه أن يقدم خدماته . فوافقت . وأشعل « م » النور ، وأوقف كلاهما ضابط الجيش وأقنعه بأن يترك الفراش ، ثم إمتطى « م » الفتاة وراح يحامعها . وتهيج الضابط وهو يراقبها ، وعندما انتهى « م » صعد الضابط إلى الفراش وجامع الفتاة مرة أخرى .

وقف « م » يراقبها وقد علق فيما بعد على المشهد في أحد أحاديثه معي قائلاً : لقد كان جميلاً إلى درجة أنني نسيت أن أتهيج ، كانا وحشين جميلين . وأضاف أنه قد لاحظ بإهتمام خاص انعكاس النور على عضو الرجل التناسلي ، وقال : « لا يدرك الإنسان وهو يقوم بالعملية شخصياً أن عضوه التناسلي ملتصق » .

« ... عند هذا الحد كانت قد نشأت منافسة بين الرجلين . فما يكاد الواحد منها ينتهي حتى يبدأ الآخر مرة أخرى ، أما الفتاة فكان شبقها لا يروى . وعلى كل حال فمند الفجر نام الضابط على السرير الآخر (حيث كانت عشيقة « م » ما تزال في نومها) وبدأ يشخر .

قال « م » : كنت مصمماً على ألاّ أهزم » .

واستمر في مجامعة الفتاة حتى شكت أخيراً من وجود التهاب بسبب كثرة الإحتكاك ، ولكن « م » استجمع كل قوته حتى أمكنه أن يبلغ النشوة مرة

أخيرة . ثم سار نحو المفصلة ليفسل يديه وعورته .
قال : - « نظرت إلى الأجساد الممدة في الغرفة ، وفجأة أحست بشيء
المنتصر » .

لا يمكنني أن أصف اللذة التي قال فيها هذه الجملة الأخيرة .
ثم مضى يقول بأنه دحرج الضابط عن سريره إلى الأرض ونام حتى ساعة
متأخرة من اليوم التالي » .

وفي مكان لاحق بدلي المؤلف نفسه بتعليقاته وملاحظاته التالية : « لم يكن
« م » خلاقاً ، ولم يكن يحاول أن يعبر عن نفسه بالكتابة أو بالرسم وأعتقد أنه
لم يكن لديه أي شغف خاص بالموسيقى . وقد أعطاني الانطباع بأنه غير راض
بإستمرار ، وقد ترك العمل مع أبيه مراراً ليشغل مناصب أخرى ، وعقد
خطوبته على عدة فتيات ، ولكنه لم يستطع أن يكتب جماعاً اشتهاه لنساء
أخريات ، مما كان يدفع كل واحدة من خطيباته إلى هجره . وكان مولعاً بقراءة
الكتب التي تروي قصص الشجاعة والصلابة الجسدية مثل حملة « كون تبيكي »
وتسلق قمة أفرست ورحلة سكوت إلى القطب الجنوبي ... »

وبتتابع سريع عمل كرجل بوليس ، وكصائد حيتان وكأحد أفراد فرسان
البوليس الكنديين . وأعتقد أنه كان يعاني من السأم » .

هذه التفاصيل ترسم لنا صورة ممتعة لشخصية « الدون جوان المثالي » .
ولأن هذه التفاصيل مكتوبة من قبل شخص آخر فإنه يمكنها إذن أن تعطينا
فكرة أكثر صراحة وأقل تحيزاً مما نستدلها من كتابات هاريس وكازانوفا وميلر الذين
قد تختلف نظرهم إلى أنفسهم عن نظرة معاصريهم اليهم . وهنا يمكننا أن ندرك
بوضوح أن ذلك الإهتمام العميق بالجنس هو بديل لمنافذ طاقات خلاقة أخرى .

هناك طاقة وقوة جسدية وموقف معين نحو الحرب وأشكال العدوان
الأخرى يمكن أن تسمى مجازاً « بالنيتشوية » . ولكنه من الواضح كذلك أن
المنافذ العادية للرجل السليم البنية ، كالرياضة والهوايات البدنية والعنيفة ، غير
قادرة على إرضائه . لأن ظروفه الاجتماعية لا تتسع له أعمالاً تتطلب جهداً جسدياً

كبيراً . لكنه قد يجد سعادة أكبر في العمل كزارع أو كعامل منجم .

إن « إيمانه القوي بالقوة » يتطلب متنفساً ، وهو يجد نفسه في حب التسلط على الناس الآخرين وفي « الإنجازات الجنسية الباهرة » ، وفي الواقع أن الإنغماس في الجنس وفي التسلط هو المتنفس الوحيد لإرادة القوة .

وسلوكية « م » لا يمكن تسميتها سلوكية « شاذة » لكنها ذات مغزى كبير لأنها تقف على عتبة الشذوذ . ها هنا إنسان غير مهياً تماماً لحياة منتصف القرن العشرين في أوروبا ، لكنه لو عاش قبل مئتي عام لربما كان قد اختط لنفسه حياة مرضية تماماً في الجيش . وهو مثل كازانوف و هاريس وميلار يجد صعوبة في إيجاد مكان لنفسه في المجتمع . لأن مهنة « المقاتر » لا تتوفر للإنسان في عصرنا هذا ، ولهذا فهو مضطر لأن يقلل بأمور تافهة كبدل لها ، مثل أن يصبح رجل بوليس أو صائد حيوان . وعلى خلاف كازانوف ، ليست عنده ميول إجرامية ... لأن ذلك لا يتمشى مع رغبته في التزعم والتسلط ... لكنه لا يملك أيضاً ميولاً خلاقية . فهو يملك طاقة هائلة وافتقاره لمتنفسات خلاقية يحول معظم هذه الطاقة إلى الجنس . وقصته مع صديقه الضابط ومع طالبة الرسم النمفومانية توفر منفذاً للحافزين الأساسيين فيه : الإهتمام الزائد بالجنس وحافز التسلط على الآخرين .

إن العمليات الجنسية التي يشترك فيها أكثر من اثنين يسميها علماء النفس أحياناً « بالجماعية » ويشار إليها مراراً كشذوذ بسيط . في الحالة المعنية هذه يمكننا أن ندرك أن « الشذوذ » كان هنا نتيجة بسيطة لفشل وخيبة الطاقة الخلاقية

وهناك أخيراً إضافة طريفة لحالة « م » ، ومع أنها تبدو غير ذات علاقة وثيقة بمشاكل الجنس ، إلا أن مغزاها سيبتدي لنا فيما بعد أثناء بحث « القيم الوجودية » . ففيما يتعلق بإحساس القوة عند « م » ، يضيف المؤلف ما يلي : « ولقد تناقشنا يوماً حول موقفه الجسدي الكلي من الحياة . وإعترضت على تكرار تجربته وقلت له إن مئة عملية جنسية لن تعلم الإنسان أكثر مما علمته

العملية الأولى . فقال لي إن ذلك غير صحيح وإن كل عملية تختلف بصورة لا منظورة عن كل العمليات الأخرى .

قلت له : ولكن ما فائدة تعلم شيء إن كنا سننساه في اليوم التالي ؟
ولا أستطيع أن أنقل جوابه على ذلك بالتام ، لكن هذا الجواب أدهشني .
قال : - إن كل شيء « يتعلمه » الانسان ينتقل تلغرافياً بطريقة ما إلى اللانهائي (وكان بإمكانه أن يقول الله) بحيث لا يضيع أي شيء أبداً . ولذلك فإنه ليس من مهمة البشر أن يختزنوا ويبدلوا كل تجاربهم ، بل إن مهمتهم هي فقط البحث عن تجربة جديدة ، وما يتعلمونه منها يبقى محفوظاً في سجل أجلي ما .

يستدل من هذا أن « م » يختلف عن غط الدون جوان العادي في ناحية هامة واحدة وهي أنه يشعر بحاجة ما لا يحاد تماسك أو ترابط منطقي . وهذه نقطة جدية بالملاحظة . فإن الدون جوانين قليلاً ما يكونون من المفكرين ، وهذا الحكم يصح إطلاقه عموماً على كل أنواع الشاذين جنساً . فكل تجربة « كافية حتى اللحظة الحاضرة » . أما بالنسبة للرجال والنساء الذين يهمهم جداً إيجاد « معنى » للحياة ، فإن كثرة الاستمرار في التجربة الجنسية ، حسبما اتفق ، قد تخلق فيهم احساساً انتحارياً بالعقم والعبث .

قضية أرستيباشيف الغريبة :

ليس هناك أدل على هذا الاحساس من الحياة الادبية لمثيل أرستيباشيف الكاتب الروسي الذي توفي في عام ١٩٢٧ والذي تعتبر رواياته فلسفة دون جوانية متقدمة .

نال أرستيباشيف شهرة كبيرة عام ١٩٠٦ حين نشرت روايته « ساني » التي يبشر بطلها الشبيه بأبطال أبسن ، بحرية التصرف والسلوك المطلقة . إنه يكره الكلمات الضخمة الرنانة ، حتى أكثر من أبطال همنغواي ، والذي يؤمن كذلك بأن على الانسان ان يتمتع بالحياة والاثم يجعل نفسه تعيشاً وبائساً ، وموقفه

يتلخص في كلمات الأغنية القديمة التي تقول :

آكل حين أكون جائعاً
وأشرب حين أكون جافاً
وإن لم يقتلني الويسكي
فسأظل أعيش الى أن أموت .

إن سائين هذا يفض بلا وازع بكارة الفتاة التي يحبها أقرب أصدقائه ،
فينتحر الصديق ، وحين يطلب من سائين أن يلقي كلمة عند قبر الصديق لا يجد
ما يقوله الا « نقص العالم أحق واحداً » .

وهناك اشارة قوية في الرواية ، تتعلق بإرتكاب الفحشاء مع الأهل المحرمين .
ويبدو من الواضح أنه لو سمح الرقيب بذلك لكان ارتسيباشيف قد وجد متعة
كبيرة في تحويل هذه الإشارة إلى علاقة بين سائين وأخته . ومع أن رواية
« سائين » تتضمن العديد من الإنتحارات ، الا أنها رواية مرحة وبهجة .

أما روايته التالية « المليونير » فهي تحفل بالسوداوية القائمة ، وفي الرواية
مشهد يقوم فيه المليونير الذي يعاني من السأم بإمتلاك إحدى الفتيات وذلك بأن
يعرض عليها مبلغاً كبيراً من المال لقاء خدمايتها ، ولكن جو العقم والعبث لا
يقاوم . فالمليونير يشعر بالسأم وخيبة الأمل ، وينهي حياته بالإنتحار . وتسيطر
على الرواية الروح الدروستوفسكية ، ولكن دون الصوفية الدينية . فشقاء
وغباء الطبيعة البشرية مصوران بقوة عظيمة في الرواية ، دون أن تقدم لنا
تعويضاً ، والجنس الذي يكتسب صفة شاعرية في الرواية ، يصبح الآن أمراً
حقيراً وبلا معنى .

أما آخر رواية هامة أصدرها أرتسيباشيف فهي رواية « على حافة الهاوية
On The Brink » ، وفيها نشهد الإنهيار المعنوي في آخر مراحلها ، وتبدو
رسالة الكاتب وكأنها « كل إنسان منا يريد الجنس فهو الحقيقة الوحيدة في الوجود
البشري » .

إن بطل الرواية ، الرسام ، الدون جوان يؤمن بأن لذة الجنس تكن في إخضاع النساء ، وأن الزواج هو عادة عمل جبان . والرواية عبارة عن سلسلة من الغوايات والمشاحنات والمبارزات والنزهات والمناقشات الفكرية عن الانتحار . وجوها العام كامد ورمادي ، يوافق في الرواية على النظرية القائلة ، أن على الإنسان أن يكون قاسياً لكي يصبح دون جواناً ، ثم يطبق ذلك عملياً ، ولا نرى في الرواية بادرة واحدة تشير إلى أن مؤلف الرواية يشجب ذلك . كما أن المهندس ناعوموف ينشر بأن الحياة ما هي إلا خدعة ذكية والطريقة الوحيدة الوقورة للتخلص منها هي الانتحار .

والجنس قد يكون هو الحقيقة النهائية ، ولكنه في الأساس عقيم ككل شيء آخر . ويؤكد آرتسيباشيف نظريته في أن الجنس هو « الحقيقة الأساسية » بأن يرسم لنا صورة رجل وإمرأة تربطها علاقة من الحب والكراهية معاً ويكادان بسبب ذلك أن يدفعا بعضهما البعض إلى الانتحار . لكن الرجل في نهاية الرواية يطرح المرأة على السرير ويمتلكها ثم يكتشف بعدها أنه فقد كل إهتمام بها . وتنتهي رواية « على حافة الهاوية » بسلسلة من الانتحارات .

ومن الممتع أن نتابع الخط الإنهياري في أعمال آرتسيباشيف (التي تشابه كتابات موباسان في كثير من الوجوه) . هناك أولاً هذا التمجيد شبه الروحاني للعلاقات الجنسية العرضية ، المشابه لما جاء في المقطع المقتبس عن بليك في الفصل الرابع . ثم يتردى هذا التمجيد إلى دون جوانية شريرة تتحول بدورها إلى يأس انتحاري وتحطيم للذات . والأخطر من هذا أن كتابات آرتسيباشيف نفسها قد ترددت باستمرار ، ففي حين أن « سائين » هي رواية جيدة إلا أن « على حافة الهاوية » رواية سيئة وسقيمة إلى أبعد الحدود ، والحركة فيها تشابه إرتجاج إحدى أرجل ضفدع ميتة إذا سلط عليها تيار كهربائي .

وحين توفي آرتسيباشيف عام ١٩٢٧ ، وكان البولشفيك قد نفوه إلى خارج البلاد ، بدت وفاته كحصاب تأخر ميعاده .

الجنس عند النساء :

كنت قد قلت في مكان سابق إن هذا الكتاب قد كتب من وجهة نظر « رجل » ، لسبب واضح ، الا وهو أن مؤلفه رجل وجد أنه يستحيل عليه أن يطبق في كتابته مبدأ « الشعور بالعطف » ، لكي يخرج الكتاب بنظرة أكثر شمولاً . والواقع أن كاتبات كثيرات قد أصدرن كتباً ممتازة ومفيدة عن الجنس عند النساء ، مثل كتاب سيمون دي بوفوار « الجنس الآخر Second Sex » ، وكتاب صوفي لازرفلد « تجربة المرأة مع الرجل Woman's Experience of The Male » ، وهذا الكتاب ليس محاولة لخلق « موسوعة عن الجنس » بل هو محاولة لاستكشاف الموضوع بالبدية والادراك في ضوء السيكولوجية الوجودية وعن طريق استعمال أسلوب فنمولوجي .

وسوضح الفصل القادم كيف أن ذلك يلزم الكاتب « بوجهة نظره » ، هو فقط (أي بوجهة نظر الرجل) .

ومع أن ذلك يعني أنه سيكون من المستحيل معالجة القضايا الرئيسية في هذا الكتاب من وجهة نظر « نسائية » ، فسيكون من الممتع مع ذلك ان نتعمق هذا السؤال :

« إلى أي مدى يختلف موقف المرأة من الجنس عامة من موقف الرجل ؟ » يقول شتيكل على سبيل المثال إن الماسوكية هي عادة مركب هام في التكوين الجنسي عند المرأة ، ثم يخلص من هذا الى إيجاد علاقة بين الماسوكية والواط ، وقد يميل أغلب الرجال إلى الاتفاق مع هذا الرأي لأن الصورة التي يحملها الرجل عن المرأة التي ترضيه أبلغ الرضى ترتبط في ذهنه غالباً بفكرة الرضوخ والاستسلام .

ومن وجهة أخرى ، فإن الصورة التي رسم بها جيمس بوم قد امتدحت كثيراً (من قبل النساء والرجال على السواء) لعمق غوصها في نفسية المرأة ، مع أنه ليس هناك فيما يبدو أي أثر للماسوكية عند المسز بوم . فأفكارها على طرفي نقيض مع أفكار زوجها ، لأنها لا تكتسب تجريدية أو تأملاً بل تظل « على

الأرض ، ، تظل مضادة للبيتا فيزيقية ، وقد يكون هذا هو سبب إعجاب النساء بتحليل جويس لنفسية المرأة ، ذلك أن الأسس التي تركز عليها عقلية المرأة هي أسس « شخصية » أكثر من عقلية الرجل . فالمرأة أكثر رومانسية وفي الوقت ذاته أكثر واقعية من الرجل . وذلك لأن الرجل ميال الى التجريد والإطلاق وكذلك إلى القسوة الجسدية . وبالنسبة للمسز بلوم فإن هذه الأسس تتمثل في زوجها المثقف الكثير التأمل وفي عشيقها بويلان الذي يطوف في غرفة نومها دون بنطال ويضاجعها بطريقة خالية من السلوك المذهب الرفيع ، تضايقها جداً .

لكن إذا كان موقف المرأة من الجنس « شخصياً » أكثر من موقف الرجل ، فليس من الضروري أن يدل ذلك على أن هناك عاملاً ماسو كياً في ذلك الموقف . لنطلع مثلاً على هذه الحالة التي سردها رايبك :

« في شطحة من شطحات الخيال ، تتصور فتاة صغيرة نفسها ممددة وهي عارية تماماً على طاولة في دكان لحام في انتظار تقطيعها . وبين الحين والحين كان أحد العاملين في الدكان يقترب منها ويلبس جسدها فتبعث فيها لمسته رعشة لذيدة . وأخيراً يقبل اللحام بسكينه ويضغط بيديه على جسدها قبل أن يباشر بتقطيعها . ولكنه قبل أن يحزّ جسدها بالسكين ، يولج أحد أصابعه في مهبلها ، فتبلغ الفتاة الصغيرة النشوة الجنسية في تلك اللحظة (١) » .

وعلينا أن نلاحظ هنا أن عملية التقطيع نفسها لم تكن جزءاً من هذه التهوية الخيالية وأن القمة كانت في ايلاج الأصبع . فقد كانت الفتاة تستعيد هذه المتعة الخيالية منذ صغرها ، والوضع الذي اتخذته لنفسها في دكان اللحام يرمز إلى الاستسلام والخضوع التام للرجل ، ربما لأنها كانت ستشعر بالذنب لو أنها تخيلت نفسها قد اشتركت بمحض إرادتها واختيارها في العملية . والأصبع

١ - ذكرت هذه الحادثة في كتاب « الشذوذ الجنسي والجرائم الجنسية » Sex Perv- rsions and Sex Crimes - تأليف جيه . م . رينهارت . ص ١٤٣ .

(المؤلف)

هنا بديل للعضو التناسلي قريب الشبه به بحيث يجعل من حلم اليقظة هذا أمراً طبيعياً تقريباً تحمل به فتاة تعاني من الكبت أو الحرمان الجنسي وتتلهم إلى رجل يقهرها .

وحين تفحص هذه الحالة فحسباً دقيقاً ، يختفي عنصر « الشذوذ » وتترأى لنا الماسوكية مجرد تضخيم يتم من خلال حالة الكبت . فإذا ما نشأ أي « شذوذ » في هذا الإنفماس في مثل هذه الأحلام ، فإنه سيكون نتيجة لحالة الكبت . ومن المهم الا نسمح لحالات كهذه أن تقودنا إلى الاستنتاج بأن حالة التقبل عند المرأة هي في الواقع ماسوكية دفينة . فهذا الاستنتاج لا يقل في افتقاره إلى دليل عن الافتراض القائل بأن دور الرجل الإيجابي هو ضرب من السادية . فكلتا الحالتين لا تشتمل بالضرورة على عامل الألم .

والذي يبدو محتملاً ، أنه من الأسهل أن يؤدي موقف الرجل من الجنس إلى الشذوذ ، لأنه « شخصي » أقل من موقف المرأة . ومرة أخرى فإن جويس قد استطاع أن يوضح هذا الاختلاف بعنف درامي غير عادي في ذلك الفصل من رواية « يوليس » والمسمى « Nausicaa » وهو الفصل الذي كتب بلغة القصص الغرامية لأنه يعبر عن لسان حال جيرتي مكدوول .

تبصر جيرتي المستر بلوم يراقبها وهي على الشاطئ وتصوره « انساناً غريباً رومانتيكياً أسمر اللون » ثم إذ بأفكارها تسرح وراء موضوع الغرام والزواج . وتحوم أفكارها لفترة وجيزة حول الجانب الجسدي من الجنس حين تتذكر أحد المستأجرين الذي كان يمارس العادة السرية في الفراش ، ولكن عقلها يطرد هذه الصورة بسرعة . ثم تسمح لبلوم بأن يمدّ بصره إلى ما تحت فستانها قليلاً وذلك بأن تميل إلى الخلف ، مع أنها ما زالت تفكر بطريقة رومانتيكية . ثم يحول جويس المنظر إلى بلوم الذي يكون في ذلك الوقت مندجاً بحذر في ممارسة العادة السرية ، والذي تكون أفكاره أبعد ما تكون عن الرومانتيكية .

والمقارنة هنا عنيفة وقاطعة ، وهي توضح فارقاً أساسياً معينا بين موقف

الرجل وموقف المرأة من الجنس بطريقة قد تعجز بحوث مطولة عن تبليانها .
فالجنس بالنسبة لبوم أمر جسدي وعقلي ، أما بالنسبة لجيرتي فهو في الغالب أمر عاطفي .

والفصل الأخير من الرواية ، وهو المكون من حوار المسز بلوم مع نفسها ، فيه المزيد من التأكيد على هذا الفارق بين الرجل والمرأة : إن المسز بلوم تكبر جيرتي مكدوويل بعشرين عاماً ولا تملك شيئاً من أوهام جيرتي الرومانتيكية (مع أنها تشاركها في تذوق الأدب الرومانتيكي) . ولكنها على الرغم من أنها تعتبر الجنس متعة جسدية بل وتتخيل أنها تمنح جسدها لبحارة مجهولين في الميناء ، فإنه ما زال باستطاعتها أن تنسج أحلام يقظة عن ستيفن ديدالوس ، كما أنها تنتقد عشيقها لأنه « لا يعرف الشعر من القرنيط » ، ويتردد اسم اللورد بايرون عدة مرات في أحلامها ، ومن الواضح أنها ترى فيه العشيق المثالي . وأفكارها كلها مشبعة بموقف رومانتيكي وشخصي من الجنس .

خاتمة :

قد يقول البعض جداً إن الدون جوانية هي حالة يسهل فهمها جداً بحيث لا يمكن اعتبارها حالة « غير طبيعية » ولا حتى في أقل معانيها سوءاً ، وإنما مجرد طفحان في الدافع الجنسي ، مجرد فورة زائدة .

وهذا الموضوع لا يمكن الإجابة عليه إلا عن طريق التحليل « الفنمنولوجي » للدافع الجنسي وهو ما سأقوم به في الفصل التالي .

وفيما يلي ملخص سريع للإستنتاجات التي توصلنا إليها في هذا الفصل :
الدون جوانية – أو الحافز إلى اللاتمميز لمجرد ذاته – هي في العادة مرتبطة على ما يبدو بشكل طفيف من الإختلال العصبي بسبب عدم الثقة بالنفس .

أقول : « بشكل طفيف » لأنه ما دام الشخص قادراً على أن يحتذب إليه الكثيرين من الجنس الآخر ، فإن إحتمال نشوء حالات أسوأ من الشذوذ عنده ، هو إحتمال ضئيل .

إن دون جوان مونتسارت ودابونت هو من ذلك النوع الذي لا يمكن أن يوجد ، أو على أقل تعديل فإن دابونت لم يكن من الكفاءة كعالم نفسي بحيث يكشف لنا عن العامل العصبي الإضطرابي الذي يستير رجلاً يستطيع أن يغوي أكثر من ألف فتاة في اسبانيا وحدها .

إن دون جوان برنارد شو أكثر معقولة وقابلية للتصديق لأن شو تمكن بفراسته ورؤيته من أن يدرك أن رجلاً يملك من الحيوية والذكاء ما يجرد النساء من أية مقاومة لإغرائه ، لا بد من أن يعتبر الإغواء يوماً سخافة متعبة .

ودراسة الدون جوانية توضح شيئاً واحداً ، هو أن الدافع الجنسي لا يمكن أن يفهم ضمن حدوده وشروطه فقط : فالدافع إلى التمييز لا يمكن تفسيره بالقول إن الرغبات الجنسية لرجل ما ، هي أقوى من الدرجة العادية أو حتى القول إن شعوراً ما بالنقص يدفعه إلى أن « يتأدى في محاولة تعويض ذلك » . وهذا يقودنا فقط إلى المزيد من الأسئلة :

كيف يجب أن تكون الرغبة « العادية » وكيف يجب أن يعوض عن الشعور بالنقص ؟

إن التكوين الجنسي للإنسان لا يشبه دولة مستقلة معتمدة على نفسها ، بل إنه مرتبط أوثق بالإرتباط ببقية التكوين العام .

الفصل الثالث

أسلوب التحليل

الاسلوب الفنمنولوجي . سيكولوجية هوسرل
والسيكولوجية الجيشتالتية .

إن الدافع الجنسي كما يبدو من الخارج لا يقل استقامة عن الشهية للطعام ، ولهذا يمكننا بحثه ضمن سياق مادي محدود . وإذا دققنا النظر فيه اتضح لنا أن ذلك غير صحيح . قد يملك أحد الأشخاص شهية مفتوحة للأكل ، وقد يكون ممن لا يتمتعون بوجباتهم الغذائية إلا إذا كانت المائدة مزدانة بألوان عديدة من الطعام ، ومغطاة بغطاء أبيض ناصع ، أو ممن يحبون شرب نصف زجاجة من النبيذ ليزيد من شهته . ولكن هناك حقيقة واحدة تبقى : وهي أن العملية كلها مركز ثقل معيناً ، وهو عملية الأكل ذاتها . فمها يكن ما يضيفه «الدواق» في الأكل من « مشهيات » عقلية تصورية ، فإنها كلها ستؤدي في النهاية إلى العملية المادية لإستهلاك الطعام ومضغه .

وقد يبدو الجنس للوهلة الأولى وثيق الشبه بذلك ، بمعنى أن بلوغ النشوة الجنسية موازٍ لإلتهاام الطعام ، ولكن هذا صحيح ؟ فحق أكثر الناس شراهة يحتاج إلى الطعام ، ولكن ما من إنسان قضى نحيبه بسبب جوع جنسي . والمقطع التالي من رواية اسمها « شمس في الظهيرة : طفولة استرالية » - : Noonday Sun An Australian Childhood - لفرانك ميتشل ، سيوضح هذه النقطة .

« كنت قد قرأت في مكان ما أن التجارب الجنسية الأولى غريبة للآمال دائماً ... كنت من الحجل بحيث أنني لم أحاول تقبيلها ، فبدأت هي 'تقبلي' .. ثم تركتها تفعل ما تشاء معي طيلة الوقت ... إلى أن مرت عدة أمسيات ، حيث كنا مستلقين في الحديقة العامة نتعانق بشراهة ، وكان جسداً ملتصقين بشكل لم تستطع معه إلا أن تشعر بتهيجي ، وكنت فرحاً حين أخذت تفعل ما تشاء معي فجأة ، وأرسلت يدها لتتسلّ باردة داخل ملابسني ، فشرعت

كان كل أحلام اليقظة التي كنت أمارسها في طور المراقبة ، قد بدأت تتحقق الآن ... وبعد قليل حاولت أن أنزع ثيابها ؛ وكنت مرتبكاً إلى درجة أنها إبتعدت عني قليلاً وأنزلت بنطالها القصير بسرعة مفاجئة . وحاولت أن أجعلها تستلقي على ظهرها فهزت رأسها وهي تبسم لي ، ثم طلبت مني أن أستلقي على ظهري ومددت جسدها فوقى بحذر وبطء . وكأني بها قد تألمت من هذا الوضع ، فقد استمرت تقول لي « لا تتحرك ، لا تتحرك » . كان جزء هادئ غير منفصل من عقلي يراقب العملية بدهشة . هذا هو الحدث العظيم الذي أرتق ليالي وتقص خيالي ، ومن المؤكد أنني كنت سأحس بنشوة كبرى ، ولكنني عوضاً عن ذلك شعرت ببعض اللذة الدافئة لا أكثر . كانت اللذة « أقل بكثير » ، مما كنت استحضر في أحلام يقظتي ، بل كان يمكن أن تكون ناتجة عن مجرد ضغط من يدها ، أو يدي ... وكنت فيما بعد أقوم الشعور بأن هذه التجربة كانت فاشلة تماماً .

وهذا يذكرنا بما قاله « م » في الفصل السابق من أن ممارسة العادة السرية قد تكون أكثر ارضاء من الجماع العادي . وما يلفت النظر في المقطع السابق هو « بل كان يمكن أن تكون ناتجة عن مجرد ضغط من يدها ، أو يدي » (وميتشل هنا صريح للغاية فيما يتعلق بممارسة العادة السرية في مراقبته ، وهو بهذا يقنني أثر كتابيه المفضلين جيمس جويس وتوماس وولف) .

إن الرجل الجائع قد يدغدغ شهيته بعدة طرق تتعلق كلها بالخيالة أكثر مما تتعلق بالسوائل المعوية ، ولكنه حين يصل الأمر إلى الأكل فلا بد أن يكون هناك طعام ملموس ، فهذا تكن مخيلته خصبة وبارعة ، فهو لن يحسّ بالرضى إلا بعد أن يأكل بالفعل ، وهنا يصح لنا ميتشل بوضوح بأن العملية « الواقعية » أقل ارضاء من العملية التصورية . إن أعصاب المعدة تشعر بالرضى نتيجة للطعام ، وبلوغ النشوة الجنسية هو نتيجة لعملية إرادية تصورية أكثر مما هو نتيجة لواقع مادي .

الادراك الحسي :

يقودنا ما تقدم الى موضوع عام هام ، وهو موضوع التركيب العضوي للإدراك الحسي في العملية الجنسية . وإذا أردنا لهذا البحث أن يتحرّر من المصطلحات الفنية التي يستعملها عالم النفس ، فعلينا أن نقرر منذ الآن مبادئ عامة عن الإدراك الحسي .

أنت إن أكلت سندويشة فإنك تؤدي بهذا عملاً له عنصر عقلي وعنصر مادي ، أي أن له عنصراً ذهنياً وعنصراً مريضاً . وإن كنت جائعاً فإنك تستطيع أن تتصور نفسك تأكل سندويشة ، ولكن ذلك لن يرضي معدتك . هناك أساس مادي معين ، نوع من « الواقع » بالنسبة لعملية أكل السندويشة ، ومن ناحية أخرى فإن عملية اشباع جوعك بأكل سندويشة ليست مجرد عملية ميكانيكية كالضغط على زرّ ما . فمع أن وضع الطعام في معدتك قد ينتج الأثر المتوقع (أي اختفاء الجوع والشعور بالرضى) ، فإنه قد يسبب لك حالة من التقيؤ ، وإذا كنت مصاباً بالزكام فقد لا يكون بإمكانك أن تشعر بأي مذاق له ، بل قد يكون مذاقه كذاق النخالة . (إذا حبست نفسك فسيكون من الصعب عليك أن تفرق بين تفاحة وبصلة) . وإن كنت تأكل وكان أحد غيرك يتقيأ في الغرفة ، فقد تتقيأ أنت كذلك . حتى لو كنت بعيداً بحيث لا يمكنك أن تشم رائحة القيء .

سيكون من المناسب هنا أن ننظر الى أكل السندويش كأبسط صورة من صور الإدراك الحسي . فأنت لا ترى وتشم وتلمس السندويش فقط ، لكنك تستوعبه كذلك ؛ وبالاختصار فإنك « تدركه » بنفس التام الذي يمكن للإنسان أن يعرف به أي شيء منظور .

على أن هضمك للسندويش لا يعتمد على السندويشة فقط ، بل كذلك على الحالة التي تكون فيها حواسك عندئذ .

كان لوك وباركلي أول من تحرى موضوع دور الإدراك الحسي ، فقد سميا وراء هذه القضية : الى أي حد يمكننا أن نعرف « الواقع » من خلال حواسنا ؟

ولقد هاجما المنطق التقليدي العادي حول الادراك الحسي وهو القائل :
« هناك أشياء » ومع أن إدراك الناس الحسي لهذه الأشياء قد يتفاوت بشكل
طفيف (إن كان بعضهم مصابين بمعنى الألوان ، أو الحَوَل أو غير ذلك) فإن
الناس على كل حال ترى الأشياء « كما هي عليه في الواقع » . ولقد ذهب باركلي
الى حد التساؤل عما إن كانت هذه الأشياء تكون موجودة أصلاً حين لا يكون
هناك من ينظر اليها ؟ وهذه النظرية في حالتها القصوى تعرف بالـ « Solipsism »
ومؤداها أنه ما من انسان غيرك أنت فقط موجود على الأرض .

وجاء « كانت » لياخذ الخطوة التالية في بحث نظرية الادراك الحسي ، فقد
شعر بأنه « توجد » هناك أشياء ، وأن حواسنا تنبئنا بوجودها . وكان « كانت »
ميسلاً الى الاتفاق مع باركلي بأن خواص هذه الأشياء - الشكل ، اللون ،
المذاق ، الخ - هي أمور « تضيفها » حواسنا وأنه لا يمكننا أن نأمل أبداً أن
نعرف شيئاً عن الكيفية « الحقيقية » للأشياء . وقد أضاف « كانت » قائلاً :
« اننا نرى العالم » كما هو ، لأن إدراكنا تفرض علينا نظاماً معيناً ، فنرى العالم
الخارجي من خلال مقولات^(١) الفضاء والزمن المصطنعة ، ولا نستطيع أن نراه
خبر ذلك . وهذه المقولات مثل نظارات زرقاء نضعها على أعيننا ولا يمكننا أن
نخلعها أبداً .

إن نظريات باركلي وكانت حول الادراك الحسي بليدة في مواضع تطرفها .
والواقع أنها ليست أكثر من اعتراف بسيط بالمشكلة ... مشكلة الى أي حد
تتدخل قوانا الذهنية في عملية أكل السندويش .
وقبل مجيء لوك ، كان الادراك الحسي يفسر بأنه عملية ميكانيكية مثل
الضغط على زر . أما باركلي فقد ذهب الى النقيض من ذلك وافترض أن هذا
الزر قد يكون وهمياً .

١ - المقولات : اصطلاح في المنطق بمعنى المفاهيم أو القناعات النهائية .

سيكولوجية هوسرل . السيكلوجية الجيشتالتية^(١) :

في القرن العشرين وصلت نظرية الادراك الحسي أخيراً الى مرتبة نوع من العلم ، كما وسّعت وعمقت بعناية اشارات « كانت » الفاضة الى المقولات المنطقية . وهناك حتى الآن تياران جليّان لهذه النظرية لا يلتقيان الا في بعض النقاط . أحدهما هو علم الظواهر « الفنمنولوجية » الذي أسسه آدموند هوسرل ، والثاني هو ما يسمى « بعلم جيشتالت » أو سيكولوجية الشكل . ومن الضروري أن نقول شيئاً عن هذين التيارين قبل أن ندخل في صلب موضوع دور الادراك الحسي والخيّلة في الجنس .

كان هوسرل عالماً رياضياً تحول الى فيلسوف . وقد أحزنته حالة الفوضى التي كانت تعم الفلسفة بحيث كان يشعر أنها فن تأملي غامض فوق الحد ، وأنها تكاد أن لا تكون علماً . وقد سلّم هوسرل بالفكرة الأساسية التالية : إننا حين ننظر الى العالم ، فإننا نرى سلسلة من الأشكال والألوان يمكن تسميتها تقريباً بـ « رموز » الأشياء الحقيقية .

ومع ذلك فنحن لا نرتبك بسبب ذلك . فالمقل يفسر فورياً مجموعة معينة من الخطوط والألوان مثل كتاب ما أو جهاز راديو ما أو شجرة . وحين تقرأ كتاباً ، فإن نصف مهمة فهمه على الأقل يقوم بها عقلك أنت ، وبدون هذا التعاون من القارئ فإن الكاتب سيكون بلا قوة لاقناعك بفكرته . الا ان هوسرل يشير الى أننا « نقرأ » العالم المادي بنفس الطريقة كل الوقت ، ولكن اذا حدثت في شيء دون أن يكون في فكرك الا « فراغ » فإن هذا الشيء لن يعني لك شيئاً وسيكون بلا هوية . ثم طرح هوسرل السؤال الكانتي

١ - رمز كلمة « جيشتالت » بالألمانية (Gestalt) الى أي من المركبات أو مجموعات الأشكال المتتمعة التي تكوّن التجربة بأكملها ، والتي تتملك مزايا خاصة لا يمكن استنباطها من العناصر المنفردة المكونة للجموع ، كما لا يمكن في الوقت ذاته اعتبارها مجرد عصّة هذه العناصر . أما السيكلوجية الجيشتالتية فهي إحدى المدارس في علم النفس التي بدأت في ألمانيا والتي تعتبر أن التجربة تتكون من « جيشتالتات » وأن استجابة تركيب عضوي ما لحالة معينة هي شيء كامل وغير قابل للتحليل أكثر من عصّة لاستجابات لعدة عناصر خاصة في تلك الحالة .

التقليدي : الى أي حد يؤثر العقل على ما نرى ؟ وذهب أبعد من ذلك لي طرح تساؤلاً آخر : هل يمكن إيجاد طريقة يمكننا بواسطتها أن نقرر الى أي حد يتأثر الادراك الحسي بشخص المدرك ؟

ولهذا فقد ابتدع هوسرل « اسلوب العزل » : فبدلاً من دراسة الشيء نفسه ، ادرس فقط ادراكك الحسي لهذا الشيء . « اعزل الشيء » ، وتصرف كأنه غير موجود ، ثم ركز إهتمامك فقط على شكل الادراك ^(١) .

وما هو الهدف الأخير لكل هذا « العزل » ؟

إن الفلسفة هي نقيض التسليم الجدلي بالأشياء . والواقع أنه يمكن تعريف العلم كذلك ، بأنه اللاتسليم الجدلي بالأشياء . فهدف الفلسفة هو توسيع المعرفة وفهم الكون ، ولكن الفيلسوف ما أن يحدد غرضه حتى يواجه صعوبة مباشرة ، فهو يحصد نفسه تقريباً ، في موقف راعي البقر الأميركي « الكاوبوي » الذي أطلق الرصاص على اصبع قدمه الكبير ، حين رأى ظله مرسوماً على النافذة ، في الليل .

أي أنه ليس متأكداً من : « أي شيء هو الكون ؟ وأي شيء هو «ذاته» .

١ - إن علاقتنا بغيرنا من الناس هي مثال واضح على ما فينا من « قوة عقلية فأرضة لنظام معين » . فنحن لا نستطيع أبداً ، أن نعرف شخصاً ما معرفة وثيقة بنفس الطريقة التي نعرف بها شيئاً مادياً ، بمجرد النظر اليه . فبالنسبة لشخص ما ، فاننا نلاحظ فيه أكثر ما يمكننا من خصائص وميزات ، ثم نصدر عليه « حكماً » . وهذه الأحكام تعتمد اعتماداً واضحاً على شخصيتنا وحاجاتنا . وعلى ذلك فإن « رأينا في شخص آخر هو مجموعة من الملاحظات السطحية مرتبطة فيما بينها بشكل مجحف . والاسلوب الفئضولوجي في مثل هذه الحالة يتطلب منا أن نحاول نفي كل مشاعرنا عن شخص ما ، وأن نحاول النظر اليه بتجرد يحاكي تجرد عالم حشرات وهو يراقب تصرفات خنفسه ما .

ومقارنة انطباعنا المتجرد هذا مع الانطباع الناشئ عن نظرة شخصية غير متجردة ، سيلقي الضوء ليس على « عنصر الشخص الحقيقي » فحسب ، بل كذلك على الانحيازات والأحاسيس التي تكون تكنيك نظرتنا الى الغير .

وأنا أسرد هذا على اعتبار أنه مرادف بصفة تقريبية لأسلوب هوسرل ، مع أن هوسرل في الثلاثينات راح في الواقع يهتم كثيراً بمثل هذا النوع من التصرف . المؤلف

فالخط الفاصل بين الكون ، وبين « ذاته » غير واضح تماماً .

ونظرية هوسرل هي أن الفيلسوف يقحم ذاته دائماً في الموضوع بطريق الخطأ . وقد اكتشف العالم النفسي برنتانو ما يسميه بـ « المعدية » أي الطريقة التي يفرض فيها العقل مدلولات خاصة على « الأشياء التي يتم ادراكها » .

إننا ننجح الى اعتبار أنفسنا مجرد « أجهزة استقبال » لانطباعات وادراكات تأتينا من « الخارج » . وبمعنى آخر ، اننا نعتبر أنفسنا ، مجازاً ، « ضحايا » للأشياء التي تحدث لنا . فإذا وقع لوح خشبي على رأسك ، فإن ذلك ليس الا شيئاً « يحدث » لك ، وموقفك العقلي نحو اللوح لن يؤثر بأي حال من الأحوال ، على الألم الذي ستحس به . وهكذا فإننا ننجح إلى أن نعتبر الواقع قوة عاتية تفرض نفسها علينا باستمرار . ولكن نظرية هوسرل – برنتانو هي على النقيض من ذلك . إنها تقول بأن القوة العاتية التي تظل تفرض نفسها علينا هي عقولنا نحن . فالانطباعات والاحساسات تأتي إلينا هيابة خائفة ، ولكن عقلنا أو وعينا الباطني يقولها مباشرة في أشكال محددة ويدرجها في نظام معين ثم يحيلها الى عقلنا الواعي لكي يفحصها . ولذلك فان عقلنا الواعي يتصور ان هذه الانطباعات والاحساسات منتظمة في أشكال محددة دائماً ، لأنه لا يعرف شيئاً عن العملية التي نظمت هذه الانطباعات والاحساسات قبل ورودها اليه . وهوسرل يسعى الى أن يعرف بالضبط ، كيف تمت هذه العملية السابقة للوعي ، وبكلمة أخرى ، فهو يريد أن يقتنص العقل الباطني وهو منعكس في عملية « فرض صيغة » معينة على الادراكات .

وقد يبدو كل هذا خارجاً عن بحثنا حول الجنس ، لكننا سنتبين فيما بعد أن مثل هذا البحث سيكون في الواقع عديم المعنى بدون هذه الخلفية الفكرية . فالجنس أيضاً ، هو الى حد كبير ، قضية لا واعية يتقبلها وعينا بدون جدال . والمشكلة الآن هي أن نستعمل اسلوب هوسرل لنعرف شيئاً عن القوانين التي تتحكم في وعينا الباطني فيما يتعلق بالجنس .

إن السيكلولوجية الجيشتالتية ، تشارك فلسفة هوسرل الفينمولوجية الماورائية

في كثير من أهدافها ووسائلها، وهي مهمة كذلك بقضية الإدراك الحسي ، وحجتها الأساسية هو أننا نبدأ بإدراك الأشياء ككل كامل ثم نلاحظ بعد ذلك أن هذه الأشياء ، هي في الحقيقة مجموعة من الجزئيات . فأنت ترى مثلاً «تأمين متساين تماماً» ، ومع ذلك فإنك تستطيع أن تميز في الحال أحدهما من الآخر . وإذا سئلت بالحاح ، فإنك لن تستطيع أن تبين بالضبط كيف تعرف الفارق بينهما . لن تستطيع أن تقول ، إن شعر أحدهما أغث قليلاً من شعر أخيه ، أو أن أنفه أطول من أنف أخيه بملترين .

قد تكتشف مثل هذه الفوارق فيما بعد ، لكن هذه الفوارق الطفيفة ليست هي السبب الأصلي في معرفة الفارق بين الاثنين . وبنفس هذه الطريقة ، فقد تحاول أن تتذكر لحناً أو جملة موسيقية ، وحين تتذكرها أخيراً ، فقد تصفّرها بالسم أو القرار الموسيقي الخاطئ . ومع ذلك فإن اللحن هو اللحن ذاته بالرغم من أن نواته الموسيقية غير مستقيمة . والذي حدث هو أنك تذكرت اللحن « ككل » كامل ، وليس كمنظومة من النوتات المرتبة .

إن مثلاً بسيطاً قد يساعد على تفسير النظرية التي تقوم عليها السيكلوجية الجيشتالتية .

لقد ابتكر البوليس وسيلة للإهتداء إلى المجرمين عن طريق ما يسمى بـ «عدة الهوية» (Identity Kit) . فربما تكون قد رأيت جريمة ما ، ولم تستطع أن تصف وجه المجرم للبوليس لأنه قد يكون مثل بقية الوجوه . ولكنك إذا اطلعت على مجموعة من صور أو رسوم تمثل رجالاً مختلفين فقد يكون بإمكانك أن تقول : « إنه قريب الشبه بهذه الصورة » ، إلا أن وجهه أكثر استدارة . « وعندئذ يقوم الرسام التابع للبوليس برسم وجه مماثل لكنه أكثر استدارة ، بحيث أنك تستطيع أن تقول : « هذا يشبهه أكثر » ، لكن العينين مختلفتان وهكذا دواليك . « فكل تغيير جديد يكتنك من أن تتذكر أوصافاً أخرى حتى يتم التوصل أخيراً إلى رسم يقنعك بأنه معقول الشبه بوجه المجرم . إذن فإن تذكرك لوجه المجرم لا يقوم على أساس نسق منتظم من الحقائق .

كشكل الأنف . ولون العينين - الخ .. بل على أساس كل متشابه عام .
ولنأخذ مثلاً بسيطاً آخر زيادة في التوضيح .

إن السيكولوجية الجيشتالتية هي محاولة لإكتشاف شيء ما عن لغة العقل الباطني اللاواعي ، أو بالأحرى رموزه - . ففي الغرب ، عندنا فقط « ستة وعشرون ، حرفاً هجائياً ، تركب منها كل الكلمات التي نستعملها . أما اللغة الصينية أو اليابانية فهي تحتوي على آلاف الرموز ، وكل رمز منها يعني كلمة مختلفة ، بحيث أن تعلم الكتابة باللغة الصينية هو عملية أكثر تعقيداً من تعلم الكتابة باللغة الانكليزية . ومن الواضح أن الطريقة الصينية تصبح حين تعلمها أكثر توفيراً للجهد ، فبدلاً من تصنيف عددٍ من الأحرف بطرق مختلفة لتركيب كلمات منها ، يوجد هناك رمز صغير واحد .

والسيكولوجية الجيشتالتية تزعم أن لغة وعينا الباطني هي أقرب إلى الصينية منها إلى الإنكليزية ، فحين تريد أن تتذكر وجهاً ما ، فانت لا « تركبه ، في عقلك عن طريق تجميع جزئياته المختلفة معاً « الأنف ، الفم ، والذقن الخ ، بل تبحث بسرعة بين مجموعة من الصور المختلفة حتى تهتدي إلى واحدة تقاربه بصورة أو بأخرى . وبعد أن تكون قد توصلت إلى « الشكل » العام تجري عندئذ بعد الروش والتعديلات الخفيفة على الأنف والذقن الخ .

إن السيكولوجية الجيشتالتية تسمى مثل الفنمنولوجية إلى التوصل إلى معرفة الكيفية التي تعمل بها الطاقة التي تفرض الشكل والهدف من ذلك .

ولكن الأهم من كل هذا ، هو قضية « العمدية » . إن عقولنا أقل سلبية مما نظن . فليس من المستبعد ونحن نحاول اكتشاف قوانين ما ، أن نكتشف أننا نحن صانعو هذه القوانين . إذا أغمضت عينيك وفركت الجفنين فركاً شديداً ، فستراى لك كتل وبقع من الألوان المبهمة . وإذا حدثت في هذه البقع بتصميم « إرادي » فإنه سيمكنك أن تجعل هذه الأشكال اللونية تتغير باستمرار ، بل قد يكون بإستطاعتك تحويلها إلى فيلة ليلية أو زرافات خضراء مثلاً . وهذه هي الطاقة التي « تفرض الشكل » أثناء عملها . ومن غير المجدي أن

تتساءل لماذا قررت أن تحول هذه الأشكال إلى فيلة ليلية وليس إلى طائرات
قرمزية مثلاً؟ فيما لا شك فيه ، أن أهواء الإنسان واختياره غير الواعي تلعب
دوراً في مثل هذه الحالة ، لكن الإرادة هنا هي العامل الأكثر أهمية .

قضية الرؤيا ،

إن ما تقدم قد يوفر الإجابة بالنسبة لقضية قريبة من قضية الجنس ، هي
قضية الرؤيا . ولقد تساءل الشعراء دائماً عن قصر الوميض في لحظات اليقين :
إلى أين ولتى ومض الرؤيا ؟
أين هما الآن ، النضارة والحلم ؟

وإجابة الشاعر تكون غير دقيقة ، في العادة . ولقد تحدث وورد سورث
عن وعي مفاجيء «بأنماط من الوجود غير معروفة» وهو يقول فيما يبدو إن الشاعر
يستطيع فقط أن يبقى عقله مفتوحاً وأن يبقى « على مقربة من الطبيعة » لأنه
ما من جهد واعٍ مهالغ يستطيع أن يستحضر الحالة « الغيبية الروحانية » .
ويبدو أن الشعراء والغيبيين الروحانيين يتفقون بصفة عامة على أن اللغة لا
تستطيع أن تعبر عن الرؤيا الغيبية « للآخرة » .

لكن سيكولوجية هوسرل تمنحنا مدخلاً جديداً إلى القضية ، فإذا كان
العقل يفرض أشكاله الخاصة على كل الإدراكات الحسية ، فإنه من البديهي أن تشتمل
تجربتنا على قليل من « الآخرة » . فالعقل يصرف الآخرة تلقائياً . وعملية
العقل الآلية الأساسية هي إدراك الصفات المتشابهة بين مجموعة من الانطباعات
ومجموعة أخرى ، وهذه هي الطريقة التي يواجه بها العقل كل القضايا والمشاكل .
قد تقحم مسألة ما أحد العلماء الرياضيين إلى أن يكتشف أنها مشابهة لمسألة
قام بحلها في اليوم السابق . وقد تعجز قضية ما أحد رجال البوليس السري إلى
أن تذكره بعض ملاحظها بقضية مماثلة . وللتجارب تتدفق علينا كل يوم ، وما
لم نمتلك جهازاً للترشيح فإن هذه التجارب ستغرق العقل في بحر من التشوش
والخيرة والإرهاق في غضون دقائق معدودات .

صحيح أن العادة هي حليفنا ، ولكنها ليست دفاعاً أخيراً : إن موظفاً محباً لعائلته وبيته قد يركب ذات القطار كل يوم وبوجه نفس التحية إلى سكرتيته ، ومع ذلك فإن كل يوم يبدو مختلفاً له . ففي مقابل كل ظرف مماثل لما مرّ في اليوم السابق من ظروف ، يوجد هناك خمسون ظرفاً جديداً ومختلفاً . الطقس مختلف ، الناس الذين يمر بهم في الشارع مختلفون ، الأخبار التي يقرأها في جريدته مختلفة .

إن كلاً منا على علم بالعملية الأساسية « المرشح » ، وهي أن قسوة هذا المرشح تزداد كلما إزداد تعب العقل . وأنت حين تتوجه إلى عملك في الصباح ، نشيطاً بعد ليلة مريحة ، فإن قوة ملاحظتك ستكون في أوج قوتها ونشاطها . أما في المساء ، حين تعود إلى البيت بعد يوم مرهق بالعمل ، فلن تكون عندك الطاقة أو الرغبة في ملاحظة شيء ، بل إنك ستفضل أن تدفن رأسك في جريدة ما ، وأن تباعد عن العالم الخارجي بقدر الإمكان . بل إن المرشح الموجود في عقلك سيساعدك على أن تتعزل بذهنك عما حولك ، فأنت لا تعير اهتماماً لثرثرة الفتاتين اللتين تجلسان معك في ذات المقصورة بالقطار ، أو لنقر المطر على زجاج شباك المقصورة .

العقل المتعب يحول إدراكاته إلى مجردات ، وربما تكون قد رأيت في الصباح أن إحدى الفتاتين لها ساقان جميلتان ، وأن شعر الأخرى مصبوغ . أما الآن وفي هذه الحالة من الإرهاق التي أنت فيها ، فهنا بالنسبة لك مجرد « فتاتين » ، لا أكثر ، فالمرشح يحذف كل التفاصيل غير الضرورية . فإذا كنت متعباً جداً ، فقد لا تلاحظ حتى أنها فتاتان ، بل كل الذي تعيه هو أن هناك شخصين في المقصورة معك . وقد لا تتذكر فيما بعد ما إن كانا رجلين أو امرأتين . فهنا قد تمادى العقل في التجريد . إنه يحتفظ بإحساس كاف بالزمان والمكان ، لكن « الشكل » الذي يفرضه على رؤيته للعالم في ذلك الحين هو شكل مجحف جداً ، مجرد خطوط طول وعرض قليلة . وبصراحة ، فانه نظراً لأن الحياة معقدة بشكل مخيف ، فإن المرشح ضروري ، وبدونه فقد نصاب كلنا بالجنون ، لولا

أنه يفرض على الأيام التي نعيشها نوعاً من « التكرارية المائلة » التي هي على النقيض من « وميض الرؤيا » .

إن الأطفال لا يفهمون سوء ذاكرة الكبار . فهم يقولون بنفاد صبر :
« لكن لا تذكر ... كان ذلك في اليوم الذي أضعت فيه زر معطفك
وأنت في الطريق الى السينما »

إنهم يحدون أن من الصعوبة لهم أن يصدقوا أنك تذكر بصورة غائمة حادث
ذهابك الى السينما ، ولكنك نسيت تماماً حادث فقدانك زر معطفك . فبالنسبة
للطفل ، فإن كل يوم جديد يحمل من الاثارة ما يختلف عن اليوم الذي سبقه .
والطفل بطاقته الذهنية الواسعة يتم بأوجه الاختلاف بين الأشياء أكثر من
إهتمامه بأوجه الشبه والتماثل بينها ، وهو يستطيع أن يتذكر بالضبط ماذا قلت
أو فعلت في يوم معين قبل ستة أشهر .

الا أن رغبة العقل في البساطة والنظام قد تصبح ذاتية التدمير ، ولقد أكد
نيتشه أنه أكثر أهمية للمرء ان يتساءل : « الحرية لماذا ؟ » من أن يتساءل
« الحرية من ماذا ؟ »

وليس للطفل أهداف معينة : إنه لا يريد أن يكون ثروة أو أن يعمل
عائلة كبيرة ، ولهذا ، فليس لديه ما يدفعه الى أن يحد من وعيه ؛ أما الكبار
فهنالك من الأسباب ما يدفعهم الى ذلك . فالإنسان الراشد يحد من وعيه لكي
يتقيد بنظام من القيم . ولكنه كسول فيما يتعلق بقيمه ، وهو قلما يفحصها أو
ينقدها ، فهو لا يستيقظ ذات صباح ويفكر :

« لقد جمعت من النقود ما يكفي لكي أسمح لنفسي بإطلاق العنان لبعض
الشيء لما في من شاعرية . سأسمح لنفسي الآن أن « أقف وأعاني » ، وأراقب
ظل النجوم في بحيرة ماء . » إنه لا يفكر في ذلك ، بل يستمر بفعل العادة في
أن يقصر وعيه وملاحظته للعالم حوله على عدد من التجريدات التي تساعد على أن
تبقى عاقلاً . وحتى اذا أصابه مرض مفاجيء أقعده عن العمل تماماً ، فإنه قد
يستمر في العيش على نوع من الخبز والماء النفاثي . إن « القيم » التي جعلته يختار

هذه « الحمية » قد اختفت ، لكنه يستمر في ممارستها بتأثير العادة . والنتيجة تبعاً لذلك هي إصابة مصادر أو ينابيع سعادته ومتعته بجفاف تدريجي . ذلك أن هذه « القيم » قد توقفت منذ زمن طويل عن أن تكون مصدراً حيوياً فعالاً لسعادته ، بالإضافة الى أنه جرّد حياته من بعض مصادر السعادة الأخرى . ولن يستغرب أحد حين يموت بالسرطان بعد خمس سنوات من تقاعده عن العمل .

فالوعي المصاب بسوء التغذية ينتهي أخيراً إلى أن يقوم باستهلاك نفسه . إن الوسائل التي يستخدمها هومرل وتستخدمها السيكولوجية الجيشتالتية ، هي خطوة عملية باتجاه « الرؤيا » أكثر من أي شيء اقترحه ووردزويرث أو بليك . إذا أمكنك أن تختبر نظام عمل القدرة الفارضة للشكل ، فإنه يمكنك كذلك أن تعدّل هذا النظام بحيث يسمح بدخول « الآخريّة » التي نستطيع أن نعرفها بأن نقول إنها مجرد الأشياء التي يستثنينا المرشح عادة . موجز الكلام أن الفنمنولوجية قد تطرح وسيلة يمكن بواسطتها العمل بصفة مؤقتة على إزالة « الفهومات » التي تحيط بوعي كل واحد منا .

والسؤال الجذري الذي تطرحه هو : « ما هو سبب محدودية الوعي الإنساني الغريبة هذه ؟ » وهذا السؤال يخطر على بالنا كلنا في وقت من الأوقات . إن عاملاً ما في مصنع ما ، يحس في ليلة رأس السنة بشعور من « الثقة المطلقة » والسعادة كما يصفها بروست . والخمرة « وروح العيد » تمنيهان ، ولكنها لا تفسرانه . وفي لحظة كهذه ، قد يتساءل هذا العامل بصورة مبهمة لماذا لا يحس بهذا الشعور طوال الوقت . والجواب على ذلك هو أن هذا الشعور لا يزيد من قدرته وكفاءته العملية الحياتية ، ذلك أن شعوراً دائماً من النشوة الذهنية سيلبّد القدرة على التحدي والاستجابة للأحداث التي « تبقى الإرادة قوية مشدودة . ومتى تمّ استيعاب كل هذه الحقائق الأساسية عن طبيعة الوعي والإدراك ، يتضح لنا بصورة أفضل عمق الدافع الجنسي ، ويمكن إيجاز هذه الاستنتاجات فيما يلي :

(أ) إن الناس يمتلكون إرادة لاواعية تقوم بترشيح واختيار إدراكاتهم .
(ب) ما لم يفهم الناس آليات « فرض الشكل » فلن يكونوا في وضع يمكنهم فيه أن يحكموا على مسائل تتعلق بمقزى وهدف الحياة والطبيعة الإنسانية الخ .
وكراعي البقر الذي أطلق الرصاص على أصبع قدمه الكبير في الظلام ، فقد يحسبون خطأ بعض أجزاء من ذواتهم وكأنها أجزاء غريبة عنهم أو دخلية عليهم .

(ج) إن « أبواب الإدراك » ذات نوابض قوية للغاية ، ويمكن أحياناً أن يفتح أحد هذه الأبواب فتحاً جزئياً ولفترة قصيرة لدخول النور والهواء ، أو بالأحرى « أخرى » العالم . ولكن هذه الأبواب تنغلق تلقائياً وبسرعة تاركة الوعي حبيس قبوها الضيق . ويبدو أن هذا هو أسلوب « قوة الحياة » في عدم تمكيننا من الإسترخاء أكثر من اللازم ، وفي استخراج أقصى قدر من الجهد من كل إرادة إنسانية .

إن الناس يجهدون كل الوقت لإدخال عناصر جديدة من « الآخرة » في حياتهم . فكل انجاز جديد يخلق إحساساً بالقوة ويفتح « باب » الإدراك لفترة وجيزة . ومع إن الإنجاز قد يكون مستمراً ، فإن الإحساس بالانتصار لا يدوم . فالباب ينغلق بسرعة ، ويحد الإنسان نفسه مدفوعاً إلى القيام بجهود إرادية جديدة .

فالناس إذن يسهون نحو غاية واحدة : تعميق الوعي . وقوى التطور تستغل هذا الهدف بنفس الطريقة التي نستغل بها قوة الجاذبية عندما نقيم محطة من محطات القوى الكهربائية على أحد الشلالات .

فقوى التطور هذه تعمل على أساس قاعدة لا يمكن أن نسميها إلا أنها عملية احتيالية . فهي 'تُبقي' الناس « فقراء » في الوعي ، مثلاً يُبقي صاحب العمل عماله فقراء بأن يفرض عليهم غرامات وضرائب كبيرة بحيث يسترجع منها تسعين بالمئة من أجورهم . وهذا الأمر يصبغ الحياة الإنسانية لا محالة بمظهر العبث والعقم الذي لاحظته الكثير من الفلاسفة ، فينهار الإحساس بالظفر مباشرة

تقريباً ، بحيث ان الانسان يضطر إلى أن يعيد الجدة والسعي من جديد .
وقد انتبه الفلاسفة الى هذا الأمر ، فأشاروا الى أن الانسان يحتاج الى الحيلة
والدهاء أكثر من الاصرار والعزيمة .

والفلاسفة هنا يقومون بدور المحرضين إذ أنهم يحاولون أن يجرؤوا الناس
على الثورة ضد هذا الاستغلال الذي تقوم به القوى البيولوجية ، فإذا كان
الاحساس بالظفر ، نتيجة لتحقيق انجاز ما ، أهم من الانجاز نفسه ، فإن على
الناس إذن ، أن يتعلموا كيف يسيطرون على عقولهم وعواطفهم ، لأنهم بذلك
قد يستطيعون أن يحتفظوا بإحساس الظفر هذا لمدة أطول ، أو أن يخلقوا فيهم
هذا الاحساس بدون عناء أو جهد طويلين وغير ضروريين . وهذا هو أساس
نظرية سقراط « اعرف نفسك » .

ويبدو أن القوى البيولوجية تعتمد على وسائل قهرية وفجة لإبقاء الكائنات
البشرية في دور العامل المستغل .

الحياة معقدة وصعبة ، ومجرد البقاء على قيد الحياة يتطلب أكبر قسط من
طاقتنا واهتمامنا . وقوى الحياة تستعمل الاسلوب الذي يعرف في أميركا
بـ « هرّع المتسكع » ، بمعنى أن هذه القوى تستحث وتستعجل الضحية التي
تختارها إلى الحد الذي تصاب فيه هذه الضحية بالبلبله والارتباك بحيث لا يمكنها
اكتشاف الحيلة الذكية التي تُتنفّذ ضدها ؛ وإلى جانب هذه التجربة المربكة
ومتطلبات الجسم الدائمة للغذاء والعناية ، هناك مشكلة « النابض » القوي
المركب على « أبواب الادراك » ، فحتى إذا أفلح الانسان في التوقف عن التفكير
وعن القيام باستعراض وضعه وحالته ، فسيجد من الصعب عليه أن يفكر
تفكيراً هادفاً متسلسلاً ، إذ أن الأبواب تظل تنغلق خلفه وتفرقه في الظلمة
من جديد .

ومضى تم إدراك ذلك إدراكاً تاماً فسيصبح من الأسهل فهم عمل الدوافع
الجنسية ونظامها .

بل إن الدون جوانية مثلاً تصبح مفهومة في التو . وإن بلوغ قمة النشوة

الجنسية هو أسهل وسيلة لتحقيق حالة مباشرة من تعميق الوعي . وهنا سُيشار إلى أن العادة السرية هي أسهل وسيلة لبلوغ قمة الشهوة الجنسية ، وليست هناك أية احصائيات أو كشوف تدل على أن الدون جوانين يمارسون العادة السرية أكثر أو أقل من الآخرين ، لكن ليس هناك في الوقت نفسه أي دليل يشير إلى أن الدون جوانية تتعارض مع العادة السرية . فالضابط السابق الذي ورد ذكره في الفصل السابق ، والذي ينتمي بطبائعه الى فئة الدون جوانين يقول إن العادة السرية هي في بعض النواحي أفضل من الجماع . وكازانوفا يقرّ بأنه استعمل يد الأنثى دي لامير ليمارس العادة السرية .

لكن العادة السرية لا يمكن أن ترضي الـ « أنا » في الانسان مثلاً يرضيها اغواء شركاء جنسيين جدد . فإن اغواء امرأة ما ، هو في حدّ ذاته نوع من تحقيق النجاس ما ، كما أن عملية الاستحواذ عليها جنسياً هي لحظة من تمجيد النفس ، وربما كانت كذلك لحظة من الشعور الروحي بأن « كل شيء على ما يرام » وأن الحياة ليست في النهاية هزيمة ، بل مغامرة رائعة .

وماذا كانت كل مخاوف الدنيا

تعني لـ « باريس » الجبار حين

وجد النوم على فراش ذهبي

بين ذراعي هيلين في ذلك الفجر الأول ؟

بعد ذلك مباشرة ينفلق الوعي مرة أخرى ، ويتعمق لذلك إعادة العملية بكاملها لبلوغ لحظة أخرى من البصيرة . ويعود « مركب النقص » يغلف العقل مرة أخرى ، ويرتدّ الإنسان الى الوضع الذي يحتاج فيه الى أن « يثبت جدارته وقيّمته » أمام نفسه . وإنه لمن صالح قوة التطور ، أن الانسان يجب أن يبقى على جهل بقوته الخاصة .

إن مبدأ الحدّ من الوعي هو مفتاح مشكلة الدافع الجنسي عند الانسان .

الفصل الرابع

معنى «الانحراف»

- ١ -

المحرم الجنسي. جريمة الدالية السوداء. القتل التشبيهي .
عدم الإمتياز الجنسي. الإنجاز الجنسي ومشكلة «الرؤيا» .
بليك الجنس . الانطوائي . اليسوت وتيرنز . في . اي .
هولم . دي ساد . كركيفارد ومذكرات غارم .

ان الاعتبارات السالفة تفتح أمامنا درباً جديداً لتفحص مشكلة الإنحراف الجنسي برمتها ، وأعني هنا التفحص الفلسفي وليس الباثولوجي (أي المختص بعلم الأمراض) . ومن السهل بمكان أن نعرف متى تكون آلة ما تعمل بانتظام ومتى يطرأ عطب عليها ، لأننا نعرف تركيب عمل هذه الآلة ونظامها ، ولكن يبدو أن الكائنات البشرية هي آلات تم تخريبها عن تعمد وأن شعوراً بالحياة والعبث « مخلوق » فينا، بحيث أننا لا نستطيع أبداً أن نعمل بقدرتنا القصوى، بل ان مقارنة مروعة تشير إلى أن الكائنات البشرية توضع في حالة من الحجز والإنطهاق النفسية تماماً ، كما تسمّن الخراف قبل الذبح .

وليس هناك من سبب « ميكانيكي » لكون الكائنات البشرية على هذا الحال المزري الذي يدعو إلى الشفقة .

إن الانحطاط والإحساس بالنقص مما « مزاجان » يولدما الشعور بالقصور والفشل بالهزيمة من قبل « الحاضر » . وليس هناك من سبب وجيه لشعور الفشل هذا عند الإنسان، لأن كل واحد منا يمتلك مخزناً هائلاً من الذاكرة يكفي لوعي وبصيرة « إله » على عمقها وضخامتها .

ولقد كتب ستينوبولف يقول : « لقد عرفت ثانية ، ما كنت قد نسيت في قعاسي ... وهو أن لبّ حياتي هذه هو لبّ نبيل » .

غير أن ما يؤسف له إنه لا يمكن الوصول إلى هذا الخزن الذاكري . فقد نشعر نحن أنه ضرورة ، لكن قوى التطور تشعر أنه حاجة كالية لا بأس إن حُرمت الكائنات البشرية من التمتع بها؛ وأكثر من هذا فإن هذا الخزن الذاكري قد يقلل من الكفاءة « التطويرية » لقوى التطور، وذلك لأن المزيد من الذاكرة ليست له قيمة بقائية وقد يشجع على الكسل . وعلى هذا فإننا يجب أن نفتح

هذه اوجبة الشحيحة غير المفذية من الوعي ، على الرغم من أننا نعلم انه ليس هناك من سبب وجيه لكي نحرم من وليمة دسمة منه .

لقد بلغت حياتنا في القرن العشرين حداً من التعقيد بحيث أنه أصبح حياً وقت أقل من ذي قبل للإستراحة والإسترخاء والهروب من الضرورات التكرارية للوجود المادي . وفي ظروف كهذه فإنه ليس من المستغرب أن نجد انسياقاً متزايداً نحو الحركات البسيطة للوعي كالخمرة والتدخين والمخدرات والجنس .

وإلى جانب ذلك فثمة الآن فارق في النوعية الفعلية لإهتمامنا بالجنس ، وهذا يعود إلى أن الجنس أخذ يتحول إلى مادة « للتأمل » بدلاً من مجرد إنغماس جسدي . والجنس في المجتمعات البدائية هو مجرد شيء يقوم به الرجل إذا واثه الحذل فاستحصل على فتاة في مكان مظلم ما . والجنس هنا عملية جسدية لذيدة لا تشغل الفكر كثيراً بقية اليوم . أما في أيامنا هذه ، فإن الأشياء التي تذكرنا بالجنس كثيرة ، فالنساء يرتدين ملابس مغرية ومكشوفة بطريقة تجعل الرجال يحسون بما يمكن أن يقدمه لهم في الفراش ، وصور الإعلانات ملأى بصور نساء في ملابسهن الداخلية ، كما أن بعض المؤلفين ومنتجي الأفلام قد اكتشفوا الفوائد التي يمكن جنيها من جعل انتاجهم قريباً من الفحش ، وتساعد في ذلك الدعاية الصحفية التي ينالها مثل هذا الإنتاج من الكتب والأفلام ، حيث تضمن الزواج الهائل .

كل ذلك يثير مشكلة من نوع جديد ، فالمحارب الصليبي الذي لم يضاجع امرأة ما طيلة خمسة أعوام ، سيكون قد ذاق الكثير من المرارة والخيبة ، ولكن هذه المرارة والخيبة كانتا تذوبان في أول ماخور « مسيحي » ، كان هذا المحارب الصليبي يحده في طريق عودته . وسرعان ما يطرأ عامل عقلي على الرغبة الجسدية ، ليدفعها إلى ما خلف حدودها العادية . وقد كتب بوسويل أن الدكتور جونسون كان يلتهم طعامه كوحش جائع ، وأنه كان يفضل اللحوم قليلة الشواء ، وذلك لأنه جاع كثيراً في سنواته المبكرة . وهناك قصة رائعة لأكوتاجاوا ، وهو موباسان اليابان ، تدعى « عصيدة اليام » ، وهي تتحدث عن جندي صغير مسالم ، نصف جائع تتملكه تصورات شبه جنونية عن وجبته

المنفعة المادية ، عصيدة اليام ، ، بحيث أنه كان يقضي أيامه وهو يتخيل اللذة التي سيحصل عليها لو أنه التهم كميات هائلة من أكلته هذه . (ومن الطبيعي هنا ، أنه كان يشعر بالعياء والغثيان والحجل حين تتاح له الفرصة في النهاية ، عندما يأكل كمية ضخمة من العصيدة) .

وحين يقال إن هذا العامل العقلي يدفع الرغبة الجنسية إلى أبعد من حدودها العادية فإن ذلك لا يعني أنه يجعلها غير طبيعية نوعاً ما . إنه قد يدفعها لتذهب إلى أبعد من حدودها « الطبيعية » ، لكن الطبيعة ، كما استنتجنا من الفصل السابق ، تبقى عمداً في حالة تحت الطبيعة وذلك لكي تبقى إرادتنا مشدودة . وهكذا فإن « تجاوز الحد الطبيعي » لا يعني بالضرورة عملاً غير طبيعي . ونجد توضيحاً طريفاً لهذه النقطة في رواية فيليب دي بروين حيث يتكلم عن حياته الذاتية باسم « تسبيح وثني » A Pagan's Hosanna . يروي دي بروين كيف أنه أبصر يوماً فتاة جميلة بملابس السباحة على شاطئ البحر وكيف أنه أحس برغبة جامحة عنيفة نحوها . لكنه يضيف : « المشكلة هي أنني كنت أدرك أن هذه الرغبة غير قابلة للإشباع ، فقد أتعرف على فتاة وأقنعها بأن تضاجعني . ولكن ذلك لن يشبع ما أحس به الآن . فإن مضاجعتها في المستقبل ستكون نسخة كربونية من الرغبة التي تملكني الآن بأن أطرح الفتاة على الرمال الدافئة وأنزع رداء السباحة الذي تلبسه ثم استحوذ عليها بالتحام فوري عنيف بين جسدينا » . وهذا شيء مهم ، فإن دي بروين يدرك أن هذه الرغبة نحو فتاة مجهولة هي أعنف وأعنى بكثير من الرغبة التي قد يشعر بها في وقت لاحق نحو فتاة يعرفها شخصياً وترضى بأن تصبح عشيقته . ومن المزعج حقاً أن نفكر بأنه لو كان دي بروين رجلاً مختلفاً أو أنه لو كان الشاطئ مهجوراً فإن الفتاة قد تتعرض للإغتصاب وربما للخنق لأشباع حاجة لا يمكن تحقيقها بشكل آخر .

وهذا لا يعني طبعاً أن هناك رغبات جنسية « طبيعية » لا يمكن إشباعها إلا بواسطة الاغتصاب . ودوماً نغفل إلى الحديث عن الرغبة الجنسية ووسيلة إشباعها وكأنها مرتبطتان منطقياً مثل الجوع وتناول وجبة طعام . إن مثل

هذا الترابط غير موجود . فليس هناك قانون معين تزيد أو تقل الرغبة الجنسية بموجبه . فالحاجة الى اشباع الرغبة تلعب دورها ، لكن هناك كذلك تعقيداً مادياً ونفسياً يعصى على التحليل . (في حالة حارس المدرسة الذي قتل الطفلات الثلاث ، مثلاً ، فإن خبرة القاتل الجنسية السابقة كانت واسعة جداً وفاسدة بعض الشيء . ومع ذلك ، فإن الحاجة الى اشباع الرغبة لا يمكن أن تكون هي وحدها سبب الجريمة ، فقد قال لبول دي ريفر انه لم يختبر من قبل أي اشباع كامل لرغباته الجنسية ، وأنه قد شعر بعد ذلك - أي بعد الاعتداء على الطفلات - « براحة كبيرة وبارتواء جنسي عارم ») .

وليس هناك سبب لكون عملية جنسية معينة تخلق « ارتواء تاماً » أكثر من كون قصيدة ما ، أو قطعة موسيقية ما ، تؤدي إلى حالة من انعتاق للعواطف . وميلنا إلى الربط بين الرغبة الجنسية ووسيلة اشباعها حسب معادلة عادية صارمة ، يعكس نفس الاسلوب المتفكك القفضاض من التفكير الذي يجعلنا نعامل ادراكاتنا وكأنها « ممنوحة » لنا بطريقة ما . والأمر يحتاج فقط الى عملية من « التحليل الفنمنولوجي » لكي تجعلنا ندرك « العمدية » الخفية التي تختار هدفها الجنسي الخاص .

وعلى كل حال فإن فكرة « الارتواء الجنسي النهائي » تؤدي الى طريقة طريفة لإعادة تأكيد السؤال الوارد في الفصل الأول . فبدلاً من أن نسأل : « أين هو الحد الفاصل بين الطبيعية والانحراف ؟ » نستطيع أن نعيد تركيب السؤال على الوجه التالي : « ما هو الحد المسموح به لكي يبلغ الانسان الارتواء الجنسي ؟ » ففي الصيغة الأخيرة للسؤال ، يمكن الوصول بالتحليل إلى مدى أبعد جداً . ذلك أن هذه الصيغة تحمل عدة أفكار أثبتت في الفصل السابق . فكلية « المسموح بها » ستؤدي مباشرة الى هذا السؤال : « مسموح بها بمن وبناء على أي مستوى من القيم ؟ » وفكرة وجود حد للارتواء الجنسي تثير مرة أخرى قضية تخوم الوعي الانساني ومن ثم قضية « الرؤيا » .

ولنؤكد هنا على نقطة واحدة ، لأن هذه النقطة هي مفتاح كل نقاش حول

الجنس ، كما وأنها تكون جوهر وجهة نظر هذا الكتاب :
في الحديث عن القيم فيما يتعلق بكافة أشكال النشاط الجنسي فإن « الحشد
من الوعي » هو العامل الأثيم ضمن العوامل الأخرى .

فإذا كان يجري بحث هذه القضية باللغة الدينية للعصر الفيكتوري فإنه يصبح
بالامكان استعمال كلمات مثل « الله » و « الخطيئة » مما سيساعد كثيراً على
تبسيط الحديث ، فإذا ما أدخلت مثل هذه التعبيرات في البحث الحالي على
شكل مفاهيم ضمنية (لتعبيرات مثل « مسموح به » و « الطبيعة » و « القوة
البيولوجية » الخ .) فعلينا أن نفهم أن ذلك سيكون مجرد الراحة وتوفير
الجهد ، تماماً كما يستعمل الرياضيون أرقاماً خيالية (الجذور التربيعية لما تحت
الصفير .) فإن هذه التعبيرات تحمل من الظلال والمعاني ما لم يستطع البحث أن
يحدد مفهومات وتعريفات لها حتى الآن .

وعلى كل حال فإن الفكرة الأساسية من هذا الكتاب لا تقدر مشوهة حين
تُطرح على هذا الشكل وهو أن الحشد من الوعي هو العامل الأثيم ضمن العوامل
الأخرى ؛ فإن هذه الفكرة ليست تبريراً « للانحراف » الجنسي أو الجريمة
الجنسية ، لكنها على الأقل تمنحنا الوسيلة لفهمها وإدراكها . إن أي أم تجد
نفسها مدفوعة إلى السرقة لأطعام أطفالها ، تكون رغم كل شيء قد أقرت
جناية . لكن أي قضاء لا يأخذ بعين الاعتبار الدافع أو الدوافع إلى السرقة ،
لا يمكن أن يكون قضاء عادلاً .

إن الكائنات البشرية محرومة من وعي هو « ملكهم وحقهم الطبيعي » .
ولقد كتب الدكتور سي . دي . برود يقول : « إن كل شخص يستطيع أن
يتذكر في كل لحظة ما قد حدث معه ، وإن يدرك كل شيء يحدث في هذه
المعمورة . وعمل الدماغ والجهاز العصبي هو حمايتنا لئلا يطفئ علينا أو يبلبلنا
هذا الحشد من المعرفة غير المفيدة وغير المتعلقة بالموضوع ، وذلك عن طريق
إغلاق الباب في وجه معظم ما كنا يجب أن ندركه ... »
(التشديد على « إغلاق الباب » هو مني) .

وقد كان برغسون أول من عبر عن هذا الرأي ، وفي الفصل السابق كنت قد تحدثت بصورة مقتضبة عن « القوى البيولوجية » التي تقوم عدداً بوضع غمائم على الوعي الانساني لكي ترفعه الى قدرته القصوى . الا أنه يجب أن نذكر دائماً أن عملية وضع الغمائم هذه قد تكون كذلك متعمدة من قبل الوعي الباطن . وقد ندرك نحن بأنفسنا الحاجة الى الحدّ من وعينا (ومن ثم الحدّ من « سعادتنا ») ، لكي تعبر عن حيولتنا القصوى . وفي تلك الحالة فان الوسيلة المثالية للتعبير عن أنفسنا ، ككائنات بشرية ستشتمل على توازن ما بين عمديتنا اللاواعية هذه ، وبين رغائبنا الواعية .

وإذا أخذنا كل ذلك بعين الاعتبار ، فإننا سنستطيع أن نعالج قضية « الحدود المسموح بها » في النشاط الجنسي الانساني على اعتبار أنها قضية تتعلق بمدى امتداد الوعي . والأهداف والدوافع التي تقف خلف النشاط الجنسي هي ذاتها التي تقف وراء قراءة الشعر أو الاستماع الى الموسيقى ، وهي التخلص من القيود أو الحدود التي تفرضها الحاجة إلى الخاصية في الوعي . وقد كتب ازرا باوند مرة :

... انني أنا

هنا شاعر ينهل من الحياة

كما يشرب الرجال الأقل الحرة

وازرا باوند هنا قد عرّف الهدف المشترك لكافة الناس :

إنهم كلهم يحبون أن « ينهلوا من الحياة » كما يشرب الآخرون الحرة . وفكرة باوند هذه خليقة بشاعر فقط . ومرة قال ممنغواي إن مصارع الثيران هو وحده فقط الذي يعيش حياته كل مداها إلى فوق .

وهو بذلك يشير إلى أن الجرأة الجسدية هي وسيلة أفضل لتعميق وتركيز الوعي . وهناك نادرة ، ذات مغزى مزعج عن طالب صغير سئل يوماً عن طموحه عندما يكبر ويصبح رجلاً ، فأجاب بإقتضاب : « مجنون جنسي » (بمعنى الإنسان المصاب بالهوس الجنسي ، أي الإنسان الذي لا يفكر إلا في

الجنس .) والطريف أن كثيراً من الناس يعتقدون أن « المحنون أو المهوس الجنسي ، هو من القليلين في المجتمع الإنساني الذين يستطيعون أن « ينهلوا من الحياة ، بطريقة حرم منها الآخرون . وهذا الرأي له ما يبرره إلى حد ما . ولقد اقتنبت قبل قليل الملاحظات التي دوّنها فيليب دي بروين عن الفتاة التي كانت تسير على الشاطئ ، وعن الإحساس الذي اجتاحه بأن الاغتصاب (أو على الأقل الاستحواذ الفوري) قد يكون الوسيلة الوحيدة لارواء الرغبة التي ثارت فيه .

أما هنري باربوس فقد أثار نقطة مماثلة في بداية رواية « L'enfer : يصف الراوي عشاء في بنسيون « محترم ، يقوم أثناءه أحد الجالسين بالتحدث عن جريمة جنسية تمت مؤخراً . ويلاحظ الراوي أن كل واحد من الجالسين قد سرى إليه بعض انفعال ، حاول أن يخفيه ، بما في ذلك أم طفلة صغيرة ، لأنهم أحسوا بحسد خفي نحو مقترف الجريمة الجنسية .

ولقد قلت في مكان آخر بأن أية دراسة تجري على الجرائم الجنسية « التشبيهية » ستكشف عن وجود مثل هذه الرغبة المكبوتة . والبوليس يستاء من قيام الصحف بنشر تفاصيل جريمة جنسية ما ، لأن ذلك يؤدي أحياناً إلى حدوث عدد كبير من الجرائم التي تتشبه بتلك الجريمة بالذات وتقلدها تبعاً للتفاصيل المنشورة . (وقد كتب تشارلز جاكسون رواية مؤثرة حول هذا الموضوع بعنوان « الأطراف الخارجية » ، The Outer Edges) .

وجريمة زهرة الداليا السوداء التي وقعت في لوس أنجلوس عام ١٩٤٧ تثبت ذلك . فقد قتلت اليزابث شورت ، وهي ممثلة فاشلة ، تبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً ، بطريقة فظيعة وغير عادية . ووجدت جثتها في باحة خالية ، مقطوعة من الخصر إلى قسمين ، والعلامات تدل على أن الفتاة قد علقت من قدميها وعذبت قبل قتلها .

ثم تلقى البوليس رسالة من مجهول ادعى أنه هو القاتل ، وعرض أن يسلم نفسه ، لكنه لم يفعل ذلك أبداً . ومن المحتمل أن مقترف جريمة الداليا

السوداء قد أستوحى في جريمته أسلوب قاتل آخر اسمه أوتو ستيف ولسون ، الذي قتل بغيين خنقاً وشوه جثتيهما في اليوم نفسه من عام ١٩٤٤ وفي لوس انجلس بالذات . (إن دي ريفر يروي تفاصيل هذه الجريمة كذلك) وسواء أكان ولسون هو الذي أوحى بجريمة الداليا السوداء أم لا ، فإن من الحقائق الثابتة أن جريمة الداليا السوداء كانت هي نوعاً ما ، مصدر الوحي لموجة من الجرائم الجنسية التي اجتاحت المجلس عام ١٩٤٧ . فقد وقعت ست جرائم مماثلة لها في نفس العام وفي المنطقة نفسها . بل إن مقترف إحدى هذه الجرائم خطف حربي B . D ، (وربما كانا أول حرفين من كلمتي الداليا السوداء) على صدر ضحيته بأحر الشفاء . وقد اعترف (٢٧) رجلاً بأنهم مقترفو جريمة الداليا السوداء ، ثم تبين ان اعترافاتهم كانت كاذبة . وبعد تسع سنوات تلقى البوليس الاعتراف الثامن والعشرين ، وكان من امرأة محاقية . وقد يصح أن نعتبر هذه الاعترافات الثاني والعشرين كنوع من البديل لجريمة تشبيهية ، فهي كلها صادرة عن نفس الفيرة من تجربة القاتل وعن رغبته في المشاركة في هذه التجربة .

هنا إذن حالة أدت فيها جريمة جنسية سادية واحدة إلى (٣٤) رد فعل مماثل ... ست جرائم قتل ، و (٢٨) اعتراف كاذب ... في منطقة بحجم لندن . ترى كم واحداً من سكان لوس انجلس الآخرين أحس بنفس الفيرة من تجربة القاتل ، لكنه أبقي رغبته في تقليدها ، في حدود الخيال ؟ .

ومع ذلك ، فمن حسن الحظ أن غالبية الناس يعتبرون مثل هذه الجرائم فظيعة ومروعة بحيث أنهم لا يشعرون نحوها الا بالنفور والاستهجان . فإن معظم الناس يكرهون بكل جوارحهم أن يلحقوا الأذى والألم بالآخرين ، ولكن المصابين بالهوس أو الجنون الجنسي ليسوا كلهم ، بل ليس أغلبهم ، قتلة . يروي دي ريفر قضية رجل اقترف جريمة اغتصاب ، وكان مصاباً باختلال في قواه العقلية . كان الرجل ذا ذكاء محدود جداً ، وقبل أن يلقي القبض عليه بتهمة الإغتصاب ، كان قد سُجن عدة مرات لإفترافه جرائم « الكشف عن عوراته » والتعرض للفتيات في الشوارع . وكان يلجأ إلى الأسلوب نفسه

دائماً ، إذ كان يلوح بسكين ضخم حاد أمام ضحيته ويأمرها بخلع ثيابها . ويظهر بأن مظهره الشرس كان يوحى لمعظم ضحاياه بأنه لن يتردد في استعمال السكين . وقد سمحت له ضحاياه ، وكنّ ثلاث نساء وطفلة في التاسعة من عمرها ، بأن يمارس مختلف العمليات الجنسية معهن بما في ذلك اللعق من المهبل . وكان في كل الحالات يترك ضحيته بسلام بعد أن يكون قد بلغ النشوة الجنسية ، دون أن يتعرض لها بالمزيد من الأذى . وفي حالتين من هذه الحالات على الأقل أبدت ضحيته نوعاً من الاستجابة الإيجابية في محاولة لمداراة موقفها التعسّ ، بل إن أحدهما طلبت منه أن يكف عن تهيجها وأن يتابع مهمته . ولعل هذا أقرب إلى ما خطر على بال الطالب الصغير في النادرة السابقة حين قال بأنه يرغب في أن يصبح أحد المجانين الجنسيين .

عدم التمييز الجنسي

إن ما تقدم ينقلنا إذن إلى واحدة من أكبر المشاكل التي تواجه المدينة المعاصرة ، وهي مشكلة « عدم التمييز الجنسي » . قبل قرن من الآن كان عدم التمييز الاجتماعي هو المشكلة الرئيسية ، وكانت المجتمعات على الأخص في انكلترا وروسيا ، في طور التغيير ، فلم يكن هناك التقسيم البارز بين الإرسقراطي والفلاح بصورته القديمة ، كما ولم يكن هناك الإحساس باللاطبعية كما في أميركا المعاصرة ، وإلى حد أقل في انكلترا بعد الحرب . وكانت النتيجة نشوء حالة دائمة من عدم الإستقرار الاجتماعي رافقها كثير من حوادث العنف .

وفي وقتنا الحاضر فإن عصبانية عدم التمييز الاجتماعي قد اختفت تقريباً . لذلك فإن أية محاولة لفهم المشاعر الواردة في روايتي درايزر « مأساة أميركية » ، American Tragedy و « جون هاليفاكس جنتلمان » ، فهما تأماً تحتاج إلى عملية عطف ، كما أن عجرفة دزرائيلي وأوسكار وايلد لها نكهة غريبة زخمة . أما آخر كاتب انكليزي كبير كان قد تأثر بشعور عدم التمييز

الإجتماعي فهو د . ه . لورنس . أما الاستثناءات التي تخرج بين الفينة والأخرى كرواية إيفلين فوو « عودة إلى برايد شيد » Brideshead Revisited أو حق رواية جون برين « مكان في القمة » Room at the Top فلها في وقتنا هذا وقع كوقع التقليمات ، الأمر الذي يدل على المسافة الكبيرة التي قطعناها في الطريق إلى مجتمع لا طبقي .

الا أن الاضطراب الإجتماعي السائد في القرن التاسع عشر انتقل الآن إلى حقل الجنس . فقد راحت نسبة الجرائم الجنسية ترتفع باستمرار منذ ما قبل الحرب . أما النسبة الحالية في انكلترا فقد بلغت بالفعل ثلاثة أضعاف ما كانت عليه قبل الحرب . وهذه مسألة سأبحثها بتفصيل أكثر في الفصل التالي . أما الآن فيكفي أن نشير إلى أن أحد الأسباب الرئيسية لهذا الازدياد في نسبة الجرائم الجنسية ، هو ازدياد وسائل الإثارة الجنسية . ولقد اشتكى تولستوي من كثرة وجود الجنس في المجتمع الروسي في القرن التاسع عشر . وليس من الصعب أن نتصور ماذا سيكون رد الفعل لديه ، لو عاش في أية مدينة كبيرة ، في العصر الحالي حيث دور السينما تعرض أفلاماً مثيرة ، وحيث تعج الإعلانات بصور نساء نصف عاريات ، وحيث تباع في المكتبات روايات شبه داعرة .

ونتيجة كل هذا ، نرى الشعور الذي عبر عنه فيليب دي بروين هو الآن أكثر انتشاراً عما كان في أي وقت من الأوقات . ويعود هذا بصورة جزئية إلى جنوح الإنسان لحسد الآخرين بسبب ممارستهم الجنسية ، وإلى أن يعتقد بأن الغير يتمتعون جنسياً بأكثر مما يتمتع هو .

وما يشجع هذا ، مع الأسف ، هو ما تنشره الصحف من تفاصيل حول الجرائم الجنسية . وهذا الحسد قد يوجه إلى قطاعات من المجتمع يعتقد أن المفاهيم والتصرفات الجنسية عندها مطلقة الحرية^(١) كقطاعات الفنانين والمجرمين

١ - كتبت مقالاً لجريدة انكليزية في عام ١٩٦٠ أصف فيه حياة جماعة من « البوهيميين » الذين كانوا يقطنون معاً في منزل ماء في حي تشايزي بلندن. وذكرت في مقالتي هذا أن النساء بين هذه الجماعة كن تقريباً « مشتركات » بين الجميع . وإذا بالرسائل تنهال عليّ ، تسألني =

والمومسات النخ . وهناك أحيان تبدو فيها حتى الجنس هذه شبيهة بحمى البحث عن الذهب في القديم ... مجرد رغبة داهمة للفوز بأي مغنم جنسي .

وقد يخالفني البعض الرأي في أن قصة «لوليتا» لنا بوكوف تدور في الأساس حول هذا الاحساس بعدم التمييز الجنسي ، وليس حول مجرد علاقات جنسية بفتاة قاصرة . فلهفة «مهربت» إلى لوليتا ، هي لهفة إنسان هذا العصر إلى المحرّم . ومهربت هذا فيما يبدو يحتوي في داخله على كل بذور الانحرافات الجنسية فيما عدا السادية . فهو يمارس العادة السرية على مقاعد الحدائق العامة فيما هو مختلس النظر الى ما تحت ملابس الفتيات الصغيرات وهن يرفعن أقدامهن لاحكام رباط أحذية التزلج ، أو هو يحتك بساقي لوليتا ليتوصل الى نقطة القذف . وغرضه الأصلي من لوليتا ليس القيام بغوايتها ، بل أن يخردها عن طريق الحبوب المنومة لكي يستعملها كوسيط جنسي سلمي دون أن يعتدي عليها أبداً . وهذه الحالة قريبة جداً من الوله الجنسي بالجثث .

لكن بغض النظر عما إذا كان ذلك عن تعمد أم لا ، فإن نابوكوف قد خلق من لوليتا بلا شك ، رمزاً قوياً للمعنى المعاصر لعدم التمييز . وليست هناك فيما أعتقد سوى وسيلتين اثنتين فقط لمعالجة هذا الموضوع معالجة روائية : الكتابة عن مفتصب أو قاتل جنسي ، أو الكتابة عن شكل آخر من أشكال الانسياق الجنسي التي تعتبر محرمة تماماً .

في القرن الثامن عشر كانت الخيانة الزوجية من «الشرور» التي كان التعرض لها يكفي لخلق حالة فنية من الثورة الاجتماعية . أما في أواخر القرن التاسع عشر ، فقد أصبحت الخيانة الزوجية من الأمور الشائعة في الرواية والقصص (وخاصة في فرنسا) .

إن المرادف القصصي في القرن العشرين لروايات مثل «مانون ليسكو»

= عن عنوان المنزل . ولم تكن الرسائل ، كما قد يتوقع البعض ، من فنانين أو طلبة الفنون ، أو بوهيميين آخرين ، بل كانت من «أشخاص لهم مكانتهم الاجتماعية المحترمة» ، ومن بينهم أستاذ ومحام . وقد ادعى هذان الرجلان بأن غرضهما هو القيام « بدراسة » لهذه الجماعة . (المؤلف) .

« Manon Lescaut » أو « أميرة كليف » « The Princess of Cleves » ، هي رواية مثل « ياما » Yama (وهي عن مآخور) من تأليف كوبرين ، أو رواية مثل رواية باربوس « الجحيم » (وهي عن أحد المصابين بشذوذ اللذة الجنسية عن طريق استراق النظر) . أما روايات « البحث » Recherche لبروست ، و « أريليس » Ulyssee لجويس ، و « بشر الوحدة » Well of Loneliness لرادكليف هول ، و « المكان المقدس » Sanctuary لفوكنر ، فهي قد وسعت الآفاق إلى درجة أن أي إنسان قرأ هذه الروايات كلها لن يكون بإمكان أية اباحة جنسية أن تصدمه .

وقد كانت رواية فوكنر بداية موجة من الكتب التي تدور حول رجال العصابات والسادية والاعتصاب أشهرها رواية من تأليف هادلي تشيز بعنوان : « No Orchids^(١) for Miss Blandish » والموقف الأخلاقي الذي تقفه هذه الرواية هو من التطرف بحيث أنه قد يصح مقارنتها بمؤلفات المركز دي ساد . وإن أي ناشر محترم يمكنه اليوم أن ينشر كتاباً لو صدر قبل ثلاثين عاماً ، ولم تحريره ، ولسبق ناشره إلى المحاكمة . بل إن النقاد نادراً ما يكلفون أنفسهم مشقة التعليق على مشاهد جنسية مثل عملية إغتصاب أو علاقة جنسية بين رجلين قد ترد في رواية ما^(٢) .

١ - أركيديا ، نوع من الزهور .

٢ - تنقسم مثل هذه الروايات إلى قسمين : روايات يكون فيها « الجنس » وسيلة لغاية ما ، مثل « لوليتا » أو روايات أنجوس ولسون (التي تدور صراحة حول اللواط) ، وروايات ذات محتوى أقل عمقاً مثل « Peyton Place » أو « The Chapman Report » التي يكون فيها الجنس كما يبدو غاية في حد ذاته . وهناك بالإضافة إلى ذلك روايات « بين بين » مثل « لتكن الرغبة ملعونة » « Damed Shall be Desire » لكولتر ، وهي رواية خيالية عن حياة موباسان ، وهدفها في الأساس ، هدف جاد وعميق ، ولكنها تحتوي على بضعة مشاهد ، مثل حوادث اغتصاب ووصف مفصل لفتاة وهي تتعمرى ومعركة بالسيات بين امرأتين ، ولو نشرت قبل ثلاثين عاماً لمنعت على اعتبار أنها من روايات الدعارة . أما اليوم ، فليس من يحتاج . (المؤلف)

وكل هذا يعني أنه من المستحيل تقريباً كتابة رواية في النصف الثاني من القرن العشرين عن عدم التمييز الجنسي ، لأن كل الرموز قد فقدت معنى الصدمة . ولعل اختيار نابوكوف لوليتا كرمز كان هو الاختيار الممكن الوحيد ، إلا إذا استثنينا ربما الاعتصاب الجماعي . وهذا يعود بالبحث إلى السؤال الذي وجهته في مستهل هذا الفصل :

ما هي الحدود المسموح بها للنشاط الجنسي الإنساني ؟

إن مهربت بطل رواية نابوكوف « لوليتا » يقول بوضوح :

إن مجتمعاً لا يسمح له بمضاجعة الفتيات الصغيرات هو مجتمع لا يعامله معاملة عادلة . (وحل مشكلة أي شخص حقيقي مثل مهربت هو ببساطة أن يذهب مثل هذا الشخص إلى الهند أو أفريقيا الشالية حيث يمكنه أن يحصل على أي عدد من الفتيات الصغيرات دون أن يثير أية معارضة أو كلمة تعليق واحدة . وهذه الحقيقة هي في الواقع من بين الأسباب التي تجعلنا نعتبر حالة مهربت ، حالة رمزية) . وبطلة رواية رادكليف هول ، هي كذلك التماس أو دعوة لسلاح السحاق .

ومن الطريف أن نلاحظ التفسير الذي يعطيه مهربت لولعه بالفتيات الصغيرات ذوات الاثني عشر عاماً . فمهربت كان قد وقع في الحب وهو في الثانية عشرة ومارس تجربة جنسية فطرية مع الصبية التي أحبها بحيث أحس بشعور قوي من الحرية ومن الشاعرية لم يعاوده بعد ذلك أبداً . ولقد سبق وأثمرت إلى الشبه بين اللغة التي يصف مهربت فيها مشاعره حين يلامس لوليتا ، واللغة التي يصف بها كل من بروست وهيس تلك الإشعاعات الروحية الفجائية التي يحسنان بها .

يتحدث مهربت عن حبه الأول ، أنابيل ، فيقول : « لكن غابسة الميموزا هذه - سديم النجوم ، الحذر ، اللهب ، قطرات الندى العسلي والالم - كلها ظلت معي ... ومنذ ذلك الحين ، وتلك الفتاة الصغيرة يجسدها الساحلي ولسانها المتحمس يلاحقني طيفها أبداً ... »

ويوجد هنا فارق واضح بين دفاع مبرت عن نفسه ، وبين دفاع بطلا « بشر الوحدة » عن نفسها . يقول رادكليف هول ، مؤلف بشر الوحدة ، إن بنتاً نمت وربيت كأنها صبي لا يمكنها أن تتألم أية متعة جنسية عادية إلا إذا سمح لها بأن تعيش وتتصرف كأنها ذكر . أما مبرت فهو لا يجادل عن نوع المتعة الجنسية التي يسعى إليها معظم الناس ، بل إنه في الواقع يقول ما معناه بأنه شاعر ، وأنه يملك قدرة الشاعر فوق العادية على أن « ينهل من الحياة كما يشرب الرجال الأقل الحجرة » وهو أهل لأن يسمح له باتباع الطريقة التي يريد بها للوصول إلى تلك النشوة فوق العادية . والتباس رادكليف هول معقول واجتماعي ، أما التماس مبرت فهو ليس كذلك أصلاً ، لأن جوهر الشعر غير عقلي وغير اجتماعي .

ونتيجة لذلك تنشأ مشكلة جديدة في أي بحث عن ما هو « مسموح به » ، إن معظم أحكامنا الأخلاقية مبنية على المناخ الاجتماعي الراهن أو الوضع الاجتماعي القائم (فيما يتعلق بمنع الكتب مثلاً) فإذا يحدث إذا ما بنيت الدعوة إلى التحرر الجنسي على أية مثل اجتماعية أخرى ؟ فالمجتمع الأونيدي يصلح لأن يكون مثلاً عملياً . كان نويس يريد أن يعلم الناس بأن يتمتعوا « بحرية أكثر » من تلك المتوفرة في مجتمع رأسمالي يقوم على المنافسة . وقد كانت رؤيته للحرية الأوسع تقوم من بين ما تقوم عليه على اعتبار المتعة الجنسية وكأنها وسيلة مرغوبة للانتشاء الروحي عند الانسان كمتعة الشعر أو الموسيقى ، أو التهويم الديني .

ومن الصعب التكهن بما كان نويس سيقول عن التماس مبرت ، إن كانت من المحتمل بأنه كان سيعتبره معقولاً .

وبالطريقة ذاتها ، فإن الشيوعيين الأوائل في روسيا كانوا يشيرون بحرية الحب كجزء تبعي هام من الحرية الاجتماعية الجديدة . ومن المهم أن نلاحظ ، أن القادة العصريين في روسيا قد وجدوا ذلك غير عملي . أما نويس فقد نجح في المحافظة على الأسلوب الأخلاقي لجماعته الصغيرة ، ولكن الحرية الجنسية التامة والجسدية الثورية شريكان يصعب التلاقي والتعاون بينهما ، كما أن الأمر يتطلب قدراً كبيراً من اليقظة والانتباه لمنع أي منها من استثناء الآخر وحجبه كلية .

ولقد اضطر القادة الروس إلى اجراء تسوية فاصلة وإلى المحافظة على جدية الثورة وذلك باتخاذ موقف مشابه لتلك المواقف السارية في عصر الملكة فكتوريا من الجنس والعائلة^(١) .

إن آراء ولم بليك عن الجنس هي أقرب إلى مجرى بحثنا هذا، وهذه الآراء قريبة من آراء نويس في مجالات عديدة . ولكن بليك كان إنساناً يملك رؤيا دينية خاصة ، أما نويس فكان مجرد مصلح ديني . وعلى عكس معاصريه ، كان بليك يؤمن أن الجنس شيء بريء ومرغوب وعنصر هام من تجربة الإنسان الجمالية والروحية . ولقد نفى بليك مثل ويتان ولورنس التفرقة الحادة بين الجسد والروح (وبالتالي بين الرذيلة والفضيلة) . وقوله إن « الطاقة هي البهجة الأبدية » توقع لنظرية الفنمنولوجيا وكذلك الإدراك بأن « المرشح » يصبح أكثر قسوة وصرامة كلما يحسّ العقل أكثر فأكثر بالتعب .

إن المعاني التي تتضمنها نظرة بليك - نويس في الجنس ، يجب أن تستوعب بوضوح لأنها مفتاح قضية اللاطبيعية أو اللاعادية الجنسية . وفي مسرحية « البيت التعتيس » Heartbreak House ، يدفع برنارد شو إحدى بطلاته « إلي ، إلى » إلى أن يجادل بأن « الروح » تجوع عند عدم وجود نقود .

« إن الاعتناء بالروح أمر باهظ جداً أكثر بكثير من الاعتناء بسيارة .. إن طعامها هو الموسيقى والصور والكتب والجبال والبحيرات والملابس الجميلة والأصحاب الجيدون . وفي هذا البلد لا يمكنك أن تحوز على هذه الأشياء بدون الكثير من النقود . وهذا هو السبب في جوع أرواحنا الخفيف » إن بليك ونويس سيوافقان بقوة على ذلك وسيضيفان إلى قائمة « الحاجات الخاصة بالروح » عند

١ - يخفى أن أتينا هنا أنني أحس ببعض العطف على موقف الزعماء الروس ، فهذا النوع من التسوية بين الحرية والنظام الذي فقد في روسيا قد يكون متعارضاً تماماً مع أسلوب تفكيرنا نحن في الغرب .

لكن الفن الروسي والموسيقى الروسية - وحق الحياة الاجتماعية في روسيا - ليست مقيدة ومتزمتة كما يحب أحياناً أن نظن . بل إن الموسيقى الروسية على الأخص ذات حيوية ونبض تحسد عليها .

(المؤلف) .

« الي » ، الحاجة إلى التعبير الجنسي الكلي . بل إن بليك يتحدث بذات الغنائية الشاعرية عن الحرية السياسية والحرية الجنسية :

ويأتي الصباح ، فيذبذب الليل ، ويترك الحراس مراكزهم...
دع العبد الكادح في الطاحونة ينطلق خارجاً إلى الحقل ...
دعه يرفع عينيه إلى السماوات ويضحك في الهواء الطلق ...

(أميركا ، اللوحة السادسة) .

... الحب ! الحب ! الفرحة الفرحة !! طليق كالريح الجبلية ...
وكذلك :

لحظة الرغبة ! لحظة الرغبة ! والعذراء
التي تحن إلى رجل ، ستوقظ رحماً لأفراح كبيره
في الظلال السرية بمخدعها : والفق الممنوع من
الفرح الشهواني سينسى كيف يصوغ ويخلق صورة غرامية
في ظلال ستائره وثنايا وسادته الصامته .

إن هذا الاعتراف الصريح بالعادة السرية ، وهذا التصريح عن مباحج الحب
الحر كان سيصدم معاصري بليك لو أن أحدهم تجشم عناء قراءة كتبه النبوية .
أما أن يتحدث عن الحب الحر فهذا واضح . ففي القصيدة ذاتها « رؤى بنات
البيون » (Visions of The Daughters of Albion) وقبل أبيات قليلة ،
توبّخ أوثون زوجها ثيوثورمون بسبب غيخته ثم تقول :

لكن أوثون ستنصب شباكاً من الحرير وشراكاً من الماس
وتقنص لك فتيات من الفضة الطرية أو الذهب المتأجج
وسأستلقي بجانبك على ضفة نهر وأراقب لهوهن الماجن
أثناء الجماع اللذيذ ، لذة وراء لذة ، مع ثيوثورمون ...
أحمر كلون الصباح الوردي ، شبقاً كالألق الوليد ..

وفي « كتاب لوس » The Book of Los يعرض بليك اقتراحاً مماثلاً للتغلب
على أمراض المجتمع : إن الرذائل ستتلاشى عن طريق السماح لها بأن تتشبع

لكن الطمع نُصب حق الحافة
والحسد أطمع دهن الحملان
والغضب سُقي دم أسد
والفجور استسلم إلى النوم
على عزف عود عذراء
أو بعد أن روي من حبها ...

وهناك حكاية تقول إن بليك أراد أن يطبق دولته المثالية في بيته ، وأنت
يبدأ ذلك بأن يضاجع خادمته ، ولكن زوجته وقفت له بالمرصاد وأفهمته أنه
لا يستطيع أن يشتط بمثاليته الشاعرية إلى هذا الحد . وكتابات بليك تزخر
بتمجيد الطاقات الجنسية :

تبه الطاووس هو مجد الله .
شهوة الماعز هي هبة الله .
غضب الليث هو حكمة الله .
عري المرأة هو صنع الله .
أو :

طريق الإفراط تؤدي إلى قصر الحكمة .
أو :

من يحس بالرغبة ولا يفعل شيئاً يسبب وباً .
أو :

لا تستطيع أن تعرف ما هو كاف إلا إذا عرفت ما هو أكثر من كاف .
أو :

أولى بك أنت تغتال وليدأ في مهده من أن تنمي فيك رغبة ولا تحققها .
وفي « أوروبا » Europe يصف بليك الوضع الحاضر للمجتمع « كحلم
انثوي » (ولعل بليك كان يفكر في المجتمعات الأمومية التي انبثقت منها

المدنية العصرية) .

إن كراهيات بليك المفضلة موصومة بأنها في جوهرها أنثوية من التفكير : ازدواجية « الجسد والروح » ، وما يرافق ذلك من نظرية الخطيئة والفضيلة والحد من الدافع الجنسي . والدافع الرئيسي عند المرأة هو الحفاظ والوقاية ، لذلك فإن تفكيرها قائم على ضرورة وجود قيود وحدود ، كما أن مبدأها العملي هو الحذر والحرص . وتبعاً لبيك فإن هذه النظرية الانثوية تبلغ أقصاها عند نيوتن ، أي في النظرية النيوتنية بأن الإنسان يمكنه أن يصبح شبه إله بواسطة العلم والتفكير . لكن هذا كثير ، كما أنه يخلق نوعاً من الحساب الأخير . ويشور المبدأ الذكري ، فتندلع الثورة . وفي البيت الأخير من القصيدة « يدعو » لوس ، وهو المبدأ الذكري الخلاق ، كل أبنائه الى « جهاد الدم » . وقبل أن نترك بليك فإنه من الجدير أن نذكر توقعه المدهش للفلسفة الفمولوجية ، ويرد هذا التوقع في بداية « أوروبا » Europe :

خمس نوافذ تضيء الانسان الكهفي : من خلال واحدة يتنفس الهواء ؛ ومن خلال ثانية يسمع موسيقى الأجواء ؛ ومن خلال ثالثة الكرامة الأزلية تترعرع لكي يجني منها العنب ؛ ومن خلال رابعة ينظر ويرى أجزاء صغيرة من العالم الأزلي الذي ينمو أبداً ؛ ومن خلال خامسة يستطيع هو أن يخرج متى شاء ؛ ولكنه ان يفعل لأن الأفراح المسروقة لذينة ، والخبز الذي يؤكل في السر طيب .

وهنا يبدو لنا بوضوح دور الحواس الخمس في إبقاء الإنسان في سجن ، وفي فرض نظام معين على العالم . لكن بليك يلمح كذلك إلى أن الإنسان يستطيع إذا شاء ، أنه يرى العالم على حقيقته ، بدون تدخل العمدية اللاواعية التعسفية . وهذه ولا شك نظرة أكثر تفاؤلاً من نظرتي باركلي أو « كانت » اللذين يعتبران أن ding an Sich لا يمكن معرفتهما . والسبب الذي يعطيه بليك لعدم اقدام الإنسان على « أن يخرج متى شاء » هو سبب طريف كذلك وهو أن تقييد النفس خير من الحرية المطلقة . وهذا بالتأكيد قريب من نظرية برغسون عن

دور الجهاز العصبي ومن تشكيلات هوسرل اللاحقة في الفنمنولوجية^(١) . إن بليك يجب بعد ذلك على السؤال القائل : « ما هي الحدود المسموح بها في التجربة الجنسية الإنسانية ؟ » بقوله : للرجال الحق في كل النساء اللواتي يجذبهم ، إن ذلك دور ضروري من تطور الانسان الروحي . والذي يملك رغبة ولا يفعل شيئاً لتحقيقها يولد وبأ^(٢) .

وإذا صفنا ذلك بلغة الفنمنولوجية قلنا : إذا أراد الانسان أن يوسع حدود عمديته اللاواعية فإن عليه أن يوسع تجربته الجنسية . وإذا أراد الانسان ألا يسمح لعمديته بأن تفرض عليه وعلى العالم الخارجي حدوداً ممتدة ، فإن عليه إذن أن يتحكم في هذه العمدية . ويمكن تحقيق ذلك بأن يبقى الانسان على اتصال بدائرة العمدية ، أي الوعي الباطن ، عن طريق تجربة جمالية أو جنسية . إننا نبحث الآن بمصطلحات جديدة في السؤال الذي أثير أثناء الحديث عن جورديف في الفصل الثاني ، الا وهو ما إذا كانت هناك تجربة جنسية قؤدي إلى « متعة نهائية » ، إلى تعبير كامل ونام عن المركز الجنسي . ولقد التزم جورديف الصمت حول هذه النقطة . لكن كثيراً غيره من « الروحيين » قد تطرقوا إلى هذا الموضوع وكانت إجاباتهم عليه تقوم كلها على تفسيرات شخصية .

وبليك مثل نويس ، يؤمن بالحب الحر . أما ويتان ، وهو كذلك من الصوفيين الجنسيين ، فكانت عنده ميول لوطية أكيدة ، وهو لذلك يشير ضمناً في كتاباته إلى أن اللواط هو تعبير مسموح به عن الطاقة الجنسية . (ومن المحتمل أن يصح ذلك على النساء والرجال معاً) . هذا ولورنس ، على ما يبدو ، يعتبر اللواط بطريقة ما تجربة جنسية أكثر كلاً من الجماع المادي . وكتاب Karma Sutra

١ - إن هذا الربط بين هوسرل وبرغسون قد يبدو غريباً بالنسبة لقراء الانكليزية الذين لا يعرفون الا كتاب « الأفكار » Idesa لهوسرل . ومع ذلك فإن أكثر الملقين عطفاً وتعمقاً في كتابات هوسرل ، وهو هيربرت شيجلبيج ، يشير في دراسة له لكتابات هوسرل اللاحقة الى جونه والى « الأمهات » (اللواتي ذكرن في فاولست ؟) « حارسات مفتاح الوجود » ويتحدث عن الكشف عن الانجازات الحثيثة للذات الماورائية .

(الحركة الفنمنولوجية The Phenomenological Movement) .

الهندي يصف كثيراً من الأعمال الجنسية التي يعتبرها الغرب شاذة ، ومع ذلك فإنه يمكن القول إن أحكامه ومبادئه مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالصوفية النبوية في الباجافاد جيتا Bhagavad Gita^(١) بنفس القدر الذي ترتبط به آراء بليك الدينية بنظرياته الجنسية . وهو ببساطة شكل آخر من أشكال التعبير التام عن حرية الانسان . وكل هذا هو تكرار لإعتقاد أندريه جيد بأن التعريف القانوني « للانحراف » ليس على الإطلاق هو التعريف « الطبيعي » .

وهذا من الواضح بحيث لا نحتاج إلى أن نجر بليك ولورنس إلى البحث . ومعظم علماء الجنس متفقون على أن ممارسات معينة قد تم بين رجل وزوجته لا يمكن اعتبارها « انحرافات » لأنها ليست بديلاً تاماً لعملية الجماع العادي . ومع ذلك فهناك ولايات معينة في الولايات المتحدة تحرم فيها ممارسات معينة حتى بين زوجين بإعتبارها غير مشروعة ... مثل الجماع الأسّي (أي من الخلف) والتهبج عن طريق الفم . بل إن الزوجين قد يتعرضان للعقوبة القانونية كالسجن إذا هما ضبطا يمارسان مثل هذه الأشياء .

والدكتور مارك أدامز يصرح : « إن السلطات في الولايات المتحدة تقدر أن حوالي ٩٥ بالمئة من الذكور الأميركيين قد أخلّوا في بعض الأوقات بالقوانين الجنائية الخاصة بالسلوك الجنسي » .

لكن هذا لا يقرب البحث من « التعريف الطبيعي » للانحراف الجنسي . إلا أنه من الواضح استحالة التوصل إلى مثل هذا التعريف دون أن نقوم أولاً بالإجابة على السؤال الوارد في مستهل هذا الكتاب الا وهو :

« أي دور يلعبه الدافع الجنسي في وجود الانسان الشامل ؟ » ومع ذلك فإنه من المحتمل أن يكون البحث المتقدم قد أوضح لنا أن المسألة الجنسية والمسألة « الفلسفية » تساعدان على القاء الضوء فيما بينها . إن الجنس لا يمكن دراسته « في فراغ » أو ضمن اطار عيادة طبيب نفساني بدون أن تتحول

١ - الباجافاد جيتا : الحوار الفلسفي الذي يتضمن الرؤيا الالهية للإله الهندي كريشنا والذي هو بمثابة سفر العبادة الأسمى بالنسبة لأتباع الديانة الهندوسية . (هـ . م .) .

المشكلة المدروسة إلى مجموعة من المتناقضات .

وقبل أن نباشر في دراسة قضية الانحرافات المعينة عن قرب أكثر ، قد يكون من المفيد أن نعيد ذكر بعض النقاط التي تباورت أثناء البحث عن « الرؤيا » .

(١) إن وعي الانسان مغمى .

(٢) إن ذلك مرغوب فيه من وجهة نظر التطور ، فالانسان ما يزال طفلاً الى حد كبير فيما يتعلق بقيامه بالتصرف حسب القيم والمبادئ . وعلى ذلك ، فإنه يجب ان يجرّد من حق الاختيار .

إن « وعياً مفتوحاً » سيؤدي فقط الى الكسل والتجمد ، ولذلك فإنه يجب ان يحفز من قبل الأمور المزعجة والمضايقة المرافقة « لوعي مغلق » .

(٣) لكن ذلك أيضاً له مضارّة . فالانسان يكون في أفضل حالاته حينما يسيّره هدف ما ، ورؤيا هذا الهدف . فاذا ما حدد الوعي هذه الرؤيا ، فإنه سيحد من قدرة الانسان كوسيط تطوري .

(٤) بليك يلقي إلينا بملاحظة تستحق الاهتمام وهي أن الانسان يستطيع أن يستغني عن الغمامات « متى شاء » فهل هو يستطيع ذلك فعلاً ؟ وفي الوقت الحاضر فإنه يكفيننا أن نطرح ذلك السؤال .

الجنس الانطواني :

إن ملاحظة دي بروين عن الفتاة التي كانت على الشاطئ تتضمن عدة معان تستحق الاهتمام لم نتفحصها بعد . فهو يقول لنا ما مضمونه أن هناك نوعين من العاطفة الجنسية :

النوع الاول هو العاطفة العادية المترتبة على التعرف الى الفتاة واغوائها . والثاني ، أعنف بكثير ، وهو الالتحام الفجائي للأجساد في عملية حيوانية غير مدبرة أو مرتبة في السابق . والكلاب قد يقللون من غزلهم الى الحد الأدنى قبل الجماع ، ولكن المجتمع البشري يتطلب مقدمة « شخصية » طويلة . وحالة

الفتاة في غرفة المعاطف (المذكورة في الفصل الثاني) هي حالة استثنائية وقد
يعتبرها معظم الناس « غير عادية » وقد يقال جدلاً هنا ، ان التجربتين مختلفان
في عمقها أو عنفها فقط ، وليس في نوعيتها . وعلى كل حال فان هذا الموضوع
يمكن اتخاذ قرار فيه فيما بعد . ولكن يمكننا توضيح نقطة الاختلاف توضيحاً
أكثر إذا عقدنا مقارنة بين الفقرتين التاليتين ، والأولى هي من مطولة البيوت
« الأرض الخراب » ، والثانية من قصيدة « ترنيمة لمجهولة » ، لدبيلو ، جيد ،
تيرونر :

وفي الساعة البنفسجية ، ساعة المساء التي تجهد
نحو الوطن ، وتأتي بالملاح الى بيته من البحر ،
والفتاة الطابعة في بيتها وقت تناول الشاي ، تزيل فطورها ، تشعل
مدفأتها وتضع الطعام في أوان .
كنت أنا كذلك أنتظر الضيف المتوقع .
وهو الشاب الدملي قد حضر ،
لأنه كاتب لدى وكيل مساكن صغير ، ذو نظرة جريئة ،
واحد من الوضعيين الذين تستقر الثقة عليهم
كما تستقر قبعة حريرية على رأس مليونير من براد فورد
إن الوقت ملائم الآن ، كما خُتِنَ ،
فالوجبة قد انتهت ، وهي سئمة ومتعبة ،
فيسمى الى شغلها بالعناقات
التي ما زالت غير مرفوضة وإن كانت غير مرغوبة .
وبوجه محتقن وتصميم ، يهاجمها في التو
يداه المستكشفتان لا تلقيان مقاومة
غروره لا يحتاج الى استجابة ،
ويرحب باللامبالاة ...
ويطبع عليها قبلة حارسة أخيرة .

ثم يتلمس طريقه واجداً الدرجات غير مضاءة ...
إن نعمة التفاهة العادية واللاجدوى المتعمدة هنا تؤكد النكهة الشخصية لما يحدث ، إنها على عكس العاطفة الجنسية الصرفة ، وهي مجرد وصف لشخصيتين وضيعتين في حالة وصال .

قارن هذه الفقرة بالفقرة التالية لتبرنر حيث يتحدث كذلك عن « الحب العصري » ، عن امرأة يراها في أحد الأماكن بساحة بيكاديلتي بلندن في ٢٤ آب ١٩٣٤ :

هل أستطيع أن أعبر عن نشوة هيامي ؟
إن مضاجعتها ستكون انفصلاً في حد ذاتها !!
جسدانا كانا سيلتحمان في لُحُب بلوري
يتأجج في سماء لانهائية
حق أن كل زرقة السماء غير المتناهية سكرت
في كرة واحدة من الكمال المتحد
كانها فقاعة تحمل في داخلها كل محيطات العالم وترتقي
إلى اللهب الذي هو أسمى لُحُب ، وتتجاوز
حبة الله ، حبة الله ، حبة الله

ولأول وهلة فإن تبرنر قد يبدو أقل واقعية من البوت ، فهو يرى امرأة متزوجة في أحد الأماكن العامة ، وهو لا يخاطبها لكنه يتخيل أنها ستكون الشريك المثالي .

بيد أن تبرنر قادر على أن يكون واقعياً في قصائد أخرى . فهو يقول مثلاً:
الزواج هو مجرد انشاء بيت ،
ومشاركة الطعام والرفقة ،
فأي علاقة لهذا بالحب
أو يجهال الجسد ؟

ولعل تبرنر كان في المقطع الخاص بالمرأة التي شاهدها يكاد يقترب من تأليها

بعض الشيء ، لكنه كذلك يتحدث عن الجنس الفوري « غير الشخصي » الذي أحس به دي بروين نحو فتاة الشاطئ .

واليوت يتحدث عن الجنس اليومي العادي « الشخص » .

وهذا الصنف الأخير من الجنس هو الذي تحدثنا عنه في الفصل الخاص باللاتمميز : الجنس الدون الجواني ، و جنس كازانوفا وفرانك هاريس وهنري ميلر . إنه جنس يمتد إلى صنف فقط ، لكنه « طبيعي » وقد يسميه بعض الناس جنساً خارجي النزعة أو انسراحياً . وهناك أمثلة طريفة على ذلك في كتاب . ايه . آر . جوتز عن ت . ا . هولم . ويبدو أن هولم كانت لديه آراء حول الجنس وإرادة القوة ماثلة لآراء الضابط السابق « م » المذكورة في الفصل الثاني . فقد كان يحب الغزوات الجنسية السريعة والسهلة وخاصة مع بائعات المتاجر الصغيرات . يروي جوتز كيف أن هولم كان يجلس يوماً في مقهى « كافيه رويال » حين نظر فجأة الى ساعته وقال :

« إن عليّ موعداً ملحقاً في خلال خمس دقائق » ثم هرول خارجاً ليعود بعد حوالي عشرين دقيقة وهو يتصبب عرقاً ويقول إن سلم الطوارئ الحزوني في محطة النفق بيكاديلي هو من أقل الأماكن راحة لمضاجعة فتاة . وكان هولم على ما يظهر خالياً من أية عقد وكوابت . فهناك حكاية أخرى تروي أنه وقف مرة في إحدى الزوايا بساحة سوهو ، وشرع في التبويل ، في وضح النهار حين أقبل عليه أحد رجال البوليس زاجراً ، فما كان من هولم إلا أن التفت إليه وانفجر فيه قائلاً :

« هل تدرك أنك تخاطب أحد أعضاء الطبقات المتوسطة الإنكليزية ؟ » وأصابت الدهشة رجل البوليس فلمس قبعته معتذراً ثم ابتعد . وقد عرف عن هولم أنه كانت تفتابه ميول فجائية نحو العنف الجسدي (يروي عنه أنه في إحدى المرات قد علّق ويندهام لويس من ثنيق سرواله على أحد القضبان في ساحة سوهو .) كما أشتهر هولم كذلك بحكاياته عن مغامراته الجنسية . لكن حادثة الجماع الممتلئ حيوانية وعنفاء، والذي مارسه هولم على سلم حلزوني فولاذي

كانت ستثير بنفس القدر اشمئزاز مثالي جنسي مثل شلي أو أحد «عبدة الجسد»
مثل لورنس . فهذه الحادثة مثال أكيد على الموقف الخارجي النزعة أو
الانسراحي من الجنس . وهو على نقيض الموقف الجنسي الذي وصفه هكسلي في
« أنتيك هاي » ، أو في « العبقري والالهة » .

وفي الوقت ذاته علينا أن نقر ان « الجنس الانطوائي » هو أقرب دائماً الى
الجنس « غير العادي » . فهو لم ير في المرأة الهدف المنطقي لأحاسيس الرجل
الجنسية ، والمستقر الشرعي لصواته . أما الانطوائي فهو أشد التصاقاً
بأحاسيسه ، وهو يدرك كذلك أن « الهدف الجنسي » أمر تعسفي ، وهو
يشعر على الأقل بالحدود المائعة بين « العادي » و« غير العادي » . وحتى إذا كان
يؤمن بالجنس المختلط ، فإنه يدرك ان الإحساس الجنسي يعتمد على غزو جسد
غريب . وهو عملية غزو وإخضاع .

وشكبير يجعل أحد أبطاله وهو « تاركوين » يشبه حبيبته بمدينة يريد
أن يداهما ويدخلها . وإذا كان بلوغ ذروة النشوة الجنسية يرتبط بعملية الولوج
إلى جسد المرأة ، فلماذا يقتصر الاختيار على مهبل الانثى دون فها أو
مؤخرتها ؟

وبالنسبة لمعظم الرجال الذين يمارسون الجنس المختلط ، فان الجماع «العادي»
من شأنه أن يمتص أو يستهلك كل عاطفتهم ورغبتهم الجنسية . ولكنه متى عاف
رجل ما الجنس « العادي » فانه قد يحس بالحاجة الى أن يجد منطلقاً « طبيعياً »
لرغباته الجنسية العدوانية الحادة . (وفي الواقع ، تشير الاحصائيات المتوفرة
إلى أن ممارسة الشبان لهذه « المنطلقات » البديلة أقل بكثير من ممارسة الرجال
الأكبر سنّاً لها .) وإذا كانت الرغبة التي يحس بها رجل ما نحو امرأة ، ناتجة
في الغالب عن حافز عدواني ، فإن هذا الرجل قد يشعر أن استعمال الفم أو
المؤخرة بدلاً من المهبل هو « عملية اخضاع » أكثر كلاً .

وهناك مشهد في كتاب « سكس » Sexus لهنري ميلر ، يمكننا أن نتخذه
مثالاً على نوعية الرجل المفرط في العدوانية . وفي هذا المشهد نرى رجلاً عدوانياً

ثلاً يجبر فتاة على القيام بعملية « مص » له بينما هو يقود سيارة ثم يجبرها بعد ذلك على أن تثبت سيجارة مشتعلة في مهبلها وفي النهاية يقتصبها ثم يحامعها من الخلف . (وقد روت عشيقة ميار هذه الحادثة له ، والتي تشكل نوعاً من أدب الدعارة في الكتاب المذكور .) وكذلك ، فإن جرائم « إرهابي الضوء الأحمر » (التي أعدهم كاريل تشيسمان بسببها) اشتملت كذلك على إرغام امرأتين على خلع « كلسونيها » (كما أنه جعل واحدة منها تخلع كل ثيابها فيما عدا جواربها وحذاءها) ، ولكنه لم يقتصب واحدة منها . لماذا اذن أرغمها على التعري ؟ السبب واضح : لأنه حين يأمر امرأة بأن تتعري فإنه يرضي بذلك الدافع العدواني فيه .

ومن السهل أن نرى ، أنه إذا كان رجل ما يعاني من إفراط في الرغبة الجنسية ، وأنه إذا كان يحسّ بميل عدواني غير اعتيادي نحو النساء ، فإن فترة طويلة من الإنطواء على النفس قد تؤدي بسهولة الى تشويه أحاسيسه الجنسية وتحويلها الى أحاسيس سادية .

أما دي ساد الذي كان يكره ويخاف أمه ، فقد تنبه اليه البوليس أول مرة حين تلقى شكاوي عديدة من عاهرات تفيد بأنه كان مغرماً بتشطيب أجسادهن تشطيباً طفيفاً بمطواته ، وبصبّ شمع منصهر ساخن فيهن .

إن الرمزية هنا واضحة ، لقد رفض دي ساد كل « الفتحاح الطبيعية » في الانثى ، وأختار أن « يلج » الى جسدها بطريقة الخاصة ، ثم امتلكها بشكل رمزي وذلك عن طريق صب الشمع فيها . وقد اعتقل دي ساد وهو في سن الثامنة والعشرين لإختطافه أرملة حلواني وقيامه بتطبيق هذه العملية الغريبة عليها . (وقد اضطر لأن يدفع مبالغ طائلة على شكل رشاًوى وغرامات) .

وقد يكون هناك على ما يبدو بون شاسع بين حديث بليك البريء عن الحب والجماع وبين حاجة دي ساد إلى إلحاق الأذى والألم . ومع ذلك ، فكلامهما حصيلة مذهب جنسي صوفي يسعى الى تجاوز العالم اليومي . ولقد نفذت سيمون دي بوفوار الى نفسية دي ساد حين قالت عنه :

« إنه يحاول أن ينقل لنا تجربة ميزتها البارزة ، مع ذلك ، هي اصرارها على أن تبقى غير قابلة للنقل » .

وشذوذ دي ساد قد يكون نتيجة لكرهه لأمه أو لنساء غيرها ، لكن جذورها تكن في نوع من العاطفة الدينية المشوهة .

وهذه النقطة ذات أهمية كبيرة ، وعلى ذلك يجب توضيحها توضيحاً تاماً . إن إحساسنا الأساسي بالوعي هو الاحساس بالسلبية التي هي اسم آخر للسأم . اننا ننظر الى العالم فنراه هادئاً لا يتغير ، ووجهه لا ينم عن شيء ، ويتولد عندنا شعور بأنه قادر على أن يتجددنا وعلى أن يعمر أكثر مما سنعمّر . وبالمقارنة مع ذلك ، فإن الجسد الآدمي متغير أبداً ، متأجج أبداً ، تواق إلى أن يتحرك ككلب لا يطيق ذرعاً بالسير الذي تمسكه به .

وهذا هو السبب الذي من أجله يحب معظم الناس أن ينظروا الى نار مشتعلة أو الى شلال ، أو أنهار سريعة الجريان . فمن الممتع حقاً أن نرى العالم المادي أقل سكوناً ، كما أن مشاهدتنا لمثل هذه الأشياء تخفف قليلاً من الشعور بالنقص الذي ينتابنا أمام لا مبالاة شجرة .

ولأن الجسد يتحرك بسرعة أكثر من العالم الخارجي فإنه يخشى الملل والخبية . إنه يريد أن يحصن طوال الوقت ، واشد ما يخشاه هو الاستنقاع الداخلي في مواجهة لا حساسية الطبيعة .

والجنس كالخمرة يمتلك القدرة على أن يحطم هذا الاستنقاع الداخلي ، وعلى أن يحول وعينا لذاتنا الى شلال كشلالات نياجارا . إن السأم هو « حالة وجود » يجد الانسان صعوبة في الهروب منها الى حالات أخرى . إنه قلق قادر على عزل نفسه والانغلاق على ذاته كالسلحفاة . ولكننا لحسن الحظ نمتلك سماً مضموناً يستطيع أن ينقلنا من مستوى معين من الوجود الى مستوى آخر .

العملية الجنسية هي رمز مصغر للسيطرة والاختضاع . فمن وجهة نظر الرجل ، تبدو المرأة كأنها ممتنعاً وغريباً ، « مدينة » لا يمكن دخولها . ثم ها هي بعد نصف ساعة عارية مستسلمة خاضعة ، لكنه إذا لم تكن المرأة نائية

بدون تغيير ، وعذراء بدون تغيير ، فكذلك العالم أيضاً . وهذا يخففني الخوف من الخيبة في الحياة .

إن تكيفنا الاجتماعي يحرص في الواقع الدافع الجسدي البسيط فينا ، ذلك لأنه ، أي تكيفنا الاجتماعي ، بتنمية حصيلة من المحرمات والمخاوف فينا ، يؤدي بطريقة مصطنعة إلى زيادة « الهوة » بين حالة معينة من الوجود وأخرى .

إن شخصين متوحشين يعرفان بعضها البعض منذ الصغر سيكون ما يزال باستطاعتها أن يجدا متعة في تحطيم غرابة « الآخر » حين يتجامعان . ولكن إذا تمت تنمية هذه الغرابة بواسطة العادات المتعدنة مثل إرتداء الملابس وتبني مجموعة من الكوابت فيما يتعلق بالجنس وحتى الاعتقاد بأن الجنس شيء شرير وآثم ، فإن المتعة التي سيجدانها في تحطيم الحدود بينها ستكون أعظم وأروع .

إن الدين ، في أبسط صوره ، هو الاعتقاد بأن الطبيعة ليست باردة لا مبالية ، جامدة الوجه ، بأن الشجرة ليست شجرة بل إله متنكر متخف . وحتى في أكثر صوره تعقيداً وذاتية ، فإن الدين يبقى كذلك هو الاعتقاد بأن هناك « أخرى » فيما وراء سأمنا وقصورنا الحاليين وبأن هناك معنى خفياً يتربص بنا كنمر يقبع متربصاً في دغله . وحين يتمكن صوفي أو روحاني ما من النفوذ ببصيرته بفتنة الى بعض هذا المعنى (أو يظن أنه فعل ذلك) ، فإنه كذلك بعمله هذا يمارس عملية تحطيم الغرابة ، تماماً مثلما يحدث في الجنس .

إن دي ساد وبودلير يحسان بحاجة مشتركة إلى الاعتقاد بأن الجنس ثمر . فبذلك تصبح هناك موانع وحدود أكثر يقتضي تحطيمها في العملية الجنسية ، ويصبح كذلك الشعور بالانتقال من حالة معينة من الوجود ، الى حالة أخرى ، شعوراً أروع وأكثر إيجابية .

إن ميلنا البيولوجي لإعادة خلق غرابة « الآخر » بعد تحطيمها مباشرة — وبمعنى آخر إعادة تسيير دورة الرغبة من جديد — كثيراً ما تعني أن الشاعر

المنتمية الى الجنس ما زالت غير فاضحة .

فاذا ما عانى فتى من طغيان أبيه فقد يأتي يوم يضرب فيه هذا الفتى أماً . وفي تلك اللحظة سيحس بشعور هائل من الانعتاق ، فهو قد انتقل من حالة من الوجود الى أخرى ، ولذلك فسيغشاه شعور بالنشوة . لكن ذلك لن يحدث الا مرة واحدة . فعلى لو عود الفتى نفسه على ضرب أبيه كل يوم ، فلن يحس أبداً بنفس الشعور من الرضى الذي انتابه في المرة الأولى . لكن ذلك لا يحدث في الجنس ، أو على الأقل فإنه يحدث ببطء أعظم .

فالرجل المتزوج حديثاً والذي يسيطر على غرابة زوجته في شهر العسل ، سيظل يشعر بنفس المتعة والانتشاء لمدة طويلة . (وإذا كان خصب الخيال فإنه قد يستمر في استنباط مثل هذه المتعة لنصف قرن آخر .) فهناك تكن فينا قوة تكييفية غريبة تعيد خلق الغرابة كل يوم .

وبالرغم من ذلك ، فإن الرجال عادة يملئون زوجاتهم بعد شهر العسل . يقول فلوبيير (في روايته مدام بوفاري) إن تشارلز بوفاري سرعان ما أصبح ينظر إلى ممارسة الجنس مع « ايمّا » نظرتة إلى تناول الحاوى بعد طعام العشاء . إن التكييف البيولوجي يحتاج الى غيلة حاسة لتسندة وتساعد .

وهناك رجال مثل دي ساد لا يصرون فقط على إعادة خلق الغرابة البيولوجية بل ويرغبون كذلك في إعادة خلق المحرمات الاجتماعية « المصطنعة » التي يزيد وجودها من متعة انتهاكها . ولهذا السبب كان بودليير يحب أن يعتبر الجنس شراً في أساسه . وموقف كهذا لا بد أن يشتمل على نسبة معينة من عدم النضوج ، تماماً كما لو أمضى الفتى عدة ساعات كل يوم وهو يوغر نفسه ضد أبيه ، ويسعّر كراهيته له لكي ينال أقصى قدر من المتعة حين يضربه للمرة الخمسين . فليس القصد من العواطف أن تدور في حلقة دورية متجددة كالدوافع الجنسية .

سيكون من الملائم هنا ان نطلق على هذا الشكل من الانسياق الجنسي « التشبث بالدورة العاطفية » ، وهناك مثال طريف على ذلك في كتاب دي ساد المسى « ١٢٠ يوماً من سادوم » . إجتمع أربعة من الرجال المهتهكين في قصر

صيفي وقد عزموا على أن يمارسوا كل نوع ممكن من الممارسات الجنسية . وأنوا الى القصر بعدد كبير من الفتيات الصغيرات والفتيان الصغار الذين خطفهم من عائلات محترمة لهذا الغرض كما أتوا كذلك ببعض « البتروونات » من المواخير ليعلمنهم فنون الشذوذ. وقد روت احدى البتروونات حكاية عن رجل فاسق كانت تمتعه هي أن يفرق العضو التناسلي لفتاة صغيرة بسائله المنوي حين يبلغ مرحلة القذف ، دون أن يولج قضيبه في مهبل الفتاة . ولدى سماع الحكاية يصر أحد الرجال الأربعة ، وهو دوق ، على ممارسة هذه العملية بالذات مع احدى الفتيات الحاضرات التي كانت تبكي من الحجل والعار .

وهذه الحكاية هي مثال بليغ على النزوات الجنسية القاصرة . لكن يمكننا أن نتبين مدى ما تبلغه مثل هذه النزوات من عدم النضوج إذا قارناها بنزوة أخرى وردت في كتاب « يوميات غاو » Diary of a Seducer لكريغارد . يشاهد الفاوي ، واسمه جوهانس فتاة جميلة ، لكنها صغيرة جداً ، وهي تهبط من عربة . فيعزم على امتلاكها ويتمشق لذلك الكثير من العناء كما أنه يصرف أشهراً طويلة معقدة في ملاحقتها . حتى أنه يضطر بسبب ذلك أن يعقد خطوبته عليها . وفي النهاية حين تستسلم له وتمنحه جسدها ، يفقد على التوكل رغبته نحوها وإهتمامه بها .

و كريغارد هنا واقعي أكثر من دي ساد. فحين أبصر فتاة جميلة في الطريق وأحس برغبته لمضاجعتها ، كانت نزوته أكثر واقعية وتبريراً كبيراً . أما دي ساد فقد ابتكر وضعاً سخيفاً لكي ينتصر بالقوة على الفراية المزدوجة لعذراء صغيرة في السن ، عديمة الخبرة . أضف إلى ذلك أن كريغارد ، وهو أقرب الى الواقعية ، أدرك أنه يجب أولاً اقناع الفتاة بالوقوع في حب قبل أن توافق أخيراً على أن تمنحه عواطفها كاملة .

ولكن كريغارد ودي ساد يكشفان عن نقص في النضوج حين يفوتهما أن يدركا أن صفاء الرغبة نحو عذراء جميلة ، ستحطمها الى حد كبير المضاعفات التي ستنشأ عن السعي لإملاك الفتاة . إنها بعيدان كثيراً عن ادراك دي برون بأن

اشباع الرغبة اشباعاً تاماً يتأتى فقط عن طرح الفتاة أرضاً وإغتصابها . وإن
اتباع طريق ملتف بإنشاء علاقة شخصية ، سيؤدي الى توريث الشخصية
الاجتماعية في الموضوع ، بحيث أن « الغاوى » سيدرك عاجلاً أم آجلاً ، أنه
يدفع ثمناً باهظاً نسبياً من ارادته وطاقته لمجرد الحصول على متعة فض بكاراة
عذراء .

إن هذا العامل من اللانضوج العاطفي وسببه — أي إعادة جريان الدورة
العاطفية — هما ذو أهمية كبيرة في تحليل مشاكل الانحراف الجنسي .

الفصل الخامس

معنى «الانحراف»

- ٢ -

دي ساد والسأم . مشكلة الحبية . الفتيشية . فتيشية
الملابس الداخلية . فتيشية الكلاسين . أمثلة على الفتيشية
والجرائم الجنسية في الأدب . رواية موسيل « الرجل
الحالي من المناقب » . موسبراجو . فتيشية الكلاسين عند
جويس . هابز . قضية وودني شايرز .

إن القضية التي يمكن استنباطها ضمناً من كتاب دي ساد « ١٢٠ يوماً من سادوم » ، هي : هل يمكن لعدد من الرجال أن يتوصلوا إلى متعة جنسية قصوى ونهائية إذا ركزوا إهتمامهم على ذلك ؟

يذكرنا هذا بالسعي الرومانتيكي نحو المطلق ، الذي كان يتميز به كثير من شعراء القرن التاسع عشر . وللهمة الأولى فقد يبدو أن الفسق والتهاك هما من صنع الجسد وحده . ولكننا نحتاج إلى ثانية واحدة من التفكير لكي ندرك أن الكلب أو القطة لا يمكنها أن يتوصلا إلى مثل هذا الشطط في طلب المتعة . فالجسد دون تدخل العقل يستطيع اشباع حاجاته بسهولة . إن دي ساد يمكن تشبيهه بجماعة من النساك وجدوا في القرون الوسطى وكانوا يعرفون باسم « أخوة الروح الحرة » . وقد كانت عقيدة هذه الجماعة تدور بصفة أساسية على محور « أنا هو الله » ، كما أنهم كانوا يؤمنون بصورة أو بأخرى بمقدم « الملكوت الثالث » الوشيك ، حين سيتخلص الجسد البشري من الشقاء والقصور .

ولقد تركت هذه الجماعة لطرق عبادتها أن تنحدر إلى هاوية الشعائر الجنسية الجماعية الماجنة . (قضت الكنيسة فيما بعد على هذه الجماعة بلا شفقة) . وبعد تسعة قرون ظهرت في روسيا جماعة أخرى من النساك عرفت باسم « خليستي » Khlysty وكانت هذه الجماعة تعبد رجلاً اسمه دانييل فيلييوف بإعتباره المسيح الجديد ، وتقيم احتفالات دينيسية غالباً ما كانت تنتهي في انحلال جنسي تام ، حيث يضاجع الشباب أمهاتهم والفتيات اخوتهن . وكان راسبوتين أحد أفراد هذه الجماعة .

وهذه الرؤى من المطلق ، من إيجاد جنس بشري خالٍ من كل العقد والكوابت ومن « الخطيئة الأصلية » كانت المسمى الأساسي لكل الروحانيين

والشعراء . إن كل الرجال الذين يمتلكون حساسية نفسانية نفاذة يدركون بعمق ضعف «الجسد الفاني الحالي» وقصوره ويدركون عدم قدرتهم على أن يتعلموا من التجربة وعدم وفائهم للحياة الا حين يواجهون الموت . وكثير من الناس الذين يحسون بذلك يلجأون إلى الكتاب المقدس ، لأنه على الأقل يتحدث عن مطلقات يمكن النظر إليها نظرة جديدة . ولكنهم سواء أ كانوا يقبلون ما جاء في الكتاب المقدس عن مدينة الله ، أم يخلقون مدينة خاصة بهم كمدينة الشمس مثلما فعل ولم موريس ه . ج . ويلز (اللذين لم تكن رؤاها هي « المطلق » الحقيقي المطلوب) ، فإنهم كلهم صرعى رؤيا عن الكمال الإنساني ، رؤيا تنتشل الإنسان من هوة شقائه وضعفه وتضعه فوقها . إن الناس قلما يحسون بمتعة عميقة يبدو عليها أنها تطلق كل أحاسيسهم وتوصلهم إلى قعر الوجود . وهذا بلا شك ، مغزى الآيات التي يتحدث بها جوته بلسان ميفيستوفليس حين يعيدُ فاوست « بمتعة تفوق في ساعة كل رغبة عام » ، إن السأم وشبه تحقيق الذات هما نصيبنا على ما يبدو . بل إن كيركغارد يدعي أن الناس بنوا برج بابل بسبب سأمهم . كل ذلك له مغزى عميق ويجب أن نضعه في اعتبارنا ، حين بحثنا في أصول الدافع الجنسي . فمظم الطرق التي يتبعها الإنسان لتصرف الطاقة الفائضة فيه ، مثل سعيه للنفوذ السياسي ولجمع المال أو التملك ، هي في الواقع طرق عقيمة ، أو قد يصح اعتبارها كذلك ، مثل تشييد برج بابل .

إن رجلاً مغرقاً في انطوائيته أو ذاتيته قد ينظر إلى هذه النشاطات بدهشة ، نظرتة إلى فقير هندي يلوك الزجاج بأسنانه . ولكن كل الكائنات البشرية تفرّ بقدره المتعة الجنسية التامة على النفاذ إلى أعمق مواطن الإنسان العاطفية وعلى إعطائه لذّة آنية ، وشعوراً وقتياً بتحقيق الذات تحقيقاً كاملاً . وعلى ذلك فليس هناك بيننا من لا تثير فيه مساعي دي ساد لتحقيق الذات الكلي والنهائي قدراً ما من العطف .

الإقرار بذلك ، معناه أننا نواجه قضية الجنس من الاتجاه المثمر الوحيد . واخبرني الفرويدية عن « الليبدو » أي الطاقة الجنسية الغريزية عند الإنسان

وعن عقد ومركبات الإنسان المختلفة قد يساعد على توضيح حالات فردية .
لكنه لا يوصلنا إلى أبعد من ذلك .

لا يمكن بحث الجنس « في فراغ » ، أو بالنسبة فقط لكائن اجتماعي اسمه الإنسان ، الذي ربما أراد أن يقتال أباه ويضاجع أمه . ولوضع هذه الفكرة في صيغة أخرى ، أقول إن مشاكل الجنس ومشاكل الهدف الإنساني النهائي مرتبطة فيما بينها ، ولا يمكن فهم أحدهما بمعزل عن الآخر (وفي فصل لاحق سأبحث بإيجاز المدرسة الحديثة في « العلاج النفسي الوجودي » ، التي طورها بنسو انجي ومنكوفسكي وشتراوس ألخ . مستعينا بمفاهيم مستعارة من هيدجر وهوسرل .)
إن قضية الجنس إذن وقضية « اللاتبيعية » مرتبطتان بفكرة غامضة عن التوصل إلى « إنجاز أو تحقيق » ما ، وهما مقيدتان كذلك بحدود « الطبيعة الإنسانية » وقد تكون الفكرة نفسها غامضة ، كفكرة مجردة ، لكنها تتضح كفاية حين تطرح نفسها علينا في شكل إحساس داخلي عند الفرد بحالة عميقة شبه « إلهية » من الرضى والتمتع .

ويمكن التعبير عن هذه المشكلة بكل بساطة على النحو التالي : لنفترض أن هناك رجلاً ذا ذكاء وحيوية غير عادي وغير « مختل الأعصاب » وعلى علاقة حسنة مع الناس الآخرين ، ويملك فوق ذلك سلطان حاكم مستبد من الشرق . (إن فوضوياً ما سينكر أنه يمكن لحاكم مستبد أن يكون غير فاسد وغير مختل الأعصاب ، لكننا سوف نتغاضى هنا عن هذا الاعتراض) . مثل هذا الرجل سيسأل نفسه : هل يمكن أن أتقدم ولو قليلاً على معظم الناس في السعي نحو الألوهية عن طريق استخدام سلطاني وقواي استخداماً تاماً ؟ ورجل كهذا لا يمكنه فقط أن يشير إلى أية فتاة في الطريق ويأمر بحملها إلى مخدعه ، لكنه من الذكاء كذلك بحيث يستفيد ويكتسب من تجربته هذه ، بالقدر الذي تحمله هذه التجربة من مضمون .

فإذا ما شكلنا لجنة من بليك وويتان ولورنس ودي ساد ونويس وكازانوفنا لبحث قضية : ما هي أفضل السبل التي يجب على الحاكم المستبد هذا أن يسلكها

في استخدام قواه ؟ فإننا سنخرج من كل واحد منهم بفكرة خاصة عن حدود وإمكانات قوة الإنسان وطاقته، وستعارض هذه الأفكار وتتناقض بشكل غريب . فبليك مثلاً سيعلن أنه لا يمكن للإنسان أن يأمل بالسمي نحو الألوهية إلا إذا قام بتطوير وتنمية « عينه الداخلية » - أو ما يسميه بليك كذلك « الرؤية الرابعة » - أي بأن يسعى الإنسان إلى رؤية الجنس البشري كوحدة ، وأن يدرك ويؤمن بأن الخيلة هي أسمى وأقوى القوى الإنسانية ، وأن يطور عقله وعواطفه إلى أقصى حد ، وأخيراً أن يجتهد لكي يرى « عالماً قائماً في ذرة رمل » . لكنه كان سيضيف إلى ذلك ولا شك ، أن البيئة المثالية لتحقيق ذلك هي جزيرة ما في بحر الجنوب تزخر بالرجال الأصحاء الوسما والفتيات الخالصات من أية عقد أو كوابت ، اللواتي يمنحن أنفسهن إلى إنسان الرؤيا الرابعة هذا بدون شعور بالعار ، وفي أية ساعة من ساعات اليوم ، منفردات أو بأعداد أكبر .

أما نوبس فكان ولا شك سيتفق مع ذلك في الأساس ، وكان سيضيف أن على كل أهل تلك الجزيرة أن يتصرفوا بشعور من الجدية الخلقية ، وأن يصرفوا الكثير من وقتهم في بحث ومناقشة أفضل السبل للتشديد « مدينة الله » . وسوف يوافق ويتأن على هذه الصورة إلى حد كبير ، إلا أنه كان سيشعر في إحساس السعة الذي فيه ، بأن جزيرة هي مكان صغير ، وأن هذه اللجنة من الرجال والنساء الأصحاء يجب أن تشمل كل العالم . وربما سيضيف بأن عليه الاحتفاظ بحقه في مضاجعة الإناث والذكور على السواء .

أما د . هـ . لورنس ، فسيرفض الفكرة كلها بتقزز ، مؤكداً مبدأه الأساسي ، بأن الرجل العظيم لا يُلَس أو يُمَس ، وبأن فردوسه سيضم امرأة واحدة فقط ، سليمة الجسم وذات إرادة . أما ممارستها الجنسية فسوف تشتمل على الإثارة المتبادلة لـ « قعر الظلمة » بواسطة الجماع الخلفي والممارسة اليدوية . ولا شك بأن بليك ونوبس كانا سيجدان فردوس لورنس فاتر الهمة وغير « مريض » خاصة وأن لورنس لن يرضيهما فيما يتعلق بماهية الهدف النهائي والأخير .

فبليك سيجد فكرة الحرب الأزلية مع المرأة فكرة غير ضرورية ، وناتجة عن اختلال عصبي .

ولا داعي للقول إن كازانوف سيرفض فكرة الجزيرة برمتها ، وستكون فكرته الخاصة هي استعمال الثراء والقوة لبهر المجتمع ولإقامة علاقات غرامية لا نهاية لها مع فتيات صغيرات محترقات من دير ما ، للراهبات ، ونساء تزوجن حديثاً ، ومحظيات جميلات ، وفتيات مسترجلات، ذكيات . وفي الوقت ذاته سيؤلف كتاباً من عشرة أجزاء يلخص فيه تاريخ الجنس البشري بطريقة تجمع بين السخرية الفتاكة والذكاء المتقدم . وسيكون ذلك في رأيه هو أقرب نقطة للشعور بالألوهية ، بإمكان الإنسان أن يصل إليها .

أما دي ساد فسيكون هو الرجل الوحيد الذي يفزع الكل برؤية ما ، عن حفلة تهنكية مرعبة على صعيد العالم كله . (الكل فيما عدا بليك الذي سيهمس : « دعوه يفعل ما يريد ، فما أن يكون قد أخضع دسمة من العذارى الاّ ويكون قد تغلب على نزاعه هذه ، وأخرجها من تفكيره . وعندها سترون كيف أنه رجل طيب في الحقيقة ») .

إن دي ساد سيقول بأن الإنسان لا يستطيع أن يماثل الآلهة الاّ إذا رفض فكرة وجود الله ، والاّ إذا (وهنا يبدو بعض التناقض الظاهري) بذل أقصى جهده لكي يسبر غور الشرّ الذي يكن في نفسه . ومن ثمّ سيشرح دي ساد أنه كان بالفعل قد أولى قضية الألوهية إهتمامه وكتب بحثاً عنها ، ثم يبرز « ١٢٠ يوماً من سادوم » على اعتبار أنه كتاب يبحث في كيفية سبر غور الشر في الذات ، ابتداءً من ممارسات غير مضرّة مثل الجماع الخلفي مع المحرمات ، واغواء البنات الصغيرات اللواتي في سن السادسة ، نزولاً إلى حفلات الخلاعة الجماعية القائمة على التعذيب والوحشية الشيطانية . وسوف يبرهن دي ساد أن كل هذه الجهود ستؤدي في النهاية الى تثبيت الإنسان في مكان الله وجعله فائق القدرة .

الاّ أن دي ساد مع ذلك ، قد يهاجم بشدة على اعتبار أن الأمر قد اختلط

عليه ، وأن تفكيره لا يصدر إلا عن اختلال عصبي ونقص في النضوج . ومن بين حوادث الشذوذ المذكورة في بداية (١٢٠ يوماً من سادوم ، هناك واحدة عن شرب بول طفلة صغيرة ، ثم تتطور الحادثة إلى أكل برازها . وهناك كذلك ممارسة توغل أكثر من ذلك في الشذوذ وقدور حول أكل دم الحيض عند المرأة بل والجنين المهض . وفي الأخير يعتبر أحد الفاسقين عن رغبته في لعق الأقدام القذرة ، فإذا برفاقه المخضرمين يرفضون الفكرة ويصابون بالقرف . ثم يقول أحدهم بأن هذه البشاعات تاجمة عن البطر والسأم وإنها محاولات محمومة لإثارة شهية مثلية منهكة . وقد يقال إن دي ساد كتب (١٢٠ يوماً ، بعد سنين كثيرة من السجن ، بحيث أن الانطهاق والخيبة والمرارة دفعته إلى أحلام انتقامية . لكنه يشترط هنا في الحاكم الشرقي المستبد الذي يدور موضوع هذا النقاش حول قضيته ألا يكون مختل الأعصاب وأن يكون على علاقة طبيعية مع الناس ، وكذلك أن يكون قادراً قدرة تامة على أن يشبع شهواته قبل أن يغذيها الفشل والحبوط ، ويدفعها إلى مثل الحالات المتطرفة المزعجة المذكورة أعلاه .

هذا النقاش الفرضي من شأنه أن يوضح شيئاً واحداً : إن الحبوط والخيبة هما أساس كثير من « الشذوذ » ، وإنه لا بد لتصور مرض (وغير متناقض مع نفسه) ما ، عن ماهية « الاكتفاء أو الرضى الجنسي النهائي » ، أن يرتبط مع رؤية غيبية أوسع وأشمل عن هدف الوجود الإنساني . وغيبية لورنس الجنسية الصرفة هي نصف الطريق . . إنها رؤية غير كاملة لا تمتد إلى أبعد من حالة غريبة من الصراع المستمر بلا تسوية بين رجل وامرأة .

وهذا التصور عن الدور الذي يلعبه الحبوط والخيبة في تقرير الانحراف الجنسي يستحق أن يفحص بعناية ، لأنه يحرنا مباشرة إلى موضوع العلاقة القائمة بين الحبوط والمراحل المختلفة للسيلان والميوعة في تطور الانحراف الجنسي . وهذه العلاقات ترسم لنا بدورها صورة شاملة ، أو نوعاً من الخريطة ، لتكوين وتركيب الإنسان النفساني حيث يحتل الجنس رقعة منها .

الحبوط :

قبل أن نشرع في بحث قضية الحبوط بشكل أوسع وأوفى ، فإنه يجب اعطاء عامل « الحبوط » في الوعي الإنساني أهميته الكاملة .

النسيان شيء مبني فينا . إننا آلات غير كفوة . وإذا كانت لا بد من تخصيص المسؤولية فإن عدم الكفاءة هذه يجب أن تعتبر « مسؤولة » عن التصرف الجنسي غير الطبيعي . إن قوة الحياة قد زودت الوعي الإنساني بباب ذي نابض قوي يفتح الباب أوتوماتيكياً بعد ثوان معدودات . وعلينا أن نبقي هذا النابض في الذهن ونحن نتفحص الحالات التالية من « الانحراف » .

قبل كل شيء ، لنوضح لأنفسنا أننا نبحث في الدافع الجنسي كـ رغبة حيوانية منفصلة عن الصور المختلفة للإتصال أو الارتباط العاطفي . والأمر قد اختلط على كثير من الكتاب المتهمين بالجنس والذين يشيرون إلى أن عاشقاً ما قد يسرق منديل حبيبته أو خصلة من شعرها ثم يستخدمون مثل هذه الحادثة للتدليل على « الحلقة المفرقة » بين « الحب الطبيعي » و « الجنس المنحرف » .

ويذكر هيرشفلد أن غوته ، عندما كان في الرابعة والخمسين ، طلب من كريستين فالبياس أن تعطيه خفيها لكي « يضمها إلى قلبه » . ثم يتساءل هيرشفلد عما إذا كان غوته من « الفتيشين » أي عبدة الدكاكير لغرض التلذذ الجنسي .

والجواب على ذلك هو بكل وضوح لا ، ذلك أن السؤال ناشئ أصلاً عن اختلاط مبدئي في التفكير . ومن جهة أخرى ، تروي مارغانيتا لاسكي أنها حين غدت شخصية تلفزيونية ، بعث إليها يوماً أحد المعجبين ، رسالة يرجوها فيها أن تبعث له باثنين من « كلسوناتها » الملوثة . ومن الواضح أن هذه الحادثة هي بالفعل دليل على الفتيشية . وقد صدمت الأنسة لاسكي كما يبدو ، إلى درجة أنها ارتأت ، كما تقول ، أن تدون هذه الحادثة علناً كنوع من « العياذ من مثل هذا التوحش » . ولكن الطرافة في هذا الطلب تكن في أنه ببساطة رد فعل جنسي لذات الوهم ، التابع من محدودية الوعي ، الذي حدا بمعجبين آخرين أن يكتبوا لها طالبين توقيعها على أوتوغراف ، وعارضين عليها وفاءهم وإخلاصهم

الدائمين لدى الحياة . وهو في جوهره لا يختلف عن طلب الاوتوغراف ، ولكنه مثال ممتاز على كيفية عمل مبدأ محدودية الوعي . فإنه من المهم لقوة الحياة أن يعود الدافع الجنسي فيتشكل من جديد بعد اشباعه ، كما أنه من غير الملائم للجنس البشري إذا تعلم الناس بسرعة وبصفة نهائية من التجربة الجنسية واكتفوا بذلك ، كما يتعلمون من تجارب معينة أخرى . فالجندي الصغير في قصة اكو تاجاوا لم تعاوده في أغلب الظن تلك الرغبة الجارحة لأكل عصيدة اليام بعد أن تقيأ بسببها في المرة الأولى . أما الرغبة الجنسية فهي وحدها التي تستطيع ان تشكل من جديد بنفس الزخم والقوة بعد ساعات معدودات من اشباعها . وفي حالة الأنسة لاسكي ، فإن الغريزة الجنسية لدى معجبيها تقلصت في تفاعلها الخيالي بتأثير غريزة الاعجاب بالقائد الإجتماعية الموجودة فيهم . فالأنسة لاسكي إذن ، كانت في أعين معجبيها عبارة عن غرابة مزدوجة .. غرابة الانثى الغريبة العادية ، وغرابة القائد ، أي الشخص الذي أختير للظهور أمام ملايين الناس ، والذي هو اذن وفقاً للحسابات المعجبة لمثل هذه الأوهام والتصورات أم بليون مرة من كل فرد يشاهده .

وعند هذه النقطة ، فانه لمن المفيد أن نحاول وضع جدول للانحرافات مبتدئين بالانحرافات الصغيرة البسيطة عن « العادية » فبهذه الطريقة قد يمكننا أن نتوصل الى بعض المعرفة الباطنية لتركيب ونظام عمل الانحراف . وسأتحدث في الوقت الحاضر عن الانحرافات عند الذكور نظراً لأن كتابات كرافت - إنج ، وإيليس وهيرشفلد تشير إلى ان الرجال قابلون للانحراف أكثر من النساء .

ويمكننا لأسباب عملية أن نعتبر العادية كتركيب جنسي حيواني بسيط يلعب دوراً صغيراً نسبياً في وعي الذكر . والرجال الذين يعيشون حياة جسدية عنيفة ، مثل العمال والجنود والرياضيين المحترفين وغيرهم ، ربما لا يكون عندهم الكفاية من الوقت للتفكير في الجنس ، خاصة وأن طاقاتهم تصرف في أشياء أخرى . وهذه هي فكرة تولستوي عن العادية .. الفلاح الذي يضاجع زوجته

مرة في الاسبوع وينجب طفلاً كل عام .

إن أبسط انحراف عن هذا « المثال » هو الرجل الذي يولي اهتمامه لنساء أخريات والذي قد يفتنم أية فرصة لحيانة زوجته . وتولستوي سيعتبر مثل ذلك بداية الانحراف . (إن تولستوي في هذا ، هو أقل تطرفاً على كل حال من القديس بولس الذي كان فيما يبدو ينظر الى الجنس على أنه حركة تبعد الإنسان عن تفرغه المشروع ، وبالتالي الطبيعي ، للرب) .

إن كثرة وتنوع المجالات التي تتخصص في نشر قصص منمقة متحررة عن الحيانة الزوجية ، وكذلك في نشر صور فتيات عاريات أو شبه عاريات دلالة على أن « التزويغ » عند الأزواج شيء عادي تقريباً . ومع ذلك ، فمن الملاحظ أن قليلين جداً من الرجال سيحملون طويلاً في صورة فتاة شبه عارية ، في مجمع من الناس ، بل وستكون نظرهم إلى الصورة أكثر إنجازاً وسرعة مما لو كانوا وحدهم . وهذا يعود طبعاً إلى خوفهم من أن يشك الآخرون في أنهم يرتكبون اغتصاباً ذهنياً مع فتاة الصورة . وإن تقديرأ سريعاً رجولياً لصورة فتاة شبه عارية يعتبر أمراً عادياً ، في حين أن تمنعاً أطول في الصورة قد يدل على أن الرجل يفكر في الجنس بطريقة ماسوكية نظراً لأنه لا يمكن له تحقيق رغبته مع الصورة . لذلك فإن الشعور بالجنس عند الرجل ينبع من كونه يفكر في الشيء بدلاً من أن يفعله . بل إن مثل ذلك قد يلح إلى نوع من الاستمراء .

موضوع البحث في هذا السياق ، وفي كل الإنحرافات الأخرى ، هو وهم أو تصور الغرابة . ومتى ضاع الرجل أول مرة في حياته ، بات يعرف بصفة أساسية ما هي المرأة . إنه كمسافر شدة الشوق أعواماً لرؤية الهند ثم سنحت له الفرصة فذهب إلى هناك . بمعنى أن الحاجة الأساسية ، والكبرى ، قد تم اشباعها الآن . وقد تحدث لورنس عن ذلك ، بكثير من القوة في قصيدة Manifesto ، فكتب عن :

... جوع آخر

عميق جداً ، وكاسر ...

أكثر حمرة من الموت ، وأكثر صخباً .
الجوع لامرأة ...
الذي يجب أن نتعلم كيف نشبعه برضى حقيقي صرف
أو غوث ، ليس هناك من بديل ...
امرأة أشبعت هذا الجوع في آخراً .
ما لا تستطيع نساء كثيرات أن يمنحنه ، تستطيع امرأة واحدة ...
وقفت قبالي كخيرات مملوك لي .
وحق وقتها ، في العتمة ، كنت معذباً ، ضارياً ، مقيداً ،
خجلاً ومغزياً وشريراً .
إن الإنسان يصاب برعب كبير من الجوع العنيف ،
وهذا الرعب هو جذر كل القسوة .
أحبتي ووقفت قبالي ، تنظر إليّ .
كيف أنظر ، وأنا محموم بالجنون ؟ واختلست نظرة جانبية
وأنا محموم بجنون رغبة مفترسة ...
وبعد هذا الوصف الممتاز لعنف الرغبة الجنسية الذي لا يوجد مثيل له إلا
في بعض صفحات « Wedekind » ، تصل القصيدة إلى ذروتها :
أستطيع أن أضع وجهي بين نهدَيها
وأعرف أنها قد أعطيا إلى الأبد
وانني لن أجوع أبداً
لن أضمحل ،
لقد أكلت من الخبز الذي يشبع
وهذا جسد جسدي ،
صار هناك سلام وثناء ،
وتحقق .

ولورنس مدهش إلى حد كبير لأنه ، بهذه الطريقة بالذات ، كان متحرراً

تماماً من النيوروسين (أي اختلال الأغتصاب) المعاصرة لعدم التمييز الجنسي .
فقد أعلن - سواء أكان ما يقوله صحيحاً أم لا - أن تجربته الجنسية الرئيسية
(وليس الأولى) قد علمته شيئاً دائماً .

وهذا ليس صحيحاً بالنسبة لمعظم الرجال . ففي إحدى مقدماته الأخيرة
يشير برناردشو إلى أن معظم الرجال في القرن العشرين يمارسون تجربتهم الجنسية
الأولى في وقت متأخر جداً . في العصر الاليزابيتي كانت كثير من الفتيات
يتزوجن ويصبحن أمهات في سن الثالثة عشرة ، كما أن معظم الفتيات كنوا
يمارسون تجربتهم الجنسية الأولى منذ سن الثانية عشرة ، وهي السن التي يبدأ
فيها الجوع الجنسي ، في اقلاق الذكر . ولقد لاقى لورنس تجربته الجنسية الأولى
قبل أن يبلغ العشرين بقليل . فلما أي حد كانت غيبته الجنسية اللاحقة هي
نتاج حرمانه الطويل هذا ؟

ثم إنه مهما كان السبب ، فإن الرجال لا يشعرون أنهم حصلوا على شيء دائم
حين يمارسون تجربتهم الجنسية المرضية الأولى . وعلى الأقل فقد توغل لورنس
في عملية الوم الجنسي إلى حد إدراك أن « ما لا تستطيع نساء كثيرات أن
يمنحنه ، تستطيع منحه امرأة واحدة . » لكنه إذا ما كان إحساسه بأن نهدي
زوجته « قد أعطياه إلى الأبد » عمقاً بالفعل ، فإن كل اهتمامه الجنسي فيها كان
سيضمحل بسرعة تقريباً . فقد تكون الرغبة الدون جوانية قد اختفت ، إلا
أن وهم الغرابة العادي ظل قائماً ، وإلا فإن الزواج سيكون وحيزاً جديداً .
والرغبة الجنسية ليست كالحاجة إلى الطعام ، وهي لا تتشكل من جديد وفقاً
لعملية آلية تتعلق بالتغذية بل بفعل عادة ذهنية كنت قد شبهتها سابقاً بنابض
قوي مركب في باب .

المجلات التي تخصص في نشر صور الفتيات شبه العاريات إنما تقوم في الواقع
بتشجيع نوع بسيط من الفويريه Voyeurism أي التيهيج الجنسي بواسطة
المشاهدة . وهناك بعض الكتب السيكلوجية التي تفرق بين الشخص الفويري
والشخص الذي يسمى بالانكليزية « Peeping Tom » وهو (وصف يطلق على

مسترقى النظر أو المتلصصين في الحالات الجنسية ، وسنسميه هنا « تلصصاً » ، المترجمان () . فمعظم الرجال هم من صنف المتلصصين ، نظراً لأنهم سيلتفتون وينظرون إذا ما مرت فتاة شبه عارية في الشارع . أو إذا ما رفعت الريح ثوب امرأة . لكن هناك القليل من الرجال يعمدون الى تحدّي القانون، وذلك لإشباع رغبتهم في مشاهدة نساء عاريات أو تتعري . وبالنسبة للبوليس ، فإن المتلصص هو الرجل الذي يجعل من نفسه سبباً للإزعاج عن طريق محاولة مشاهدة نساء وهي تتعري أو مشاهدة رجل وامرأة يزاولان الجماع . أما الفويري فهو الرجل الذي يجب فعلاً أن يشاهد عملية جماع تجري أمام عينيه . (في رواية فوكنر المسماة « الملجأ » Sanctuary نرى بوب أي عاجزاً عن قُص بكارة تمبل بنفسه ، ونراه يستلقي بدلاً من ذلك على الفراش، وهو يرتدي قمبته، ويراقب ريد وهو يضاجع تمبل .) وسأستعمل كلمة « فويري » هنا كصفة لكل الرجال الذين يثارون جنسياً بواسطة حاسة البصر سواء أكانت تهيجهم يصل درجة القذف أم لا . وبطل رواية باربوس المسماة « الجحيم » هو حالة غريبة من الفويرية . ففي مستهل الرواية نراه يشاهد امرأة وهي تخلع ثيابها في غرفة مجاورة (مع أن باربوس يحرص على عدم الإشارة الى أي تهيج جنسي) ، لكن المناظر التي يسترق النظر إليها ليس لها في الغالب أية صفة جنسية . وفويريته تنبع من رغبته في التغلب على الوحدة الأساسية للكائنات البشرية ، وفي محاولة الولوج الى الحيات الأخرى وعيشها بالنيابة .

ينبغي هنا أن نلاحظ أنه لا يمكن وصف الفويرية بالشذوذ بمعنى أنها بديل كامل للعملية الجنسية العادية . فإن كثيراً من الرجال يحبون أن يشاهدوا امرأة وهي تتعري قبل أن يمتلكوها جنسياً . كما أنه سيسعد معظم الرجال المتلصصين أن يضاجعوا المرأة التي يتلصصون عليها إن كان يمكنهم ذلك بدون أي خطر أو بدون الحاق أي أذى وألم .

إن تشارلز فلويد ، الذي حكم عليه بالسجن المؤبد في تكساس عام ١٩٤٩ ، كان متلصصاً بالإضافة الى كونه مفتصباً . وكان من عادة إحدى ضحاياه أن

تخلع ثيابها من غير أن تغلق ستائرهما . فبعد أن راقبها فلويد لعدة ليال ، تسلق إلى شقتها في ليلة ما ، ولطمها على رأسها بحيث أفقدها الوعي ثم اغتصبها . بل انه في الواقع أمضى الليلة كلها في الفراش مع المرأة الغائبة عن الصواب ، وغادر الشقة في الصباح . وهذا يدل على أن تلهفه وانتظاره الطويلين قد غذيا شهوته الى الحد الذي لم تكف فيه بمجرد عملية واحدة من الإغتصاب أن تشبعه . ولقد ارتكب فلويد خلال فترة سبعة أعوام ، خمس جرائم قتل مع اغتصاب على الأقل ، وعدة محاولات اغتصاب . وبعد اعتقاله وجد أنه مسؤول جزئياً عن أعماله فأودع في مستشفى للمجانين . وفلويد هو مثال واضح على الجبوط العادي (صورته تدل على أنه رجل ضئيل ، قبيح المنظر) الذي غذاه وقواه المفعول المثير لإمرأة مهمة . وقد دفعه ذكاؤه المحدود جداً بالإضافة الى تلك العوامل ، الى تخطي كل الكوابح والموانع العادية . لكن رغبة الاغتصاب ليست وقفاً على الرجال المهزوزين عقلياً أو الذين توقف غنوم العقلي في سن مبكرة . فإن شتينوولف بطل رواية هيسل المسماة بالاسم نفسه ، يقرّ بأنه يجب لو احتضن « ظبية » :

وأولم نفسي بزخم على فخذهما الطري
وأشرب قدراً كاملاً من دمها الأحمر
ثم أعوي حتى يمر الليل .

فهنا نرى رجلاً ذكياً يعترف بوجود عامل الإغتصاب فيه وكذلك بالرغبة في تحقيق ذلك بالعنف .

وهذا يثير السؤال التالي : لماذا يشعر الرجل بحاجة الى أن يرتكب العنف مع الجسد « الغريب » ؟ لماذا يشعر برضاء أكبر حين يحطم هذه الغرابة عن طريق الحاق الألم ؟ ها هنا اذن حالة بسيطة لسوء توجيه دافع غريزي . فالحاجة الى مشاهدة امرأة وهي تتعري تنبع من الشعور بأنها غريبة . إن الرجل لا بدّ له أن يحسّ قدراً معيناً من الاستياء البسيط للطريقة التي بها يملص منه « الرضى الجنسي النهائي » دائماً ، وللطريقة التي يمنحه الدافع الجنسي بها قدراً من الرضى

ثم يعود فيخطفه منه . فالدافع الجنسي يصرخ في طلب شيء ما ، وبعد خمس دقائق من حصوله على مبتغاه نراه يعود ويصرخ من جديد .

ولأنه من غير المجدي أن نغضب على الدافع الجنسي ، حين يتحول جزء من هذا الغضب أو الاستياء بصورة تدريجية وغير منطقية إلى غضب أو استياء موجه ضد المبتغى الجنسي ، أي الفتاة .

ومرة أخرى ، تزودنا المراجع الخاصة بالجرائم الجنسية بأمثلة ايضاحية كثيرة . فلقد صرح باتريك بيرن ، الذي ارتكب عدة جرائم قتل ضد فتيات من جمعية الشابات المسيحيات في بيرمنغهام ، أنه أراد أن يرعب كل النساء « لكي أنتقم منهن لأنهن سببن لي توتراً عصبياً عن طريق الجنس » . ولقد اعتاد بيرن على أن يتلصص من نوافذ جمعية الشابات المسيحيات ليشاهد الفتيات وهن يخلعن ثيابهن . وفي الثالث والعشرين من ديسمبر عام ١٩٥٩ كان بيرن غملاً للغاية ، ومن ثم متحرراً من كل ضوابط النفس . وكان إلى جانب ذلك يشعر بالاستياء والحقق لأن رئيس البنائين طرده من العمل بسبب سكره المتواصل ، وأقدم بيرن وهو في هذه الحالة على اغتصاب فتاة تدعى ستيفاني بيرد ، ثم قتلها وقطع رأسها بسكين كبيرة حادة . ويبدو أنه حاول كذلك أن يأكل أحد ثدييها وذلك بأن رش عليه السكر . (وأكل الثدي أو الحلمات شائع في الجرائم الجنسية . وهناك حالتان مماثلتان أورد هما بول دي ريفر في كتابه) . وفي مساء اليوم نفسه حاول أن يقتل فتاة أخرى بأن يضربها بحجر . كما أقرّ بأنه أحس برغبة في قتل عدة « نساء جميلات » . (وقد قرر في إحدى المرات ألاّ يعتدي على إحدى الفتيات لأنها كانت غير جميلة .) وقد اعترف بيرن بأنه كان ينغمس في نزوات جنسية قام في إحداها بشطوط فتاة الى قسمين بواسطة منشار دائري^(١) .

١ - هذه الحالة من التصرف الخارج على المعقول ليست طبعاً غريبة على المجرمين الجنسيين ، بل انها مميزة اجرامية شائعة . فقد نقل عن ستيفن ناش الذي قتل صبياً ط شاطئ سانت مونيكا عام ١٩٥٥ ، قوله : « كنت فخوراً به . ومع أنني أسفت ان الأمر حدث لصبي ، الا انه =

وجريمة القتل هذه بشكل واضح محصلة أعوام من الجبوط والخيبة الجنسية، ومحصلة شعور جارف بعدم الإمتياز الجنسي في مجتمعنا بالإضافة إلى أنها تنساج اعتقاد قائم بأن النساء هن المسؤولات عن ذلك . ولا شك أن تشارلز فلويد كان يمتلك شيئاً من هذا الشعور والإعتقاد ، كما أن هذه الحالة تنطبق بالتأكيد على هنريخ بوميرنكه ، القاتل الجنسي الألماني البالغ من العمر ٢٣ عاماً والذي ارتكب عشر جرائم قتل . وقد ادعى بوميرنكه الذي حكم عليه بالسجن المؤبد عام ١٩٦٠ ، بأنه استوحى جريمته الأولى من فيلم « الوصايا العشر » الأميركي . فقد أوحى إليه منظر النساء وهن يرقصن حول المعجل الذهبي وأقنعه بأن النساء مصدر كل الشرور في العالم . وقد اغتال ضحيته الأولى في حديقة عامة وبعد مشاهدته للفيلم مباشرة . ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أنه ادعى بأن القتل كان يحدث بطريق الخطأ والصدفة ، وأن قصده فقط كان أن يفقد النساء صوابهن لغرض اغتصابهن . فقد تكون النساء شريرات ، لكنه يمكن معاقبتهن بشكل كاف وذلك بنكاحهن . وهذا في الواقع هو موقف عدواني من الجنس نجد أنه ملازم بشكل غريب لطباع الذكر . (لقد لاحظت ذلك بشكل خاص بين الرجال العاملين . ففي إحدى المناسبات اختلف أحد العمال في « كاتين » مع امرأة متوسطة العمر ، ولا تعتبر جذابة تماماً ، فعلق غاضباً : « هذه المرأة يجب أن ... » . وطبعاً فإن العامل كان يتصور ذلك كنوع من العقاب لإخضاعها وتأكيد رجولته) .

ومثل بيرن ، فقد وصف بوميرنكه بأنه « غير ناضج » جنسياً ، ومع أنه ادعى بأنه أغوى صبية من جيله حين كان في العاشرة من عمره ، فقد اعترف بأن الفتيات كنّ يعرضن عنه أو يسخرن به . وعامل الاستياء والحقن هذا قد يتخذ أشكالاً أكثر غرابة . فقد أعلن

= كان علي ان اسوي الحساب » . وكان ناش قد ارتكب عدة جرائم ، وينوي الاستمرار في ارتكاب المزيد للإنتقام من ، او « تسوية الحساب » مع قاضٍ في لوس أنجلوس ، كان قد حكم عليه بالمقوبة القصوى لإرتكابه جريمة صغيرة .

ويرنر بوست ، القاتل الجنسي الألماني ، بأن رؤية اثنين يتعانقان كان يثير غضبه وأن « مثل هذه الفظائع الجنسية هي لعنة ألمانيا » . وهذه العقلية الفاضلة كان يعترض أو يفاجئ رجلًا وامرأة ما في سيارة ويرغمها على تناول قرص مخدر ، ثم يفتصب المرأة ويسرق الرجل . ومن الصعوبة بمكان أن نفهم منطقة في تبرير عملية الإغتصاب . والشيء الذي ينبغي ملاحظته هنا هو أنه لا توجد هناك أية محاولة تقريباً لإيجاد مخرج عقلي لشعور الحنق والخيبة . بل يترك لهذا الشعور أن يعبر عن نفسه بأبسط طريقة ، أي بواسطة عملية العنف والإنتهاك . وقد قام بوست هذا فيما بعد بقتل رجل وامرأة ثم بقتل رجل وامرأة آخرين . ففي المرة الأولى دفع بالسيارة إلى بحيرة ، وفي الثانية أشعل النار فيها ، في مكان مليء بالعشب الجاف . ومن هنا يبدو أن عامل الاستياء كان قوياً وعميقاً ^(١) .

وفيما أذكر، أن هناك معالجة أدبية قيمة واحدة فقط « للجنون أو الهوس الجنسي » (إذا أسقطنا من حسابنا حادثة اغتصاب الطفلة المنوع من رواية « المأخوذ » Possessed لدستوفسكي) ، الا وهي تلك المتعلقة بشخصية موسبراجر في رواية موسيل المسماه « الرجل الخالي من المناقب » - The Man Without Qualities . فقد أعتقل موسبراجر في الرواية لأنه طعن مومساً حاولت استمالته ، ولكنه في كل النواحي الأخرى يمت إلى فئة القاتل الذي يعاني من الحبوط والخيبة الجنسيين كما ورد أعلاه . ويحذر هنا نقل تحليل موسيل

١ - أحد الملامح المقلقة لهذه القضية ، وللوضع كله عامة، هو أن كثيراً من مجموعة الأزواج من الرجال والنساء الذين اعتدى عليهم لم يبلغوا البوليس أو يتقدموا بأية شكوى . وفي حالة جيرالد طومسون في بيوريا « راجع بداية الفصل السابع » ، اشبه البوليس بأن القاتل ربما كان قد اغتصب نساء أخريات ، يجمعن خجلاً من التقدم إلى البوليس خوفاً من الفضيحة . ولذلك وافقت الصحف على ألا تنشر أسماء الضحايا . وكانت النتيجة مذهلة ، فقد تقدم إلى البوليس أكثر من خمسين امرأة كان طومسون قد اعتدى عليهن بالإغتصاب والتقط صورهن في أوضاع مشينة وهن غائبات عن الصواب . وقد هدد طومسون بأن ملاحظته واعتقاله سيؤدي إلى الكثير من العلانية والتشهير وكذلك إلى تسرب الصور إلى النشر . وبما لا شك فيه أن إحدى الخطوات الهامة في طريق مكافحة الجريمة الجنسية هو عدم نشر أية معلومات عن الضحايا .

لشخصية موسبراجر .

« حين كان موسبراجر صبياً ، بائساً وفقيراً يعمل كراعٍ في كفر صغير لم يكن فيه حتى شارع قرية واحد . وقد بلغ موسبراجر من الفقر بحيث أنه لم يكلم فتاة أبداً . كانت الفتيات بالنسبة له شيئاً لا يستطيع الا النظر إليهن ، وقد استمر هذا الوضع معه حتى بعد أن أصبح أجيراً يتعلم حرفة عند مهني وحتى خلال تطوافه كعامل مياوم . ولا بدّ للإنسان هنا أن يتصور ماذا يعني كل ذلك ، ماذا يعني أن يكون هذا الشيء الذي يتوق ويحتاج الإنسان إليه كحاجته إلى الحب والماء ، غير متوفر الا لمجرد النظر إليه فقط .

وبعد فترة ما ، تصبح رغبة الإنسان في امتلاك هذا الشيء رغبة محمومة غير طبيعية . إنه يمر أمامه ، تهتز التنورة حول أسفل ساقيه . يتسلق سلماً ، فتبين ساقاه حتى الركبتين ، وينظر الإنسان في عينيه ، فيغم اللون فيها ... »
وهكذا يمكن لنا أن نتفهم لماذا برّر موسبراجر نفسه حتى بعد أن قتل أول فتاة ، وذلك بأن قال إن الأرواح كانت تتقمصه وتناديه صباح مساء ... » .

وهناك في الرواية وصف مؤثر جداً للتأثير الوحشي الذي يدخله على الإنسان النوم في العراء ، في فصل الشتاء ، وعدم الاغتسال أبداً ثم التعرض للإهانة والاعتقال بتهمة التشرد . إن موسبراجر يصر على أنه كان يشعر بمجرد القرف من النساء اللواتي اغتصبهن وخنقن ، أو كان يشعر بقسوة القطعة الغريزية ضد الفأر . وإلى جانب ذلك كان يغيب في أحلام يقظة يتصور نفسه فيها « ملاكاً مدمراً يذبح الآلاف ، وناراً محرقة تلتهم المسارح أو فوضوياً عظيماً^(١) .

ولقد استطاع موسيل هنا أن يرسم صورة للجوع الجنسي الأساسي في الذكر ، كما فعل لورنس في قصيدته « Manifesto » والواقع أنه إذا ما بلغ أي إنسان مثل هذا القدر من الجوع العظيم ، فلاغربة أن تتكوّن لديه بعض الانحرافات . إن الانحراف المسمى بالفتيشية (أي عبادة الدكاكير لغرض

١ - راجع الفصل السابع فيما يختص بشخصية بيتر كورتز .

التمتع الجنسي) هو انحراف يمت دصلة وثيقة إلى أبسط أشكال الفوورية .
والفتيشية أو الذكور هي شيء أو جسم ما يكتسب دلالة جنسية بسبب وجود
علاقة ما بينه وبين الجنس . ونظراً لأنه من صميم عمل التكوين الحيائي للإنسان
الآتي تعلم إلا القليل جداً من التجربة الجنسية ، وبالتالي فهو يضطر إلى
إعادة هذه التجربة بلا نهاية ، فإن النظام الأساسي لإختيار هذا الشيء أو
الجسم الجنسي ينبغي بالطبع أن يكون خاطئاً وغير كفء . وإن أية
« انحرافات » تدمج بطريق الخطأ أو الصدفة ضمن « مغناطيسية » الرغبات
الجنسية ، قد تصبح ثابتة ومستديمة بتأثير النظام المتكرر .

إن ستيكيل يذكر حالة بطلها رجل لا يمكنه أن يبلغ ذروة المنشوة الجنسية
أي القذف ، إلا متى وضعت المرأة المعنية مربلة . وقد دلّ التحليل على أن
الرجل المعني كان يربط بين المربلة وبين الممرضة التي كانت تلعب بأعضائه
التناسلية حين كانت تحمّمه .

وكتاب ستيكيل المسمى الانحرافات الجنسية Sexual Aberrations (وهو
كتاب يبحث كلية في الفتيشية) يحتوي على حالات من فتيشية الشعر وفتيشية
العكازات ، وفتيشية اللحي وغيرها . لكنني أميل إلى الشك في أن هناك أية
أهمية عامة كبيرة لمثل هذه الانحرافات ، سوى أنها مثال على أن الدافع الجنسي
قد يخضع « لمغناطيسية » أشياء غريبة جداً . ومن الغريب أن معظم الكتاب
الذين يكتبون عن الفتيشية يولون إهتماماً ضئيلاً لذلك الصنف من الفتيشية الذي
هو على وجه التأكيد أكثر أصناف الفتيشية شيوعاً في القرن العشرين ، ألا وهو
فتيشية الثياب وعلى الأخص الكلاسين . وقد يكون سبب ذلك أن التركيز على
الثياب الداخلية للمرأة قد شاع وقطور في الخمسة والعشرين عاماً الماضية (أي
منذ منتصف الثلاثينات) .

فالمجلات والإعلانات في الشطر الأول من القرن ، أي في عهد فرويد
وستيكيل وايليس وهيرشفلد ، لم تكن تحتوي على صور مغربة لفتيات في
ملابسهن الداخلية . (لا شك أن هناك أزياء مختلفة في الفتيشية ، وأنا أشك على

سبيل المثال أن تكون فتيشية المشدات أو الكورسيهات شائعة كما كانت على ما يبدو حوالي عام ١٩٠٠) .

وإلى حد ما فإن فتيشية الملابس الداخلية يمكن اعتبارها « طبيعية » ، في أبسط مظاهرها ، كالفيوورية . والمقطع التالي من رواية نلسون الغرين المسماة « Awalk On The Wild Side » توضح ما أعنيه ؛ إن الصبي دوف تثيره أرملة مكسيكية مملئة الجسم تملك متجراً عاماً :

« وورد اليه عطر من الشرك فترك الكتاب وتبع أنفقه الذي كان يشم المكان كأرنب الى ان وصل الى دولاب الملابس .

« بلوز من الشيفون ، وشلحة بيضاء مهترئة عند خط الدرزة ، وصدرية سوداء ، كأنها زيّ أحد أسلاك الرهينة . وأحس دوف نحو هذه الأشياء بشعور من ذلك الإحترام الخاص الذي تكنه قلوب رجال عاشوا منفصلين عن النساء تماماً . وخطر له فيما يشبه السحر أنه تحت هذه الملابس تسير السنيورة عارية ، وقد أوهنه هذا الإدراك الى حد أنه جلس على حافة السرير والشلحة ملقاة على ركبتيه ، وراح يتحسسها كأنها جسدها . وفي الفجوة التي تقبع فيها الحلمة ، في الصدرية أمكنه أن يشم رائحتها الخاصة ، كأنها رائحة الجلد الروسي ...

« وبشوق عميق كالحاجة التي فيه انبطح على معدته وشد شلحتها الى صدره ثم وضع رأسه موضع رأسها في الوسادة . وتشجعت أعضاؤه وانتفضت ثم غمرته موجة من الحذر خلفته رخواً هامداً كالشلحة . ومكث الصبي فترة في استلقائه هذا وهو مغمض العينين يطفح منه العرق ويفامر شعوره من الإنهاك والذنب . إن شيئاً كهذا لم يحدث له من قبل حين كان يفيق من النوم .

إن الجملة الأخيرة تشير إلى أن المستر الغرين أقل واقعية مما يبدو ، فهناك في الغالب عدد قليل جداً من الصبية ، في السادسة عشرة من عمرهم ، ممن لم يارسوا بلوغ النشوة الجنسية أبداً إلا في الأحلام الجنسية ، أحلام الاستمنا . ولكن وصفه لحالة بسيطة من الفتيشية هو وصف مقنع تماماً .

والواقع أن أول مثال على فتيشية الملابس الداخلية في الأدب ورد في

رواية جيمس جويس المشهورة بوليس Ulysses . وحوادث هذه الرواية تجري في عام ١٩٠٤ (في ذلك الوقت كانت الكلاسين النسائية عبارة عن سراويل منتفخة نصف طويلة من الحرير الصناعي الملوّن) . وفي الرواية نجد أن المستر بلوم هو من فتيشي الكلاسين ، كما نسمع المز بلوم تقول :

« طبعاً انه يكاد يحنّ بالسراويل التحتية . هذا أمر واضح ، خاصة إذا ما لاحظت كيف أنه يراقب باستمرار تلك الأشياء الوقحة التي تركب الدراجات فتتطاير فساتينها حتى سرّة البطن ... »
ونسلمها تقول في مكان آخر :

« إنه يحاول بأي عذر أن يضع يده بالقرب من دولاب سراويلي التحتية طوال الوقت ، حتى وعده أخيراً بأن أخلع سراويل «دميتي» التحتية وأعطيه إياها ليحملها معه في جيب سترته . »

وفي مشهد الشاطئ حيث يمارس بلوم العادة السرية بعد أن يشاهد فتاة تميل إلى الخلف ويدها معقودتان على ركبتها ، فإن سبب تهيجه هو رؤيته للملابس الفتاة الداخلية :

« وصاحت جاكي كافري تدعوها أن تنظر : فقد كان هناك واحد آخر ، فالت إلى الخلف فإذا رباط جواربها ازرق يماشي اللون الشفاف ... واضطرت أن تميل أكثر فأكثر إلى الخلف لتلاحقه ببصرها وهو يعلو ويعلو ويسكاد يختفي عن الأنظار .

« واكتسى وجهها بحمرة إلهية ساحرة من عنف ميلها إلى الخلف ، فأمكنه أن يرى أشياءها الأخرى كذلك .. س رواها التحتي المصنوع من القطن محتضن بدنها .. وإذا كان كل ضلع فيها يرتعش لفرط ميلها إلى الخلف ، كان هو يستطيع أن يرى كل شيء أعلى الركبة ... »

وقد افترض البروفسور ولسون نيت في البحث الذي أثمرت إليه آنفاً ، ان تهيج بلوم كان سبب رؤيته لردفي الفتاة جيرتي ماكدويل . ويبدو لي هذا غير محتمل بسبب الأدلة الأخرى في الرواية . ففي مشهد آخر نرى لينش يرفع

شلة مومس بحراك النار . كما أن فيراج ، والد بلوم (الذي يوجد في خيلة بلوم فقط) ، يعلق بقوله :

« وبغلة منها كشف منظرها الخلفي أنها لا تلبس ذلك الرداء الخصوصي الذي تمسقه بشكل خاص » . (ولقد كان جويس فيما يبدو واحداً من عشاق تلك « الأردية الخصوصية » . وروى عنه أنه وقف مرة على جسر ، وكان مثلاً ، فأخذ يرقص ويلوح بكلسون نسائي كان يحمله في جيبه ، من تأثير العادة^(١)) .

ورواية جويس هي طبعاً ، عرض لمجموعة من الإنحرافات الجنسية (منسوبة في غالبها إلى بلوم) . فبلوم منغمس في علاقات غرامية خارج زواجه ، وقد حاول مرة واحدة على الأقل أن يمتدي جنسياً على خادمة بيته ، وهو كذلك من فتيشي الملابس الداخلية . وإلى جانب كل هذا فهو يبعث أيضاً برسائل مشينة إلى سيدات المجتمع الجميلات (إذا أخذنا الحاكمة الهزلية في مشهد Night Town على علته) ، بل إنه يطلب إلى واحدة منهن أن « تلوث الرسالة بطريقة لا تقال » (أي بأن تستعملها كورقة تواليت) . وهو لم يمارس الجماع العادي مع زوجته لمدة عشر سنوات ، لكنه كان يحب أن يرقد على الطرف الآخر من السرير ويقبل رديها و « الشق الأصفر ذا الرائحة » بينهما . (وقد قيل كذلك إنه في أحد المشاهد الحتمية في الرواية ، يقوم بلوم بذلك بإسلاج لسانه في شرجها . ولغة جويس في الرواية غامضة جداً في أحيان كثيرة بحيث قد يكون ذلك صحيحاً ، لكنني شخصياً لم أستطع أن أجسد ذلك المنظر بالذات) وفي بداية الرواية يتذكر بلوم كيف أنه ضاجع زوجته قبل أن يتزوجها وكيف أنها وضعت فيها على فمه ودفعت فيه بقطعة من الحلوى كانت تمضغها .

وأخيراً تذكر المسز بلوم في مكان ما من الرواية ، بأن زوجها يحب أن يغسل ويكوي كلاسيها . إذن فإن عادات بلوم الجنسية كانت تتراوح بين

١ - بروي فرانك بدجين أن جويس كان من فتيشي الكلاسيين وأنه ، مثل بلوم ، كان يحمل السراريل التحتية لإحدى العرائس في جيبه .

الانحرافات البسيطة والميول انشاذة الأكيدة^(١) .

ولست أدري ان كان جويس قد قام بأية محاولة يوماً لتفسير ميول بلوم الجنسية . ولكن رسمه لشخصية بلوم يبلغ من الدقة والشمول بحيث يمكننا أن نعتبر بلوم حالة مستقاة من ستيكيل ، كما أنه تكاد تبرز هناك عدة استنتاجات أكيدة . إن بلوم يعاني من عقدة نقص قوية . وهذه الحقيقة بالذات تتضح أبلغ إيضاح في المشهد الذي يلي مدينة الليل Night Town (وهو المشهد المسمى يومائس Eumaeus) . وهذا المشهد مكتوب بلغة باهتة مليئة بالكليشيات ، أي باللغة التي ينتظر من واحد مثل بلوم أن يكتب بها . إن بلوم يعاني من « وهم التفاهة » ، من شعور بالنقص بسبب جنسه (أي عرقه) وضالة ثقافته (بالمقارنة مع الطلبة الذين يختلط بهم) وكذلك بسبب منظره الخارجي . ثم إنه يعاني كذلك من ميول مازوكية قوية تتضح في مشهد مدينة الليل حيث يجعل من نفسه امرأة ويسمح لـ « مدام » الماخور (أي البترونة) أن تضربه .

وهو يبدو طوال الرواية كلها رجلاً ذا طبيعة سمحة ، من الذين لا يمكنهم أن يلحقوا أي أذى بالغير . وإحساسه بعدم التمييز الجنسي هذا ، أي بالحبوط والخبية ، يعتبر عن نفسه في انحرافات صغيرة أبرزها فتيشيته .

ما هو بالضبط مغزى الفتيشية كتنفيس عن الحبوط ؟ ولنبتدىء بالقول إنها نوع من الإغتصاب الرمزي للأنثى الغربية . إن نوع الرغبة الجنسية التي يحسها موسبراجر هو في جوهره نوع لا شخصي .

يقول بطل رواية باربوس « الجحيم » : « إن ما أريده ليس امرأة .. بل كل النساء ، حتى أن الاتصال الشخصي قد يؤدي إلى افساد التجربة . إلا أن الجنس اللاشخصي هو أمر نادر ، فكل الرجل والمرأة ينجرفات في دوامة شخصية بعضها البعض . فقد يمكننا تسمية اغتصاب امرأة غائبة عن الصواب عملاً لا شخصياً ، لكن الرجال من صنف بلوم في هذه الدنيا عاجزون لحسن

١ - نجد أن تعلق جويس بالشذوذ قد تطور في روايته finnegans Wake إذ نرى بطل الرواية يقنع زوجته بأن تفوط في فمه .

الحظ عن ارتكاب أي اغتصاب . لذلك فإنهم ينفسون عن عقدهم بالنزوات الأوثانية (أي تلك التي يستحضرون فيها اللذة الجنسية وحدهم كالعادة السرية . .) تعزرها حوزتهم على رداء نسائي لا يمكن توفره في الأصل إلا للحبيب .
إن سلبية الشيء أو الفرض الجنسي ، التي تعرضنا لها في بحثنا عن الجنس « الفوري والاشخصي » ، هي ذات أهمية كبرى إذا كنا نريد أن نتفهم طبيعة الشذوذ الجنسي . وهذا قصة قصيرة لليونيد أندرييف بعنوان الهاربة Abyss توضح ذلك تماماً .

يقوم طالب وطالبة بنزهة على الأقدام معاً . إنها يعيشان قصة حب ولذلك فهما يفرقان في حديث مثالي طويل عن الحياة . ويمران أثناء سيرهما ، يجاعة من المتشردين الذين يجذبهم جمال الفتاة فيقتفون أثرها ثم مهاجموها . وبعد أن يضربوا الفتى حتى يغيب عن صوابه ، يجرّدون الفتاة من ثيابها ويفتصبونها كلهم . وحين يعود الفتى إلى رشده يجد رفيقته غائبة عن لوعي ، فيشرع في تقطيعها ثم يهيجه عريها وغمّاؤها فيفتصبها هو أيضاً . وهذا هو معنى عنوان القصة « الهاوية » .
لم يفسر أندرييف فكرة قصته هذه أو مغزاها أبداً ، لكنه يبدو من المحتمل أن الطالب قد تهيج بسبب اغماؤها وكذلك بكونها أعتدي عليها لتوّه بنفسه القدر الذي تهيج به بسبب عريها .

وتبعاً لذلك فقد وجد نفسه قادراً على أن يشبع تلك الشهوة العنيفة الزورية التي تحدث عنها فيليب دي بروين .

ولقد سمعت قصة عن لواطى أعرض عنه شركاؤه الجنسيون لأن متعته الكبرى كانت في أن يحامهم -م وهم نيام بينما كان لا يشعر بأي تهيج جنسي وهم في حالة اليقظة . وهذا بالطبع هو الدافع الجنسي الصرف ، وهو يحاول أن يتجنب الإحساس بالاتصال الشخصي الذي يحدث منه ويخففه .

والنقطة التي أود أن أحدها هنا ، والتي هي بلا شك النقطة الرئيسية في هذه الدراسة ، هي أنه يمكن اعتبار كل هذه « الانحرافات » محاولات يقوم بها أفراد للتخلص من ميكانيكية التكرار . وهناك حكاية رمزية رواها أفلاطون

عن كيف تمّ تقسيم البشر الى ذكور وأنثى .
كان البشر يوماً مخلوقات كروية يتحد فيها الذكر والأنثى ، الاّ أنهم أبدوا
من الطاقة والذكاء غير العاديين ما جعل الآلهة تقلق خشية أن تصبح هذه
المخلوقات آلهة كذلك . ولهذا قامت الآلهة بشطرها من الوسط الى نصفين صارا
يعرفان فيما بعد بالذكر والانثى .

وقد أدى هذا الاجراء الى النتيجة المرغوبة إذ أن المخلوقات المقسمة راحت
تصرف كل وقتها وجهدها في محاولة إعادة توحيد الذكر والانثى ، وبذلك لم
يعودوا يشكلون أي تهديد للآلهة^(١) .

هذه مجرد قصة رمزية ، لكنها على ضوء علم النفس الوجودي تحمل من
الحقيقة أكثر مما تحمله كثير من النظريات العلمية ، فإنه لأمر حقيقي أن المسمى
الجنسي الأساسي هو مسمى وراء الألوهية ، وراء نشوة « شبه الهية » من تأكيد
الذات تتحقق عن طريق بلوغ قمة النشوة الجنسية ، وأن ذلك ينطبق كذلك
على كل جهد انساني آخر من تأليف السمفونيات الى ارتكاب الجرائم .

ويبدو كذلك ان القوى البيولوجية غير الواعية التي تحررنا قد اهتدت الى
ميكانيكية التكرار لكي تجعلنا نستمر في التحرك والتناسل . وذلك مشابه
لربط جزيرة على عصا مثبتة في طوق حمار بحيث تتدلى الجزيرة أمامه فتعته على
لاحاقها ومن ثم التقدم الى الامام . أو انه يمكن تشبيه هذه الميكانيكية بأرجوحة
من أراجيح معارض اللهو المثبتة على قضيب حديدي والتي تدور من فوق
القضيب ثم ترتد الى مكانها الاصل .

فالجنس يحملنا الى ذروة مرغوبة من الشعور الآني بالألوهية ثم يعيدنا مباشرة
الى نقطة البداية .

وأود أن أؤكد مرة أخرى ان ذلك لا ينطبق على كل النشاط الإنساني .
فإن قوة الحياة تسمح لنا بأن نتعلم شيئاً من معظم تجاربنا ، فنحن نكبر وننضج

١ - يذكر أفلاطون ثلاث « فئات رئيسية من الجنس » بمعنى ان الفئتين الأخريين أصبحتا
الذكور « الذكور » (الدواطين) والاناث « الاناث » (السحاقيات) .

اني حد ما . والعقل يتعلم بسهولة . وحتى العواطف تتعلم على مر الزمر بحيث
أن سخافات كالغيرة والحسد لا تعود تحطمنا . بل وحتى الجسد يتعلم قليلاً .
فإذا انت أكلت مثلاً ، صنفاً من الطعام سبب لك غثياناً فإن معدتك ستشتمز من
ذلك الصنف ، من تلقاء نفسها لأمد طويل .

والتجربة الجنسية هي التجربة الوحيدة التي يسمح لنا بالآلة نتعلم منها أي
شيء تقريباً . والتعلم هنا يعني ، طبعاً ، أن بعض الرواسب من التجربة تستقر
« في الجهاز » الانساني وتبقى فيه دائماً . وبعض التعلم هو تعلم فكري ،
بحيث أنه يمكنك بالفعل ان تعبر عن « الدرس الذي تعلمته من تجربة ها »
بالكلمات وأن تعني ما تقول حين تعلن بأن تلك التجربة « قد علمتني درساً » .
بل ان السكر وتعاظمي المخدرات يخلف قدراً معيناً من الرواسب ، مع أنه من
المعروف حقاً أنه يخيل للانسان حين يكون مثلاً أنه « يعرف » مختلف الأشياء
التي تختفي حين يصحو من سكره . لكن ليست هناك تجربة أكثر اعياء
واكثر مدعاة الى الحيرة والحيبة من الجنس . فهما يكن ما يثيره فينا الجنس
من رؤى وما يقوم به من أجل توحيد « الذات المجزأة » بحيث يخلق فينا
شعوراً أنياً بما يعنيه ان نكون جهازاً كفواً ، فإن « دروس » الجنس تكاد
تكون عصبية الفهم على طريقتنا البليدة في التعبير عن أنفسنا .

إن تاريخ الذنوء والارتقاء الانسانيين كان تاريخ محاولة التخلص من الحدود
والفواصل الفظيعة التي غرستها « الآلهة » في الحيوانات من أجل الحفاظ على
الذات . فالانسان يلتقط لمحة من بعض رؤيا تطأ لعه خارجاً في الحديقة ، فيندفع
الى خارج الغرفة ويهبط السلام ويمر عبر رواق ثم يفتح أخيراً الباب الذي يؤدي
الى الحديقة ، ولكنه سرعان ما يجد نفسه مرة أخرى في الغرفة الذي بدأ
منها . هذا هو الجنس .

وبالنسبة لابطس العضويات الحية فإن ذلك كله تجربة محضة وقد
ابتكر البشر لغة للتغلب على المحدودية ، وتعلموا استعمال الكلمات لكي يحافظوا
على جوهر بعض التجارب — مثل كيفية اشعال نار أو بناء بيت على سبيل المثال .

وبعد ذلك ، ابتكروا الكتابة لكي يتمكنوا من المحافظة على جوهر التجارب الأكثر تعقيداً . وابتكروا الرياضيات لكي يستعينوا بها على التحكم في العالم المادي . ثم ابتكروا الاسلوب العلمي الذي هو أعظم قفزة تطورية منذ أن تعلم القرد ان يسير مستقيم القامة . ومع كل ذلك فإن ٩٩ بالمئة من تجربتهم بقيت عصية على الإدراك وغير قابلة للإستعمال كالارض التي تعصى بعناد على الري والحراثة .

هذا هو الوضع اليوم . فالخطوات القليلة الصغيرة التي خطوناها في اتجاه الألوهية تمت على مدى ملايين السنين . وفي نواح كثيرة فإننا بالفعل مخلوقات شبه الهية ، وعندنا كل الحق في إن نتباهى ونفتخر بأنفسنا ، وبالمقارنة مع أي حيوان من ذوات الاربع ، فان احقر وأحط مجرم بيننا هو « زفس » (رب الارباب عند قدماء الاغريق) آخر . ومع ذلك فإننا لا نعيش كآلهة ، بل نعيش كملك عصبي المزاج يعيش في رعب دائم من خنجر قاتل مفتال . إننا نعيش حياة مهزومة منهارة ، تصفعنا الحياة عند كل منعطف ونتركنا منهكين . . جياداً مخدولة مرهقة من تلك التي تجر عربات الحمل ، تخر على الطريق وتريد أن تبقى مكانها وتموت دون ان تمي او تفهم ماذا كان معنى كل حياتها او لماذا قضى عليها أن تجر عربة الحمل طوال كل السنوات الماضية . بل ان الاشخاص الذين هم من مستوى أينشتاين أو برناردشو يموتون بنفس الحيرة واللافهم اللذين يموت بها أي عامل مستغل .

لذلك فإنه ليس من الإشتطاط القول بأن الآلهة قد اهتدت إلى سلاح ميكانيكية التكرار لمنع البشر من التقدم شوطاً كبيراً نحو الألوهية التي يهفون اليها . لكن من الواضح أنه إذا كان « للوجودية الجديدة » من نقطة بداية فان هذه النقطة تكن في الجنس . وهذه النقطة هي أن نبتكر الطرق الكفيلة بسد الطريق على ميكانيكية التكرار . . التي هي بالنسبة للانسان حالياً كالتأتاة التي لا تجدي نفعا . . وأن نبتكر من ثم صيغة أو لغة ادراكية تمكنا من أن نعي ونفهم بعض معنى التجربة الجنسية .

إن « المحرفاء » جنسياً مثل فتيشية ليوبولد بلوم هو عبارة عن محاولة الجهاز السلم الصحيح أن يمزق الغمائم التي تغشي قدرته على الوعي الذاتي وعلى تعميق هذا الوعي .

وهناك نكتة معروفة في أوساط الأطباء النفسانيين مؤداها أن طبيباً نفسانياً يقول لأحد مرضاه : « لقد اكتشفت أخيراً سبب عقدة النقص التي تشكو منها . إنك ناقص » وعلى صعيد موضوعي ، فليس هناك أي إنسان ناقص . فإذا نظرنا إلى الإنسان من وجهة نظر معينة ، نجد أنه ذروة عملية تطورية . وإذا ما اعتبر الإنسان نفسه على ضوء هذه الفكرة ، فإن « عقدة النقص » ستختفي إلى الأبد وسيضع الإنسان على وجهه إبتسامة الرضى الذاتي دوماً . (وبالنسبة فستكون حضارتنا أكثر انهياراً مما هي عليه الآن) .

إن ميكانيكية التكرار من شأنها أن تمنعنا من اكتساب شعور عظيم بالتفوق (وهي كذلك تمنعنا من أن تكون لدينا الإستجابة الحادة القوية لتحديات البيئة التي نعيش فيها .) ولا تميز كازانوفاجنسي هو محاولة متكررة « لإثبات نفس » . ولقد بقي كازانوفاجنسي هوس الإغواء لأن ميكانيكية التكرار كانت تتسلل وتختطف منه دليل « اثبات نفسه » بعد كل عملية ناجحة من الإغواء الجنسي . فلولا هذه السرقة الشاملة الكلية لثار تجربتنا ، لما كانت الحياة الإنسانية عبارة عن مثل هذا الجهاد المؤسي والمؤلم للفوز بمثل هذه المكاسب الصغيرة . ولكان كازانوفاجنسي أثبت بمغامراته تفوقه الاجتماعي والجنسي ، قد صب طاقاته الفنية في عمل أدبي فخلّفت وراءه شهرة كفولتير آخر بدلاً من مذكرات أحرق مخادع .

فالكتّاب والفنانون العلماء ليسوا في الغالب رجالاً « ولدوا وفيهم المبقرية » ، بل هم رجال تمكنوا سواء عن طريق الحظ السعيد أو الجهد أن يتخلصوا من أغلال ميكانيكية التكرار التي تقضي على معظم الناس بالعبث واللاجدوى . فالقول أن فولتير أو تولستوي أو برناردشو كانوا « يمتلكون عبقرية » معناه بكلمة أخرى أنهم كانوا أقل تأثراً من معظم الناس بالعصبانية (أي النيوروسية)

الناجاة عن مركب النقص . وإنه لمن المغالطة القول بأن العصبانية هي شكل آخر من أشكال العبقرية . فقد تكون العصبانية عاملاً مساعداً في بعض الأحيان بمعنى أن تكون حافزاً سلبياً بحث الارادة في غياب وجود حافز ايجابي . لكننا إذا نظرنا إلى معظم الأدباء والفنانين الكبار الذين كانوا من العصبانين . مثل دستوفسكي وشيلر ولورنس ، فإننا سنلاحظ أن العصبانية كانت هي العامل الذي حطم أعمالهم تدريجياً .

فالإنحراف الجنسي إذن هو محاولة الإنسان أن يتحايل ويتغلب على عصبانية النقص التي فيه بأن يزود نفسه بنوعية من التجربة أغنى وأكثر مما يمكنه الحصول عليه من التجربة ضمن الحدود « العادية » . إنه محاولة الإنسان أن يتنفس بعمق أكثر وأن يحرر نفسه من ربة عدم تحقيق الذات . يقول بطل رواية « الجحيم » لباربوس :

« انني لا شيء ، ولا أستحق شيئاً » فهو لا يريد امرأة معينة بل كل النساء ، لكنه يعرف أنه لا يستحقهم . وإن موقفاً مثل موقف « القاتل الجنسي الألماني » بوميرنكه أقل خسة وإن كان عملاً أكثر عداً للمجتمع ، فبوميرنكه على الأقل يقوم بمحاولة ضالة للفوز بكل النساء . والشيء المؤسف في حالة بوميرنكه ومعظم المجرمين والمنحرفين الجنسيين هو أنهم لا يكتسبون أو يتعلمون شيئاً من التجربة ، فيكانيكية التكرار غير رحيمة أو متهاونة معهم كما هي مع كازانوف . وهذا هو ما يحمل من قضية مثل قضية تشيسمان شيئاً مفجعاً ، بمعنى أن الخطر الذي أحرق بحياته (أثناء محاكمته والحكم عليه بالإعدام) حفزه الى أن يغير ويعكس خط السير الهبوطي المعتاد بالنسبة لأي مجرم وأن يرتقي مقاماً ويكتسب عطفاً كإنسان .

إذن فالمصابون بانحرافات جنسية طفيفة مثل الفوييريين والفتيشيين هم أناس يرغبون في أن يوسعوا تجاربهم الجنسية من غير أن يستعينوا بأبسط وأوضح السبل الى ذلك أي بالاعتداء على النساء وافقادهن الوعي ثم اغتصابهن . (واني هنا أسقط من الاعتبار طبعاً ذلك النوع من الفتيشيين الذين لا يفعلون شيئاً سوى

أن يستسلموا « لمغناطيسية » شيء معين ، مثل مربلة أو طاقيّة نوم ، ينسبون لها
دوماً الى امرأة امتلكوها) .

ولا شك أن حالة مثالية من حالات الفتيشية البسيطة ستوضح هذه ، وهي
مأخوذة من كتاب لـ « بكهارت » اسمه « المنتهكون » The Violators واسم
الفتيشي في هذا الكتاب هو « دني شايرز » الذي لفت نظر بكهارت كواحد من
الأحداث الجرمين الذين يحتاجون إلى معونة مراقب للأحداث . كان شايرز ابن ممثل
مشهور تزوج عدة مرات . ولم تكن كل زوجاته يعطفن على الصبي الذي كان
انثوي المظهر والذي كان يتوق دائماً إلى المحبة والعطف بالإضافة إلى أنه كان
يتأتمن في كلامه . وحين كان شايرز طفلاً صغيراً كان يترك لوحده مرات عديدة ،
وكان لذلك يحمل معه إلى الفراش بعض ثياب أمه ويتصور أنها معه . وتحولت
هذه العادة فيما بعد إلى حالة جنسية يقوم شايرز فيها بالحصول على ما يمكنه من
الثياب النسائية الداخلية (الجوارب وقصان النوم كانت تروق له بنفس القدر
كالكلاسين النسائية) ويستعملها لممارسة العادة السرية ؛ وحين كان شايرز في سني
ما قبل العشرين حصل على عمل اضافي كصبي مراسل في إحدى الوكالات
المسرحية ، التي كان أبوه أم زبائنها ، وهناك قابل ساحراً مسناً كان يعمل على
المسارح . وقد علّمه الساحل العجوز كيف يفتح أقفالاً بسيطة بقطعة سلك
وبمفاتيح خاصة . وحدث لأسباب خاصة أن شايرز كان يمر في ذلك الصيف
بالذات بتوتر عصبي . وزاد في تهيجه منظر العديد من الممثلات الصبايا اللواتي
كن يترددن على الوكالة . ونتيجة لكل ذلك فقد اهتمى إلى فكرة السطو على
شقق الممثلات للحصول على بعض ثيابهن الداخلية . وعلم يوماً بطريق الصدفة
أن ممثلة ما ستغيب عن شقتها تلك الليلة .

وفي المساء اتصل بالشقة هاتفياً ، ولما تأكد من عدم وجود أحد فيها توجهه
إلى الشقة واستطاع أن يدخلها وأن يسرق عدداً من الكلاسين والجوارب وقميصاً
من قصان النوم . وحين عاد إلى بيته فرش الثياب المسروقة على سريره ومارس
العادة السرية . لكنه أحسّ بالحجل والوجل بعد ذلك فألقى الثياب المسروقة

في محرقة القهامة . وعند هذه النقطة فإن قيامه بالتنفيس عن توتره الجنسي وكذلك بالجماع الرمزي مع المثلة الجميلة وبالتحطيم الرمزي «لغرابتها» كانت ستدفعه ربما إلى التخلي عن القيام بأية مخاطر أخرى لقاء مثل هذه النتيجة الضئيلة . إلا أنه ما أن مرت أيام معدودات حتى سنحت له فرصة مماثلة فاغتنمها وأعاد الكرة . يقول بكهارت : « كان يقدم على كل سرقة وهو يرتجف وجلاً بينما كان جسده يتصبب بالعرق البارد . ومع ذلك وبالرغم من خوفه . . كان مأخوذاً بفكرة الدخول خلسة إلى مخادع النوم وكان يحظى لذلك برعشات من النشوة لم يكن بمقدوره أن يصفها ، هذا هو أيضاً جزء مألوف من النسق العام للتصرف الفتيشي فيكانيكية التكرار غير المدركة تربط بين مختلف المشاعر وتكوّنها في كتلة مشوشة . فالثياب الداخلية ترتبط بفكرة تعرية امرأة من ثيابها . (إن تحوّل الثياب الداخلية نفسها إلى الهدف الجنسي بالذات أمر غير وارد ، وإلا لكان خلعها عن فتاة فقدت صوابها سيكون بلا شك أكثر متعة ومرضاة) .

ودخول غرفة النوم يرتبط بالثياب الداخلية . وفكرة السرقة ترتبط بدخول غرفة النوم . وكل المشاعر المختلفة التي تخالج الفتيشي كالخوف والرجل التي تبلغ ذروتها في ممارسة العادة السرية هي نوع من عملية تطهير النفس . وكانت الغلطة التي ارتكبها شايرز هو أنه اختار ضحايا من الممثلات اللواتي يتعاملن مع الوكالة التي يعمل فيها بالذات ، كما أنه غالباً ما كان يسطو على مجموعة معينة من الشقق .

و ذات ليلة تبعه رجال البوليس ثم ضبطوه وهو يحمل عدداً من الثياب الداخلية تحت البلوفر التي يلبسها . وبدلاً من أن يعامل كشخص مصاب باختلال عصبي يحتاج إلى معالجة ، أُحيل إلى محكمة للأحداث . وقضت المحكمة بالاعتقال عليه بالسجن إذا ما انخرط شايرز في سلوك الجنديّة . وبعد عدة أسابيع من التحاقه بالخدمة العسكرية توفي شايرز في أحد المستشفيات من مرض مفاجئ .

إن حالة شايرز توضح عدة نقاط . فذلك النوع من الفتيشية الذي كان

يعاني منه ناشئ عن الجبوت والخيبة ، بل انه كازانوفية رمزية .

وفي نواح معينة فانه كذلك يشبه تعاطي المخدرات : ومن الممكن استخدامه للحصول على زخم في التجربة لا يمكن تحقيقه بغير ذلك . وبتشبيه علمي فإنه مثل عملية تجميع معلومات جديدة . لكنه كذلك باعتباره مشاهداً لتعاطي المخدرات قادر على أن يعطي اليد الطولى لعامل « التجربة » فيقضي بذلك على قوة الارادة .

وقد حاول أحد علماء النفس التابعين لمدرسة يونج ، أن يفسر بسخرية سبب فتيشية الكلاسين النسائية واستقلالها الظاهر عن المسببات الكامنة وراء ضروب أخرى من الفتيشية مثل فتيشية العكازات وفتيشية الشعر الخ ، فقال بأنها قد ترجع الى أصول عرقية قديمة ، أيام كانت المرأة تقدم كلسونها الى الرجل كدلالة رمزية على الاستسلام له . لكن عالم النفس هذا لم يطرح نظريته هذه على صعيد جدي طبعاً . (الكلاسين هي في الواقع ابتكار حديث تقريباً يعود تاريخه الى أقل من مئتي عام : فالنساء في العصر الإليزابيثي لم يكن يلبسن شيئاً تحت تنانيرهن) . وهذه النظرية قد تكون تقليداً للفكرة الفرويدية القائلة بأن فتيشية الأحذية تنبع من الشعور والاعتقاد بأن الحذاء هو مهبل رمزي ، إلا أنها تشير إلى حقيقة هامة في هذه القضية ، ألا وهي أن بعض الأشياء والرموز الفتيشية ترتبط قسراً وجوراً بالعملية الجنسية ، وذلك عن طريق خضوع الدافع الجنسي منذ البداية تقريباً لمغناطيسية ونفوذ الرمز الفتيشي المعني . أما الأنواع الأخرى من الفتيشية فهي تمتلك ميزة البديل الحتمي للعملية الجنسية الذي يفصله عن العملية الفعلية نفسها حاجز ضئيل من شعور القصور والخيبة ، مثلها في ذلك مثل الكلب المتهيج جنسياً الذي يلتجئ الى الاحتكاك بذراع أو ساق صبي .

في عام ١٩٣٣ ، كتب هافيلوك إيليس يقول : « إن الانحرافات الجنسية قابلة للحدوث على وجه الخصوص في مدينة مثل مدينتنا ، حيث توجد حوافز قوية للنشاط الجنسي ، وتوجد معها في ذات الوقت كوابت قوية للحد من هذا

النشاط خارجاً أو داخلاً . ومنذ ذلك الحين ازدادت « حوافز النشاط الجنسي » في حين ارتفعت نسبة الجرائم الجنسية في انكلترا بثلاث مرات عما كانت عليه . فإذا ما قارنا بين المجلات الشعبية التي كانت تصدر في الثلاثينات محملة بقصص الجرائم الجنسية التي كانت تحدث بالفعل ، وبين المجلات الشبيهة التي تصدر الآن في الستينات ، فنتوصل الى النتيجة ذاتها وهي أن عدد الجرائم التي تمت الى الجنس والانحراف الجنسي قد ازداد . وقد يكون من الطريف أن نتوصل الى احصائية دقيقة لهذه الزيادة إذا ما قارنا بين خمسين عدداً صدرت في اوائل الثلاثينات لمجلة من تلك التي تنشر « قضايا بوليسية حقيقية » وبين خمسين عدداً من أعداد هذه المجلة صدرت في الستينات . ففي أعداد الثلاثينات كانت ستطالعنا قصص عن الزوجات اللواتي كنّ يدفنّ بعد قتلهن في الحدائق الخلفية وأبناء المزارعين الذين كانوا يغتالون أوصياءهم ، والأزواج الذين كانوا يقتلون بالتسميم ، وهي كلها قصص لا تختلف كثيراً عن تلك التي تحدث في السنوات الحالية . لكن القارئ في الثلاثينات كان من غير المتوقع أن يطالع بنفس القدر الذي يطالع به قارئ اليوم قصصاً عن « مجرم مولع بالكلاسين النسائية » أو « رجل يحنّ بالبنات الصغيرات » .

كانت هناك في الثلاثينات جرائم جماعية ومجرمون وقتلة جنسيون ، لكنه لم يكن هناك من يماثل بيتر مانيويل الذي قتل فتاتين لمجرد سرقة كلسونيهما على ما يبدو (أعدم مانيويل عام ١٩٥٦)^(١) .

ولربما كان بعض الكتاب المتخصصين مثل بينف و فرويد وهيرشفلد يضحون أحياناً الأسباب الكامنة وراء نشوء أنواع مختلفة من الفتيشية . وإن كرافت -

١ - من سوء الحظ أنه لم يصدر بعد أي تقرير نفسي عن مانيويل ، وما ذكر عن حالته في كتب مثل كتاب جون جراي ويلسون لا يتعدى سرد وتقديم «الحقائق» المتعلقة بجرائمه (ارتكب مانيويل عشر جرائم قتل) بدون تقديم أية استنتاجات عن عقلية مانيويل . لكنه يستدل من التلميحات الواردة أثناء محاكمته أن مانيويل كان مصاباً بفتيشية الكلاسين . ومع أن ثنائي من ضحاياه كن نساء إلا أنه لم يكن هناك أي دليل على قيامه باغتصابهن .

إنج مثلاً يفترض بأن فيشية الأحذية تشتمل على شيء من المازكوية نظراً لأن القدم هي رمز من رموز الانتصار والقهر ، كالقول « مداس تحت الأقدام » . وقد يردّ فيلسوف على هذه النظرية الافتراضية باستعارة ما قاله أوكهام من أنه من غير المفيد أبداً أن نطرح من النظريات ما هو أكثر مما هو ضروري اطلاقاً لتفسير مشكلة ما . ومن السهل بمكان أن نفهم كيف يمكن للحدث أن يصبح « رمزاً جنسياً » إذا حدث أنه ارتبط بفكرة الجنس بطريق الصدفة ومن خلال حادثة معينة . ويورد هيرشفلد حادثة يمكنها أن تفسر ذلك .

كان فتى في الرابعة عشرة من عمره يقيم مع عائلة صديقة ، عندها فتاة وحيدة جميلة في العشرين من عمرها . وكان الفتى يجد متعة في الاستلقاء على السجادة المفروشة أمام المدفأة . وذات مساء أرادت الفتاة أن تتناول شيئاً من الرف القائم فوق المدفأة فداست بإحدى قدميها مازحة عليه ورفعت تنورتها قليلاً بينما رفعت قدمها الأخرى وقربت من النار . وأصيب الفتى نتيجة لذلك بتهيج جنسي محموم فأمسك بقدمها القريبة من النار ، ووضعها على عضوه التناسلي وراح يحركها حتى بلغ حالة القذف . وسرعان ما أصبح ذلك « لعبة » منتظمة بينهما ، فكانت الفتاة تقف عليه وهو مستلق على الأرض وتحرك قدمها على معدته واضلاعه ، ثم يمسك هو أخيراً بقدمها الأخرى ويضعها على قضيبه حتى يصل ذروة النشوة الجنسية ويحدث عنده قذف . ولم يذكر الفتى ما إذا كانت الفتاة تبلغ كذلك مرحلة الانتماظ أي ذروة النشوة الجنسية ، لكنه ذكر في وصفه لها كيف كانت « عيناها تبرقان ووجنتاها تتوهجان وشفثاها ترتعشان » إذ كانت انتفاضات قذفه تنتقل إلى قدمها .

وفي هذه الحالة نجد أنه من غير الضروري أن نتحدث عن السادية أو المازوكية . فقد تكون المشاعر الجنسية لفتى في الرابعة عشرة من عمره ، قوية وعارمة إلى حد كبير . وحتى إذا كان الفتى طبيعياً وغير مصاب بأي شذوذ ما ، فإنه من المحتمل أن يصاب بالتهيج لدى رؤية ساق فتاة في جوارب بيضاء تنتصبان فوقه . فإذا ما رفعت تنورتها فإن تأثير ذلك سيكون أقوى . ففي

هذه المرحلة يكون القضيبي كبندقية ذات زناد حساس جداً ينطلق بأقل قدر من الضغط . إن استمرار الفتي والفتاة في ممارسة هذه العملية حتى أصبحت عادة لا يعتبر دليلاً على الشذوذ بل على القصور والحبوط الجنسيين وعلى وقوع العاطفة الجنسية تحت ضغط هائل . (وعلى كل حال ، فقد سمى الفتي جدياً بأن يتخلص من هذه العادة بحيث أصبح من المنزدين على عيادة هافيلوك ايليس) .

والنقطة التي ينبغي ملاحظتها هنا هي أن تكرار هذه الممارسة كان من المحتمل أن يؤدي إلى نشوء أي عدد من « الانحرافات » . فقد كان من المحتمل أن يربط الفتي بالإضافة إلى الحذاء بين المتعة الجنسية وجوارب الفتاة أو كلسونها (إذا كان قد تمكن من رؤيته) ، أو كان من المحتمل أن ينشأ عنده حب الاستلقاء تحت أقدام امرأة (وهو ما حدث بالفعل) . إن الطاقات الجنسية لها كل عنفوان النهر السريع ، كما أنها ذات قابلية لأن تشق لها مجرى في أي اتجاه يحدث أن تكون قد سلكته عند فيضائها المعتاد . وعندها تقوم ميكانيكية التكرار بتضخيم هذا الميل وتحويله إلى « انحراف » . ولا ضرورة هناك لأية نظريات إفتراضية حول شخصية المريض ، فالعاطفة الجنسية وميكانيكية التكرار يمتلكان من القوة ما يمكنهما من أحداث انحرافات جنسية في أي نوع من الشخصية .

والنقطة التي تبرز بوضوح من هذه الاعتبارات هي أن « الفتيشية » هي اسم مخدر لحالة غير محددة . وكانت الفتيشية تعني يوماً مجرد الشغف الجنسي بالجوامد عديمة الحياة . وفيما بعد أصبح من الضروري توسيع معناها ليشمل أجزاء من الجسد كالشعر والأقدام الخ . ولكن هل هناك من سبب منطقي يمنع تسمية رجل ذي ميول جنسية عادية بـ « فتيشي نساء » وتسمية لواطبي بـ « فتيشي رجال ؟ » فإذا كان الجنس « عقلياً » كما تبين كل هذه التحليلات (أي مركباً من طاقة جنسية خام ، كالرصاصات في مسدس مثلاً ، ومن عامل عقلي هو الذي يختار الأصبع التي تضغط على زناد ذلك المسدس) فإنه يجب التشكك حتى في

كلمات مناسبة مثل « فتيشية » . وقد يجد كثير من القراء أن تجميع مصطلحاتنا وعدم تحديداتها تحديداً دقيقاً هو ضرب من الفائدة المريبة وانه كذلك خطوة في طريق التشويش التام . وفي الواقع أن عدم التدقيق هذا يساعد على تحطيم تلك النظرة الى الجنس بإعتباره شهية مباشرة كالجوع محتاج الى اشباع مباشر كالطعام ، ويضع التشديد على عامل الاختيار العقلي الذي هو الحرية .

إن التحليلات الفرويدية القديمة للجنس بدأت من منطلق مادي . لكن الاستنتاجات التي توصل اليها التحليل الوجودي هي على طرفي نقيض من النظرة الفرويدية . ويمكن تحديد هذه الاستنتاجات على الوجه التالي : عامل الجنس بدون أية مفاهيم أو تصورات سابقة ، وطبق عليه أساليب التحليل الفنمنولوجي وسترى أن دراسة الدوافع الجنسية تؤدي بالبحث إلى مجال الحرية الانسانية .

ودراسة الجنس بالأساليب الفنمنولوجية لربما يكون أقوى وأبلغ أسلوب تم اكتشافه حتى الآن للتحقيق في المسألة الوجودية .

في مجال بحثنا في موضوع الدافع الجنسي تبدو كلمة « الانتقاء » أفضل في بعض الحالات من كلمة « التعمد » وفي حالة المريض الذي تحدث عنه إيليس فقد قامت عدة عوامل ذاتية « بانتقاء » هدفها أو بالأحرى بانتقاء شكل تجربة المريض الجنسية المقبلة .

وحالة رودني شايرز تبين لنا كيف أن التعمد في الانتقاء قد تشتط أبعد مما وصلت اليه في عملية الربط بين العملية الجنسية والرمز . فقد اعترف شايرز بأن دخوله إلى مخادع النساء كان يسبب له اثارة جنسية . (فلامذة فرويد سيفسرون ذلك بقولهم إن الخدع هو جحر وانه لذلك رمز جنسي للأنثى) .

ويبدو كذلك أن التحسب والخوف من اكتشاف أمره كانا يزيدان من تهيج شايرز الجنسي . وليس هناك كبير فرق في ذلك بين نفسية رودني شايرز ونفسية المصاب بداء السرقة الذي يدفعه التهيج إلى السرقة من المتاجر الكبيرة . ومن أطرف الأمثلة على كيف تتم عملية الربط حالة قاتل من شيكاغو اسمه

وليم هايذر ، فهايزر هذا الذي صدر الحكم عليه وهو في سن الثامنة عشرة لإرتكابه ثلاث جرائم قتل ، كان ذا سوابق جنائية تعود الى يوم كان في سن الثالثة عشرة . فقد أمضى فترتين في اصلاحية للأحداث بسبب ارتكابه السرقة . الا أنه يبدو بأنهم لم يدركوا سبب تسله الى المنازل ، فقد كان يسرق لمجرد سرقة الكسونات النسائية . وقد بدأ هايذر يتمتع جنسيا بسرقة الثياب الداخلية منذ كان في سن الثانية عشرة . وفي سن الثالثة عشرة بدأ يقوم بالسرقة من المنازل . وسرعان ما كان منظر نافذة مفتوحة يسبب عنده حالة انتصاب . وكانت أول مرة قام فيها بالإعتداء على امرأة هي على أثر خروجه من الفترة الثانية التي قضاها في احدى الإصلاحيات . فقد هاجم امرأة وضربها على رأسها بقضيب حديدي فأغمى عليها ثم قيدها إلى كرسي . (وقد ادعى فيما بعد أنه لم يكن يهاجم النساء الا عندما كنّ يفاجئنه أثناء قيامه بالسرقة) . وبعد هذه الحادثة ارتكب جريمتي قتل . كان في هذه الأثناء قد أصبح عرضة لحافز سادي قوي . فقد طعن أول امرأة منها في حلقها ثم ربط قميصاً للنوم حول عنقها . أما الثانية فقد شوّهما أكثر من ذلك . وبعد أن قتلها كتب بأصبع الحمرة فوق فراشها :

« بالله عليكم اقبضوا عليّ قبل أن أرتكب المزيد من القتل . لا أستطيع أن أتحمّك بنفسي » .

وفي نهاية المطاف قتل هايذر طفلة في السادسة من عمرها كانت قد أفاقت من نومها وحادثته عندما مرّ بغرفتها . وقد قطعها إلى أجزاء صغيرة وألقى بحسدها المقطع في المجاري . وحين ألقى البوليس القبض عليه أخيراً وجد في بيته أكثر من ثلاثين كسوناً نسائياً .

وتكشف شهادة هايذر إلى الأطباء النفسانيين عن التركيب النموذجي للمجرم الذي يشغل عقله الجنس . فقد كان هايذر يتعرض لدافع قوي يحضه على السرقة ، فإذا قاومه أصابه صدام أليم . وكان أثناء قيامه بالسرقات يعيش حالة من التوتر العنيف كانت تدفعه الى أن يقدم بدون تردد على القتل إذا ما

فاجأه أو اعترضه أحد. ولتبرير هذه الجرائم أمام نفسه ابتكر شخصية أخرى لنفسه أسماها جورج . وقد صرح بعد اعتقاله بأن جورج هو الذي كان يرتكب السرقات وجرائم القتل^(١) .

وفي إحدى المرات وضع ثيابه في غرفة الغسيل وقفل عليها الباب والقي بالمفتاح الى داخل الغرفة . ولكن ألحت عليه الرغبة بعد منتصف الليل ، وتغلبت على مقاومته فزحف إلى غرفة الغسيل من خلال خندق المجاري ولبس ثيابه ثم خرج .

وقد وُجد هايزنر سليم العقل فحكم عليه بالسجن مدى الحياة . والذي يستحق الإهتمام في هذه القضية هي الطريقة التي أصبح بموجبها الجنس مرتبطاً بفكرة الشر^(٢) (أو معاداة المجتمع) . ففي البداية لم تكن هناك ضرورة لإرتكاب أية جريمة لإشباع رغباته الفتيشية . ولكنه ما ان أصبح يسرق للحصول على الثياب الداخلية حتى بدأ شعور التهيج الجنسي يرتبط بشعور التهيج الناتج عن الخطر ، كما كانت الحال مع رودني شايرز . وأخيراً نراه يتخذ موقفاً اجرامياً محتماً مع نفسه ومع المجتمع . والموقف الإجرامي هذا هو عكس موقف المصلح الديني والاجتماعي . فالمصلح يؤمن بأنه على حق وان المجتمع على خطأ وان عليه تبعاً لذلك أن يستخدم قوة حجته واقناعه لجعل المجتمع يقبل قيمه . أما المجرم فيرى في المجتمع ضحيته التي لا تشك فيه . لكنه كذلك يرى فيه القاضي الذي سيدينه . فيتكون لديه نتيجة لذلك احساس الجرذ الذي يختبئ في جحره ، احساس الرجل المحتبئ الطريد . إنه محاط بالأعداء والكراهية . لكن «قواه المثالية» لا تملك فرصة على النمو والتبلور ، فهو لن يستطيع أن يندمج في أي تفكير بناء لأن أي تفكير بناء هو في الأساس من أجل الشخص نفسه . والمجرم لا يمكن أن يكون ذاتياً بشعور من الثقة لأن نظرتة الأساسية إلى الحياة هي نظرة

١ - بعد صدور الحكم عليه ، اعترف هايزنر بأن جورج هو مجرد اختراع من بنات أفكاره التجأ اليه في محاولة للدفاع عن نفسه بحجة الفصام العقلي أي الشيزوفرانيا .

صراع ضد المجتمع . كما أن « التفكير المفيد » بالنسبة له هو ذلك التفكير الذي سيساعده في معركته ضد المجتمع . وبالنتيجة فهو يفتقد مركز ثقل حقيقياً ، لأنه لا يتوقف عن التفكير في نفسه بالمقارنة مع الناس الآخرين . وبدلاً من أن ينمي فيه هذه النظرة الذاتية التي تقول : الحقيقة هي ما يحركني بعمق ، والشر هو ما يؤذيني أو يحطم علاقتي بالآخرين ، فإنه يفكر بالخير والشر ببساطة وبدون تعمق . إنه يتمتع بالجنس لكن الجنس شر . (هذا هو نقيض مفهوم بليك) . لكنه يحتاج الى الجنس ويجب أن يناله ، لذلك فهو على استعداد لأن يعتبر نفسه شريراً ويتقبل ذلك .

وما أن يقع فريسة لعادة اعتبار نفسه إنساناً شريراً ، وحشاً برياً عليه أن يمارس الحيلة والخديعة لكيلا يتمكن المجتمع من إبادة ، حتى يكون قد اكتسب الحالة النفسية والعقلية التي تدفعه الى ارتكاب الجرائم السادية . وحين يقترف جريمة فإنه لا يحسّ بوخز الضمير ، لأن ذلك لن يؤدي الا الى تأكيد اعتقاده السوداوي بأنه شرير بدون أمل أو شفاء .

وشره هذا عالة أو عبء ثقيل ، فهو اذن يكتب توسلاً الى المجتمع بأن يقبض عليه . ثم هو يبتكر كذلك شخصية ثانية لنفسه ويسمياها جورج لكي يعتقد على الأقل بأنه ما زال فيه بعض الخير . (ربما كانت تنشئة هايزنر الكاثوليكية قد زادت من ميله نحو انفصام الشخصية ، فعلى الرغم من أن عادة الاعتراف في الكنيسة الكاثوليكية لها بلا شك مزايا كثيرة الا أنها عاجزة على كل حال عن تقوية ميل الإنسان نحو أن يكون أكثر اعتماداً على نفسه أخلاقياً .

وقد يجد بليك أو نويس في هايزنر مثالاً مؤسباً على التأثيرات الهدامة لحضارة تجارية . فالحيوية الجنسية التي يعتبرها بليك « هبة من الله » قد ضلت السبيل على طول الخط .

ويتحدث بيتر كيجان ، أحد أبطال برناردشو ، عن إنسان ما فيصفه بأنه « روح مسكينة ضائعة ، سجنّت بدهاء داخل قضبان غير مرئية » .

وهذا هو الحكم الذي سيطلقه على هايزنر ، أيّ إنسان يهتم إهتماماً ذكياً بالتعليم وبمشاكل المجتمع .

إن القضايا التي تثيرها جرائم هايزنر هي من التعقيد والتشابك بحيث يستحيل حلّها بتعميمات واسعة عن التعليم والثقافة . إنها قضايا تتعلق بالاتصال والترابط بين الناس ، وهي قضايا يحتاج حلّها إلى علم نفس أعمق مما هو موجود الآن .

الفصل السادس

معنى «الانحراف»

- ٣ -

الراعي الذي شطر قضيبه . جرائم القتل الجنسية .
قضية كريستي . هيث . حب الأموات . قضية د . و .
الجاويز برراند . اللواطبة وجماعة اللوطيين .

إن تحليل الشذوذ الجنسي والجرائم الجنسية يكشف عن صعوبة لم تحدّد يوماً بوضوح حسباً أعرف . هناك عاملان متميزان في كل حالة « شذوذ » ، يعتبران عادة عاملاً واحداً . هناك عامل الحيوية التي تجهد في أن تشق مجراها الخاص ، وعامل الإنحلال والإرهاق الذي يقوم بجهد ضعيف أخير للتوصل إلى « الغرابة » من خلال لذة جديدة . ومن الأهمية بمكان أن نميز بين هذين العاملين . وقد وضع دي ساد أصبعه على العامل الثاني حين جعل دورسيه يعلق بأن معظم الانحرافات المتطرفة هي نتيجة للملل والتشبع والتفاهة . ويسرد هيرشفلد حادثة تكاد تكون رمزاً للإنحلال الهدّام . وتتعلق هذه الحادثة براع كان عمله يشتمل على قدر كبير من الوحدة . وقد بدأ هذا الراعي بممارسة العادة السرية وهو في سن الخامسة عشرة ، وكان في بعض الأحيان يمارس هذه العادة حوالي خمس عشرة مرة في اليوم ، وكان توتره وتهيج من القوة بحيث أن الدم كان يتدفق منه بدلاً من المنى . وبعد حوالي عشرة أعوام أو أكثر بدأ الراعي عادة بإدخال قطع صغيرة من الخشب في القناة البولية بحيث أن عضوه التناسلي بلغ حالة من عدم الحساسية والتأثير لم تعد تنفع معه كثيراً الطريقة اليدوية المعتادة في الإثارة . ثم اكتشف الراعي أنه يستطيع أن يتوصل إلى ذروة النشوة الجنسية ومن ثم القذف عن طريق إجراء جرح صغير في طرف عضوه التناسلي بواسطة سكين . وقد كرر هذه العملية مئات المرات بحيث أن عضوه التناسلي انشطر يوماً إلى جزئين متساويين . وقد توفي هذا الراعي وهو في الثلاثين من عمره ، بعد أن أجريت له عملية جراحية لإخراج قطعة من الخشب كانت مستقرة في مثانته .

إن أول ما يلفت الانتباه حين نؤمن النظر في هذه الحادثة هو الفراغ الذي

كانت تعاني منه حياة الراعي المذكور ، إلى حدّ أنه لم يكن يجد ما يفعله أفضل من أن يمارس العادة السرية حوالي خمس عشرة مرة في اليوم . وهو لم يحامع امرأة أبداً ، أما بسبب الخجل أو الشعور بالذنب . (وهذه حالة ليست غريبة كلية كما قد تبدو . فأشهر مثال على رجل لم يضاجع امرأة بالمرة ، هو نيكولاوي غوغول الذي شحن بشعور من الإثم نتيجة لممارسة العادة السرية ، وقد عذبه هذا الشعور ولون قصصه بأشباح غريبة ترمز كلها إلى احساسه بالاثم) . وربما لم يكن بمقدوره ، أو لم تكن عنده الفرصة لأن يقرأ أو يكتب كما أنه كان ذا تعليم ضئيل . فالحياة ستكون عبأً طويلاً يملأ من الوعي اللامرغوب بدون هذه المتعة الوحيدة . لكن الغريزة الجنسية لم يكن المقصود منها أبداً أن تتحمل كلية عبء حاجة الإنسان إلى أن ينفس عن طاقته . والتركيز الزائد على الجنس سيؤدي حتماً إلى الانحلال . وهنا يمكننا أن نعتبر العضو التناسلي المشطور كرمز لتعطس النفس .

ويؤدي هذا مباشرة إلى إثارة مسألة إيجاد سبل « أكثر ملاءمة » للطاقة التطورية كما يؤكد من جديد الفارق المميز بين العوامل الإنحلالية والعوامل الخلاقة في النشاط الجنسي .
كتب بليك يقول :

حين ينفلت الفكر في كهوف

فعندها يظهر الحب جذوره في أعماق الجحيم

وبمعنى آخر ، فإن الطاقات الحيوية المنهزمة الفاشلة ستعبر عن نفسها في التدمير .

الآن ذلك يجب الاتّـيـعـمينـا عن طبيعة هذه الطاقات . ولعل نيتشه هو الوحيد من دون الفلاسفة الذي أدرك حقيقة هذه الطاقات بعمق عظيم وشدة تشديداً تاماً على الدور الذي تلعبه . إن التركيب الإنساني كله تتلبسه إرادة تحقيق القوة ، وقد اعتبر نيتشه إرادة القوة هذه كأسمى الإرادات التي يمكن للبشر أن يمتلكوها . والنزوع الخارجي نحو السيطرة الإجتماعية أو السياسية هو

أقل مظاهر هذه الإرادة أهمية وأكثرها غباءً . ولقد بحثنا في الفصل السالف الإندفاع نحو « الإدراك الكلي » . والرجل الذي يحول هذا الإندفاع إلى سعي خارجي للسيطرة الشخصية ، هو مذنب بتهمة التغرير بالنفس وخيانة للذات لأن الطاقات الموجهة في الطريق الخاطئ ستدخل الآن في حلقة مفرغة من عدم التحقق والخبية بحيث يتبدد الإندفاع التطوري ويذهب سدى . والقوة أو السلطة هي اسم آخر لما وصفه وايتهد بـ « الكلية المطلقة للمتعة الذاتية » .

وقبل أن يمكننا إدراك مفهوم القوة عند نيلشه ، يجب علينا أولاً أن نرفض فكرة « القوة الخارجية » .. أي السيطرة على الناس الآخرين . وعندما نفعل ذلك يمكننا فقط أن نفهم الفقرة التالية فهماً تاماً :

« ما هو الشيء الجيد ؟ إنه كل ما يزيد الشعور بالقوة في الإنسان ، إرادة القوة ، القوة ذاتها .

« ما هو الشيء السيئ ؟ كل شيء يولد من الضعف .

« ما هي السعادة ؟ الشعور بنمو القوة وبالتغلب على المقاومة .

« لا القناعة ، بل مزيد من القوة . لا السلم بل الحرب ، لا الفضيلة بل

القابلية ... » .

(من « المسيح الدجال » Antichrist القسم الثاني) .

أما بالنسبة لنظرية جوردييف عن « الرجل المتوازن » ، فإن السعي نحو القوة الجنسية هو مجرد خط واحد من الكفاح من أجل « تطور أسمى » . إن يأس الفلاسفة والفيثيين ينبع من إدراكهم لسيطرة « ميكانيكية التكرار » التي تحول درن النضوج الفكري أو العاطفي الجنسي . وإن على أي واحد فقط أن يقرأ أعمال ه . ج . ويلز ليدرك مدى شهيته الجبارة للأفكار ومدى الحماس الحيوي الذي يتأجج فيه ، وهما شهية وحماس مماثلان في شرايتهما للحماس دي ساد الجنسي . وحين يكون هذا النوع من الحماس ذا بنية عاطفية قوية فإنه يتجه إلى الدين أو إلى نوع من المثالية الشاعرية مثل شاعرية شيلي ووردزورث وبلليك . فإذا ما اطلعنا على حيوات هؤلاء الرجال أمكننا أن ندرك أن تجربتهم

« المثالية » مرهقة بقوة الحياة تماماً كتجربة دي ساد الجنسية ، بمعنى أنها كانت كالتجربة الجنسية غير كافية لإيصال أصحابها الى « الألوهية » . إن أثرها في « توسيع » الوعي قصير الأجل كالأثر الناجم عن بلوغ ذروة النشوة الجنسية ، والحماس التطوري في رجال كالأله Men Like Gods وبرميثيوس طليقاً يتحول الى احساس قائم بفشل وخيبة كل الجهد الإنساني .

ومع ذلك فإن ما يتبقى من رواسب التجربة الفكرية أو العاطفية العظيمة هو بلا شك أكثر بكثير مما يتبقى من بلوغ ذروة النشوة الجنسية .

إن المعركة ضد « ميكانيكية التكرار » تحارب على أصعدة كثيرة . فالرجل الصحي والمتوازن تماماً (على افتراض أنه موجود فعلاً) سيشن حرباً ضد « الطبيعة الجزئية للوعي » على جبهات كثيرة . (ومن الطريف أن ويلز وشيلي كانا يؤمنان بالتجربة الجنسية المتعددة ، وأن ويلز على الأقل مارس ذلك بعنف) .

وإرادة القوة النيتشوية ، تلك اللفظة الى الوعي الكامل ، تعبر عن نفسها على عدة أصعدة . لكنها في كل الأوقات سعي نحو التغلب على ميكانيكية التكرار . وفي مكان ما من الجهاز الإنساني يقبع مختبئاً ، نوع من الترمستات . وكما أن ترمستاتاً عادياً يوقف سخاناً عن العمل حين يتم بلوغ درجة حرارة معينة ، فإن ترمستات الوعي هذا ، يوقف الوعي عن العمل حين يتم بلوغ مستوى معين من القوة والشدة . إننا نأمل باستمرار أن يزداد فيضان وعينا ، الفيضان الذي يبدأ من إيجاء داخلي والذي يغزو العقل بشعور من « الآخريّة » .. أماكن أخرى ، أفاض آخرون ، تجارب أخرى ، وعلاقات جديدة بين أجزاء نصف منسية من هذه التجارب . لكن الترمستات يتدخل ويوقف العمل . إنه مثل مدبرة منزل شحيحة تحمل معها مفاتيح بيت المؤونة ولا تعطينا الكميات ضئيلة من الطعام تكفي فقط لمنعنا من الوقوع في المجاعة .

إننا نحلم جائعين ، بتربيطها وشرقة المفاتيح لكي نأكل كل ماوكا يحلو لنا . أو إذا استعمرنا تشبيهاً آخر (والاستعانة بالرموز والتشابه في بحث من هذا القبيل

أمر لا غنى عنه) ، فإننا نحلم بالإهداء إلى الإرادة الصحيحة التي تتحكم في بوابات سدة الحيوية لكي نحول حيويتنا التي ترشح بقطرات واهية عكرة إلى سيل قوي صاف من الوعي . ونوعية وعينا اليومي هو نوعية رديئة بشكل لا يصدق . ويمكننا أن ندرك مدى رداءتها حين يقوم حافز معين أو تقوم اثاره معينة بشحن وتقوية هذا الوعي لبعض لحظات .

(يقول المستر هكسلي بأن « المسكاليين » وهو نبات مهيج يتعاطاه الهنود المكسيكيون ، يؤدي إلى مثل هذا الأمر كذلك) .

نصف وجودنا عبارة عن عملية شعائرية رتيبة لا بد لها من أن تكون مثيرة . فبالنسبة لطفل ما ، فإن رحلة إلى الشاطئ تخلق فيه دفقات كبيرة من « الآخرة » ، وهذه الدفقات بدورها تخلق فيه احساساً داخلياً بوعي عظيم وقوي حين يشب ويبلغ سن الرشد . وفي الواقع إن وعي الإنسان الراشد هو حسائي مائي مخفف وخبز شبه متعفن يبقياه هزيل النفس و « مظلوماً » . وهذا الغذاء الرديء هو الذي يحول بين الإنسان وبلوغ الألوهية . والوعي مرادف هنا للرؤية ، والرؤية تعني الألوهية .

فما دام الإنسان مغمماً ، وما دام وعيه يسيل في خط رفيع متقطع ، فإن الإنسان سيسير حتماً منحني القامة وسيمرض عن التجربة لئلا تختطف منه مؤونته المزرية من الذاتية و « المتعة الذاتية » .

وبدلاً من أن ننظر إلى البشر على أساس أنهم مقسمون الى « طبيعيين » و « غير طبيعيين » ، الى فئة السويين اجتماعياً ، والى فئة المجرمين ، فإن علينا أن ننظر اليهم على أساس أنهم داخلون في معركة من نوع واحد ضد ذلك السارق الأوتوماتيكي الذي يسلبهم كثافة وزخم تجربتهم ، والذي يقبع في جهاز الدماغ . والذين اصيبوا بهزيمة مريعة قد يصبحون محتلي الأعصاب لا بل ومجانين كذلك في الواقع أو أنهم قد يقومون بمحاولة بليدة لأن ينتقموا لهزيمتهم بالالتجاء إلى العنف ومن ثم يصبحون مجرمين . ومن الأمور ذات الدلالة أن معظم المجرمين يمتلكون هذا الشعور الضال بالعداء .

إنه الشعور بأن « الدنيا مدينة لي بالحياة » أو « المجتمع دفعني إلى الجريمة » الخ . والطبيب النفساني الذي يفهمهم أن « العالم » و « المجتمع » هما من التجريدات المعنوية التي لا يمكن أن تكون مدينة لأحد بشيء ، كما ولا يمكنها أن تدفع أحداً إلى أي شيء ، يكون كالذي يزيل الماء القذر من اثناء ما بدون أن يستبدله بآخر نظيف . والمجرم محق في شعوره الداخلي المبهم بوجود عدو يعامله بإجحاف . وسيكون أقرب إلى الحقيقة إذا ما قال إن « الحظ ضده » أو أن « الحياة ليست في جانبه » . إنه يتعرض للسرقة والضرب ، وخطأه يمكن في أنه يفترض بأن الناس الذين يبدون أكثر سعادة متحالفون مع الظالم المستبد .

وهذا هو السبب الذي من أجله يصبح الأشخاص غير اللاتقنين اجتماعياً مجرمين جنسيين في أحيان كثيرة جداً . فقد نجد أعذاراً لعامل يتضور جوعاً إذا ما أقدم على تحطيم زجاج متجر كبير لأن أصحابه وضعوا أسعاراً مرتفعة على بضائعهم تحكم عليه بالجوع . لكن المجرم الجنسي هو في كثير من الأحيان ، رجل في هذا الوضع بالذات . فيكانيكية التكرار تسلبه بحيث يحيد نفسه مدفوعاً إلى تعليق أهمية كبرى على الغزو الجنسي ، لكن السعر الذي يطلب منه أن يدفعه لقاء البضائع الجنسية التي ينفقها لها أبداً هو سعر مرتفع بلا حدود . لذلك فليس من المستغرب أن يحاول نفر من الأقلية أن يحطم الزجاج ويأخذ البضائع بدون أن يدفع ثمنها من طاقته ومن قوة الإرادة .

وأود هنا أن أكرر بأن هذا التصور للمخلوقات البشرية المستغلة والتي لا تملك أي حق ممتاز يقصد منه أن يفهم نسبياً . فكل « القانون » هو في ذات الوقت عملية صيانة وعملية حيف وإلى أن يصل البشر إلى درجة من القوة وتقرير المصير تجعل من المستحيل على الإنسان أن ينزل إلى أسفل السلم التطوري ، فإن المهرض الاصطناعي على تحمل الشدة والظلم يبقى ضرورياً . فالرجل الذي يرغب في أن يتخلص من الضريبة العالية التي يدفعها من وعيه والتي هي ضمانة جهدنا المستمر ووسيلة صيانتته يجب أن يبرهن على أنه قادر على تقرير مصيره وعلى مقاومة الانعكاسات التي تسبب الملل وتؤدي إلى

انهيار الهدف والمقصد .

ومع أن « القانون » قد يكون ضرورياً ، فإن صفته الكلية الجامعة تتضمن حتماً قدراً من الحيف . فكثير من الناس قد يكونون سعداء بالقدر الذي يسمح ضعفهم به تحت الضغط المستمر لعدم التحقق وبلوغ الهدف . والآخرين ، وهم الأكثر حساسية وذكاءً ، قد يكونون سعداء حتى « بالجسد وسخافته » (وهو تعبير للشاعر بيتس) الذي يقف سداً في وجه ضعفهم . لكن هناك كذلك أناساً ولدوا بطل أو نواقص معينة ، وهؤلاء الناس مقضي عليهم بأن تبقى غرائزهم الحيوية في حالة من الجوع الدائم . إنهم أناس ما أن يدفعوا « الضريبة المرهقة على الوعي » حتى يصبحوا عاجزين تماماً عن اثبات أنفسهم . وفي بعض الأحيان يثور مثل هؤلاء الناس ويصبحون مجرمين جنسين ، وذلك للحصول على لحظات من ذلك الشعور النيئتشي بالقوة ، بالسيطرة على الوجود .

مثال طريف على ذلك ، يستحق الإهتمام هو القاتل الجنسي ديويت كلنتون كوك الذي وردت قضيته في كتاب دي ريفر .

كان كوك ، الذي أعدم وهو في العشرين من عمره يهاجم الفتيات بقطعة من الخشب ثم يفتصبهن بعد أن يفقدن الوعي . وكان عضوه التناسلي من الضالة بحيث أنه لم يكن يستطيع أن يشبع زوجته جنسياً ، لذلك فقد كان الإثنان يضطران إلى اشباع بعضهما البعض بالإسلوب الفموي . وقد كان كوك شاباً ضعيفاً يعاني من مركب نقص ملحوظ ، ويشك دي ريفر في أن قطعة الخشب التي كان كوك يلطم بها ضحاياه ربما كانت رمزاً للعضو التناسلي المنتصب . والطريف أن كوك كان يهاجم ضحاياه حين يكتمل البدر في السماء ، إذ كان يدّعي بأن منظر القمر كان يفقده القدرة على مقاومة الرغبة في الإغتصاب . ومن الواضح أنه كان رجلاً لم يكن يحسّ بالإنتماق من مركب النقص إلا أثناء قيامه بإغتصاب فتاة غائبة عن الصواب .

وهناك حالة أكثر مطابقة لموضوع حديثنا في هذا المجال ، هي حالة جون يمينالد هاليداي كريستي . فقد قتل كريستي ست نساء على الأقل في المنزل

رقم ١٠ ، شارع ريلنجتون بليس ، فانتغ هيل جيت (منطقة في قلب لندن) ،
خمساً منهم لغرض الإغتصاب . ومثل كوك ، كان كريستي يعاني من شعور
عصبي حاد بالنقص . وقد ولد كريستي في يوركشير من عائلة فقيرة عاملة ، وكان
أبوه من الرجال الذين يعاملون أولادهم بقسوة فكتورية : وكانت أمه تدلّله
لكن شقيقاته (وكانت ثلاث منهم أكبر منه سناً) كن يتسلطن عليه ويسخرن
منه . وقد تبين عند دخوله المدرسة بأن ذكاه أقل من المستوى العادي ، كما أنه
كان لا يجيد الرياضة . ونظراً لكونه أقرب أخوته إلى قلب أمه فقد راح يستغل
ضعفه كوسيلة لإستدرار العطف . وقد كان عرضة للمرض والتوعلك باستمرار .
وفي سن الخامسة عشرة قام كريستي بأول محاولة له في مضاجعة فتاة ، ولكنه
فشل في هذه التجربة . وحين شاع خبر محاولته الفاشلة أطلق عليه الفتية
الآخرون نعتاً وألقاباً تهكّية . وبعد عامين ، وفي وجه التحديد في عام ١٩١٥ ،
تمرّض كريستي في فرنسا لحادثة انفجار . وكان من نتيجة الرعب الذي أصابه
أنه فقد القدرة على النطق لمدة أسابيع ، ثم أصبح لا يستطيع الا النطق ممساً
لسنوات عديدة . (ادعى كريستي أن الانفجار أعماه ، لكن ادعاه كان كاذباً
فيما يبدو) .

وفي عام ١٩٢٠ التقى كريستي بفتاة اسمها إثيل وتزوجها ، لكنهما لم
يمارسا أية علاقات جنسية لمدة عامين بسبب عدم قدرته على الجماع نتيجة للعقدة
التي أصابته منذ فشله الأول .

وقد كان كريستي مجرماً صغيراً له سوابق متعددة مع البوليس منذ
صغره ، وكان حظه سيئاً في أنه كان يضبط في جنح صغيرة ، كان غيره من
الصبية الاصحاء يقومون بها بغير ان يضبطهم أحد . وفي سني ما قبل العشرين
فقد كريستي وظيفتين بسبب سرقات صغيرة . كما أنه بعد زواجه أمضى سبعة
شهور في السجن لسرقته حوالات بريدية أيام كان يعمل موظفاً في دائرة للبريد ،
ولقيامه بعدد من الجنح الأخرى كلطمه امرأة على رأسها بمضرب كريكييت .
وفي مطلع الحرب عام ١٩٣٩ أصبح شرطياً تابعاً لقوة الاحتياطي الحربي ،

واكتسب شهرة في منطقة ناتنغ هيل بسبب قسوته مع مرتكبي الجنح البسيطة . وكان يستمتع بإرهاب المخالفين الى أقصى حد ممكن . ولمدة أربع سنوات استطاع ان يكتسب نوعاً من الشعور بالثقة في النفس لتمكنه من التحكم بحيرانه ، بل إنه أنشأ علاقة جنسية مع امرأة متزوجة كان زوجها جندياً في الحرب . وذات يوم عاد الجندي الى بيته فوجدهما معاً . فكان أن اعتدى على كريستي بالضرب . يقول لودفيج كنيدي الذي كتب عن هذه القضية أن حادثة الضرب هذه هي في اعتقاده العامل الذي حول كريستي إلى قاتل جنسي . وقد دعا كريستي يوماً عاهرة صغيرة السن الى بيته حين كانت زوجته في زيارة أهلها في شفيدل ، ثم قام بخنقها وبعد ذلك نكحها ودفنها في حديقة منزله الخلفية . وقد جاءت هذه الحادثة بعد ان ضربه الجندي بفترة قصيرة جداً . وبعد عام من ذلك ، أي في عام ١٩٤٤ ، قتل كريستي امرأة ثانية . ولكنه استعمل هنا حيلة وجد فيها بعد أنها مفيدة جداً في افقار ضحاياه وعيّن . فقد أقنع المرأة بأنه يستطيع أن يعالج التهاب غشائها المخاطي إذا هي تشقت نشوقات طبية معينة من إناث خاص ، ثم أعطاها انبويّاً خاصاً لتضعه في فمها ، وكان الانبوب موصولاً بمصدر الغاز . وبعد أن غابت المرأة عن صوابها جرّدها كريستي من ثيابها ثم اغتصبها ، وأثناء المجامعة خنقها حتى فقدت الحياة .

ومرت خمس سنوات دون ان يرتكب كريستي جريمة اخرى ، ربما يعود ذلك لوجود زوجته باستمرار في البيت ، أو لاعتقاده بأنه قد يفضح نفسه إذا ارتكب جريمة أخرى . أو ، وهذا هو الاحتمال الاكبر ، إن جرمي الغتصاب كانتا بمثابة عملية تطهير للنفس ، وانها أراحته عنه عباً نفسانياً وخلفاته أكثر رضاء .. للوقت الحاضر .

لكن الإغراء تماظم جداً عام ١٩٤٩ . فقد انتقل الى الشقة التي تقع فوق شقة كريستي زوجان في مقتبل العمر . وكان الزوج واسمه تيموثي إيفانز عينة سيئة جسدياً وعقلياً . فقد كان طوله خمسة أقدام فقط بالإضافة الى إصابته بالمرج . وكان عقله من الضحالة بحيث أنه لم يستطع أبداً أن يتعلم القراءة

والكتابة . أما زوجته بيريل فقد كانت جذابة وفي الثامنة عشرة ، وعندها طفلة صغيرة ، وفجأة اكتشفت بيريل أنها حامل مرة أخرى ، فأخبرت زوجها الذي قلق جداً وسعى الى كريستي يستشيريه في الامر . فجأة استفاق الجوع الجنسي في كريستي وانطلق عقله يفكر بسرعة ، فها هي الفرصة تتاح له للتمتع بحسد امرأة شهية . وبدأ يحدث ايفانز بغموض عن قدرته في القيام بعمليات الإجهاض . ونتيجة لذلك صعد كريستي ذات يوم في تشرين الثاني عام ١٩٤٩ الى شقة بيريل لإجراء عملية إجهاض وانتهى بأن قتلها خنقاً واغتصبها . ومن المشكوك فيه فيما إذا كان كريستي ينوي حقاً ان يفعل ذلك ، خاصة وأن معرفة زوجها بأمر زيارته سيؤدي الى اكتشاف أمره حتماً . وربما أنه كان ينوي ان يشبع رغبة فوييرية فيه فقط ، وذلك بإفقادها الوعي لا أكثر ، بواسطة انبوب الغاز الذي ابتكره ، وأن يتمتع نفسه بها قبل أن تعود الى رشدها . ويعتقد لودفيج كنيدي أن بيريل قاومت كريستي قبل أن تستسلم الى انبوب الغاز ، وأن كريستي لطمها حتى غابت عن صوابها ثم اغتصبها لأنه كان في حالة مجنونة من التهيج الجنسي .

وما حدث بعد ذلك غير مؤكد . لكنه يبدو من المحتمل ان كريستي أبلغ ايفانز أن زوجته توفيت أثناء عملية الإجهاض ، وإنه ما لم يتكتم الأمر فلن كليها سيعا كان بتهمة القتل . وعرض كريستي على ايفانز أن يأخذ الطفلة الى بلدة أكتون حيث يضعها في رعاية بعض الأصدقاء . وبعد يومين من ذلك قتلت الطفلة خنقاً ، ومن شبه المؤكد ان كريستي كان هو القاتل . (كل ما عرف عن شخصية ايفانز يؤكد بأن ، لا يستطيع ان يرتكب مثل هذه الجريمة ، فمع أنه كان متأسلاً وذا خيال خصب في الكذب ، إلا أنه كان يتدفق حباً ووفاء لعائلته) . ويبدو أن ايفانز كان يعتقد بأن طفله ما زالت في أكتون . وبعد اسبوع توجه ايفانز الى ويلز لقضاء بضعة أيام عند خالة له ، وفي الثلاثين من تشرين الثاني سلم نفسه الى البوليس في ميرثفيل قائلاً بأنه قتل زوجته . وهذا الجزء من القضية ما زال غامضاً !! فمع أن ايفانز اتهم كريستي في احدى

المرات بقتل زوجته إلا أنه عاد فسحب اتهامه حين أبلغ بأنهم قد عثروا على جثة طفلته . وقد سمح ايفانز لنفسه بأن يحاكم ويعدم ، وكان كريستي أحد شهود الاثبات ضده .

بعد مضي ثلاث سنوات ، بدأ كريستي آخر حلقة في سلسلة جرائمه وهي التي انتهت باعتقاله أخيراً . ففي أواخر عام ١٩٥٢ خنق زوجته ووضع جثتها تحت ألواح أرضية المنزل ، لكي يخلو له البيت في أغلب الظن . وفي خلال الشهرين التاليين قتل كريستي واغتصب ثلاث نساء أخريات ، كلهن فتيات في سن العشرين . ويبدو أنه استعمل أسلوب الاستنشاق لإفقادهن الوعي أولاً . وقد خبأ جثتهن في خزانة منزلية غطاها بورق خاص من ورق التلصيق على الجدران ثم أدخل المنزل . وبعد أربعة أيام اكتشف مستأجر جامايكي الجثث الثلاث ، وعلى أثر ذلك تمكن البوليس من أن يكتشف جثة زوجة كريستي والهياكل العظمية الأخرى المدفونة في الحديقة الخلفية . ثم اعتقل كريستي وحوكم وأعدم . وقد كتب الشيء الكثير عن براءة تيموثي ايفانز ، وبما لا شك فيه ان قضية ايفانز ساهمت في إيقاف تطبيق عقوبة الإعدام في انكلترا عام ١٩٥٧ . (وحق بموجب قانون الجنايات الجديد فان ايفانز سيحكم عليه بالموت لانه أنهم بإرتكاب جرمي قتل « في مناسبتين مختلفتين ») .

لكننا هنا ولأغراض البحث الحالي سوف نركز الاهتمام على جرائم القتل بالذات . فإن إقدام كريستي على قتل الطفلة جيرالدين ، بالإضافة الى سجله سوابقه الإجرامية ، يبينان ان هذه ليست مجرد حالة من حالات « القتل الناجم عن الحبوط » بل يوجد هناك عنصر قوي من الخلق الإجرامي المتفسخ . وعامل الحبوط هو كذلك عامل قوي جداً بالفعل وهو يؤهل كريستي لأن يُعتبر قاتلاً من صنف موسبراجر ، أي من الصنف الذي يحطم زجاج المتجر ليحصل على الطعام الذي ليس بمقدوره ان يشتريه لفقره . وحالة كريستي تمثل صراعاً بين عوامل المرض وعوامل الصحة . فقد كانت كريستي يصاب كثيراً بحالات من وسواس المرض وبالإحساس العصبي بالنقص الذي يرافق تلك الحالات .

وتمرده على النقص كان استجابة صحية من قبل تركيبه العضوي ، لكنه مثل كل ثورات الإنسان الضعيف ، كان تمرداً عنيفاً جداً . وقد أدى هذا التمرد الى استبداده بالناس يوم كان رجلاً بوليس .

ولا شك أن ذلك كان نوعاً من الفصام العقلي (أي الشيزوفرانيا) . ويشير رولو ماي إلى أن الفصام العقلي هو فقدان الصلة « بالعالم الحقيقي » بسبب الخوف والإحجام عن مواجهة العالم بشرف ، وأن ذلك يتم اخفاؤه تحت شخصية مصطنعة ، وستار من المسوغات والمبررات العقلية ، تماماً كما يجري تغطية حفرة خطرة تغطية مؤقتة بلوح خشبي بدلاً من سدّها كلية . لكن الضغط والتوتر هما من الشدة بحيث يحتمل أن يؤديا إلى انهيار تام أو الى أشكال مختلفة من العنف . ويشير ماي كذلك الى أن حالات الفصام العقلي تزداد باطراد . وقبل خمسين عاماً كانت « المستيريا » هي الحالة الشائعة والنموذجية بالنسبة للمحلل الفرويدى ، أما اليوم فهذه الحالة هي الفصام العقلي .

وقد قضي على كريستي أن يصاب بالفصام العقلي بسبب ضعفه . فاستجابته للحياة كانت عليها أن تكون اما إعراضاً عن الحياة وإما محاولة فرض نفسه عليها بالخدعة . (هناك أمثلة كثيرة على محاولاته في أن يتظاهر « بالأناقة » .. الخ . وعلى حد قول دنكان وب فإن كريستي استطاع أن يتزوج أثيل عن طريق التظاهر بأنه من طبقة الأثرياء) . ومع أن شهرته الجنسية كانت قوية - إذ أن شقيقاته قد أرقظنها فيه وهو في سن العاشرة على حد قوله - فإن وجهه من النساء كان قوياً كذلك . ونتيجة لذلك تركب عنده الاتجاه المعتاد إلى الجنس الحفي وممارسته خلصة ، وهو الاتجاه الذي يلزم الصنف الذاتي للضعيف . ومن المحتمل أن كريستي كان فتيشياً ، فقد كانت كل الجثث خالية من الكلاسين ، كما أنه كان يحتفظ « بشعره ما تحت السرّة » للنساء اللواتي اغتصبهن في علبة تبغ . وبالنسبة لكريستي فإن الهدف الجنسي المثالي كان امرأة غائبة عن الصواب . وقد اعترف بالنسبة لبعض الحالات أنه كان يحسّ بشعور غريب من السلام والسعادة بعد عملية القتل والإغتصاب . بل وربما كان يشعر بالافتخار .

وكريسقي إذا اعتبرنا أن « الحياة » قد حكمت عليه بالحبوط والفشل . استطاع أن يتحدى الحياة وأن يتصرف تجاهها بإجتهد ودهاء وحش بري وأن يشبع شهوة لا يمكن اشباعها كما كان يبدو . إن الحياة ارتكبت معه خديعة مريرة بأن جعلت منه رجلاً ضئيلاً ضعيفاً غير قادر على الدفاع عن نفسه ، رجلاً يخاف من مجاعة امرأة صحيحة متطلبة . وهو قد رفض أن يبقى خاضعاً قابلاً تحت هذا القيد . ولأن المجتمع يعارض شهوته ، فقد نصّب نفسه حكماً وقرر أن شهوته يجب أن تشبع بأية وسيلة كانت . وفي تلك اللحظة فلربما قد شعر بما وصف به شتينوولف شخصيته الأخرى ، أي بكونه وحشاً برياً شديد البأس . لقد هزمت الحياة وجعلت منه ضحية مدحورة ، لكنه كسب معركة واحدة على الأقل . فالرجل ليس دودة على كل حال ، فبالكفاية من القوة والقدرة على الصراع يستطيع أن يصبح لها . فالتحقيق الجنسي يستطيع أن يوحد الذات المنقسمة للحظات وأن يعيد إلى الإنسان إحساساً بالإنهاء والالتقاء مع الواقع والقوة .

وفي حالة كريسقي يمكن لنا أن نتيين بوضوح العاملين اللذين تقوم عليهما الجريمة الجنسية : العامل الإنحطاطي التفسخي ، وعامل النزوع إلى التعافي . فالسادية (المتمثلة في الحاجة إلى خنق النساء بعد نكاحهن) وقتل الطفلة هما دليل على فقدان الإرادة والتحكم وعلى السماح للفرائز لأن تهوي الى درك المرض . لكن عمليات انتهاك الحرمات كانت محاولة من كريسقي لتعديل أو تقويم الحساب ، ولإكتساب تجربة كان يعتقد بأنها « حق » له ، وللهرب من الإستنقع والتأسن الروحيين .

وهو لا يعني طبعاً أن نقول بأن الجرائم الجنسية التي ارتكبها كانت « على حق » بطريقة ما ، بل القصد أن نقول بأن هناك قوتين تعملان في اتجاهين مضادين ، الأولى تسعى إلى زيادة المرض والثانية تسعى إلى التعافي . وإذا كانت الطبيعة البشرية سهلة كما تبدو ، أي أنه إذا لم تكن الطبيعة تفرض « أثارة » ضخمة على تجربتنا ، فإن إرتكاب جريمة جنسية يمكن أن يكون خطوة في اتجاه الظفر ، في اتجاه الألوهية .

فالمصباحية (النيوروسية) تتبدد مؤقتاً ، والحياة تهاجم وتهزم . فإذا ما اتخذ المجرم بعد ذلك موقفاً سارترياً من جريمته ، أي رفض التبرؤ من عمله والتصميم على أن يتطور الى أبعد ، فقد يؤدي ذلك إلى « المعافاة » . والموقف السارترى يتمثل تمثلاً تاماً في دي فلوريس بطل رواية توماس ميدلتون المسماة « المتقلب » The Changeling الذي يقترف جريمة قتل لمجرد تهديد امرأة بمضاجعة . وحين يلقي القبض عليه يقول :

... غنيمة شرفها

كانت مكافأتي ؛ لا أشكر الحياة لشيء

إلا لتلك المتعة ؛ فقد كان عذباً جداً بالنسبة لي

انني شربت كل شيء ، ولم أخلف شيئاً

لأي رجل لكي يرتهنني به ...

إن هذا هو الموقف الوجودي النموذجي من كل تجربة . إنه موقف الإنسان الذي لا يضيع أي شيء والذي يرفض أن يدفع الضريبة على التجربة بحيث أنه لا يحسّ فيما بعد بأنه تعرض لأي « غش » أو خديعة وذلك بعد أن نال المتعة التي كانت تبدو يوماً مرغوبة إلى أقصى حد . لكن أشخاص وأبطال الأعمال الأدبية هم فقط الذين يتجنبون دفع الضريبة إلى ذلك الحد . فإن رجلاً مثل كريستي قد يحسّ مثل « دي فلوريس » لبرهة وجيزة حين يشعر بالخواء التام من طاقة جنسية اختلطت بسم الحبوط . وبعد خمس دقائق تطعنه جرأته الخاصة فيخاف ويرسم الخطط الكفيلة بالتخلص من الجسد ثم ينثني فيسمح للعدو الذي لفظه بعنف ، قبل برهة ، أن يعود .

وإذا ما قورن كريستي بقاتل سادي مثل نيفيل هيث فستتضح لنا الغاية من هذا التحليل مباشرة . فهيث هو نموذج لصنف المجرم الكازانوفي . فهو ضعيف الإرادة وسيم الشكل ، كذاب بالسليقة ، وهو رجل كانت عملية الإخضاع الجنسي بالنسبة له أمراً هيناً جداً . ومثل كازانوفا ، كان يحس بأنه فاشل في كل الأشياء فيما عدا الإغواء . وعلى هذا فقد كان يصب كل طاقاته الحيوية في عملية

الإغواء ، الأمر الذي كان يؤدي الى النتيجة المعتادة .. التفسخ . فالامتلاء وفقدان قيمة الأشياء يؤديان إلى نشوء الإنحرافات . وفي البداية تكون هذه الانحرافات – مثل اىذاء وإيلام الشريك الجنسي – نوعاً من التوابل لإضفاء مذاق طيب على العملية الجنسية ثم تتحول فتصبح هي الغاية الرئيسية من العملية الجنسية . وإذا تفحصنا قضية هيث – الذي قتل وشوه فتاتين عام ١٩٤٦ – وتابعتها بدقة فلن نجد أي دليل على وجود رغبة أو نزوع لديه نحو الصحة والتعافي . فالجرائم التي اقترفها لم تكن محاولة يائسة للهروب من مرضه الخاص ، بل كانت امعاناً وانجرافاً متعمدين في الجريمة من قبل رجل هو من الضعف بحيث انه فقد القدرة على أي احساس بالمعنى أو القصد .

وهناك حالياً اعتراف متزايد وإن يكن مبهماً إلى حد ما ، بهذا الفارق بين الجريمة المتفسخة تفسخاً تاماً ، والجريمة المدفوعة بالرغبة في الصحة . فالقضاة الذين رفضوا أن يستنكروا ويشجبوا روايتي « لوليتا » و « بوليس » كانوا يعترفون بأن هاتين الروائيتين وإن كانتا تعبران عن ناحية غير هيجية من الجنس إلا أنها على كل حال تعبران عن نوازع خلاقة وليس تفسخية انحطاطية . ومحاولة « علاج » المجرمين الذين تعتبر جرائمهم تعبيراً عن غضب عدائي للمجتمع هي كذلك اعتراف بأنه من المحتمل ردّ الطاقة الحيوية وتحويلها عن مسالكها الهدامة . ولا شك أن الهياج العام الواسع الذي رافق قضية تشيسمان كان مصدره هذا الشعور بالذات .

ولا شك أن هذه النقطة قد أصبحت واضحة للقارئ ، ومع ذلك فإنها تستحق مزيداً من التفصيل لتبيان كل جوانبها ومضامينها . إن معظم الآباء والامهات في أيامنا هذه ، سيحجمون عن ضرب ابنهم الصغير إذا حاول خلع ثياب ابنة عمه مثلاً لرؤية جسدها ، بل سيعتبرون هذا العمل حالة طبيعية من حالات الفضول التي ينبغي اشباعها .

وماذا عن التجربة الجنسية الخاصة بالضابط السابق «م» مع الفتاة المصابة بالشتى الجنسي (أي المفهومانيه) ؟ قد تختلف الآراء هنا ، لكنه سيكون

هناك حتماً إجماع بين بعض الآراء على أن هذه التجربة هي في الغالب تجربة صحية . وينبغي هنا ان نلاحظ بأن الإحساس بالظفر الذي عبّر عنه « م » حين سرح بنظره في الغرفة التي تضم « الأجساد الملقاة » ليس بعيداً كلية عن احساس كريستي « بالسلام والسعادة » حين كان ينظر الى ضحاياه . فكلاهما يعبران عن اشباع وارضاء الرغبة في تحقيق الذات . ومرة أخرى ، فمع أنه من الصعب علينا ان نتصور أنه يمكن لكتابات دي ساد ان تنشر كاملة في البلدان الناطقة بالإنكليزية – ذلك أن تأثيرها سيكون بلا شك ضاراً – فإن دي ساد نفسه بات ينظر اليه على نطاق واسع ، بنوع من العطف والاهتمام ، وهو أمر يدلّ على ان هناك ادراكاً ما بذلك الخليط الغريب من القوى الخلافة والتفسيخية التي تحفل بها كتاباته .

لنلق نظرة على قضية « فيليكس وإدي » التي يوردها بكهارت كذلك . كان كلا الرجلين في العقد الثامن من العمر ، وقد قضيا أوقاتاً طويلة معاً . كان من عادتهما أن يجلسا على أحد المقاعد في أحد الأماكن العامة يتمتعان بالشمس ويتبادلان الحديث . واعتادت ثلاث فتيات صغيرات أن يلعبن قريبا . كانت الأولى في العاشرة والثانية في الحادية عشرة والثالثة في الرابعة عشرة . وكانت الأخيرة وهي اكبرهن غير مكتملة النمو العقلي لكنها كانت « مستيقظة » جنسياً . وكانت هي التي توجهت يوماً الى الرجلين المسنين وطلبت منها بعض الحلوى ، وهي التي سمحت لأحدهما يوماً أن يجلسها على ركبتيه ويدلّها لقاء اعطائها بعض الحلوى . وسرعان ما تطورت العلاقة إذ اصبحت الفتيات الثلاث يسمحن للكهلين بأن يجلساهنّ في حضنيهما ويتحسساهنّ ، وفي بعض الأحيان يجرداهنّ جزئياً من بعض ثيابهن لقاء الحلوى . وقد اشتبه بعض الجيران يوماً بما يحدث . وقاموا بتبليغ القصة للبوليس الذي قام باعتقال الرجلين وقدمها للمحاكمة . (لسبب أو لآخر ، حكم على أحد الكهلين بالسجن عشرين عاماً وعلى الآخر بالسجن ثلاثة أعوام) .

ومع ذلك ، كما يقول بكهارت ، فإن فداحة جريمتيها تعتمد كثيراً على

وجهة نظر . فالدلائل تشير الى أن الفتاة ذات الأربعة عشر عاماً تتحمل على الأقل ذات القدر من المسؤولية بالنسبة لتنمية العلاقة وتطورها . فهي التي أقنعت البنيتين الأخريين باتباع حذوها . أما دور الكهلهن فيمكن تشبيهه بدور الرجل الذي يشتري بضاعة مسروقة بثمن بخس جداً لا يمكنه مقاومة اغرائه . وإن أي أرمل في سن السبعين ، من المحتمل جداً أن يقبل أي عرض بمضاجعة فتاة صغيرة جذابة .

ولو وقعت هذه الحادثة في الهند أو مراكش بدلاً من نيويورك لما حرك أحد ساكنها . ومع ذلك فإن الرجلين قد اقترفا جريمة بالفعل وذلك بأن ساعدا على إفساد البنات الصغيرات الثلاث ، وفي هذه الحالة يمكن تسمية عملهما « بالإنحراف » . وقد يحسّ الإنسان بأنه هنا يكن الخط الفاصل بين الطبيعة والشذوذ ، بين الجريمة والقانون .

فإذا كان على الفارق بين « الشذوذ » و « الطبيعية » أن يعني شيئاً ، فإن عليه بلا شك أن يمثّل بصورة قوية الفارق بين العوامل الخلاقية والعوامل الإنحطاطية في الجنس . وقد كان تولستوي محقاً في شجبه للخيفات الزوجية السائدة بين أفراد الطبقة الأرستقراطية المصابين بالسأم . فالسأم والتفسخ يكادان يكونان مترادفين . لولا أنه لا يمكن بحث قضية التفسخ أو التطور في النطاق الجنسي وحده ، لأن هذه القضية هي قضية تليولوجية أو غائية^(١) . وذلك يعني أنه يجب طرح قضية الإنحراف الجنسي بأكملها بأسلوب جديد . وبموجب هذا الأسلوب تصبح المسائل التي كانت ستكون غير ذات علاقة بالنسبة لفرويد - وكذلك بصورة أكيدة بالنسبة لعلماء النفس « العنصريين »^(٢) ، مثل ميل وسبنسر - تصبح ضرورية لتطوير الموضوع . وباختصار ، هناك حاجة إلى « سيكولوجية وجودية » تكون ربما أعمق وأوسع من سيكولوجية بنسوانجر

١ - نسبة إلى Teleology التي تسمى بالغبرية الفلسفة الغائية أي فلسفة البحث عن غايات الطبيعة .

٢ - نسبة إلى المذهب القائم على نظرية الجوهر الفرد والعنصر . المتزجان .

وزملائه . وسيجري بحث ذلك بالتفصيل في الفصل الأخير . يمكن القول بمعنى ما ، إن كان كريستي أقل « شذوذاً » من الفتيشي رودني شايرز . صحيح أن كريستي كان ينفر من الجماع « العادي » ، إلا أنه على الأقل بقي في حاجة إلى جسد الأنثى^(١) . أما رودني شايرز فكان ينال متعة ورضا كاملين من الثياب الداخلية ، وهو أمر أكثر ابتعاداً عن « الطبيعية » . وكلا الإنحرافين ينبعان من الحاجة إلى تلافي الإتصال الشخصي مع المبتغى الجنسي . وعلى ذلك فلا يمكن اعتبارهما مجرد نتيجة لوهن الدافع « الطبيعي » ، إذ أنها محاولة لبلوغ تجربة جنسية مختلفة نوعاً وليس مجرد درجة أو قدر .

وهذا الدافع يبلغ حالة معينة من التطرف في « النكروفيلية » أي حب الأجساد الميتة ، أو تفضيل الجماع الجنسي مع الجثث . وقد اشتبه في أن كريستي كان « نكروفيلياً » ، لأنه أقر بأن ولعه المريض بالموت بدأ عندما شاهد ، وهو طفل ، جثمان جده وهو يُعدّ للدفن . غير أن صحة ذلك مشكوك فيها ، ولكن ليس من غير المحتمل أن يكون كريستي قد أبقى بعض الجثث في البيت لبعض الوقت قبل أن يخفيها وإن يكون قد تعاطى الجماع مع الجثث .

ومع أنه يجوز دون شك اعتبار « النكروفيلية » عملاً شاذاً ، إلا أنها لا تنتج بالضرورة من دافع نكروفيلي معين . إن الرغبة والفضول الجنسيين قد تبلغان درجة كبيرة من القوة في أي شاب . فإذا أعطي الفرصة فإنه يقبل بالجماع الجنسي مع جثة بنفس الروح التي قام بها الفريد باكراً ، آكل لحوم البشر الأميركي

١ - أورد الدكتور فرانسيس كامبس ، الذي عمل في قضية كريستي ، افتراضات تستحق الإهتمام . فقد اكتشف آثار سائل منوي في تدريزة بعض أحذية كريستي ، وفسر ذلك بأنه كان من عادة كريستي أن يمارس المعادة السرية وهو واقف . (وربما كان يقف على أو فوق أجساد ضحاياه) . وقد دفع هذا الافتراض الدكتور كامبس إلى افتراض آخر وهو إن كريستي لم يكن ينوي قتل النساء حين كان يفقدن صوابهن ، بل كان جل ما يبغيه هو أن يمنعن من مقاومة ممارساته أو من إفقاده الرغبة الجنسية عن طريق توجيه طلبات فعلية له بفعل كذا وكذا . وكانت جرائم القتل تتم خوفاً من المواقب بعد أن كانت الضحية تعود إلى رشدها وتتهمه بالإغتصاب . ولعل هناك بعض الصحة في هذه النظرية .

الشهير ، الذي أكل رفاقه في البرية .

يقول دي ريفر : « النكروفيلى إنسان مصاب بجنون دوري . إن شهوانيته هي على وجه التأكيد ذات صفة منحرفة وشاذة » . وهذا الحكم هو حكم مجرد جداً . فقصيدة لورنس Manifesto تكشف عن « شهوانية شاذة » وكل من جويس و وولف يقران بشهوانيتهما الشاذة في روايات منسوجة حول شخصيهما . والظن هو ، أن كل شاب سليم البنية والصحة عنده شهوانية شاذة . أما الاعتراض الثاني على قول دي ريفر فهو أن النكروفيلى ليس بالضرورة رجلاً يمارس عملاً نكروفيلياً ، بل إنه قد يمارس ذلك كأفضل بديل .

وعلى كل حال فإن « شذوذاً » يطلق عليه اسم « النكروفيلية » هو شيء موجود فعلاً ، وإن دراسة هذا النوع من الشذوذ ستساعدنا على توضيح عدة نقاط تتعلق بطبيعة الدافع الجنسي .

وقبل كل شيء علينا أن نفرق بشكل أكيد بين النكروفيلى الحقيقي والشخص الذي يصادف أن يكون قد مارس النكروفيلية . يورد دي ريفر حالة أعتقد أنها تنتمي إلى الفئة الأخيرة ، كان المتهم فيها طالباً جامعياً في الحادية والعشرين من عمره ، أنهى دراسته وصار يعمل في معرض للجنث المجهولة . وكان الشاب الذي يرمز إليه دي ريفر بـ « د . د . و » يشمر بالحجل أمام الفتيات ، كما أن تجاربه الجنسية كانت تكاد معدومة أو سلبية قبل إقدامه على اقتراف أعمال الشذوذ . فقد وقع الشاب في حب فتاة في السابعة عشرة من عمرها ماتت بالسل بعد فترة ، ولم يضاعفها إلا مرة واحدة . وقد أثاره جسدها المسجى في التابوت حيناً رآه . وتهيج جنسياً .

كان يريد أن يصبح طالب طب لكن نفقات دراسة الطب كانت أكثر مما يتحمل فاضطر إلى أن يختار تعلم تحنيط وتمهّد دفن الجنث كبديل للطب . ومن نتيجة ذلك وجد نفسه منجرفاً في ممارسة النكروفيلية مع الجنث ، خاصة حين كان يخلو لوحده مع الجنث في الليل . (يجب ملاحظة أن تعاطي الجماع مع جثة هامدة أمر مرهق وغاية في الصعوبة نظراً لأن العضلات تكون جامدة .

لذلك فقد كان يكتفي بالجماع الفموي) .

والحادثة التي أدت إلى اعتقاله كان سببها جثة فتاة في الخامسة عشرة من عمرها . فقد أثارته جثة هذه الفتاة إلى درجة أنه شرب قليلاً من دمها ثم أولج أنبوباً مطاطياً في قناتها البولية وشرب بعض البول الموجود في مثانتها . ثم أحس برغبة في أن يأكلها فقمم قطعة من ردفها ثم ارتكب معها الجماع الأسنى و الجماع الخلفي ، وقد أدين « د . و » في المحكمة وأحيل إلى مستشفى للمجانين .

ومع ذلك فليس هناك في أدلة الإتهام ما يثبت أن « د . و » كان معتوهاً أو نكروفيلياً حقيقياً . إن فكرة تعاطي علاقات جنسية مع جثة قد تثير استمزاز وقرف معظم الرجال ، لكن معظم الرجال لا يحسون بأي نفور من « غرابية » امرأة حية ، في حين أن طفلاً حساساً قد يجد أن فكرة الجماع الجنسي برمتها ، فكرة قبيحة و « غريبة » ، كأكل البراز مثلاً . فالموضوع إذن هو موضوع مدى أو درجة القابلية عند الشخص وموضوع القبول بجامعة جسد غريب . وأي مراهق سريع التهيج سيقبل ، إذا ما أُتيحت له الفرصة ، أن يجامع أية فتاة جميلة يصادفها . (في إحدى الحالات في شيكاغو ارتكبت فتى في التاسعة عشرة يدعى صمويل هرايشوك ما يقرب من سبعين عملية اغتصاب قبل أن يلقي القبض عليه . وهناك قليل من المراهقين من لا يحس بقدر من الحسد لما حظي به صمويل وإن كانوا سيجدون ما ارتكبه منقراً) . والقيام بأعمال جنسية مع نساء عاريات لا حول لهن ولا قوة - حق وإن كنّ جثثاً هامدة - هو دلالة على الجوع الجنسي العنيف أكثر منه دلالة على الشذوذ . وهذه الحالة التي نحن بصدها الآن تبين لنا بوضوح أكثر من المعتاد التفسير الجائر لكلمة « الإنحراف » . إن الانحراف الجنسي ينظر إليه على أنه « ضد الطبيعة » ، ولكن كيف يمكن اتهام « د . و » بأنه تصرف ضد الطبيعة ؟ هل إن قيام انثى القرد بضم وليدها الميت إليها هو عمل « ضد الطبيعة » ؟ الجواب الواضح هو لا . والأمر مناف للمجتمع ليس إلا لأنه آجل أم عاجلاً ، لا بد أن يزعم الجيران . وفي هذه الحالة ينبغي إذن تفسير الشذوذ على صعيد الإزعاج الاجتماعي .

وبالإضافة إلى كونها بعيدة عن منافاة الطبيعة ، فإن معظم الانحرافات الجنسية هي في الواقع غلطة الطبيعة نفسها .

والطبيعة تلام بإعتبارها مهندساً رديشاً يخرب السفينة بسبب كمية تافهة من القطران . وإذا كانت الطبيعة أكثر كفاءة ، فلن التكوين الجنسي في الانسان لن يعتمد على غريزة واحدة . كل الأغراض معرضة إلى أن تصاب بالخلل بسهولة ، وستكون الفرائز الجنسية مرهفة وانتقائية وذات دقة محكمة . وإذا كان هدف الطبيعة هو التطور عن طريق المدنية ، وكان المؤرخون على حق في اعتقادهم بأن انهيار وزوال الحضارات القديمة قد عجل بها الانحراف الجنسي ، فيمكننا إذن أن نتهم الطبيعة بنوع من الخديعة والتلفيق اللذين يؤديان في النهاية إلى قهر هدف الطبيعة نفسه .

إن مغزى حالة « د . د . و » - وعلى الأخص العمل الذي أدى إلى لقاء القبض عليه - ليس له إلا علاقة ضئيلة بالنكروفيلية . فمن الواضح أنه وجد النسوة الميتات صالحات جداً للهدف الذي أشار إليه دي بروين في مستهل الفصل الرابع ، ومؤداه أن الدافع الجنسي هو شيء فوري وأنه يود في أشد حالاته عنفاً أن يتخطى الحواجز والمراقيل التي تمثلها الشخصية . وقد يتحدث شاعر مثل تيرنر بمثابة رومانسية عن « الأجساد التي تنصهر في لهب واحد » ، لكن هذا القدر من العاطفة الجنسية المحضة يكاد يكون مستحيلاً بالنسبة لشخصيتين إنسانيتين . وقد استطاع « د . د . و » أن يحصل عملياً على ما تحدث عنه تيرنر نظرياً فقط . فالرغبة في شرب بول فتات أو أكل لحمها تكشف عن اندفاع جنسي عارم عنيف ، عن اختفاء معنى « الأنا وأنت » (أي الازدواجية) ، وبالإختصار عن عدم وجود « الغرابة » .. وهي حالات ومشاعر نادرة جداً ما تتحقق للناس الذين يمارسون الجماع الجنسي « الطبيعي » . إن كون « د . د . و » قد اختار أن يقوم بالنكاح الأسقي بدلاً من النكاح العادي ، يجعل ما أقوله أكثر وضوحاً . ولورنس الذي تحدث عن « ينبوع الظلمة » كان سيفهم ذلك . و « د . د . و » يستطيع أن يباهي بأنه تمكن من خلال « انحرافه » أن يقترب من

« التجربة الجنسية ذات المئمة الكلية المطلقة » أكثر مما يمكن لمعظم الناس أن يصلوا اليه في حياتهم .

وهذه نقطة ذات أهمية كبيرة بالنسبة لتحري قضية طبيعة الدافع الجنسي . وينبغي لنا ان ندرك بوضوح أن هذه الاعتبارات لا تثبت أن انحرافات مثل النكروفيلية والفتيشية (التي تمت اليها بوشائج قوية) هي بطريقة ما « مفضلة » على ، أو حتى مساوية لعملية الجماع العادي (كما قد يقول أندريه جيد) . بل إن هذه الاعتبارات تشير فقط الى صدق الفكرة الأساسية في الفصول السابقة وهي ان عملية الجماع الجنسي متشابكة مع الحدود الغريبة التي تقيّد الوعي الإنساني الى درجة أن عملية جزئية أو منحرفة قد تصل الى حالة شعورية عارمة وزخمة كتعبير عن « المركز الجنسي » ... نادراً ما يمكن تحقيقها في عالم التصرف « الطبيعي » الذي هو عالم أكثر تعقيداً .

ويتضح ذلك بدرجة أكبر حين نتفحص الحالة التي تعتبر الحالة الكلاسيكية في النكروفيلية ، وهي حالة الجاويش برتراند التي يوردها هيرشفيلد (نقلاً عن ايبلر) . وصحيح أن هناك نزعة سادية في برتراند قد تؤدي الى التباس في القضية ، « إلا » أن مراجع القضية تعطينا صورة واضحة بشكل غير عادي عن انحراف برتراند . وبدون أدنى شك فإن برتراند « نكروفيلي حقيقي » ، وهو بذلك يتميز عن شاب مثل « د . د . و » (الفارق بينها واضح كالفارق بين فينشي حقيقي مثل هايرنز والمثال الذي أورده نلسون الغرين في Wlax on the Wild Side في الفصل الخامس) .

ومن المؤسف ان تاريخ حالة برتراند ليس كاملاً كما أورده ايبلر ، وهو أمر متوقع نظراً لأنه اعتقل في ١٩٤٩ ، قبل نشوء التحليل النفسي بكثير .

ولد برتراند عام ١٨٢٢ وبدأ يكتسب ميولاً جنسية قوية بصورة غير عادية وهو لما يزل في سن الثامنة . ففي تلك السن كان يمارس المعادة السرية وهو يتخيل أنه يعذب وينتهك فتيات عاريات . وقد تكون ساديته مرتبطة بضيق خلقه وبفورات قبرمه وقلة صبره . وكانت نزعة الطفل العادية لتحطيم الأشياء

أقوى من المعتاد عنده ، وعندما كبر لم يكن باستطاعته الاحتفاظ بغليون أو بموسى صغيرة لأكثر من يوم ، ذلك لأن الرغبة التي كانت عنده لتحطيم الأشياء ، كانت عنيفة جداً ، وحين كان يسكر كانت تتملكه رغبة جامحة لتحطيم كل شيء يقع في متناول يده . ومع ذلك فقد كان جندياً صالحاً مولعاً بالاناقة ، كما كان كاثوليكياً صالحاً ويكره الكلام القذر . أما مواقفه من النساء فقد كانت شهماً للغاية . وكان برتراند ناجحاً في علاقاته الغرامية ، وكانت له عشيقات كثيرات من القرويات كنّ كثيراً ما يتحدثن معه عن رغبتهن في الزواج منه .

وفي سن الرابعة والعشرين بدأ يعامل الحيوانات بطريقة سادية . ومع ذلك فإن الأمثلة التي يوردها ايبولار كقتل الكلاب وانتزاع أحشائها ، لا تدل على سادية حقيقية . فإن قتل الكلاب يدل أولاً على أن إلحاق الألم ليس هو الدافع أو الهدف ، بل الدافع هو إشباع حبّ التحطيم فيه .

ويصف برتراند أول عهده بالذكرويلية في أعتراف أدلى به عندما كان في الخامسة والعشرين :

« في الظهيرة ذهبت في نزهة مع أحد اصدقائي ، وسرنا مسافة طويلة ، وحدث أننا وجدنا أنفسنا بالصدفة قرب مقبرة الحامية ، ولاحظت قبراً نصف ممتلئاً ، فاعتذرت لأتخلص من صديقي وتركته ثم عدت الى القبر بعد فترة . وتملكني تهيج عظيم ، ورحت أزيل التراب من على القبر بمعمل متناسياً أنني أفعل ذلك في واضحة النهار ، وإن أحداً قد يراني . وحين رأيت الجثة ، وكانت جثة امرأة ، أصابتنى حمى مجنونة ، ونظراً لعدم وجود أداة أخرى ، أخذت في ضرب الجثة بالمعمل . وقد أدى عملي هذا الى إحداث ضجة كبيرة لفتت انتباه عامل كان يعمل قرب المقبرة فتكّ عملهُ واقترب من البوابة . وحين أبصرته ألقيت بنفسي الى جانب الجثة ورقدت ساكناً لدقائق . وبعد قليل ابتعد العامل بحثاً عن شرطي ، فوجدتها فرصة لأهيل بعض التراب على الجثة ، ثم غادرت المقبرة عن طريقي تسلق السور .

« وجلست ساعات في دغلة صغيرة وأنا أرتعش وأتصعب بالعرق البارد وأحس

انني كالمشدود . وحين أفقت من شبه الغيبوبة هذه أحسست كأن جسدي كله قد لطم بقسوة ، ورأسي يأكله الوهن .

وفيا بعد قام برتراند بنبش القبر بيديه ثم بقر ومزق بطن الجثة . ومن يومها اعتاد ان ينبش القبور مرة كل اسبوعين تقريبا ، وأن يترك العنان لرغبة التحطيم فيه ، بأن تمزق الجثث . وقد أعترف بأنه كان يمارس العادة السرية أثناء قيامه بهذه الأعمال وبعد فترة طويلة من الإمساك والإمتناع عن مثل هذه الممارسات ، قام في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٤٧ بنبش جثة فتاة في السادسة عشرة وراح يعاملها لفترة ربع ساعة وكأنها جسد عشيقة تنبض بالحياة .

وقد وصف ذلك بقوله :

« أستطيع ان أصف ما شعرت به آنذاك . ولكن متعاقبي مع النساء الموجودات على قيد الحياة لا تعتبر شيئا بالنسبة لذلك . قبلت الفتاة في كل مكان وضممتها الى قلبي كما لو كنت أريد أن أسحقها ، وباختصار فعلت معها كل ما يمكن لعاشق ولهان أن يفعل مع عشيقته . وبعد أن تمتعت بالجسد لمدة ربع ساعة ، قطعته الى عدة أجزاء ، ثم جرياً على عادتي مع الجثث الأخرى انتزعت احشاءها . »

وقد نمت هذه النزعة فيه وتحولت الى نزعة جارفة حتى أنه في آذار(مارس) ١٨٤٨ أعاد الكرة مع جثث أربع أناث ، ولكنه هذه المرة استعمل سكيناً لتشويه وتقطيع الجثث . وكان هدفه من ذلك الا يترك جزءاً من الجسد بدون أن يمسه . « كنت أريد أن أقضي عليهن كلية » .

واستمر برتراند في علاقاته الفرامية مع بعض الفتيات القرويات حتى وهو منغمس في ممارساته هذه ، وكان يرضيهن تماماً . ولعل أحد الملامح الطريفة للقضية هو قوة النزعة النكروفيلية التي كانت تمتلكه ، الى درجة أنه اضطر مرة ان ينبش خمس عشرة جثة قبل أن يهتدي الى جثة انثى مناسبة . وفي مرة ثانية أطلق عليه الرصاص وهو يتسلق أحد الأسوار ، لكن ذلك لم

يردعه . كما أنه كان يخرج في الليالي الثلجية باحثاً عن المتعة ، بل إنه في إحدى الليالي الشتائية سبح عبر بحيرة صغيرة واستلقى دون حراك لمدة طويلة بشبابه المبللة حين سمع أصواتاً وحركة .

وقد قبض على برتراند في النهاية عن طريق فخ . وذلك بأن سار عفواً ، على شريط موصول بزناد بندقية ، فأصيب بطلقة نارية . وبعدها بقليل حكم عليه بالسجن لمدة عام واحد ثم « اختفى » على ما يبدو بعد انتهاء مدة الحكم وإطلاق سراحه .

ومن الواضح أن حالة برتراند تختلف جداً عن حالة « د . د . و » . فمن زاوية معينة لم يكن برتراند نكروفيلاً -حقيقياً لأن الغريزة الأساسية فيه كانت هدامة محضة . وهذا يثير عدة تساؤلات . كيف يمكن تفسير هذا الدافع التخريبي ؟ إن كثيراً من الأطفال تملكهم نوازع تخريبية ، لكن هذا شيء طبيعي ، ذلك أن الطفل يصرف وقتاً كثيراً في كبح جماح مجموعة من النوازع الحيوانية المختلفة لكي يلبق بالمجتمع المتحضر . عملية التخريب هي رمز لتصرف الطاقة الديونوسية . ولهذا السبب فإن الأطفال يتلذذون أكثر من الكبار في مشاهدة الحرائق أو الفيضانات ، كما أنهم يتمتعون بتحطيم الزجاجات أو النوافذ . أما الإنسان الراشد فإنه بمعرفته الأعظم للعالم المادي يرى أن الحياة هي مشكلة اشاعة وضغط النظام بالرغم من ميل الطبيعة نحو الفوضى . ولكن الرغبة في التحطيم تضعف عادة حين ينمو الطفل ويكبر . فالحياة تتطلب منه المقدرة على التنظيم والخلق ومن ثم فهي تزيد من احترامه للتنظيم . أما النزعة التخريبية أو الفوضوية فهي تلازم في العادة الأشخاص غير المكتملين عقلياً أو الذين تخضعهم الظروف جوراً لنفوذ وتسلط قاهرين .

إن إيبولار لا يقدم لنا من التفاصيل ما يكفي لتوفير قاعدة أكيدة يعتمد عليها في تفسير أو تحليل العنصر التخريبي في برتراند . ولا شك أن عالماً نفسياً فرويدياً كان سيخرج من استعراضه لطفولة برتراند بمجموعة من « الأحداث المرصّنة » تفسّر نوازعه .

ومها تكن الأسباب ، فإن برتراند لم يتخل أبداً عن تخريبية الطفولية حتى بعد أن كبر وبلغ سن الرشد . لكنه كان فيما يبدو رجلاً ذا خلق جيد بحيث أنه لم يكن في مقدوره أن يقسو على أي إنسان واعٍ ، ومعارفه من الرجال والنساء أجمعوا كلهم على تأييد ذلك . فإذا كان ايبولار دقيقاً وعلى حق في قوله بأن برتراند بدأ في ممارسة العادة السرية في سن الثامنة (أي قبل خمس سنوات على الأقل من معظم الأولاد) فقد يجوز أن نموه الجنسي وتخريبية الطفل الغريزية فيه تداخلا بحيث أصبحا فيما بعد متلازمين ومتراطبين في عقله . وكرجل ذي خلق حسن كان يشعر بالرعب والاشمئزاز من فكرة قتل وتعذيب نساء على قيد الحياة ، لذلك فإن الشيء المثالي للتنفيس عن نوازعه الجنسية التخريبية هو جسد امرأة ميتة . وينبغي ملاحظة أن برتراند كان يختلف عن « د . و » بمعنى أن إهتمامه الرئيسي كان تشويه وتقطيع الجثث وليس مجرد اشباع الرغبة الجنسية العادية .

كان موقف برتراند من « ضحاياه » قائماً على الكراهية ، أما موقف « د . و » فكان بلا شك قائماً على الحب كما تكاد آخر حادثة ارتكبتها ، تبين لنا . وأهم جزء من شهادة برتراند هو وصفه لمشاعره بعد محاولته الأولى في النكروفيلية : « ... أرتعش وأتصبب بالعرق البارد وأحس أنني كالمشدود » . فالكوابت وضبط النزعات التخريبية انهارت كلها كالسد حين توفرت له الفرصة فجأة في اشباع هذه النزعات . وقد انفجرت هذه النوازع المكبوتة بقوة هزته بعنف وسلبته كل حذره المعتاد ، بحيث أنه راح يضرب الجثة في إحدى المرات بمول ، جالِباً إلى نفسه الانتباه . وكل الأدلة تبين أن برتراند كان يُصعق بنوازعه الجارفة ، ولكنه كان يفتبط في ذات الوقت لإدراكه أن هناك امكانية لتحقيق الذات بصورة أعمق مما تهيأ له . ويتضح ذلك في قوله : « .. كل متعاتي مع النساء الموجودات على قيد الحياة لا تعتبر شيئاً بالنسبة لذلك . » فقد كان الوعي الجزئي يكتمل لبرهة ، كانت الشخصية المنقسمة تتحد وتلتاحم .

وليس هناك مكان للشك في أن برتراند كان « سادياً قاصراً أو فاشلاً » إذا صح

التعبير وأمكن قصوره . لكنه من المهم كذلك أن تتأمل ادعاءه ، بأن نوازه السادية بدأت في التلاشي بعد علميته الجنسية التخريبية الأخيرة التي تمادى فيها في التشويه أكثر من أي وقت مضى . وقد تكون تلك طبعاً حالة مؤقتة فقط . لكنه يحتمل من الناحية الأخرى بأن برتراند الذي كان قوي الإرادة ومتديناً ، بذل جهداً أكيداً لكبح جماح ميوله الانحلالية ، وربما أنه كان يتبع نظرية بليك التي تدعو إلى طرد « القوى السوداء » عن طريق افساح المجال لها كاملاً . إن الطابع المنفر لهذه الحالات تجعل من الصعوبة بحثها بتحليل متجرد . وحين يقول بليك بأنه من غير الصحيح أن « الخير من الروح والشر من الجسد » وأن « الطاقة أو القوة هي غبطة أزلية » ، وإن الكبت والخبية هما أصل كل الشرور ، فإنه يمكننا أن نقبل بالمضمون النظري لهذه الكلمات بدون أن نبصر نتائجها العملية . ولكن أفكار بليك يمكن تطبيقها عملياً على أمثال برتراند و . د . د . بل وكذلك على أمثال كريستي . إن الإنسان لا يمكنه أن يتطور وهو يتصارع مع شخصية منقسمة . وكل الشرور هي نتيجة الجبوت والخبية والنشاط غير المتزن والسليم « للمراكز » . (بليك يشير إلى هذه المراكز برموز ميثولوجية مثل أوريغن ولوفه ومارماس الخ .) فإذا « مسمح للطاقة أن تنطلق إلى الخارج بصورة طبيعية وبدون قمع » ، فلن « الشر » يصبح مستحيلاً . وعمليات القمع تؤدي إلى نشوء « قرح » نفسية ، جيوب سمّ غريبة ، ينبغي استئصالها . وأول نتائج عملية الاستئصال قد تكون كربة ومريمة ، مثل استئصال قرحة أو ثبرة جسدية ، لكنها ضرورية . ذلك أن النتيجة الأخيرة هي تعافي الجهاز العضوي .

وهذا كله بالطبع يحدث إذا كان الرجل يملك « شجاعة آثامه » ، ولا يسمح للعملية الإنحطاطية أن تسيطر عليه عند ارتخاء ارادته . ويبدو محتملاً أن بليك لم يكن يدرك قوة « ميكانيكية التكرار » ، وبالتالي فإن تأدية الكوابت والموانع قد يؤدي إلى الإنحطاط .

ومع ذلك فلن سيكولوجية بليك هي في كثير من النواحي أكثر نفوذاً من

السيكولوجية التي نطبقها على « المجانين المجرمين » . فقد أدرك مثلاً أنه ما لم يكن الإنسان قادراً على معالجة نفسه ، فلن يستطيع أن يشفى .
إن علم النفس يساعد طبعاً ولكن علم النفس نفسه يقوم على تناقض أساسي ، لأنه لا يمكن أن يكون هناك علم للنفس الحية يسعى إلى أن يعالج النفس كما يعالج الكهربائي أجهزة الراديو .

في جزء من « هكذا تكلم زرادشت » عنوانه « المجرم الشاحب » ، يتحدث نيتشه عن مجرم حكم على نفسه بنفسه لأنه يحتقر نفسه . « ما هو هذا الرجل ؟ إنه كتلة من الأفاعي نادراً ما تنعم بالراحة من بعضها البعض ... » . لذلك فإن زرادشت ينصح القضاة بأن يحكموا عليه بالموت لأنه هو نفسه حكم على نفسه . وهذا هو الحكم الذي كان نيتشه سيطلقه لو أنه شاهد كريستي يقف في قفص الإتهام . لكن العكس صحيح كذلك : فالمجرم الذي لم يدين نفسه - نيتشيان مثال بارز على ذلك - « قابل للشفاء » دوماً لأن إرادته تسعى بنشاط نحو توحيد الذات .

وهذه الإعتبارات تؤدي بالبحث الى تعقيدات عجيبة . فالأصناف العصبانية المختلفة التي تحدثنا عنها في هذا الفصل حاولت أن تؤدي وتمارس نيوروسيتها لكي تفجر كوابتها . وهذه النيوروسية كانت نتيجة لظروف غير عادية . فحين أصبح برتراند نكروفيلياً فإن استجابته لضغط نيوروسيته منحته تجربة عارمة فاقت كل ما خبره من قبل . لكننا ها نحن نفكر ونحكم مرة أخرى كان هناك « نسقاً » أو « نهجاً » جنسياً . ولا شك أن استجابة برتراند كانت غير طبيعية وخاضعة لعملية تأثير تقوم بها قوة نيوروسية تخريرية غريبة . ولكن هل من الممكن أن نؤكد بأن عملية تأثير ما هي شيء « طبيعي ؟ » . ويبدو من المحتمل أن عملية التأثير التي خضع لها « د . د . و » كانت طبيعية ، وإن عنف رغبة المراهق الجنسية فيه ، واننيار بعض العقدة والروادع عن الموت (الذي نتج عن مشاهدته لفتاة عاشرها وهي مسجاة في تابوتها) ، هما اللذان قاداه الى النكروفيلية . إن افتراض دي ريفر بأن « د . د . و » كان إلى حد ما ، مصاباً بالجنون ، وإن

جنونه هذا تسبب عن تأثره بموت حبيبته ، يهمل امكانية أن يكون « د . و ،
قد مارس عمدية غير واعية ، لكنها على كل حال عمل اختياري ، في كل مرحلة
من مراحل « مرضه » . فقد قام مدفوعاً برغائب معينة ، بعمل اختياري في
موقف محدود . وقد تنتقد تفسيره لإحتمالات هذا الموقف التي أدت به الى ذلك
العمل الاختياري ، لكنه من المبعث أن تنتقد العمل الاختياري هذا من وجهة
نظر « نهج » مثالي ما .

ومع ذلك فإذا أدى هذا العمل الاختياري إلى جريمة قتل سادية ، كما
هو الحال في قضية كورتز ، فليس هناك بديل من أن تنتقدها من موقف
« اطلاقي » . ومن الممكن أن نقيم فارقاً بسيطاً هنا فنقول إن « حكماً أخلاقياً ،
يصبح نافذاً إذا اشتملت العملية الجنسية على اعتداء ، على حقوق شخص آخر ،
كما هو الحال بالنسبة للإغتصاب أو القتل . ويمكن تشبيه ذلك بما قاله أحد
الإنكليز لرجل فوضوي ادعى لنفسه الحق في أن يلكم أنف الإنكليزي المذكور :
« حقوقك تنتهي حيث يبدأ أنفي » . لكن ذلك يصبح تجنباً للموضوع ،
ذلك أنه بينما يمكن لقوانيننا أن تقرر بأنه يحق للواطنين راشدين أن يجامعوا
بعضها بالتراضي ، فإنه لا يمكن لنا أن نقرر على هذا الأساس بأنه يجب تحليل
النكروفيليه لأنها لا تسمى إلى أي إنسان .

بإختصار نحن مطالبون بتفسير « الطبيعية » في نطاق العمدية . هل من
الممكن أن نستغني عن الأحكام الخلقية وعن النسق الاجتماعية وعن الحديث عن
الجنون وسلامة العقل ، ونتوصل مع ذلك الى نظرية معقولة ومتأسكة عن
الجنس يمكنها أن تنتقد العمدية التي تؤدي الى السادية والنكروفيليه ... الخ ؟
إذا كان ذلك ممكناً ، فإن العلاقة بين نظرية العمدية الجديدة هذه وسيكولوجية
فرويد ستكون مماثلة للعلاقة بين نظرية اينشتاين النسبية وأحكام نيوتن الطبيعية ،
أي أنها لن تكون نقياً ، بل ستكون امتداداً ضرورياً للملاءمة حالات ومشاكل
جديدة . وعلينا أن ندع بحث هذه الإمكانية الى الفصل الأخير .

اللوواط :

هناك صنف معين من « الانحراف » لا أنوي أن أتحدث عنه طويلاً في هذا الكتاب ، إلا وهو اللواط (الذي أدخل ضمنه كذلك ما يسمى بالـ Transvestitism أي تفضيل بعض الرجال ، ارتداء الملابس النسائية) . وذلك لأن دراسة اللواط لن تضيف شيئاً متميزاً جديداً على النظرية الوجودية للانحراف التي أحاول أن أرسمها .

فاللوواط من دون كل الانحرافات الجنسية ، فيما عدا البكازانوفية ، هو أسهلها فهماً .

بادئ ذي بدء فإن الحد الفاصل بين الذكر والانثى مطموس وغير واضح . وقد أدرك الجمهور العام ذلك بوضوح أكثر في السنين الأخيرة بسبب الدعاية الكبيرة التي أحيطت بها حالات « التحول من جنس إلى آخر » . فإذا كان من الممكن للرجال والنساء أن يتحولوا من جنس إلى آخر ، فمن المعقول إذن أن توجد فئة كاملة من الرجال الذين هم بصورة جزئية نساء ، والنساء اللواتي هن بصورة جزئية رجال . فهذه قضية غدد وهرمونات ، وليست قضية « شذوذ » . يذكر دونالد وبستر كوري في كتابه « اللواط في أميركا » (١٩٥٣) ، The Homosexual in America بأنه لم يكن يدرك معنى الشذوذ الجنسي اللواطى لما يقارب العامين بعد تجربته الأولى ، في الانجذاب نحو رجل آخر . وهو يتحدث عن حيرته أمام هذا الشعور فيقول :

« لم أتعلم أبداً أن هناك رجالاً ينجذبون إلى رجال آخرين . ولم يحدث أن أحداً حاول أن يغوييني أو يغريني » .

وعلى ذلك فإن اللواط بالنسبة لشخص مثل كوري هو شيء طبيعي وإن أي شكل آخر للحياة هو أمر لا يخطر على البال .

إلا أن دي ريفر يعتقد أن نسبة صغيرة فقط من اللواطيين تنتمي إلى هذه الفئة ، أي فئة الرجال والنساء الذين يمكن إرجاع ميولهم اللوطية إلى تحولات غددية . لكننا حتى إذا افترضنا صحة ذلك ، فليس معنى ذلك بالتالي أن كل

الفئات الأخرى من اللواتين مسؤولة ارادياً بطريقة ما عن أذواقها وميولها .
إن قضية «الضريبة على الوعي» تكن وراء اللواط وكل الانحرافات الأخرى .
فالذي يبدو هو أن مقدرة « جهازنا الشعوري » قد تمّ الإضرار بها عن تعمد .
وهذه واحدة من التعميمات القليلة التي يمكن لإنسان ما أن يطلقها عن الطبيعة
الإنسانية بثقة . ويظهر أن هناك حركة اقفال أو توماتيكية ، أداة تشابه
« الترمستات » متصلة بوعينا . بحيث أنه حين يشتكي الشعراء من عدم مقدرة
الانسان على العرفان ، ومن قصر ذاكرته بشكل سخيف ، ومن أن الطمع
يلتهمه ومن أنه غير قادر على أن « يعدّ بركاته » ويشعر بالسعادة ، فانهم
يلاحظون بذلك عمل الجهاز الذي أدّى الى بناء الحضارة ، كما انهم يلاحظون عمل
الجهاز الذي يؤدي الى كل الانحرافات . ان الاحساس بالاثم هو العنصر الرئيسي
في الدافع الجنسي ، أو بمعنى أكثر اعتدالاً ، إن العنصر الرئيسي للجنس هو
الاحساس بالتعدي على خصوصية شخص آخر ، والاحساس بالتخلي عن
شخصية الانسان المنفصلة .

فحين يتم الاتصال مع شخص آخر تكتمل الدائرة الجنسية مؤقتاً . لكن
الإحساس بانجاز شيء ما يضمحل ، ويصير استمرار نجاح العلاقة معتمداً على
مدى تمكن الشخصين من الاحتفاظ بذلك الشعور المتبادل من « الغرابة » .
وبالنسبة للصنف الكازانوفي من الرجال ، فإن الغرابة تضمحل حتماً ولا يمكن
تجديدها الاً مع شريك جنسي جديد . وبالنسبة للآخرين فان الانحرافات
الجنسية الصغيرة مثل « اللعق أو اللبس » والنكاح الأسقي أو غيرها من
الأساليب ، تساعد على مقاومة فقدان العاطفة الجنسية القوية . إن عملية
« المضائل » أو « التخمّد » هي المسؤولة^(١) . فالانحراف هو محاولة للتجارب

١ - التشبيه مستعار من الفيزياء الذرية . فالمواد الذرية المهزونة تحتوي على « مضائلات » أو
(نجمات) ، وهي نوع من المعدن الممتص الذي يمكنه أن يبطئ التفاعلات أو حق أن يوقفها
كلية في حالات الطوارئ ، ويمكن مقارنة ذلك بأجهزة اخاد النار الاوتوماتيكية الموجودة في
المخازن التي تحتوي على بضائع قابلة للإشتعال . المؤلف

على المضائل . ويمكننا أن نتفهم اللواط بسهولة بمجرد أن ندرك بأن تأثير المضائل هو ان يوهن الدافع الجنسي ويجعله غير واثق من هدفه . فجسد شخص من نفس الجنس هو على كل حال شيء « خصوصي » كجسد شخص من الجنس الآخر ، وانتهاك خصوصية الأول عن طريق النكاح له ذات الفعلية كانتهاك خصوصية الثاني . فإذا ما اعتبرت « اللعس » لحس الرجل لمهبل المرأة ، واللعق ، لعق المرأة لذكر الرجل ، والنكاح الأسقي ، محاولات لاسترداد الغربة وتجديد الزخم العاطفي في الإتصال الجنسي ، فإنه يمكن إذن ادراك أن اللواط قد يُقبل به كالحطوة المنطقية التالية .

اللوواط يتحول بسهولة إلى « نسق » ، خاصة إذا ما كانت الإثارات الجنسية المبكرة مرتبطة بشخص من نفس الجنس .

يروى فرانك هاريس عن أيام دراسته كيف أن عرفاء المدرسة كانوا يختارون الصبية الأصغر ليكونوا خنثاء لهم^(١) ، وكيف كانوا يمنعونهم امتيازات معينة . ويصف هاريس كيف أن عريف قاعة النوم التي كان ينام فيها هو ، كان يستعمل الزبدة بكثرة ملينة مع محظييه . وهكذا يرى بأن الجماع في مثل هذه الظروف مع صبي أصغر قد يصبح إلى حد كبير رديفاً أو بديلاً للإثارات الجسدية والنفسية التي تصاحب مضاجعة فتاة ، بما يرافقها من عوامل التسلط والانتهاك الخ ، وأنه ما أن يتأكد هذا النسق ويثبت حتى يصبح استمراره في سني الحياة اللاحقة أمراً سهلاً . والخنثيث قد يسمى فيما بعد إلى اجتذاب الرجال الذين يرضون بانتهاكه ... وهذا الميل قد يتحول بسهولة إلى مازوكية ، في حين أن الشريك الفعال قد يستمر ربما في التجذاب إلى الرجال الخنثيين .

وعلى هذا فإن اللواطى يصبح حتماً أكثر استعداداً من غيره للإنتزاع في المحرقات أخرى . فالعلاقات اللوطية تنحو إلى ان تكون أكثر عرضية وأقل ثباتاً من العلاقات بين جنسين مختلفين . يذكر كوري أنه على الرغم من عزمه

١ - مفرداً « خنث » أي الغلام الذي يتخذه الرجل محظياً جنسياً له ، كما كان شائعاً منذ سنين طويلة ، في بعض المناطق العربية . (م . ه)

في كثير من الأحيان على الجهر برغائبه وعلى أن يعيش «حياة كاملة مليئة بالإتحاد مع ذكر آخر» إلا أنه وجد من الصعوبة تحقيق روابط حب دائمة في عالم اللواط . صحيح أنه توجد هناك «قرانات وزيجات دائمة بين اللواطين» لكنها ليست كثيرة او شائعة . وحين تتكرر وتبدل العلاقات الجنسية بين اللواطين لمدة طويلة ، يحل هناك نوع من الرقابة وتنشأ الحاجة الى التنوع ومن ثم الى «تجارب» جديدة .

يورد مارك . ي . آدامز في كتابه «The Sexual Criminal in prison»
«المجرم الجنسي في السجن» حالة مثالية على ذلك :

أعلن «د. ج» أنه مارس أول تجربة جنسية في حياته وهو في سن العاشرة حين نكحه رجل كان يسبح معه في نفس المكان . وبعد ذلك أغواه حلاق ، وقد جعله الحلاق ينتظر حتى غادر آخر زبون الصالون ، ثم اقترف معه العملية الجنسية بينما كان «د. ج» منحنيًا على كرسي . وبدأ «د. ج» بعدها يحس بمبول انتحارية وعولج في إحدى العيادات لتخليصه من اللواط ، لكن عبثًا . ثم عاش في نيويورك مع رجل علمه اللعق وكان يستعمل معه «ذكوراً» اصطناعية ، بل وكذلك الخيار والجزر . وسرعان ما بات «د. ج» يفضل أن يجامعه أكثر من رجل واحد في نفس الوقت . وقد بقي القبض عليه فيما بعد لاغتباله لوطياً كان يهوى أن يولج في أسته خضاراً متنوعة ومقابض المكانس وحتى زجاجة البيبسي كولا . وكان آخر مذلة فرضها عليه ذلك اللوطي هو أن أولج فيه ثقالة ، وقد استعمل «د. ج» الثقالة لقتل الرجل .

ويمكن لنا هنا أن ندرك مدى دقة الملاحظة التي أدلى بها دي ساد وهي أن اللاتميز الجنسي يؤدي إلى الشبع والسأم اللذين يؤديان بدورهما الى وسائل اقارة أعنف وأكثر تطرفاً .

ولإختصار ما تقدم نقول إن اللواط ، كباقي «الانحرافات» الأخرى ، هو محاولة لتعويض عدم القدرة المريع للوعي الانساني . وفيما يتعلق بكونه «مرضاً» ، فإنه عبارة عن تلويّ مخلوق لا يملك من الحرية إلاّ «الزور اليسير» .

أما ما إذا كان يجب اعتباره مرضاً ، فهذا سؤال مفتوح ، لأنه مثل الدين ، محاولة من قبل الإنسان لتحسين نوعية الوعي الرديئة التي مُنحها . وهناك فارق هام واحد بين اللواط ومعظم « الإنحرافات » الأخرى ، فإن اللواط قلماً ينشأ عن تشويه الدافع الجنسي من قبل « إرادة القوة » .

فالسادية والفتيشية والنكروفيليه تنبع كلها من شكل من أشكال « عقدة الإغتصاب » ، وهي تقوم على حاجة الفرد إلى أن يفرض نفسه على الشريك الجنسي (أو بديله) . وهذا ليس صحيحاً اجمالياً بالنسبة للواط (مع أن السحاق ترافقه دوماً الرغبة في التسلط) . وهو ليس صحيحاً كذلك بالنسبة لحالة تفضيل بعض الرجال ارتداء الملابس النسائية .. وهذا هو السبب الذي من أجله صُنفت هذه الحالة ضمن اللواط بدلاً من الفتيشية (مع أنها تشتمل بوضوح على عناصر من الشينين) .

إن محلاً نفسانياً كان قد تقبل اسطورة افلاطون عن الجنس على اعتبار انها صحيحة رمزياً ، قد يقول ان الرجل الذي يفضل الملابس النسائية يحاول ان يوحد في ذاته عنصري الذكر والأنثى اللذين قد يكونان انشطرا بصورة اصطناعية لأغراض التناسل ، وان العملية هي محاولة توحيد « النفس المنشطرة » والافلات من عواقب « الخطيئة الأصلية » . وعلى كل حال فهذه التكهّنات بعيدة بشكل غير ضروري عن موضوع البحث الرئيسي . - (قيل مراراً إن تفضيل بعض الرجال ارتداء الملابس النسائية هو بصورة جزئية « مرض إجتماعي » نظراً لأن النساء لا يتهمن بالشيء ذاته حين يرتدين ملابس كالرجال) .

المجتمع اللواطى :

يلقي الدكتور إفلين هوكر (من جامعة كاليفورنيا) ضوءاً هاماً في بحث كتبه بعنوان « المجتمع اللواطى » The Homosexual Community على جانب مهم من اللوط يتعلق « باللواطى الطبيعى » الذي يعيش حياة اجتماعية عادية ويعتبر نفسه عضواً في المجتمع اللواطى . وقد أجرى الدكتور هوكر أبحاثه في

لوس انجلوس ويمكن لذلك اعتبارها مثالا على أية مدينة كبيرة في العالم .

يمكن تقسيم اللوطيين الى ثلاث فئات :

هناك اللوطي المنفرد الذي قد يشعر أن الخرافة « مرض » يجب أن يستره بعناية وحذر ، ومن ثم فهو يشعر بأنه « غريب » . لكن غالبية اللوطيين هم من الفئتين الآخرين :

فئة « المتزوجين » (وهي الرابطة الدائمة المنتظمة إلى حد كبير بين اللوطيين) . وفئة « العابرين » وهذه الفئة الأخيرة ربما كانت أكبر الفئات الثلاث . والدليل أنه يوجد في لوس انجلوس حوالي (٦٠) باراً مما يسمى بـ « Bars » Gay^(١) . وحين طلب من أحد اللوطيين أن يُعرف كلمة « Gay » أجاب بقوله :

« ان تكون Gay هو أن تذهب إلى البار وتطالع الوضع وتنظر وتنظر وتنظر ، وتقضي متعة ليلة واحدة ، وهي لا تحب أو تحب حقيقة بالمرة ، وأن تعرف ذلك بالفعل وتفعله ليلة بعد ليلة وعماماً بعد عام » . (التشديد مني) .
ويصف الدكتور هوكر « الوضع » في هذه البارات :

البار هو أولاً سوق للجنس . يقف اللوطيون فيه ويتحدثون .. وينظرون . و « النظرة » هنا شيء هام . يلتقي زوجان من الأعين ، ويتفحص أحدهما الآخر لبرهة وجيزة . وقد يخرج الرجلان بعد عدة دقائق معاً وبصورة عابرة ، وفي بعض الأحيان لا يتبادلان الحديث أبداً . وبعد عدة دقائق أو ساعات سيتم اللقاء الجنسي بينهما ، وقد يفترقان ويذهب كل واحد منها على حدة ، الى بارات أخرى ، وقد يقضيان الليلة معاً .

يقول الدكتور هوكر : « يعزى اللامميز عند اللوطي الى تكوينه النفسي .. الديناميكي ، بما في ذلك « نرجسيته » التي تمنحه من اقامة علاقات عاطفية مستديمة » .

١ - كلمة « Gay » بالانكليزية تعني « مرح » ومرادفاتها . أما هنا فهي ذات دلالة خاصة بين اللوطيين . المترجم

أما اللوطيون الذين « يتزوجون » فهم ينسحبون عادة من مثل هذا النشاط لكي يحافظوا على علاقاتهم . وقد يعيشون في « ضواحي اللوطيين » التي تتكون من شوارع وعمارات سكنية يقطنها اللوطيون (مع أن الجيران قد يجهلون ذلك) . إن سلوك اللوطي العابر يمكن اعتباره مثالا على الكازانوفية التي عولجت في الفصل الثاني ، لولا أن سؤالاً طريفاً يطرح نفسه هنا : إلى أي حد يمكن اعتبار هذا السلوك « غير طبيعي » ؟ .
يقول الدكتور هوكر :

إن العلاقات بين اللوطيين هي أكثر عرضة واتفاقية من العلاقات بين الجنسين ، لأن الجنس له وزن أكبر بالنسبة للمرأة ولأن المرأة معرضة للخسارة أكثر بكثير من الرجل ، إذا ما مارست سياسة اللاتمييز .
ويمكن القول كذلك أن النساء يمكن مبالغة غريزياً أقوى نحو الاستقرار والأمان بسبب تكوينهن الأمومي . لكن في هذه الحالة لا تكون العلاقة بين الرجل والمرأة « طبيعية » بمعنى أن هذه العلاقة ستكون نتيجة محرمات وعقد خوف قد يحدها الرجل تعسفية . والمرأة هي التي تفرض هذه القيود والمحرمات لكي تسيطر الفرائز الجنسية « العابرة » عند كل الرجال إلى تيارات ضيقة من التقبل الاجتماعي .

وهناك كثير من النقاط التي يمكن إثارتها ضد وجهة النظر هذه . فالمجتمعات التي انحرفت فيها النساء في مواقف عابرة اتفاقية من الجنس هي مجتمعات متهاوية . أضف إلى ذلك أن الجنس العابر الاتفاقي وعدم الاستقرار العقلي غالباً ما يكونان متلازمين على ما يبدو . وسبب ذلك واضح . فالعلاقات الجنسية العابرة لا تختلف شيئاً ورامها ، وحين تنتهي ينشأ هناك شعور بالعودة إلى نقطة البداية من جديد . وكلما تكرّر ذلك أكثر ، كلما ازداد تجرده من أي معنى . وبالنسبة لأي شخص عنده اعتماد تلقائي لإيجاد « معنى في الحياة » فإن الجنس العابر الاتفاقي بكثرة سيخلق فيه يأساً انتحارياً ، لأن مثل ذلك الجنس سينمي فيه باستمرار الشعور بأنه قد خدع بنجاح ، بأنه قد بذل قصارى جهده

ليفهم شيئاً تسرب منه وتوارى . وقد تحدثنا عن هذه المشكلة في الفصل الثاني .
ولإذا كان اللواط قد احتل ، حتى الآن ، مكاناً بارزاً في الكتب التي تعالج
قضية الانحرافات الجنسية ، فذلك لأنه كان يُقرن في القديم بالأمور الاجتماعية
المنبوذة ومن ثم فقد تحول إلى أحد مسببات النيوروسية . وأنه لمن الصعب على
لوطني في يومنا هذا أن يدرك مدى العذاب الناتج عن الشعور بالذنب الذي كان
يلزم أشخاصاً مثل تشايكوفسكي أو شوبرت ومدى الآلام التي كانوا يتحملونها
لإخفاء ميولهم اللوطية . ومنذ ظهور أفنديه جيد جاهر كثير من الكتاب
المعروفين بميولهم اللوطية بدون أية ردود فعل كرهية أليمة . ومع أنه من
المعترف به عموماً أن بعض الشرور الاجتماعية المرتبطة بالواط (مثل افساد
القاصرين الخ ..) يجب أن تظل محظورة قانونياً وعرضة للعقاب ، فإن
الانحراف الجنسي لم يعد يعتبر دليلاً على الانحراف الأخلاقي .

الفصل السابع

السادّة والعقلية الاجرامية

الوجودية وفئاتها . الوجود الزائف ، سوء القصد الخ .
قضية بيدانيل احدى قضايا الاغتصاب السادي . قضية
ستاشي . فرويد . جون كوبر بريس والسادية . قضية
كورت . نظرية فرويد عن رغبة الموت والمدوانية .
الدافع الجنسي لدى الحيوانات . نظرية جيشتالت . احدى
قضايا البهيمية . البديل الوجودي لفرويد . ملاحظات
حول منع الجريمة الجنسية .

تطرح السادية أمام التحليل الوجودي أكثر المشاكل تعقيداً .

وعلينا هنا أن نبدأ بالتمييز بين السادية الحقيقية والسادية - المازوكية . إن السادي الحقيقي يشعر نحو ضحيته بما يشعر به الرجل نحو قطعة لحم مشوية قبل أن يلتهمها . أما السادي - المازوكي فهو « ينتمي » إلى ضحيته ، إلى حد ما ، ويتفاعل معها . إنه يؤلم نفسه أيضاً ، لكنه يتمتع بالألم . والسادية - المازوكية ليست صعبة الفهم . فأقل الناس مازوكية يعرف أنه يمكن « التمتع » بالألم إلى حد ما . والأطفال يتمتعون بتحريك أسنانهم المخلخلة ، مع أن ذلك يؤلمهم بعض الشيء . فالألم منبهٌ ومحرك على جرعات صغيرة .

ويمكن تعريف السعادة - أو المتعة - بأنها تعميق الوعي وتبديد بلادة حواسنا . كما يمكن تقسيم المتعة الجسدية إلى نوعين : محرك ومسكتن . فمتعة أكلة دسمة هي متعة مسكتنة ، في حين أن متعة تحريك وشد العضلات بعد الإستيقاظ من النوم ، هي متعة محركة ، إذ أنها عبارة عن نوع من تصريف الكهرباء الإحتكاكية (أو الساكنة) المخزونة في العضلات . والمازوكية مرتبطة بهذا النوع الأخير من المتعة . فتصريف « الكهرباء الساكنة » هذه يبدو وكأنه يصفّي الذهن والحواس . وإن درجات صغيرة من الألم ، كالآلم الناتج عن القرص أو الصفع الرقيق ، يمكنها أن تؤثر على عملية التصريف هذه . وحين يعتاد الإنسان على القرص أو الصفع ، فإنه (أو إنها) يصبح قادراً على تلقي « جرعات » أكبر من الألم . ونظراً لأن المتعة الجنسية هي كذلك نوع من تصريف الكهرباء الساكنة ، يصبح من السهل علينا أن ندرك كيف يمكن لحرض الألم أن يرتبط بالجنس . وفي بعض الحالات طبعاً فإن الذي يلتمس الألم يتصرف عن دافع جنسي ليس بالضرورة سادياً .

بروي هيرشفلد أن مربية ما ضبطت صبيين وهما يمارسان المادة السرية، فضربتها على قفاهما . وقد صرح أحد الصبيين يصف شعوره بعد ذلك قائلاً : « لقد ألهب كفها مؤخرتي كالنار ، لكن اللهب كان في الوقت نفسه يلسعني بشكل لذيذ . وقبل الضرب لم تكن العادة السرية يمثل هذه اللذة ... وقد لاحظت فيما بعد أن يدي المربية كانتا أثناء الضرب ، الذي أصبح عقاباً منتظماً ، تتسللان إلى ما بين فخذي وتمكثان هناك برهة ما . لذلك كنا نفرح بالضرب ، وحين انتهى زمن ذلك أخذنا نَحْنُ إليه » .

إن كل ما حدث هنا هو أن المربية قد وجدت عذراً للمشاركة في لعبة الصبيين الجنسية بحجة تأديبها ^(١) .

وهناك حالة أخرى مفادها أن معلّمة « كانت ترتّب ثيابها بطريقة معينة بحيث أنه حين كنا نصفع على قفائنا ، كنا ندفع بأيدينا داخل ثيابها ونتحسس ثدييها اللذين كان إرتجاجهما يعطينا لذة ممتعة . وقد سعى كثير من الأولاد إلى استحقاق العقاب بالجلد لممارسة هذه اللذة ^(٢) » .

وفي كتاب Crime and the Sexual Psychopath ، نشر دي ريفر صورة كانت بعض المومسات توزعها على محبي الجلد ، والصورة تمثل معلّمة تلبس تنورة قصيرة ، وهي تؤدب صبيّاً ، وقد وضعت إحدى قدميها على كرسي . وقد أخذت الصورة بشكل يوحى بأن أعضاء الصبي التناسلية ملتصقة بأعضاء المعلّمة التناسلية ^(٣) .

وفي كل الحالات يتضح أن « السادية » هي الحجّة الأساسية للحصول على المتعة الجنسية . وبروي هيرشفلد حالة أخرى تلقي مزيداً من الضوء على ذلك ^(٤) . فقد طلبت أرملة شابة من صديق أن يؤدب ابنتيها البالغتين من العمر

١ - الصفحة ٣٥٩ من Sexual Anomalies And Perversions London
Encyclopedic Press
الناشر

٢ - المرجع السابق ، صفحة ٣٦٧ .

٣ - ص ٦٣ .

٤ - ص ٣٦١ .

١٤ عاماً و١٢ عاماً لسوء تصرفها . وفي البداية كان على الإبتئين أن تنزلا
كلسونهما فقط عند الضرب ، لكنه فرض عليهما فيما بعد أن تتجردا من ثيابهما
كلية « وحين رفضت كبرى الفتاتين أن تتمعى أمام « صديق العائلة » سمح لها
بأن ترتدي بنطلون سباحة ، قصيراً جداً ، أحمر اللون ، يكاد يستر أعضاءها
التناسلية . وكانت عملية التأديب تتم بحيث أن الفتاة كانت تستلقي على ظهرها
فوق إحدى الأرائك ، وكانت أمها تمسك برجلها وتثنيها نحو رأسها . وكثيراً
ما كانت الأم تسمح للبنطلون بالإنزلاق بحيث يمكن للرجل أن يرى مهبل الصبية .
وبعد ذلك كانت الأم تطلب من « مستشار وصديق العائلة » أن يضربها هي .
وكان الرجل يفعل ذلك ، ولا يشير هيرشفلد ما إذا كان الصديق والأم قد
أصبحا عشيقين فيما بعد . ومرة أخرى ، يمكننا أن نرى هنا أن عامل السادية
ربما كان موجوداً أو غير موجود . فالضرب كان حجة لإقامة نوع من العلاقة
الجنسية بين الأطفال والكبار . لكن من الواضح أن الإثارة الجنسية والألم قد
يصبحان مرتبطين معاً ، في عقول الأطفال والكبار ، بحيث يؤدي ذلك إلى
نشوء ميول مازوكية عند الأطفال ، وميول سادية عند الكبار .

وفي كل هذه الحالات فإن السادية كانت في الواقع « أفضل بديل » ، ويجب
كذلك أن نتذكر أن عامل السرية هو عامل مهم وأنه ينمي اللذة إلى درجة
يستحيل تحقيقها في علاقة أكثر علنية وانفتاحاً . ففكرة المحرم هي شيء جوهري
في الجنس . فبدون الشعور بانتهاك كائن غريب فإن الإثارة الجنسية تضعف ، بل
ربما تضيع تماماً . (تتضمن كتابات موباسان وستندال وصفاً طريفاً لحالات من
« الفشل » كانت تحدث حين يصبح الشخص المرغوب فجأة متاحاً جداً .)

الا أن الإعتبارات الآتية الذكر تفسر درجات صغيرة فقط من السادية
والمازوكية . فهي لا تفسر السادية الإجرامية أو السادية الحقيقية التي لا تشتمل
على أي عنصر من المازوكية . وهذه مسألة أصعب كلية . والصعوبة هنا تكمن في
ادراك كيف يمكن للسادي الا « يتفاعل » مع ضحيته . فبرتراند ، كما ذكرنا
سابقاً ، كان من الطيبة بحيث لم يكن سادياً بالفعل على الرغم من ميله الغريب

الى تخطيط الاشياء . فقد كان « يتفاعل » مع ضحاياه بسهولة . وهذا التفاعل هو النتيجة الطبيعية لمكان الإنسان على سلم التطور ، باعتبار أن الإنسان أكثر حيوان « إجتماعي » بين الحيوانات الأخرى . وعلينا ان ندرك بأن الحيوانات التي تتمتع بأقل قدر من الميزة الاجتماعية هو أكثر الحيوانات قسوة وبطشاً . وهناك رابطة مؤكدة بين القسوة والوحدة . فأسلاف الكلب الأوائل كانوا يصيدون جماعات جماعات في أغلب الظن ، كالذئب ، لكن من الصعب أن نتصور القطط تقيم علائق جماعية بينها . ونتيجة لذلك طبعاً فإن الكلب هو حيوان أكثر عطفاً ومحبة ، بل إنه يكاد يخلو من عنصر القسوة ، في حين أن القط هو حيوان أناني بشكل غريب يجد متعة في تعذيب ضحيته وهي لما تزال على قيد الحياة .

والإنسان ، باعتباره أكثر الحيوان امتلاكاً للميزة الاجتماعية ، ينبغي إذن ان يكون أقلها قسوة . وهذا هو ما يجعل السادية الحقيقية صعبة الفهم . على أن هناك كثيراً من العوامل الأخرى التي يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار . أولها أن أقل الحيوانات نشاطاً وحيوية هي أقلها قسوة كذلك . فلا يمكننا أن نتصور بأن البقر أو الغزلان أو حتى التماسيح وسيد قشطه هي حيوانات قاسية ، لأنها كسولة جداً . لكننا نستطيع أن نغزو القسوة الى النمر أو القط (وحتى الى العنكبوت ، تلك الحشرة التي تعمل وحدها والتي تتميز بسمها الدائب وأثاتها) . فالقسوة غالباً ما تكون نتيجة فائض من القدرة يبحث عن مخرج . (كلمة « قادر » أو « قادرة » ترد كثيراً في الإعلانات الخاصة بالسادين والمازوكيين : « سيدة قادرة تقدم خدماتها الى رجال يحتاجون الى تأديب .. ») وحين ترتبط القدرة بالغباء فإن النتيجة غالباً ما تكون هي السادية ، نظراً لأنه يصعب على الغباء أن يجد منافذ ومتنفسات للقدرة . يعادل ذلك في الأممية عامل الخوف أو الشعور بالنقص . فكلامها لا يحولان دون التفاعل . فالقول بأن إنساناً ما يهرب إنساناً آخر يكاد يعني أنه قادر على أن يقسو عليه . وفي الأطفال استعداد لأن يكونوا أكثر قسوة من معظم الكبار لأنهم يحسون بالنقص

تجاه الكبار ، ويشعرون بشكل عام أنهم أقل ثقة بأنفسهم أمام العالم والأطفال الآخرين ، ويستدل من بحث احصائي عن الجرائم الجنسية أن المجرمين الجنسيين ينتمون إلى ثلاث مجموعات رئيسية :

أ) الأغبياء والناقصون عقلياً الذين يشعرون حتماً بالنقص بالنسبة لبقية المجتمع والذين تفرض عليهم أحوالهم وظروفهم أن يعيشوا الى حد ما « كاذب المنفرد » .

ب) الاشخاص ذوو السوابق الإجرامية والذين يشعرون نتيجة ذلك بقدر معين من الذنب ومن الحقد على المجتمع .

ج) الرجال ذوو الحساسية الغريبة والرجال العصبيون الذين يفتقدون الشعور « بالإرتباط » بالمجتمع .

مثال على الفئة الاولى : حارس المدرسة الذي قتل ثلاث فتيات والذي حدثنا عنه دي ريفر . ومثال آخر أيضاً هو ، سترافن قاتل الأطفال الانكليزي ؛ وقد كان سترافن هذا معتوهاً وأودع مستشفى للأمراض العقلية . أما الصنف الثاني فقد يكون ذكياً جداً مثل تشيسمان وكورتن ، لكن الصدمات الباكرة مع القانون تنمي في مثل هؤلاء الأشخاص شعوراً بالحقد على المجتمع ومن ثم يتحول هذا الشعور الى عذر لاطلاق العنان لفرصة جنسية عنيفة . وقد يحس الشخص الذي ينتمي الى هذه الفئة بأنه قد لقي معاملة ظالمة من المجتمع ، وأن من حقه لذلك أن يثار لنفسه . لكن الصنف الثالث من المجرمين هو أكبر دافع للخوف ، لأنه من المهم أن يزداد عدد مثل هؤلاء المجرمين في مجتمع آلي متنامٍ . فالجرم من هذا الصنف يشعر بعدم وجود رابطة مشتركة بينه وبين الناس الذين يمر بهم في الشارع ، كلهم بالنسبة له غرباء كسكان المريخ . ونظراً لقلة نزوجه ولعدم اكتمال نموه العاطفي ، فانه قد يكون أنانياً كالطفل .

مثال على ذلك القاتل جيرالد طومسون (الذي أعدم في ١٩٣٥) .

كان طومسون يتصدى للنساء ويغتصبهن في المقعد الخلفي من سيارته ، ثم يلتقط صوراً لهن أثناء قيامه بالاعتداء عليهن . وكان بعدها يقول للفتيات إنه

سيرسل للصور الى عوائلهن وأصدقائهن ان هن قدمن أية شكوى ضده . وكان كذلك يدرك حوادث الاغتصاب هذه بالتفصيل في كتاب مذكرات . وقد سجل بالفعل أكثر من خمسين حادثة . وقد أدى قتله لميلدرد هولمارك الى تجريد حملة تفتيشية ضده انتهت بالقاء القبض عليه . ها هنا نجد موقفاً سادياً حقيقياً وانفصلاً تاماً عن الضحية التي تبقى مجرد « شيء » حتى وهو يتبادل الحديث معها . وسيكون من المفيد حتماً لو أننا كنا نعرف شيئاً عن نشأة طومسون وحياته السابقة وهل أن افتقاره الى المحبة والعطف أثناء طفولته هو الذي أدى الى هذا الموقف « المستقل » من الناس الآخرين .

ومع أن طومسون قتل واحدة من ضحاياه فقط ، وربما كان ذلك بطريق الخطأ ، فإنه بلا شك « سادي حقيقي » . فقد كان يلعب بضحاياه كما يلعب القط بالفأر . وقد روت إحدى الفتيات كيف أنه أبقاها في السيارة مدة ساعتين قبل أن يتم اعتدائه عليها . ومعظم المجرمين الجنسيين يفضلون ان تكون الضحية غائبة عن الصواب وأن يقوموا بعملية الاغتصاب بأسرع ما يمكن . كما وأن كثيراً منهم أقروا بأن شعوراً بالندم كان ينتابهم فيما بعد . بل إن بعضهم ، مثل هايرنز ، كان يذهب الى القول بأنه منقسم الشخصية أو أنه ذو شخصية مزدوجة مثل جيكل وهايد . لكن طومسون كان فيما يبدو ينفس في الاستمتاع السادي بالإغتصاب ، كما كان يندمج في تسجيل التفاصيل فيما بعد بدون أقل شعور بالندم . ومثل هذا الانفصال التام عن شخصية الضحية هو شيء غير عادي . وهناك مثال أوضح على ذلك هو موريس لبلاند الذي كان يفتصب النساء في بورتلاند بولاية أوريغون الأميركية . فقد صرح لبلاند أثناء اعترافه بقتل فتاة في الخامسة عشرة بقوله :

« كانت فتاة رقيقة حلوة جداً . لم أكن أريد قتلها أبداً ... لطمتها على رأسها وحين غابت عن الصواب لم أجد مانعاً من طعنها » .

ومع ذلك فقد كان من عادة لبلاند ، مثل طومسون ، أن يبقي المرأة سجينة لديه بعض الوقت مهدداً بإيهاا بسكين الى أن ينهي عملية الإغتصاب

برمتها . (وقد أعدم ليلاند في ١٩٥٣ ، بعد أربع سنوات من ارتكابه الجريمة .)

ويمكن القول كذلك بأن رجالاً مثل طومسون و ليلاند هم من صنف « اللامنتمي » ، أو « الغريب » ، إذ أنهم لا يحسون بأية رابطة مع بقية المجتمع . ولقد أشرت في مكان آخر الى ان مجتمعاً مثل مجتمعنا لا بد أن يخلق « غرباء » ، أي رجالاً يعيشون في مجتمع ولا يحسون مع ذلك بالانتماء اليه . وهذا لا يعني أن « اللامنتمي » هو بالضرورة ذو قابلية إجرامية . فالجريمة الجنسية تبدو مرتبطة في العادة بالتطور العاطفي الناقص أو المكبوت ، وهي تشبه ميل الطفل الى ان يستولي على ما يشاء دون التفكير في العواقب . فإذا كان من شأن تزايد الطبيعة اللاشخصية للمجتمع أن تؤدي الى تزايد عدد « اللامنتمين » ، فمن المنطقي إذن أن يزداد عدد المجرمين الجنسيين نسبياً كذلك . وينبغي أن نعترف هنا أن نزوع إنسان ما الى اسقاط الغير من حسابه ليس بالضرورة دليلاً على عدم أهليته الإجتماعية . وتوضح هذه النقطة في احدى المقاطع من كتاب « حكايات المستر كوينر » ، « Stories of Mr Keuner » تأليف بيرت بريخت . سئل المستر كوينر مرة : « ماذا تفعل حين تحب إنساناً ما ؟ » فأجاب قائلاً : « أرسمه ثم أبذل جهدي للتأكد من أنني أحصل على درجة كبيرة من الشبه » . « الشبه بالشخص ؟ » ، « لا » ، أجاب المستر كوينر ، « بل بالرسم » .

وهذا يعني أن شرط الحب عند المستر كوينر هو أن هدف هذا الحب ، أي المحبوبة ، يجب ان تماثل قصوره لها . لكن الموقف الذي نطالعه هنا هو موقف فنان لا يطبق صبراً ، يريد ان يرفع الناس الى مستوى آرائه ومثله . فبريخت « اللامنتمي المثقف » يعامل الشخص الآخر كوسيلة لإرضاء فكرة ذهنية . والسادي يعامل الآخرين أيضاً كوسيلة لإشباع شهوة جسدية .

الوجودية وسيكولوجية السادية :

من الواضح أن السادية ترتبط بالحاجة إلى تأكيد الذات . وفي الوقت ذاته لا

يمكن فصلها عن فكرة الهزيمة . فالسادي هو بمعنى ما رجل يقف وظهره إلى الحائط . وليس هناك أبعد عن السادية ، على سبيل المثال ، من العقلية المرححة المتفائلة لرجل مثل برناردشو أو ه. ج. ولز .

وهذا الإحساس بالهزيمة يحتاج إلى تحليل أكثر دقة . ولقد كان هيدجر هو أول من أدخل إلى الوجودية مفاهيم الوجود «الحقيقي» والوجود «غير الحقيقي» . وبالنسبة لهيدجر فإن الوجود الحقيقي هو الوجود القائم في وجه الموت - الإدراك المفاجيء لقيمة الحياة ، الإصرار والشدة .

وهناك كما يتضح قاسم مشترك بين مفهوم هيدجر هذا عن «الوجود الحقيقي» ونظرية جورديف عن الإنسان الذي يحتوي على مراكز سبعة كلها تعمل بانسجام . والواقع أن جورديف في Ail and Everything يجعل إحدى شخصياته تقول إن أكثر ما يحتاج إليه الإنسان هو عضو يمكنه من أن يحس دوماً بساعة موته .

إن كسلنا وسأمنا وافتقارنا إلى الإحساس بالاستعجال تؤدي بنا إلى أن نعيش بهذا الشكل شبه الفاتر وغير الفعال . وهذه «الحياة العادية» يسميها هيدجر وجوداً غير حقيقي .

وقد وسّع سارتر سيكولوجية هيدجر بأن أضاف إليها تعبيراً جديداً هو : فكرة «سوء النية» . فقد بيّن سارتر في الوجود والعدم أن الوجود غير الحقيقي معناه أن الإنسان قلما يكون مدركاً لوجوده الخاص .

إن اهتمامه يتجه خارجاً إلى الأحداث الطبيعية . انه يعتبر نفسه شيئاً يشبه «الثقب في الطبيعة» بدلاً من حقيقة صلبه . ولا يحدث إلا في لحظات معينة من العنفوان فقط ، كبلوغ ذروة النشوة الجنسية مثلاً ، أن يدرك الإنسان حقيقة كونه وجوداً فعالاً ، وليس مجرد أداة مستخدمة ومفعول بها دائماً .

إلا أن الإنسان يكره هذا الشعور بالعدم وهذا الشك الأزلي بالذات . ولذلك فهو ينحو إلى أن يدخل في معاهدة مع غيره من البشر لكي يفلت ويتملص من هذين الشعورين ، وهي معاهدة تقوم على المديح المتبادل واحترام الذات . إنه

يطلب أن يعامل كهوية .. « كرجل ذي جوهر ، مثلاً... لأن احترام الآخرين يطمئنه ويمنحه الثقة حين يواجه الفراغ داخل نفسه . وذلك يشبه رجلاً يعاني من تصلب في الرقبة ، يمنعه من أن ينظر إلى أسفل ليطمئن إلى أن جسده موجود . لذلك فقد بنى الرجل المذكور قاعة من المرايا بحيث يمكنه أن يرى صورته معكوسة في كل الاتجاهات .

يسمي سارتر هذه المعاهدة *Mauvaise foi* ، أو خداع الذات . وأبرز قيمة لكتابات هـ تحليله للأنواع المختلفة من خداع الذات . فعلى سبيل المثال يدور أثران من أروع كتاباته حول موضوع العداء للسامية ، الأول هو قصته المسماة « طفولة زعيم » والثاني بحثه عن « صورة اللاسامي » . والقصة والبحث يعالجان معاداة السامية باعتبارها محاولة من قبل الإنسان للإفلات من عبثه وعقمه الخاصين .

وحتى هذا الايمان الهش بالنفس الذي يمنحنا إياه شعورنا بأن لنا هوية يمكن، على حد قول سارتر ، أن ينتزع منا بسهولة عظمى . فإذا ما ضببطت وأنت تقوم بعمل سيء فإنك « ترى نفسك » بمنظار الشخص الذي ضبطك . وهنا تتلاشى الهوية تماماً وتصبح أنت كلية شيئاً منظوراً إليه من قبل الشخص الآخر ، مجرد ثقب في الكون . ليس هناك ثمة من شرارة داخلية صغيرة تعلن « أنا موجود » ، والإدراكات تتهاوى إلى أعماق الوعي الباطني مخلقة الإنسان غائصاً في منطقته الخاص وفي المشاعر التي تنبع من الخارج ، مثل المذلة والألم ، بدلاً من المشاعر التي تنبع من الداخل .

ان يضبط الإنسان وهو يفعل شيئاً معيباً هو مثال على حالة قصوى . (مثال على حالة أكثر تطرفاً من ذلك ، هو الرجل الذي يكاد ينفذ فيه حكم الإعدام . فإنه سيشعر أن أي قدر يمتلكه من « الحقيقة » والواقعية هو في يد الذين سيعدمونه وأن هذه الحقيقة على وشك أن تنبذ جانباً بإعتبارها شيئاً عديم النفع) . لكن أية لحظة من النهار تكاد تحمل معها طارئاً صغيراً ما يسلبنا جزءاً صغيراً من هويتنا .

يقول السيد اليوت : إن مجرد أن تطيش قدمنا عن درجة واحدة ونحن نهبط درجاً ما ، يولد فينا الشعور بأننا مجرد أشياء ، مجرد ضحايا للقدر . (يعني أن أشير إلى أن « السيكولوجية الوجودية » ليست من ابتكار سارتر أو هيدجر ، فهي تتخلل وتعم الأدب الحديث منذ دوستوفسكي فصاعداً) .

ولقد ابتكر وايتهد تعبيراً لا يثمن بالنسبة لعالم النفس الوجودي وهو : فكرة « الاستيعاب » Prehension ، والاستيعاب هو عملية هضم تجربتنا . لقد عبر سارتر يوماً عن اعتقاد مشكوك فيه مؤداه أن هناك نوعاً من الغثيان يقبع في قعر وعينا . لكن فكرة وايتهد عن « الاستيعاب » هي صورة أقل تطرفاً من فكرة سارتر . فحين تشعر بالغثيان فإنك كثيراً ما تبدل جهداً لكي لا تتقيأ . فإذا نجحت فإن الشيء الذي كان يضايق المعدة سيرغم أو يقنع بأن يسمح لنفسه أن يستوعب . لكن لا يوجد هناك شيء يستوعب أو يهضم أوتوماتيكياً . فكل أعمال الجسم تنبع من عملية إرادية لا واعية . وعلى هذا فإن الجهد الواعي في سبيل تجنب التقيؤ يمكن اعتباره شكلاً متطرفاً من الجهد الذي تبدله المعدة بعد كل وجبة طعام . والاستيعاب هو كذلك عملية مستمرة نظراً لأن « وجبات » التجربة لا تتوقف أبداً . وقد يكون على الإنسان أن يستسيغ ويهضم تجربة صعبة جداً مثل كارثة شخصية أو مذلة شخصية ، أو تجربة بسيطة مثل أن تزل قدمه عن درجة سلم . لكن الإنسان يبذل جهداً مستمراً غير منقطع للاستيعاب . ومن الواضح أن هذا الاستيعاب مرتبط بصورة وثيقة بالعمدية . فحين نقرأ جريدة بانتباه ونقمن فإنك تستوعب محتوياتها . أما إذا طاش انتباهك فإنك سنقرأ بدون استيعاب . لولا أن ذلك هو شكل آخر من القول بأن « العمدية » قد توقفت عن العمل ، أي أنه قد توقفت عملية غربة واختيار وترتيب معاني كل جملة . إن العمدية هي غرفة الانتظار بالنسبة للاستيعاب ، وهي ضرورية له كضرورة الفم بالنسبة إلى المعدة .

وقبل أن ننتقل من هذه العموميات إلى مشكلة السادية ، علينا أن نشير إلى مدخل آخر للبحث ، وذلك بأن نطرح مثل هذا السؤال العام : أي قدر من

الإهتمام « يجب » علينا أن نعطيه لكل فرد من أجل أن نحس أننا مرتبطون معه بطريقة « سليمة » ؟ وبمعنى آخر ، من أجل أن نحس أننا لسنا مرتبطين معه بطريقة قد تؤدي (في حالة وجود علاقة عاطفية) إلى علاقة جنسية غير طبيعية ، كعلاقة السادي بضحيته ؟ إن المسيحي سيجيب بلا تردد على هذا السؤال ، بقوله : إن علينا أن نرتبط مع كل فرد بشكل كامل وعميق بفرض الوصول إلى علاقة من التفاهم والحب التامين . وقد يكون ذلك صحيحاً ، سوى أن هناك اعتراضاً مباشراً عليه . فحين نخطب فرداً ما ، فمن المحتمل أن نحس نحوه فجأة بشعور عارم وفريد كأنه عالم غريب بأكمله . والمسيحي سيقول ، إن هذه الرابطة هي أفضل من معاملة الشخص الآخر وكأنه مجرد شيء ، مجرد معادلة أو رمز بدلاً من عالم فريد بأكمله . ولما كانت الحياة الإنسانية هي ما هي عليه الآن ، فكيف يصبح من الممكن أن نعامل كل إنسان بهذا الأسلوب « المسيحي » ؟ . إن المشكلة مشابهة لأمير أوسكار وايلد السعيد الذي كان يتعذب لبؤس الناس الآخرين ، ولكنه أدرك بعد ذلك بأنه لا يستطيع أن يحمل كل شقاء العالم على كتفيه . إن مسيحياً صالحاً (أو إنساناً صالحاً) قد يشعر أن معاملة أي شخص بإعتباره أقل من إنسان كامل يحتوي على قدر من اللاأخلاقية . لكننا لا نستطيع أن نعيش بأية طريقة أخرى . إن لامبالاة السادي « بالشخصية الحقيقية » الضحية هو شكل متطرف من أشكال اللامبالاة التي يضطر حتى أصلب « المسيحيين » أن يمارسها مع تسعين بالمئة من معارفه .

وفكرة هيدجر عن الوجود الزائف تزودنا بالمفهوم الأساسي الذي يمكننا بواسطته أن نتفهم عقلية السادي . إن رجلاً ضبط وهو يسرق النظر من خلال ثقب المفتاح – وبذلك استحال إلى نوع من الشعور بأنه مجرد شيء ، مجرد أسير حقوق شخص آخر – سيفقد كل ما بقي فيه من « توجيه داخلي » ومن ذاتية ، ومن ثم سيفقد القدرة على أن يعامل شخصاً آخر كإنسان كامل . وقد لاحظ برنارد شو أن اهتمامنا بالعالم هو استمرار لاهتمامنا بأنفسنا . فالشخص الذي

سلبت منه ذاتيته تماماً لا يمكن أن تتوقع منه أن يبدي اهتماماً عطوفاً بالعالم أو أن يبذل جهداً « برغسونياً » من أجل أن ينفذ إلى وجود شخص آخر عن طريق وهم الحب .

أول ما يدركه الإنسان عن السادي ، كما عن المجرم بشكل عام ، هو أنه إنسان خسر معرفته مع العالم ، إنسان خسر ذاتيته . والسادية تشتمل بصفة جوهرية على جانب من المراهقة المطولة وعدم النضوج . فالسادي ، مثله مثل المجرم الذي اعتاد على الاجرام ، يكذب بفعل العادة . وكذبه هذا يكشف عن قلة نضوجه ، لأن معظم الناس يعرفون أن الكذب هو في العادة عملية خاسرة ، سوء تصرف اجتماعي من شأنه أن يسيء أكثر مما يفيد .

وقضية نيفيل هيث ، الواردة في الفصل السابق ، مثال على ذلك ، فحين تم القاء القبض عليه أخيراً ، بتهمة قتل مارجري جاردنر ودورين مارشال ، اكتشف بأن له سوابق كثيرة في ارتكاب الجرائم الصغيرة . وقد قال أحد الذين كتبوا عن هذه القضية ، إن معظم الجرائم التي اقترفها هيث كان سببها إلى حد ما غروره وحاجته إلى أن يحظى بالإعجاب . لكن الفرور والحاجة إلى نيل الإعجاب ليسا في حد ذاتهما بعض سمات المجرم ، بل إنها قد يكونان مزايا يتحلى بها أكثر المصلحين الاجتماعيين تجرداً من الأنانية .

اننا كلنا مغرورون وكلنا يجب أن يحظى بالإعجاب . وكما يقول برناردشو فإننا كلنا نجهد في سبيل نيل الإعجاب بدون أن تكون عندنا النية لإستحقاقه . وهذا ليس بشيء ، بل المؤسي في كل ما نقرأه عن رجال مثل هيث وكريستي ، هو أن فكرتهم عن كيفية نيل الإعجاب تخلو من الخيال . فبالنسبة لهيث ، الذي ينتمي بلا شك إلى فصيلة من الدون جوانيين ، فنيل الإعجاب يتأتى عن القهر الجنسي اللانهائي . ونظراً لأنه كان يفتقر إلى سعة حيلة كازانوفاف في إيجاد النقود ، فقد كان يختلس ويغصب بطريقة غير مربحة أو مجدية . فكان يعطي صكوكاً بلا رصيد ويستدين مبالغ من المال لقاء كفالة مزيفة أو باطلة . وبسبب فقر خياله وتصوره فقد كان عالمه أكثر بلادة وفراغاً من عالم كازانوفاف . وكما تنبأ

دي ساد فإن فقدان القدرة على التخيل والتصور والإمتلاء الذي هو النتيجة الطبيعية لذلك ، أدى إلى شدة عصب المتعة أكثر مما ينبغي .

ويستدل من كتاب ألفتة أحد معارف هيث ، أن الأخير كان معروفاً في المدرسة بأنه « قبضاي » وأنه ضرب يوماً فتاة في الثامنة من عمرها ضرباً مبرحاً بحيث نقلت إلى المستشفى . لولا أنه من الطريف أن نعلم أن ضحيته الأولى (أي ضحيته المعروفة) كانت مازوكية وأنها رافقته إلى فندق ما وهي تعرف تمام المعرفة بأنه سيسيء معاملتها وقد شوّتها هيث وقتلها . ومع ذلك فإنه قبل هذه الحادثة بأيام معدودة اصطحب فتاة محترمة قضت ليلة كاملة معه (بعد أن وعداها بالزواج) . وقد أكدت هذه الفتاة بأنها لم تكتشف أية ميول سادية في هيث . كما أن زوجة هيث أعلنت أنه كان يعاملها برفق . وهذا الميل إلى إلحاق الألم والأذى بالذين لا حول لهم ولا قوة ، هو بكل وضوح ميزة من مزايا الطفولة الباكورة ؛ واستمرار هذا الميل والتمادي فيه هو علامة على نقص تطور هيث ونضوجه ، وعلى كل حال فهذا لا يساعدنا في تفهم الدافع السادي الذي كان يمتلك هيث . ومن المهم عند هذا الحد أن نتميز بين الدافع السادي الحقيقي وبمجرد الرغبة في المعاقبة بإلحاق الألم . فنحن نقول بدون تدقيق أن توركيادا ، رئيس محاكم التفتيش ، كان سادياً . ورجل محاكم التفتيش الذي يجعله برناردشو أحد أبطال روايته « سانت جون » Saint Joan هو مثال ممتاز على نوعية الرجال الذين كان توركيادا منهم — رجال مخلصون تماماً ، مهم الوحيد هو « اللعنة الأبدية » على من كانوا يعاقبون .

لكن من الممكن أن ينغمس إنسان ما في عملية إلحاق الألم بأحد « المذنبين » من غير أن يكون سادياً . وقد يجوز أن توركيادا كان يحس بنوع من المتعة الكثيية وهو يراقب الملحميين وهم يموتون (الواقع ان الذين كان يحكم عليهم ، هم الذين تحدّوه ورفضوا أن ينتصروا) ، من غير أن يكون « سادياً » بكل معنى الكلمة . فالرجل الذي ينفّس عن غضبه أو عن تقواه وصلاحه الساخطين الجريحين عن طريق إلحاق الألم ، ليس بالضرورة سادياً ، مع أنه قد يكون يخفي

عن نفسه احساساً جنسياً ما . إن السادي هو الرجل الذي يتهيج جنسياً عند الحاق الألم .

يصف هيرشفلد حالة طريفة من السادية الحقيقية ستوضح لنا الفارق بين السادية الحقيقية والسادية غير الحقيقية . وتختص الحالة بالقاتل الفرنسي يوسوبوس بيدانييل الذي أوحى لزولا بشخصيته جاك لانتير في روايته « La Bête Humaine » ، وقد حوكم بيدانييل عام ١٨٧١ لإقترافه أربع جرائم قتل . حين كان بيدانييل طفلاً ملك عليه روعه دكان لحام كان يقع مقابل بيته ويملكه رجل يدعى المسيو كريستوبال . « رائحة الدم الطازج ، اللحم الشهوي ، قطع اللحم التي كانت تقطر منها الدماء — كل هذه كانت تحلب لبّي ووجدتني أحسد مساعد اللحام لأنه كان في إمكانه أن يقطع كتل اللحم وقد شتر عن ساعديه ويداه تقطران دماً » .

ومن المؤسف أنه ليس ثمة أية إشارة الى ما اذا كان بيدانييل يمارس العادة السرية في طفولته ، أو كيفية نشوء الرابطة بين رائحة الدم والجنس عنده . وقد أقنع بيدانييل والديه بأن يرسله إلى دكان المسيو كريستوبال للتدرب على المهنة ، وبعدها بدأ يشرب الدماء خفية ويحرج الماشية . (الدم هو مادة مقيمة ، ولا يقول بيدانييل شيئاً عن كيفية شرب الدماء دون أن يتقياً) . ثم سمح له بأن يذبح الماشية بنفسه ، وكانت هذه أعظم متعة بالنسبة له . إلا أن والديه عادا فقررا أن يرسله الى مكتب أحد المحامين للتدرب على مهنة المحاماة . وعندها بدأ بيدانييل في الإحساس بالكآبة ثم بدأ في قتل الناس . وبعد أن ارتكب ست جرائم قتل غمره شعور بالندم والذنب ، فحاول أن يعيش في كهف باحدى الغابات ، لكن دافع القتل غلبه على أمره فعاد الى درب الجريمة . فكان آخر ضحاياه هو المسيو كريستوبال نفسه . ويبدو من التقرير الموجز الذي أورده هيرشفلد أن بيدانييل كان يستقي المتعة من مجرد رؤيته للدماء ، وليس من اعتدائه الجنسي على ضحاياه (ومعظمهم من النساء) . وأخيراً سلّم بيدانييل نفسه طوعاً الى القضاء ، ورجا المحلفين أن يحكوا عليه

بالموت لأنه لم يعد يحتمل فظاعة جرائمه .

وهنا تظهر لنا ببعض الوضوح الشخصية المنفصلة التي تحدثنا عنها في فصل سابق . فالسادي يتملكه الشعور بأنه شخصيتان ، كما أن دوافعه الجنسية موعبه .

يسرد دي ريفر حالة تبين ذلك بوضوح :

شاب في الواحدة والعشرين من عمره ، قابل فتاة عند موقف باص في وقت متأخر من الليل ، فحدثها ثم عرض عليها بعد نزولها من الباص أن يرافقها الى باب بيتها . فوافقت ، بل أكثر من ذلك وافقت على أن يدخلها احدى الحداائق العامة . وحين حاول الشاب ان يقبلها غنمت وصدّته (معظم الظن أنها فعلت ذلك عن غنج ودلال لأنها كانت قد سمحت له أصلاً أن يطوق خصرها بذراعه أثناء السير) . فما كان منه الا أن أطبق بيديه على عنقها ، وبعد عراك بينهما تمكن من أن يفقدها صوابها . ثم اغتصبها وبعد أن عادت إلى رشدها أفقدها الرش مرة أخرى ، وربط بعض الثياب حول عنقها وحملها بعض المسافة الى أقرب مبنى ثم اغتصبها مرة أخرى . كما قضم احدى حلميتها وازدرددها . وتوجه الى أقرب صندوق للهااتف واتصل بالبوليس وسلم نفسه . (ولقد صرح بقوله : « أعرف أنني ارتكبت عملاً سيئاً ») .

ويعتقد دي ريفر أن مقاومة الفتاة له وصدّه عن تقبيلها أثارا الحافز السادي فيه ، ولو سمحت له بأن يقبلها لما حدث ما حدث . ولم تكن للشاب أية سوابق اجرامية كما لم يكن من مدمني الكحول أو المخدرات ، أضف إلى ذلك أنه كان يعيش مع فتاة أخرى أنجبت طفلاً منه وكان سعيداً معها . وقد كان ردّ فعله الفوري على جريمته هو تسليم نفسه ، فمن الواضح أنه صُدم بالزعات العنيفة التي سيطرت عليه فجأة . (عند محاكمته ، حكم عليه بالسجن المؤبد) .

وفي بعض النواحي فإن هذه الحالة ممثلة لأية حالة أخرى من الإغتصاب العنيف . وقد يقول قائل إن الشاب ، مثله مثل بوميرنكه ، أراد فقط أن « يجرّد ضحاياه من أية مقاومة » . لكن الواقع أن هناك فارقاً واضحاً بين

عملية الانتهاك هذه والحالات المذكورة في الفصل السابق . إن معظم الشباب يتقلص تهيجهم الجنسي لدى عراكتهم مع الفتاة الضحية ، لكن التهيج الجنسي في هذه الحالة كان يزداد حدة ، والوحشية التي أخرج بها الشاب الفتاة قد تولد عند أغلب الرجال شعوراً بالندم بعد عملية الاعتداء ، لكن الشاب في هذه الحالة أحسّ بتهيج أكثر بعد أن أفقدها الوعي مرة أخرى (بأن راح يضرب رأسها بقارعة الطريق) الى درجة أنه حملها إلى مكان آمن واعتدى عليها بالاغتصاب مرة أخرى ناهيك عن الأعمال السادية الأخرى التي مارسها معها .

ومرة أخرى فالمعلومات التي أوردها دي ريفر ليست كافية لأن تفسر لنا كيف تمّ نشوء الرابطة بين الاحتياج الجنسي والايذاء عند الشاب المذكور . ولا بدّ لنا مع ذلك ، أن نعترف بأنه قد لا يكون بالامكان أبداً تفسير ذلك بشكل مرض . فان قوة الدافع الجنسي تصعب على أي تحليل دقيق . والمفارقات التي كانت تحدث بعد الغارات الجوية أثناء الحرب كثيرة ومتفرقة . ومنها ما كان يلاحظه عمال الإنقاذ حين يرون بيتاً وقد تهدم بأكمله ، ومع ذلك فإن فرشة كانت تستقر في مكانها على الطاولة دون ان يحركها الانفجار . ومن الواضح أنه لا يوجد أي أمل في أن يتوصل العلماء يوماً الى علم ممصوم من الخطأ يستطيع أن يفسر لماذا وكيف تحدث مثل هذه المفارقات . وهكذا فان مفارقات وأهواء الدافع الجنسي قد تصعب في النهاية على أي تحليل علمي أو منطقي .

والتهيج الجنسي في العادة يبقى خاضعاً لتحكم الفرد ، فالرجل الذي يضاجع زوجته ليس من المحتمل أن يتعرض فجأة لرغبة عارمة جارفة تجمله بحس بأنه ذو شخصيتين مختلفتين . أما حين ينفجر التهيج الجنسي بسبب ظروف فجائية وغير عادية فان انفجاره قد يطلق من أعماق اللاوعي مختلف النزعات الغريسة المظمورة . مثال على ذلك التهيج المحموم الذي اجتاح برتراند لدى رؤيته المرأة في القبر المفتوح .

وقد حدثت في شيكاغو مؤخراً جريمة قتل تبين ذلك . فقد وجدت امرأة

منزل في السادسة عشرة من عمرها قتيلة ، بعد ان ضربت ضرباً مبرحاً ،
وكانت لا ترتدي الاّ روب دي شامبر فتح من الأمام وكلسونا تحته . لكن
طفلها النائم في سريريه لم يُمسّ بأذى . ثم دلت التحريات على أنّ مصوراً شاباً
اسمه ستاشي كان قد زار منزل القتيلة يوم وقوع الجريمة . واكتشف البوليس أنّ
ستاشي هذا كان شاباً متديناً من الذين يملكهم احساس عارم « بالخطيئة » .
وحين احتجز ستاشي اعترف بأنه زار منزل القتيلة في الصباح ليصور الطفل ، وقد
استقبلته القتيلة وهي ترتدي الروب دي شامبر . وحين انحنى على سرير الطفل
انفتح الروب واكتشف ستاشي أنها شبه عارية . وهنا اجتاحتها فورة جنسية
عارمة فأمسك ، ضرب بيسبول كان يحمله في حقيبته وانهال عليها ضرباً حتى
الموت ، وحين أدرك فعلته أصيب بالهلع ففرّ من المنزل دون أن يعتدي عليها
جنسياً بالمرة .

وليس من الصعب أن نتفهم نفسية القاتل في هذه الحالة . فلعلّ الفتاة
تعمدت أن ترتدي روباً مكشوفاً حتى تقوم بإغوائه . وبالنسبة لشاب شبه
مكبوت مثله فإن الحاجة الى امتلاك الفتاة أصبح فجأة ، هو الشيء المهم الوحيد
في العالم . ونتيجة لعدم ثقته بنفسه ، وربما لتهيجة الجامح العنيف كذلك ، فقد
استعاض عن المحاولة الجنسية العادية بأسلوب أفقدها الصواب . ومن الممكن
القول إنّ ستاشي أصبح قاتلاً بسبب سوء الحظ الصرف . فان كثيراً من الشبان
في وضعه قد يتصرفون مثله فيتحولون الى قتلة ، او على الأقل مغتصبين ، لكن
الكثيرين أيضاً كانوا سيعرفون كيف يغتنمون الفرصة فيحفظون بالمتعة والرضى
وتتحول العلاقة الى اتخاذ عشيقه مجانية .

إن حالات مثل هذه ، والحالة التي أوردها دي ريفر ، قد توحي بأنه من
السهل أن تفهم السادية على اعتبار أنها مشتقة من الدافع الجنسي . فقد يقال إنه
حتى أقل الرجال قسوة يحسّ بالمتعة واللذة حين يسيطر على امرأة ، وان السادية
هي هذه السيطرة في أبشع صورها غير الطبيعية . وقد يقال كذلك بأنه حتى
أكثر الرجال تعقلاً وسلامة عقلية يقدرّون على الاغتصاب في حالات وظروف

قصوى وغير اعتيادية ، أو ليس ذلك ضرباً من السادية ؟ لكن هذه الاستنتاجات أقل صحة مما تبدو عند أول وهلة . ومع ان بيدانييل كان قد قتل ضحاياه من النساء بسبب دافع جنسي (يصف احدى جرائمه بقوله انه احسّ برغبة في تقبيل امرأة نائمة ثم سيطرت عليه فجأة الرغبة في طعنهما بالسكين) فان الدافع الأصلي للسادية فيه ، كان يرتبط برائحة الدماء ودكان اللحم .

في الكتاب المسمى « حياة كونان دويل Life of Conan Doyle » يسرد جون ديكسون كار قضية غريبة قام دويل فيها بدور البوليس السري . فقد اعتاد مجهول في احدى المناطق على ان يتسلل الى بعض المواشي وهي نائمة في الحقول ليلاً ، وأن يقر بطونها ويقطع بعض أوصالها بالسكين وكان بعد ذلك يبعث برسائل الى البوليس يسرد فيها بشغف تفاصيل أعماله ويعلن عن نيته في الشروع باتباع هذه الأعمال مع البنات الصغيرات في المستقبل القريب .

وقد قام البوليس باعتقال شخص يدعى جورج ايدالجي ، وهو ابن أحد المتدينين الايرانيين ، وتقديمه للمحاكمة . وقد حكمت المحكمة عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة لمدة سبع سنوات مع ان الدلائل عليه كانت واهنة جداً . وقرر دويل الذي كان مقتنعاً ببراءته أن يقوم بدور شرلوك هولمز وتمكن في الأخير من أن يتهدي الى المجرم الحقيقي وهو فقي يسميه كار « بيتر هدسون » . وكان هذا الفتى في نفس المدرسة التي كان ايدالجي ينتسب اليها وكان يكنّ ضغينة لإيدالجي . وحتى حين كان هدسون في المدرسة كان يبدي ميلاً غريزياً لاستعمال السكين . فقد كان يشق المقاعد الجلدية في القطارات بالسكين ، وقد اضطر أبوه عدة مرات الى ان يدفع غرامات بسبب ذلك . ومع انه قد أطلق سراح ايدالجي بعد ثلاث سنوات وأقرّ ببراءته فإن هدسون لم يقدّم الى القضاء قط . والظاهر أنه توقف عن تشويه الماشية بعد القضية ولعلّ تحريات دويل قد أفزعته .

إن « بيتر هدسون » هذا أقرب إلى نوعية السادي الحقيقي من القاتل الجنسي

الذي تحدث دي ريفر عنه ، فالحاجة الى تمزيق وشق المقاعد والوسائل الجلدية بالسكين هي نزعة تخريبية صرفة قد لا يكون لها أية علاقة بالجنس . وكثير من الأطفال تفتنهم السكين ولا يقاومون الرغبة التي تدفعهم إلى اللعب بها ، وإلى تمزيق أي سطح جلدي . وهذا هو نفس النوع من الحافز الذي يدفع الأطفال إلى إقامة أشكال كبيرة من الرمال على شاطئ البحر ، ثم حفر قناة صغيرة تتدفق بواسطتها مياه البحر لكي يتمتعوا بمشاهدة المياه وهي تجرف ما بنوه .

ان الكتابات في علم النفس تحتوي بشكل ملحوظ على قدر ضئيل من الحالات السادية التي تم مراقبتها ودراستها بتعمق وعن كثب . وقد يكون سبب ذلك أن النظرية الخاصة بالسادية هي من عدم الاكتمال لدرجة أن علماء النفس يرون من العبث أن يبنوا عليها أية دراسات أو معلومات .

يقول فرويد مثلاً في كتابه Three Contributions to the Theory of Sex

« إما أن القسوة والغريزة الجنسية متلازمان بشكل وثيق جداً فهو أمر يعلمنا إياه تاريخ الحضارة بدون شك ، لكن أحداً لم يذهب في تفسير هذه العلاقة إلى أبعد من تأكيد العوامل العدوانية في الليبيدو (أي النشاط أو الطاقة الجنسية الغريزية) . وهو يضيف إلى ذلك قوله ، إنه من المحتمل أن يحدث في السادية والمازوكية أن « كثيراً من النزعات النفسية تتحد هنا في أثر واحد » ، وقوله كذلك ان السادية والمازوكية تنبعان أصلاً من مصدر خاص في الدوافع ، وان هذا المصدر يميزهما عن الانحرافات الأخرى . لكن فرويد نفسه لم يذهب إلى أبعد من هذا الحد كثيراً ، بل إنه يفرد صفحتين فقط في الكتاب المذكور أعلاه للحديث عن السادية والمازوكية ، ومعالجته لهذين الموضوعين معالجة محدودة بشكل غريب كما يتضح من المقطع التالي :

« ليس عندي شك في أن مفهوم « الجمال » يضرب جذوره في تربية الاثارة الجنسية ، وانه يدل أصلاً على ما هو مهيج جنسياً . وعلى هذا فإن الشيء الذي يدهش أكثر هو أن الأعضاء التناسلية ، التي يثير منظرها أعظم تهيج جنسي لا يمكن اعتبارها « جميلة » - . »

وتمشياً مع هذا المنطق فإن كل الأشياء الجميلة - المناظر الطبيعية مثلاً - يجب أن تعتبر نوعاً من الرموز الجنسية ، فالتلال هي نهود ، والبحيرات مهابل وهكذا . وهذا المنطق يكشف عن نوع ساذج من « الأساسية » ، فالدافع الجنسي شيء لا يمكن انكاره حتى من قبل أعرق ماري القرن التاسع عشر . والليبيدو يمكن اعتباره كذلك موجوداً . والفكرة القائلة أن هناك نوعاً من الجمالية في النزوع الطبيعي إلى الحرية ينبغي اعتبارها مفرقة في الميتافيزيقية . وهكذا فبدلاً من أن ينظر إلى كل مظاهر الجمال ، بما في ذلك الموسيقى والتذوق البصري والنوازع الدينية والدافع الجنسي ، على اعتبار أنها تعبيرات عن شيء واحد هو ذلك الجوع التطوري إلى الحرية والإنعتاق ، بدلاً من ذلك يجب خسف كل هذه المظاهر وإرجاعها إلى عامل واحد معين هو الليبيدو . وبعد ذلك يجد فرويد نفسه وجهاً لوجه أمام تناقض أكيد :

كل الجماع هو بشكل ما انعكاس للشهوة التي يثيرها منظر الأعضاء التناسلية ، ومع ذلك فإن الأعضاء التناسلية أقل جلالاً من بحيرة أو سمفونية لبيتوفن . ولأن فرويد لم يستطع أن ينظر إلى الجنس كحافز تطوري - بل في الواقع أنه لم يقرّ بوجود نزوع تطوري غير ميكانيكي - فلم يجد أمامه إلا أن يختزل كل هذه الدوافع وينزلها إلى مستوى الليبيدو . وكان يمكن لفرويد أن يقوم بأول خطوة في دحض افتراضه الخاصة بنفسه لو أنه خطر له أن فينوس لو جلست وقد فرجت فخذيها وكشفت عن أعضائها التناسلية لكانت ستكون أقل جلالاً من الشكل الذي وضعها فيه براكسيتيلس . والواقع أن الأعضاء التناسلية ليست فقط غير جميلة بشكل خاص ، لكنه من غير الصحيح كذلك أن « جوهر » إدراك الجمال مشتق من ، أو متعلق بالأعضاء التناسلية . ومعظم الرجال سيوافقون على أن امرأة مستلقية على الفراش وهي عارية وساقاها منفرجان ، هي عادة أقل إثارة للشهوة الجنسية من امرأة في كامل ثيابها ، أو نصف عارية . ان خطأ فرويد هنا يمكن في أنه استعان بسيكولوجية « تحليلية » بدلاً من سيكولوجية الجيشتالت . فالجيشتالت الكلي للראה هو الذي يحتوي على الجاذبية

الجنسية . إن فرويد يقول ما معناه ضمناً إن المهبل هو نوع من مصدر الضوء ، وإن أي عاشق يحد عنق أو شعر حبيبته جيلاً ، فإن سبب ذلك أن عنق أو شعر الحبيبة يعكس هذا الضوء . أما سيكولوجية جيشتالت فتعلن أن مصدر الضوء يمكن في مجموع الجسد بأكمله ، في نزوع تطوري نهائي ، بل وتعلن أكثر من ذلك ، أن مصدر الضوء هذا هو نفسه الذي يعطي صفة الجمال للمنظر الطبيعي أو لسمفونية أو لسعي مصلح إجتماعي إلى تحسين المجتمع .

ومن الصحيح القول إن الأعضاء التناسلية هي نوع من فوهة الدوامة في أمواج الجنس المتلاطمة ، وإن الإعجاب بوجه فتاة أو قدماً من شأنه أن يحرف الرجل إلى فوهة الدوامة . وسبب ذلك أن « مصدر الضوء » التطوري هذا ينعكس أكثر ما ينعكس في تلك النقطة . لكن من الصحيح القول كذلك إن قوة الدوامة تعتمد على الابتعاد عنها ، فكلما زاد الابتعاد زادت قوة الدوامة .

إن جاذبية امرأة معينة تقل نسبياً إذا ما نظر إلى المرأة كشيء مجرد معزول من بيئته ، أي « مجرد امرأة » أو « مجرد جسد » أو حتى « مجرد مهبل » ، وتزداد إذا نظر إلى المرأة كجزء من كل ، كحلقة من سلسلة اجتماعية أو بيولوجية متصلة . والسيدات اللواتي كن يحذبن فرسان الملك آرثر اكتسبن جاذبيتهم من البيئة والخلفية الاجتماعية لهن ، من العادات والظروف التي جعلت منهن نساء متواضعات ، فهن خفر وحياء ، رمزاً « للأنثى الأزلية » الملائكية . وكيقي في رواية الدوس هكسلي « المبقرى والإلهة » اكتسبت جاذبيتها عن طريق جعل الرجال يدركون أنها جزء من محتوى بيولوجي ، أي رمز للمرأة . ويمكننا أن ندرك بذلك أن أسلوب جيشتالت في معالجة قضية الجنس هو أوفى وأكثر شمولاً نوعاً ما ، من أسلوب فرويد التحليلي .

وهذه الاعتبارات تفسر لماذا لم ينجح فرويد وتابعوه في التوصل إلى « نظرية موحدة » حول السادية . فإذا كان الليبيدو هو « المنتهى » وهو أصل كل « الدوافع المنحرفة » ، فلا غرابة إذن ، أن التحليل الفرويدي قد عجز عن إدراك كنه مشكلة السادية .

ولعلنا نجد في رواية اسمها « حب في جلاستونبري » A Glastonbury Romance من تأليف جون كوبر بويس محاولة طريفة ، وإن تكن غامضة بعض الشيء ، لتفسير أن السادية هي « انحراف تطوري » .

يعترف بويس بحرية في سيرته الذاتية أن « أقوى رذائلي منذ طفولتي الباكرة وحتى الآن كانت وما تزال هي أخطر أنواع الرذائل . أشير بذلك إلى السادية » . وقد اقتصر شذوذ بويس على الأهواء السادية الغريبة الى أن بلغ سن الخمسين . وبعدها « شفى نفسه » ، أو على الأقل شفى نفسه من القيام بمحض اراداته بالانغماس في مثل هذه الأهواء .

يتحدث البروفسور ولسون نايت عن بويس فيقول :

« ... في « حب في جلاستونبري » تطلعتنا شخصية من أغرب وأفظع الشخصيات الروائية ، هي شخصية المستر ايفانز السادية . والمستر ايفانز هو رجل محبوب ذو عقلية أكاديمية وولع بالخطوط والوشية^(١) لكنه كان رجلاً معذباً بسبب شعور سادي جارف كان يعاوده بين الفينة والأخرى ، شعور مناقض تماماً للجانب الطيب فيه . ولا يعرض بويس هذا الشعور على أساس أنه « انحراف » ، تأتى عن خطأ في التربية او الشخصية ، كما أنه لا يبين لنا بشكل مباشر أن تركيب ايفانز الجنسي يعكس او يستجيب لهذا الجانب من عملية الخلق ، أو « السببية الاولى » ، المسؤولة عن أعمال القسوة الظاهرة هذه » .

ويتحدث بويس نفسه عن ايفانز فيقول :

« ... لقد تمكن من ان يتخلص من كل تجسيد للإغراء الأسود الذي يراوده ، فيما عدا فقرة واحدة فقط في « الخطيئة التي لا تغتفر » التي يجوز أن يكون قد صاغها شيطان داهية من شياطين ما فوق الطبيعة ليحطم وبسيطر عليه . فقد كانت هذه الفقرة تصور له خيالات معينة كان يحس بضعف في ركبتيه حين كان يفكر فيها . وأسوأ هذه الخيالات كان يتعلق بضربة قاتلة توجهه بواسطة قضيب حديدي ... ولقد وردت هذه الأفكار الشريرة الكريهة مباشرة من الشر

(١) نسبة الى ويلز في بريطانيا « م . م »

الكامن في قلب السببية الأولى ، وسارت عبر مفازات بين الأقمار ثم استقرت في عصب الجهاز الغريزي لدى المستر إيفانز الذي كان مقدراً له أن يستجيب لهذه الأفكار .

ومثل هذه اللغة قد تبدو إنشائية منمقة أو رمزية بلا ضرورة . ومع ذلك فهي تستحق تفحصها بعناية . فقد أقر بويس بأنه كان يشعر هو شخصياً بكل ما ينتاب إيفانز من عذابات ، مثل « كان يبصر روحه على شكل دودة مقيمة تتلوى بحثاً عن ضحايا عقلية جديدة وتمتص دماً جديداً باستمرار » . وفي مقطع بليغ في سيرته الذاتية ، يروي بويس كيف أنه راح يوماً يسير على التلال ، تجتاحه رغبة عارمة في أن يخرّب ويعذب ، وكيف أنه كان في صراع داخلي مع هذه الرغبة التي كانت تتوق إلى تحطيم الأشياء وقتل الطيور والحيوانات . وإن رجلاً خبر مثل هذه المشاكل شخصياً وبهذا الشكل ، واستعان بذكائه وفكره التحليلي الوافر لتفهمها قد يتوقع منه أن يخرج باستنتاجات أعمق من تلك التي قد يتوصل إليها عالم نفسي اهتمامه بها لا يتعدى أن يكون اهتماماً مهيناً أو أكاديمياً .

إن فكرة بويس عن « الشر الناتج عن السببية الأولى » (والتي كان يؤمن بها كثير من الصوفيين المسيحيين بما في ذلك بوهم) قد تكون رمزية كفكرة افلاطون الاسطورية عن قيام الآلهة بقطع البشر إلى جزئين ، وقد تحتوي في الوقت نفسه على قدر كبير من الحقيقة السيكلوجية .

وعلى الأقل فلإن رؤيا بويس هي في أساسها رؤيا سيكلوجية جيشتالت ووجوديته . من الممكن تحليل الجنس حسب تركيبه العضوي ، مع التشديد على الأعضاء التناسلية ، أما نتيجة هذا التحليل فستكون متناقضة فيما بينها . قال سري راما كريشنا لتلاميذه يوماً ، إنهم إذا ما أحسوا يوماً باغراء النساء ، فعليهم أن يذكروا بأن المرأة مكونة من أشياء كريمة مثل الدم والعظم والغضاريف . وهذا ينطبق على المنطق الفرويدي . فالجنس لا يمكن تفسيره بإرجاعه إلى عناصره ، تماماً كما لا يمكن تفسير الحياة

بتشريح الجسد . لكننا انصافاً لراما كريشنا نقول إنه ما كان ليحسب أنه يمكن تفسير الجنس تفسيراً وافياً بواسطة الدم والغضاريف والعظام ، كما أنه ما كان ليندهش أبداً للقول بأن الأعضاء التناسلية ذاتها ليست جميلة . بل كان سيعلن أن كل الجمال هو انعكاس للآم الإلهية ، أي لقدرة الخلق الأزلية عند برامها ، وإن كل امرأة هي مرآة صغيرة تعكس جزءاً ضئيلاً من هذه القدرة .

إن المرأة مصنوعة من الصفيح اللامع ، لكن ذلك لا يعني أن القدرة هي مجرد وهم . ومثل بويس ، فإن راما كريشنا ما كان ليجد صعوبة في فهم السادية ، نظراً لأن « كالي » تلك القدرة على الخلق وعلى الإعدام في نفس الوقت ، وهي على شكل امرأة سوداء الوجه تحمل في اثنتين من يديها سيفاً ورأساً مقطوعة وتمنح البركة لأطفالها بيديها الآخرين ، وهي ترتدي حول عنقها عقداً من الجماجم البشرية وتقف على جثة جسدها « شيقا » الذي يرمز إلى الحياة الواعية . و « كالي » هنا رمز للقدرة الكاملة اللامنتهكة لقوة الحياة ، وإن لمحة من هذه القدرة هي التي أوحى إلى نيتشه أن يقول بأن « الحرب هي دافع أعمق وأنبل من النزوع إلى السلم » .

وبلا شك فإن أفضل دراسة عن السادية ظهرت حتى الآن هي كتاب « السادي » Der Sadist للبروفسور كارل بيرغ ، والكتاب دراسة عن القاتل بيتر كورت . وفي هذا الكتاب لا يخرج البروفسور بيرغ علينا بأية نظريات بل هو يعرض للحقائق فقط . لكن ما من دراسة أخرى تضاهي هذه الدراسة في مجموعة الحقائق والوقائع التي ترسم لنا صورة واضحة عن الدوافع العميقة الكامنة وراء جرائم كورت .

ولقد اعترف كورت الذي أعدم في تموز ١٩٣١ بأنه ارتكب تسع جرائم قتل وأربعة عشر اعتداءً آخر أدى بعضها إلى إلحاق جروح خطيرة بالضحايا . وقد أمكن للبروفسور بيرغ الذي عمل كخبير نفسي مع بوليس دوسلدورف أن يمضي وقتاً طويلاً مع كورت وهو في السجن ، وسرعان ما اكتسب ثقة

كورتن المطلقة . في البداية أعلن كورتن أنه اقترف جرائمه للانتقام من المجتمع . (قضى كورتن ٢٧ عاماً من أعوام عمره الثاني والأربعين في السجون) . لكنه عاد في النهاية ليعترف بأن الدافع الذي دفعه لارتكاب هذه الجرائم هو دافع جنسي محض . وقد كشف كورتن عن ذكاء ونزاهة غير عاديين . وعلى عكس « المجرم الشاحب » عند نيتشه ، فقد أدرك وأقرّ بأن انحرافاتة هي جزء من طبيعته ، ولم يشعر بأي وخزات من تأنيب الضمير ، وتاريخ حالته كما رواها هو للبروفسور بيرغ على مدى عدة أشهر هو كما يلي :

ولد كورتن في كولون - ملهايم عام ١٨٨٣ لأب عنيف وحشي المزاج كان يعمل بناءً . وكانت العائلة المكونة من ١٣ فرداً تقطن لمدة طويلة في غرفة واحدة فقط ، وفي ظروف من البؤس الشديد .

وقد أصبح عامل الجنس هاماً في حياة كورتن منذ سن مبكرة . فحين كان والده يعود إلى البيت مثلاً كان كثيراً ما يعتدي بالضرب على زوجته ويحبرها على أن تضاجعه . وقد بدا للصبي الصغير الذي كانت هذه الأحداث كثيراً ما تتم تحت سمعه وبصره ، أن أمّه كانت تنتهك . وقد حاول أبوه كذلك الاعتداء على إحدى بناته وكان نتيجة ذلك أن أمضى خمسة عشر شهراً في السجن . وقد ادعى كورتن أن كل شقيقاته كنّ شقيقات وأن أحدها حاولت في إحدى المرات أن تغويه . كما حاول مرة أن يجامع شقيقته التي حاول أبوه اغتصابها ، ولكنه لم يصب أي نجاح^(١) .

وفي هذه البيئة من الشقاء والانحطاط فإن المتنفس الوحيد للطاقة التطورية

١ - يشير علماء الاجتماع إلى أن العلاقات الجنسية بين أفراد العائلة الواحدة أمر مألوف في الأحياء الفقيرة المزدحمة بالسكان ، وكذلك في العائلات الفقيرة الكبيرة حيث يضطر الأشقاء والشقيقات أن يناموا في فراش واحد أحياناً . لكن ذلك ليس دائماً هو المسؤول عن الفسق العائلي . فدام دي برينفيي، العاتلة التي أعدمت عام ١٦٧٦ ، كانت تنتمي إلى عائلة أرستقراطية ثرية . وقد أقرت في اعترافها أنها ضاجعت كل أشقانها حين كانت فتاة صغيرة ، وإنها مارست انحرافات مختلفة بلغ من فداحتها ، أن الناشر الذي تعاقد على نشر اعترافاتها اضطر إلى طبع الاعترافات باللغة اللاتينية بدلاً من الفرنسية . « المؤلف »

كان الدافع الجنسي . وحين بلغ الثامنة من عمره صادق رجلاً سادياً كان يعيش في الطابق الأرضي من المنزل ، وكانت مهنته القبض على الكلاب الضالة . قد علم هذا الرجل كورتن على أن يستمني الكلاب ، كما كان كورتن يراقبه وهو يعذبها . وهكذا بدأ التلازم بين الجنس والالم يتأكدان في ذهنه . وقد ادعى كورتن أنه عندما كان في سن التاسعة دفع صبيّاً من على طوف على نهر الراين ، وأنه حين وجد أن صبيّاً آخر حاول أن ينقذه دفعه تحت الطوف أيضاً بحيث قضى الصبيان نجبها معاً غرقاً . وفي هذه السن ربما لم تكن الجريمة بالضرورة مرتبطة عنده بأية نزعة جنسية . إن الطفل يعيش في عالم الكبار وبحسب فيه بالعجز . ولذلك فإنه يجد نفسه ميّالاً إلى أن يؤكد وجوده بتحطيم الزجاج أو تخريب أو تكسير أشياء أخرى ، الخ . على أن معظم الأطفال يخافون من الاستسلام لدافع التخريب هذا ، إلى جانب أن كثيراً من الأطفال لا يحسّون بقوة هذا الدافع إذا كانوا يعيشون في أمان وراحة معقولة . لكن كورتن لم يكن عنده ما يخسره ، لم يخسر إلا القليل ، كما أن حالة البؤس التي كان يعيش فيها دفعته إلى أن ينظر إلى العالم بعداء بارد كأنه عدو لدود . وقد بلغ شقاؤه حدّاً وهو لما يزل في سن الثامنة ، لدرجة أنه فر من البيت ، وعاش في شاحنات نقل الأثاث لبعض الوقت . ومثل هذا الطفل الذي يملك هذا القدر من الاستقلال ليعمل ما يريد ، يمكنه أن يؤكد ذاته ضد « عالم الكبار » وذلك بأن يرتكب جريمة مزدوجة .

وبعد أن بلغ العاشرة بقليل ، راح كورتن يمارس العادة السرية بكثرة ، وراح يحاول اغتصاب شقيقاته وبعض الطالبات الصغيرات . وفي سن الثالثة عشرة اعتاد على أن يتجول في المروج القائمة على شاطئ نهر الراين ، باحثاً عن حيوانات ليمارس النكاح معها . وقد ادعى أنه نجح في تعاطي الجنس مع الماعز والخنازير والخراف ، كما اكتشف أنه يستطيع أن يزيد من متعته الجنسية لأحد الخراف إذا قام أثناء العملية بطعن الخروف بمذبة . وكانت هذه بلا شك الخطوة الرئيسية التي أدت بكورتن ليتحول إلى قاتل جماعي من أقطع وأبشع

وفي سن السادسة عشرة أرغمه والده على أن يصبح أجير بنساء ليتعلم المهنة ، وذلك رغم معارضة كورتز الذي كان يمتق مهنة أبيه . وقد اسيئت معاملته أثناء ذلك ، فما كان منه إلا أن سرق بعض المال وهرب الى كوبلنز ، حيث عاش مع مومس مازوكية . وبعد ذلك بفترة قصيرة ألقي القبض عليه بتهمة السرقة وأودع السجن ، وكانت تلك بداية محاكماته السبع عشرة ، والتي جاءت فيما بعد . وحين أطلق سراحه عام ١٨٩٩ اصطحب فتاة إلى غابات جرافنبيرجر وخنقها حتى الموت أو هكذا ظن أثناء مجامعته إياها . وقد صرح أن هذه الحادثة علمته متعة الإيذاء أثناء العملية الجنسية لأول مرة . ومع أنه ظن بأنه قد قتل الفتاة الا أنه لم يعثر على أية جثة ، ومن المحتمل أن الفتاة لم تمت وإنما فقدت رشدها فقط ، وأنها قررت الاتبوح بالحادثة إلى أحد .

وثلث ذلك عدة فترات قصيرة قضاها كورتز في السجن بسبب جرائم مختلفة منها قيامه بالترصد لفتاة ومحاولة قتلها باطلاق النار عليها من بندقية . وكان يعتمد ارتكاب مخالفات لقوانين وأنظمة السجن لكي يوضع في زنزانه انفرادية من أجل أن ينغمس في نوازع سادية . وبعد اطلاق سراحه عام ١٩٠٥ ، اكتشف أن إشعال الحرائق في أكداس العشب الجاف وتخازن الشعير والحبوب يثيره جنسياً . وبدأ يشعر هنا « بالحدق على المجتمع » (وكان يحقد قدرأ معيناً من المبرر لذلك) ويربط بين متعته الجنسية و « انتقامه » من المجتمع . بل انه ابتكر نظرية في « العقاب التعويضي » فحواها أن العقاب المستحق عن جرائمه يجب أن ينزل بالذين كانوا قد عذبوه . ويمكننا أن نرى هنا المنطق الإجرامي في أجلى صورته . فقوى الحياة أو قوى « القدر الفردي » تتجسد في شكل « المجتمع » ، كما أن المعجز عن تحليل الذات يؤدي أكثر فأكثر إلى الجريمة .

وبعد سبع سنوات أخرى في السجن بسبب السرقة (فقد خلالها توازنه العقلي لبعض الوقت كما ادعى أنه أفلح أثناءها في قتل أحد زملائه السجناء في

المستشفى بدون أن يجرّ إليه أية شبهة، أطلق سراح كورتز عام ١٩١٣ (خرج ليرتكب أول جريمة قتل جنسية ، وكانت الضحية فتاة في الثالثة عشرة من عمرها . فقد تسلل كورتز إلى بيت في كولون - مولهايم في إحدى الأمسيات ، وكان البيت خالياً سوى من فتاة صغيرة ، لأن عائلتها كانت تحضر احتفالاً ما .

وكانت الفتاة مائة في فراشها ، وقد خنقها كورتز ثم قطع عنقها واخترق أعضائها التناسلية بأصابعه . وقد منحه ذلك متعة عظيمة بحيث أنه تمكن بعد ستة عشر عاماً من أن يتذكر ويسرد أصغر التفاصيل . وقد اتهم عمّ الفتاة زوراً بإرتكابه هذه الجريمة ، ولكن ساحته برئت فيما بعد . وكان كورتز يجد متعة عظيمة في الإصغاء إلى الناس ، في الأماكن العامة وهم يتحدثون عن الجريمة ويعبرون عن ملهمهم من فظاعتها .

ومنذ ذلك اليوم بدأ كورتز يسعى عن تعمد إلى آفاق جديدة لساديته أثناء عمليات السرقة ففي إحدى المرات استعان ببلطة لكي يضرب رجلاً وامرأة ويحرقهما ، ثم توصل إلى ذروة النشوة الجنسية وحالة القذف وهو يرى دمهما يسيل (ولسبب ما لم يبلغا البوليس عن الحادثة) . كما فاجأه أحد يوماً وهو على وشك أن يهوي بالبلطة على فتاة نائمة فلاذ بالفرار تاركاً البلطة وراءه . ومن بين أعماله قيامه بحرق عربة زراعية ومحاولته خنق امرأتين . وكان يبدو من كل ذلك أنه أصبح الآن على استعداد لأن ينغمس في سلسلة من أعمال القتل والإغتصاب على نطاق واسع . وعلى كل حال فقد أُلقي القبض عليه مرة أخرى وهو يحاول السرقة ، وحُكم عليه بالسجن ثماني سنوات .

وحين أُطلق سراحه عام ١٩٢١ عاد كورتز الى « ألتنبيرج » مدينته القديمة ، مدعياً أنه كان سجين حرب في روسيا . وفي ألتنبيرج التقى بالفتاة التي أصبحت فيما بعد ، زوجته . كانت أكبر منه سناً ، وكانت كذلك قد قضت فترة في السجن لإطلاقها النار على عشيقها ، وهو بستاني كان قد وعدّها بالزواج ثم غير رأيه بعد أن عاشرها فترة من الزمن ، ومن المؤكد أن كورتز قد انجذب نحوها

بسبب طبيعتها السمحة والضعيفة ، لأنه من المستحيل على رجل مثل كورت أن يميل إلى امرأة لا يستطيع أن يتحكم بها ويطوّعها لمشيئته . وكان موقفه منها هو موقف الشفقة والحماية . وقد قبلت الزواج منه بعد أن توعدا بالقتل إذا رفضت . وعلى كل حال فقد اتضح بعد مدة قصيرة أن اختياره كان ممتازاً . ومع أنه لم يعاملها أبداً بقسوة ، (الغريب أن كورت لم يكن رجلاً قاسياً ، إلا في حالات الشذوذ الجنسي) فقد اضطرت إلى أن تتحمل الكثير من خياناته الزوجية ، بل إنها في إحدى المرات ضبطته في الفراش مع امرأة أخرى . فالواقع أن النساء كن يجدن كورت لسبب غريب ما ، رجلاً جذاباً جداً . فهو لم يكن قبيح الشكل ولم يكن يحمل الصفات الخارجية المحرم مثل لومبروزو مثلاً ، كما أنه كان يتكلم بهدوء وكان بلا شك ذكياً ويعتني بهندامه ومظهره الخارجي بقدر امكانه . وكان يهوى ملاحقة النساء ومغازلتهم ، ووجد أن التقاط الفتيات عملية سهلة له . (قال كورت أثناء محاكمته ، ان النساء اللواتي سمحن له بالتقاطهن بسهولة يتحملن بعض المسؤولية عن جرائمه) . ولم يكن يقتل أو يؤذي ضحاياه دوماً . فبعض الفتيات وجدن طريقته في الجماع الجنسي خشنه بعض الشيء ، لكنهن لم يكن يمانعن في ذلك . وعلى الأقل فإن فتاة واحدة وقعت في الحب معه وكانت تتمنى لو تزوجه ، ثم أصيبت بصدمة عنيفة حين اكتشفت صدفة أن «خطيبها» متزوج .

ويبدو أن زواج كورت كان ذا أثر حسن . فقد قضى عدة سنوات يعمل في مهنة البناء في التنبيرج ، أصبح أثناءها نقابياً نشيطاً . ولم يقترب أية جريمة قتل خلال ذلك . لكنه اتهم مرتين بإساءة معاملة خادمتين ، وفي إحدى هاتين المرتين أنقذته زوجته من السجن بأن توسلت إلى واحدة منها بسحب الدعوى ضد زوجها . ولكن أهواءه السادية استمرت في النمو ، لذلك قرر أخيراً العودة إلى دوسلدورف ، ربما لأن مدينة كبيرة كهذه ستوفر له مجالاً أكبر ، وسيكون فيها غير معروف الهوية . وفي مساء اليوم الذي عاد فيه إلى دوسلدورف ، وكان ذلك في عام ١٩٢٥ ، لاحظ باغتباط أن لون الغروب كان أحمر كالدم . وهنا بدأ «عصر الرعب» في دوسلدورف ، وهو عصر ينذر وجود مثيل له في تاريخ

الجريمة . فقد بدأ كورتن يطلق العنان لميوله السادية بجملة اعتداءات على عدة نساء ، لكنها لم تكن ممتدة . إلا أن الاعتداءات أخذت في الازدياد تدريجياً . وقد وجدت زوجته عملاً كنادلة في مطعم ليلي ، وكان كورتن يوصلها إلى مكان عملها ليلاً ثم يذهب بحثاً عن ضحايا جديدة . وحتى عام ١٩٢٧ لم تكن هناك إلا ثلاث حالات من محاولة الحقن المتعمد ضد ثلاث فتيات . ثم عاد كورتن إلى ممارسة اشغال الحرائق ، فقام بإشعال ثمانى عشرة حريقة في غضون العامين التاليين . وكان يأمل في كل مرة يشعل فيها حريقاً ، في أحد مخازن التبغ ، أن يكون أحد المتشردين نائماً فيه لكي يموت حرقاً . كما أن شهوته للدم أخذت تنمو كذلك ولم يعد يكتفي بحقن النساء فقط . ففي إحدى المرات التي لم يستطع فيها أن يجد أية ضحية ، قطع رأس بطة نائمة وشرب قليلاً من دمه . وفي إحدى المرات الأخرى أبصر حصاناً ملقى في الطربق ، ضحية حادث تصادم طازج ، فسبب له هذا المنظر حالة قذف سريعة .

وفي عام ١٩٢٩ بدأ يستعمل عدة أدوات حادة في اعتداءاته ، كالسدى والسكاكين والمقصات والبلطات ، واقترب خلال العام نفسه ثمانى جرائم قتل وأربعة عشر اعتداءً أدى بعضها إلى اصابة الضحية بجروح خطيرة . وكانت الضحية الأولى هي السيدة كون التي هاجمها في الظلام وطعنها ٢٤ مرة . وقد شفيت من جروحها بعد عدة أشهر قضتها في المستشفى . ثم طعن حتى الموت عاملاً غلاً وبعده صبياً في الثامنة من عمره . وقد ترك الصبي خلف سياج ما ثم عاد في فجر اليوم التالي ومعه بعض البترول لكي يشعل النار في الجثة . وكان غرضه الوحيد ، كما صرح فيما بعد ، هو أن يزيد من فظاعة الجريمة . وفي اليوم التالي انضم إلى جموع الناس التي وقفت عند مكان وقوع الجريمة وأمكنه أن يتوصل إلى حالة قذف وهو يستمع إلى استنكاراتهم وتعليقاتهم .

وفي الأشهر القليلة التالية قام بأربع محاولات خنت فقط ، ثم قام بعدها بقتل خادمة اسمها ماريان في المروج التي تقع قرب باينديل ودفنها هناك . وبعد فترة عاد ليغير موضع دفنها ، فجاء الجثة جماعاً استياً وراوده رغبة في ان

يصلها بين شجرتين ، لكنه عدل عن ذلك بسبب ثقل الجثة ، وقبل أن يفعل ذلك ذهب مرات عديدة الى موضع قبر الجثة ومارس العادة السرية فوقه .

ولا ضرورة هناك لسرد تفاصيل حالات أخرى^(١) . فقد اغتال كورتن ثلاثة أطفال آخرين ، وقتل خادمتين بمطرقة حديدية بعد أن اعتدى عليهما جنسياً . وقد حيرت هذه الجرائم البوليس الذي افترض أو وراهها أكثر من مجرم واحد . فبعد مقتل طفلين في ليلة سبت ، اكتشف البوليس جثة خادمة وقد طعن حتى الموت بعد ظهر اليوم التالي أي يوم الأحد . وقد اعتبر البوليس أنه من غير المعقول أن يقترف رجل واحد ثلاث جرائم في يومين متتالين .

ومع ان كورتن لم يعتقل الا في أيار ١٩٣٠ ، فانه لم يكن في غضون ذلك قد اقترف أية جريمة قتل ، وإن يكن قد قام بعدة محاولات خنق لإشباع غرائزه السادية . ومن المحتمل أنه كان يحس آنذاك بنوع من الاشمئزاز بسبب جرائم القتل ، فهو لم يكن منحطاً تماماً مثل هيث وكريسي أو منهاراً إذا قورن بالمجرمين الآخرين ، بل إنه كان يهتم اهتماماً كبيراً بجثاته ، وكان يحاول جاهداً أن ينطق ساديته كما أنه قرأ عدة كتب في علم النفس . وهكذا فهناك احتمال ضئيل في أن يكون كورتن ، حتى في ذلك الوقت المتأخر . قد نجح في إنقاذ ما تبقى من حطام حياته .

وعلى كل حال فقد أدت الإعتداءات المتكررة الى حملة نشيطة من قبل البوليس الذي تلقى ما يناهز ١٣٠٠٠ رسالة تستنكر الجرائم ، وأجرى مقابلات وتحريات مع ٩٠٠ ألف شخص وحقق في ٢٦٥٠ بينة ودليلاً . وقد جاءت إحدى رسائل الاستنكار من فتاة كانت كورتن قد اعتدى عليها ، إلا أن البوليس غرّمها مبلغاً من المال على أساس « التماضي في الهذيان » .

وقد التفت الشبكة أخيراً حول كورتن عندما اعتدى على خادمة اسمها ماريابودليك وكانت قبيحة مقوسة الساقين . وقد أغواها كورتن واصطحبها

(١) هناك تقرير واف عن قضية كورتن في كتاب كولن ويلسون المسمى :
« Encyclopaedia of Murder » « موسوعة الجريمة » (٢٠٥)

الى بقعة نائية ثم أرغها على أن تتقبل « خنقاً بسيطاً » أثناء الجماع . لكن كورتز أخذها معه بعد ذلك الى بيته وأجرى معها نفس الشيء ، ولم تكلف الفتاة عناء إبلاغ الأمر الى البوليس ، لكنها سردت الحادثة في رسالة كتبتها الى احدى صديقاتها . الا أن الرسالة وصلت الى عنوان آخر بطريق الخطأ ، ففتحتها شخص آخر ولما قرأ محتوياتها سلمها الى البوليس . وفي أحد أيام أيار عام ١٩٣٠ أبصر كورتز أثناء خروجه من منزله صدفة ، ماريا بودليك وهي تشير اليه لأحد رجال البوليس . ولم يعتقل مباشرة ، مع أنه أحس بأن النهاية باتت وشيكة . لذلك اعترف بكل جرائمه الى زوجته ونصحها بأن تسلمه للبوليس وتفوز بالمكافأة المالية . وقد أخذها الى أحد المطاعم لتناول العشاء ، ولتأبئة الحديث عن جرائمه ، وبلغ من اضطرابها أنها لم تستطع أن تأكل شيئاً ، فقام هو بالتهام طبقه وطبقها معاً . وفي اليوم التالي توجهت الى البوليس وألقي القبض على زوجها . وقد حصلت زوجة كورتز على المكافأة فيما بعد ، مما أنهى مخاوفها من مجاعة الشيخوخة . أما زملاء كورتز وجيرانه فلم يصدقوا في بادئ الأمر ان البوليس قد اعتقل « الوحش » وظلوا يعتقدون بعض الوقت أن البوليس قد اخطأ الحساب .

ولم يبد كورتز كثير قلق أثناء محاكمته . فقد كان يأكل وينام جيداً - يبدو أن الخطر كان يزيد من شهيته - كما أنه كان يتلذذ بشكل ملحوظ في استذكار جرائمه وسرد تفاصيلها « بدقة غير عادية » وكان صريحاً جداً مع البروفسور بيرغ . وقد شهدت احدى صديقاته بأنه وقف يوماً أمام تماثيل للمجرمين عريقين في أحدهم تحاف الشمع وقال انه سيصبح شهيراً مثلهم في يوم من الأيام . وقد كان المجرم العريق الشهير « جاك ريبير » (الذي ذاع صيته حين كان كورتز في الخامسة من عمره) مصدر وحي لكورتز فيما بعد . وتحدث كورتز مع بيرغ عن أحلامه وخيالاته السادية المثيرة ، وكيف أنه يعيش حلمه الرائع باستمرار بنسف مدينة كاملة بالديناميت ؛ وأحياناً أخرى بإنقاذ المدينة من « الوحش » وبقيام المواطنين الشاكرين بتنصيبه رئيساً للبوليس . وتحدث عن « مظالمه »

وعن الإنتقام وكيف أن نظام السجن يخلق من السجين « مجرماً أصيلاً » . وكان صريحاً الى أبعد الحدود مع البروفسور . بل انه أقر في مقابلة أخرى بأنه كان يتفحص باهتمام غريزي عنق سكرتيرة بيرغ الأبيض النحيل . وفي عشية إعدامه أكل وجبة كبيرة بنهم شديد وطلب المزيد . وقد أخبر بيرغ قبل إعدامه بأن رغبته الأخيرة الكبرى هي أن يسمع قطرات دمه وهي تسقط على السلة بعد أن ينفصل رأسه عن جسده ، وعلى الرغم من حلة احتجاج واسعة النطاق (كانت ألمانيا قد ألغت عقوبة الإعدام الا بالنسبة لأقصى الحالات) فقد أعدم كورتن بالمقصلة في ٢ تموز ١٩٣١ .

هناك حالات نادرة جداً في تاريخ الجريمة تفوق هذه الحالة فظاعة . فلم يكن في أميركا أو بريطانيا من يعادل كورتن الألماني سوى جاك ريبير الإنكليزي ، وألبرت فيش الأميركي^(١) . إلا أنه من السهل والبساطة بمكان القول ان كورتن قد تحول الى مجرم بسبب مجموعة الظروف الاجتماعية التي ربي فيها . فمن الجائز جداً أن كورتن كان سيصبح فقط في ظروف اجتماعية مختلفة ، مجرد « سادي عقلي » ، مثل بويس أو « المستر ايفانز » لكن التحليل الفرويدي لمبدأ « الليبيدو العدواني » هو نوعاً ما أقل اقناعاً من نظرية بويس عن الرجل الذي يتلقى عصبه الغرائزي قوة وطاقة هائلتين من الجانب الهدّام « للسلبية الأولى » ، إن كورتن الذي أثاره منظر الغروب الأحمر الدامي ، والذي كان يسير في شوارع دوسلدروف يحلم بنسف المدينة عن بكرة أبيها ، ثم الذي كان مع ذلك يهتم بحالته اهتماماً ذكياً ، هو رجل يمكن فهمه بصورة أفضل لو قبلنا بنظرية « القوة السوداء » التي كانت تترده من خارج نفسه .

١ - خنق فيش طفلاً وأكل بعض أجزائه . ومع أن الطبيب النفسي الذي عمل في قضية فيش وهو الدكتور فردريك ويرثام قد وصف فيش بأنه «ملك المنحرفين» ، الا ان ما نشره عن القضية لم يكن بمثل سعة وعمق كتاب البروفسور بيرغ عن كورتن . لقد كانت فيش سادياً ومازوكياً ذا تصورات وأوهام دينية ، ولم يكن يمتدني الا على الأطفال فقط . ولا شك أنه ارتكب من الجرائم أكثر مما أدين به . ويمكن قراءة تقرير ويرثام الموجز عن فيش في كتابه : « استعراض العنف » The Show of Violence .

وهذه الاعتبارات المختلفة تؤدي بالبحث الى ما هو بالتأكيد أصعب
مراحله . ذلك أنه يبدو أن هناك شواهد كثيرة تؤيد نظرية فرويد القائلة إن
السادية تنبع من مصدر غير المصادر التي تنبع منها الانحرافات الأخرى .
وهذا « المصدر الخاص » مشروح بالتفصيل في كتاب « ما بعد مبدأ اللذة »
Beyond The Pleasure Principle . انه « رغبة الموت » أو ما يسمى
بالإغريقية « Thanatos » ، ولقد حيرت مشكلة العدوانية الإنسانية فرويد
الذي كان يشعر بأن تفسير ماركس القائم على نظرية الحرب الطبقيّة هو تفسير
سطحي ، لذلك كوّن مفهومه « الجديد » فيما يتعلق بذلك . (وفي الواقع أن
ذلك المفهوم هو من ابتكار شوبنهاور الذي استوحاه من بعض الصوفيين
المسيحيين ومن البوذية) . لقد خاض البشر الحروب لأنهم في أعماق سرائرهم
كانوا يريدون أن يموتوا . إن الحاجة الى حفظ الذات قد تكون عميقة جداً ،
لكن شهوة الموت أعمق . فالسادية اذن (كما يعتقد فرويد) هي مزيج من
أقوى الدوافع اطلاقاً في الكائن البشري : الجنس ورغبة الموت . ويمكن فهم
كورتز على ضوء أنه كان يسعى الى الانتحار حين كان يسعى إلى القتل ، وانه
ألقي بنفسه في نهر سيحمله الى الموت وسمح لحاجته الى الجنس ، وحاجته الى
الموت ان تمتزجا في نوع من الحمى المجنونة .

واللوهة الأولى فقد يبدو هذا الرأي قابلاً للتصديق . وقد يقول أحد
الفرويديين جداً أن نيتشه كان قد افترض شيئاً من قبيل رغبة الموت في «المجرم
الشاحب » الذي خلقه . ولكن ذلك سببه أننا نخلط بين الرغبة الرومانتيكية
« للرجوع الى الرحم » برغبة الموت . إن المجرم الشاحب لم يكن يود فعلياً أن
يموت . لقد وصل فقط إلى درجة من الارهاق والانهيار بحيث أنه لم يعد يريد
فعلياً أن يعيش . إن البشر يفكرون أحياناً بالموت كما يفكر رجل أعمال تراكت
عليه المصاعب والضائقات ، وهدوته بالافلاس . لكن رجل الأعمال في واقع
الأمور يود أن يبدأ تجارة جديدة أو مشروعاً جديداً من غير اعباء الديون
القديمة . وبالطريقة نفسها فإن رومانسي القرن التاسع عشر كانوا يحلمون بالرجوع

الى الرحم « نصف هاتين بالموت السهل » (كما جاء في احدى القصائد) . لكن الذي كانوا يريدونه حقاً هو أن تخف وطأة الحياة ومصاعبها ، أو بمعنى آخر فترة للراحة والنقاهاة . وفي بعض الأحيان كان يتهاى لهم أن الحياة كلها هي شقاء لا مفر منه وأنها تسمح لنا أحياناً بالراحة والاستجمام لكي تعود فتستغلنا بقسوة أكبر . الا ان شعراء مثل تراهيران وبليك ووردزورث ، وحق شيلي ، كان يملكهم إدراك داخلي بزخم حياتي أكبر وأعمق ، بقوة تجعل كل العذابات تبدو تافهة . وقرب نهاية القرن ، كان موضوع « نعم الأزلية » و « لا الأزلية » قد توضح عن طريق عدد لا بأس به من الشعراء والكتاب والفنانين بينهم كارليل ونيتشه وفان كوخ وريلكه . وفي كثير من الحالات لم يكن الجواب مجرد « نعم » ، رابطة الجأش على طريقة الرواقيين الذين لا يبالون بالمؤثرات الجسدية ، كما قالها كارليل ، بل كان تأكيداً صوفياً روحياً . ولم يذهب فرويد أبعد من رومانسيته المريضة التي كانت تفهم رحم الحياة الأسود خطأ على أنه الموت . (وقد كان ريلكه ميالاً الى أن يرتكب الخطأ ذاته) . أما كامو فقد حدد موقفاً أكثر صحة وعمقاً من الموت حين قال : « إنه بالنسبة لي بابٌ مغلقٌ ... مغامرةٌ مريضةٌ وقذرةٌ » . وقد أدرك ذلك أيضاً برنارد شو ؛ ففي روايته : « The Domesticity of Franklin Barnabus » ، يرد هذا الحوار :

كونراد : ... هل تعرف ممّ يموت الناس فعلاً ؟

يونسو : من المعقولة . انهم لا يريدون ان يعيشوا الى الأبد .

كونراد : من الكسل والحاجة الى الاقتناع ، ومن فشلهم أن يجعلوا من حيواتهم شيئاً يستحق أن يعاش . هذا هو السبب .

وحق دوستوفسكي ، الرومانسي العريق ، تبرأ من « رغبة الموت » وقال إن « الحياة الأبدية » لا تعني الحياة في السماء بل الحياة المادية هنا على الأرض ، في حالة من العمق والنفوس ليست في مقدور تصورنا في الوقت الحاضر . فإذا تمّ تفضيل وجهة النظر هذه على رومانسية فرويد الجديدة فإنه يجب التخلي إذن

عن تفسير السادية على أساس رغبة الموت . إن الإخلال ليس مرادفاً لرغبة الموت . أحدهما حالة من الحياد والآخر هو حركة هبوطية أكيدة . لقد شك برناردشو أنه من الممكن للمخلوقات البشرية أن تتمنى موتها الخاص بأعمق غرائزها ، وهناك أدلة كثيرة تؤيد وجهة نظره . فبطلة تولستوي أناكارانيا تكتشف فجأة وهي على شفا الانتحار ، بعد أن فات الأوان ، ان الموت هو آخر شيء كانت تريده . إن بصيرة تولستوي كانت أعمق هنا من بصيرة فرويد . فالإخلال هو نتيجة « العدمية » أو « النيهلية »^(١) . وكل الحيوانات تنجو من هذه الحالة الغريبة بسبب قوة غرائزها التي تعطي الحياة خلفية معينة من « القيم » . لكنه كلما يزداد العقل قوة تضعف الغرائز ، وإذا ما تحول المجتمع فجأة الى مجتمع أكثر صعوبة وتعقيداً ، كما حدث في المئة سنة الأخيرة ، فيصبح الناس بحاجة إلى زيادة تنسيقهم الفكري وتلاؤمهم الحياتي زيادة هائلة من أجل البقاء . وأي لندني أو نيويوركي وحتى لو كان غيباً ، سيدو بالنسبة لأي رجل من العصر الاليزابيثي مثلاً رائعاً على التنسيق والتلاؤم الاجتماعي . إن الغرائز تضعف فجأة ، وتكون النتيجة أن يحس الإنسان بأنه موجود في شيء يشبه للصحراء « الروحية » لا يعرف ماذا يفعل لأن غرائزه لم تعد تدله على ما يفعل . وفي هذه الحالة ، فقد يلتفت إلى اللذة كالقيمة الايجابية الوحيدة ، كما فعل الناس دائماً في الحضارات الزائلة . لكن عصب اللذة ليس من القوة بحيث يحتمل كل عبء السعي الانساني نحو التطور . إنه يصبح عديم التأثير والحساسية . والانحرافات الجنسية هي محاولة لتحريك وإثارة عصب اللذة الحامد . والجنس يستعمل غريزياً كصمام أمان لأنه يربطنا مؤقتاً بالقوى الغرائزية التي هي مصدر كل « القيم » .

وفي كتاب African Genesis لروبرت آردري مثال طريف على ازدياد التركيز على الجنس في ظروف تضعف فيها الغرائز . فقد راقب السير سولي

١ - استعمل الكلمة هنا بمعناها النيتشوي أي الإنهيار الكامل لأي معنى للقيم أو احساس بها بسبب وجود شيء مسمم « بكسر الميم » في النظام الاجتماعي أو بسبب « الانهيار والزوال » .
« المؤلف »

زوكرمان سلوك وتصرفات جماعة من قرودة البابون في حديقة الحيوانات بلندن ليخرج بعد ذلك بتعميم مفاده أن الجنس هو القوة المحركة العظمى في مجتمع الحيوان . فقرودة البابون مثلهم مثل كثير من الحيوانات والطيور يتقيدون بنظام طبقي من الامتيازات ، مما يجعل القرد « الارستقراطي » منهم يملك عدداً كبيراً من الاناث (والطريف في الأمر أن الاناث هن اللواتي يخترنه) في حين يعاني القرد « البروليتاري » من الحرمان الجنسي . وقد لاحظ السير سولي أن ذلك ما يؤدي في الغالب الى معارك واشتباكات جنسية ، إذ يحدث أن يقوم أحد القردة المحرومين من الامتياز الجنسي بمحاولة لاختطاف واحدة من حريم القرد الارستقراطي ، يؤديه في ذلك بعض القردة الآخرين . وهنا يضطر القرد الارستقراطي إلى الدفاع عن حقوقه . فإذا خسر فسينحط مقامه ويصبح أحد المعدمين ، بينما يحتل القرد الأقوى مكانه . وقد أدت هذه الحوادث وغيرها لأن يأتي السير سولي ويؤكد هذا التعميم . لكن ظروف حديقة الحيوانات ، كما يشير آردري ، هي ظروف اصطناعية غير طبيعية . ذلك أنه اذا راقب أحد الناس قرودة البابون في بيئتها الطبيعية ، فلن يشهد أية معركة جنسية . « فالبروليتاريا » لا تتحدى « النظام الاجتماعي » أبداً . إن أعظم قوة في مجتمع البابون هي الأفضلية ، « ارادة القوة » ، لكنها تصبح الجنس في الأسر فقط ، لأن الجنس يكون عندهما هو المتنفس الوحيد . (يقدم آردري مجموعة ممتازة من الأمثلة لدعم وجهة نظره) فيقول : « الجنس هو عامل جانبي في عالم الحيوانات ، لأن الخوف هو اللون المميز لذلك العالم » . إنه يورد كذلك أمثلة تستحق الاهتمام على الكيفية التي تضعف بها « الفرائز الطبيعية » في الحيوانات حين يلقى بهم في ظروف اجتماعية غريبة (على ظهر سفينة مثلاً) . فإذا طبقنا ذلك على المجتمع البشري فسنبداً في تفهم كيف تنمو نسبة الجرائم الجنسية باضطراب في مثل هذه الحالات ولماذا تزداد كذلك الانحرافات الجنسية . ان الحيوانات والطيور تختار شريكها الجنسي على أساس الأفضلية الاجتماعية . أما في مجتمعنا الآلي العصري الشديد التعميد ، الذي يمكنه أن يسحق الفرد سحقاً ، فهناك عدد كبير من الأفراد

أصحاب الامتياز الذين لا يجدون أية صعوبة في إيجاد مخرج لغرائزهم الجنسية وعدد أكبر من « المعدمين » الذين يشعرون بعدم الامتياز الجنسي .

إن نجماً سينمائياً كبيراً يمكنه أن يضاجع كل فتيات الكورس والمضيفات في هوليوود ، في حين أن سائق شاحنة غير ناضج عقلياً مثل تشارلز فلويد مضطر إلى أن يقتل فتاة جميلة لكي يستحوذ عليها . إن مجتمعاً كمجتمعنا هو تربة خصبة مثالية لنمو كل أنواع الشذوذ الجنسي .

لكن ذلك لا يفسر الدافع إلى السادية . كان تشارلز فلويد يضرب النساء حتى الموت من أجل أن يغتصبهن ، لكنه على الأقل لم يكن يحس بأية رغبة في تعذيبهن . فالسادية تؤدي إلى أغوار أعمق . وهنا يقدم روبرت اردري لنا آراء ذات أهمية كبيرة . يقول اردري نقلاً عن العالم الانثروبولوجي ريموند دارت من جنوب أفريقيا : إن الجنس البشري تطور من قبيلة من القرود القاتلة . والنظرية الأكثر اطراءً التي يؤمن بها معظم علماء الانثروبولوجيا^(١) هي : إن « الإنسان الأول » كان يمتلك عقلاً أكبر من عقل القرد ، وأنه لذلك تمكن من أن يبتكر الأسلحة والأدوات .

يقول دارت : إن قبيلة من القرود القاتلة تفرعت من قبيلة من القرود غير العدوانية ، وإن القرود القاتلة استعملت الأحجار والعظام الكبيرة كأسلحة ، وإنها اضطرت إلى أن تنمي قواها العقلية من أجل أن توفق وقدسقى بين العضلات والفكر . هكذا تطور الإنسان .

ونظرية اردري المؤسسية نوعاً ما هي أنه ما دام الإنسان قد تطور على أساس أنه قاتل . فالعدوانية هي جزء لا يمكن استئصاله من طبيعته . وبينما يتحدث المبشرون والإنسانيون وعلماء الاجتماع عن السلام العالمي والوئام والأخوة بين البشر ، يظل سباق التسلح مغروساً في أعماق النفس البشرية . وإذا كان بقاء الأجناس البشرية متوقفاً على السلام ، فإنه من المستحيل علينا إذن أن نضمن البقاء .

١ - علم التاريخ الطبيعي للأجناس البشرية . « المترجمان »

هذا هو ما تقوله نظرية اردري . كما أن اردري يشير الى أن القبائل هي على عداء مع بعضها البعض . وقد قام أحد العلماء الطبيعيين بوضع جماعة كبيرة من القردة على جزيرة بعد أن تأكد من وجود طعام ومساحة كافيين للجميع . وبدلاً من أن يقيم القردة مجتمعاً فوضوياً، ومن أن يتجولوا ويهيئوا بسلام فوق جزيرتهم الجديدة ، انقسموا الى قبائل وجماعات وقسموا الجزيرة إلى مناطق وحدود وراحت كل قبيلة تعادي الأخرى .

وقد تكون هذه النتيجة مؤسفة وربما غير دقيقة كلية ، إلا أنها تقرر الحقيقة التي بدأها نيتشه والتي تكرر ذكرها في الثقافة الحديثة وهي : ان « الطبيعة والنور » هي صيغة ممتازة لكنها بعيدة جداً عن حقيقة الإنسان النفسية العميقة بحيث لا يمكنها أن تكون قانون عمل للمجتمع .

ولنفاد صبره من مدرسة «الطبيعة والنور» فقد تطرف نيتشه في آرائه وأعلن أن الحرب أنبل من السلام وأنه يفضل مقاتلاً على راهب^(١) .

أما بيرغسون وسوريل وباريتو فقد ذهبوا الى أبعد من ذلك وأقاموا تعليقات للامعقول . قال هول :

إن الطبيعة الإنسانية فاسدة باستمرار وبدون تغيير ، وإن مبدأ الخطيئة الأصلية يحتوي على حقيقة أساسية .

كما أنه كتب -لمسلة مقالات ضد المسالمة والسلم، وشرح فيها لماذا يحسن بالفخر لأنه اشترك في حرب ١٩١٤ . ومن سوء الحظ أن القدر كان إلى جانب غريمه برتراند رسل فأنتهى الجدل بينهما بقتل هول ، مؤكداً أنه حتى إذا ما صمم المثقف على القيام بدفاع متناقض عن العنف فإن عليه أن يحذر من أن يتصرف حسب معتقداته التي أعلنها . وقد تابع ازرا باوند التقليد النيتشوي فنظم قصيدة قال فيها : « لا حياة لي الا حيث تتشابك السيوف » . (لكن باوند كان من التمعقل

١ - لا أظنني بحاجة الى أن أضيف بأن موقف نيتشه النهائي لا يعتمد على هذه الآراء وأنه هو نفسه كثيراً ما قال أشياء تعارضها . والذي يحدث هو أن اللاإنساني يجد نفسه في كثير من الحالات مدفوعاً لأن يشن في تقرير موقفه من فرط القبط .
«المؤلف»

بحيث أنه لم يشترك في الحرب) . وأخيراً جاء أرنست همنغواي بأقوى هذه الحجج كلها بأن يبين أن الشكل الصحي والحيوي العام من الكتابة قد تكون جذوره موجودة في العنف وتقبل الموت. ومثل هولم فإن همنغواي سرعان ما سار بمعتقداته إلى درجة السخافة ، فخلق نوعاً من العالم القائم على مصارعة الثيران وصيد الحيوانات الضخمة والموت ، وانتهى هو نفسه كضحية « لمذهبه الخاص » ، مذهب العنف والادفكر .

لكن الحقيقة القائلة بأن هولم وهمنغواي كانا مخطئين تقريباً مثل ماثيو أرنولد ووليام موريس لا تعني أنه يجب أن نستبعد المدرسة « اللاعقلية » . فالقرن التاسع عشر أدرك الحقيقة الأساسية القائلة بأن الإنسان قد تطور بسبب قدرته على التحليل واستعمال الرموز . وهذه نقطة مركزية ذات أهمية عظيمة ولا يمكن تقريرها بدون تشديد . إنها نقطة مركزية بالنسبة لهذا الكتاب . هناك طريقتان أساسيتان يمكن للإنسان بواسطتهما أن « يفهم » العالم الخارجي : العقل والبدية . لكن لنعمن النظر في المعاني التي تتضمنها هذه الكليشيه . أنت تتعرف على وجه أخيك بالبدية وليس بالتحليل ، وبمعنى آخر بواسطة قدرة تشتمل على « جيشتالت » . قد يمكنك أن تتعرف إلى غريب بالإدراك التحليلي ، كأن تقول : « هذا الرجل شعره أحمر وأنفه مكسور » ، لذلك فهو لا بد أن يكون فلاناً الذي قابلته في الأسبوع الماضي » . لكن أسلوباً كهذا هو أسلوب غير مألوف . إن كل قدرات تعرفنا الأساسية تجيء عن طريق الإدراك الجيشتالتي الذي يحتوي على ما يعرفه هوسرل بعامل العمدية أو القصدية (أي أن نقرر بصورة غير واعية أية نواح أو ملامح من وجه إنسان ما نريد أن نلاحظها أكثر شيء) . وفي ذلك فإن البشر هم مثل الحيوانات .

لقد لوحظ أن طيوراً وحيوانات معينة تستطيع أن « تعد » إلى أربعة أو خمسة . وقردة البابون ، كما يقول آردري ، تستطيع أن تعد إلى رقم ثلاثة وهناك طيور معينة تستطيع أن تصل في العد إلى رقم ستة . ويمكن تقرير ذلك بواسطة اختبار بسيط . لنفترض أن جماعة من قردة البابون سطت على بستان

أو بيّارة وتصدى لها ثلاثة مزارعين فإن القردة ستهرب ، لكنها ستكون بالانتظار في مكان قريب . فاذا خرج اثنان من المزارعين الثلاثة وغادرا البيّارة بينما ظل الثالث يحرس المكان خفية فإن القردة ستدرك ان هناك ثالثاً يترصد لها ، ولذلك فهي لن تحاول الاقتراب من البيّارة خوفاً من الوقوع في الفخ . وإذا ما أعيد هذا الاختبار وكان هناك أربعة مزارعين ، غادر ثلاثة منهم المكان بعد محاولة السطو بينما تخلف الرابع وراح يترصد بالقردة ، فان القردة لن تلاحظ أو تدرك ذلك وستقوم بالسطو مرة أخرى وبذلك تقع في الفخ .

ويروي العالم الطبيعي الانكليزي لوبوك قصة مماثلة عن غراب أظهر أنه يمكنه أن يعد الى أربعة . ومن المعروف بصفة عامة انه إذا ما أخذت من عش ما بيضة واحدة فان الطير لن يلاحظ ذلك ، اما إذا أخذت بيضتان فان الطير سيهجر العش .

ولكن القول إن الطيور والحيوانات تستطيع أن «تعدّ» هو قول مضلل . فالعدّ يقوم على استعمال الأرقام والرموز مثل واحد واثنان وثلاثة ، كما أنه يشتمل كذلك على اجراء تحليلي يعتبر كل وحدة قائمة بذاتها ، كأن تلتصق بطاقة مرقمة على كل وحدة تقريباً . أما الحيوان « فيعدّ » بنفس الطريقة التي يميز بها وجه أليفه ، أي « باستيعاب المجموع الكلي والاعتماد على عمل العمدية فيه لكي يمكنه أن يحتفظ بصورة دقيقة أو شبه دقيقة عن ذلك المجموع . وهذا ما لوف أيضاً بالنسبة للكائنات البشرية . ففي « Kim » لكبلنج ، نرى كيم يدرب على أن يكون رجل استخبارات سري كفؤ بأن يطلب إليه أن ينظر إلى صينية عليها عدد من الأشياء ثم يحاول أن يعدّ ما رآه بعد عدة نظرات خاطفة . وهذا يتطلب المزيد من تدريب القدرة الجيشتالية . ويمكن للقارئ أن يجرب هذا الاختبار بأن يلقي نظرة خاطفة على أحد رفوف الكتب لمدة ثانيتين ثم يحاول أن يستذكر أكبر عدد أمكنه الاحتفاظ به في ذاكرته . ليس هناك وقت للعدد أو للإصاق « بطاقات » ذهنية على كل كتاب ، لذلك فإن عملاً مثل هذا يجب أن يترك كلية للقدرة الجيشتالية ، لبديهية الشكل . وهذه البديهية ضمن

حدودها وامكانياتها ، أسرع وأكفاً بكثير من العقل . فالعقل يحتاج الى تمنع خمس دقائق في رف الكتب ويحتاج الى تطبيق أرقام وأسماء على الكتب . وعلى كل حال ، فان العقل ، على كل بطنه السلحفائي ، هو الأكثر كفاءة في النهاية ، إذ يمكنه أن يستوعب كميات هائلة من المواد الغريبة - مكتبات بأكملها - في حين أن القدرة الجيشتالتية لا تعدو حدود رف واحد من الكتب . إن الحيوان لا يمكنه أن يدرك وجود أي معنى في الأساليب البشرية التفكيرية مثل اللغة والرموز الرقمية ، تماماً كما لا يمكن لرجل معدم أن يرى وجود أية حاجة لحساب في البنك أو لبوليصة تأمين على الحياة . فاللغة البشرية هي فخر لايماننا بقدرتنا على الجلد والاحتمال ولبعد نظرنا ، وتطورها البطيء هو دلالة على عدم ثقتنا الحيوانية الأساسية بأي اجراء الا بالاجراءات المباشرة البديهية .

لكن ما علاقة كل ذلك بنظرية الجنس وعلى الأخص بالسادية ؟

إن نقطة البحث الأساسية هنا هي : إن القدرة الجيشتالتية (وهو تعبير أكثر دقة من البديهية) تلعب دوراً صغيراً لكن لا يمكن الاستغناء عنه كلية في التطور البشري . والعقل هو الذي يقوم بكل العمل الحقيقي . ولآلاف السنين ، وربما للملايين السنين ، استخدم الانسان كلتا هاتين القدرتين بشكل متكافئ . ثم فجأة وفي غضون آلاف السنوات الأخيرة ، قرر الإنسان أن يغامر ويبرهن مستقبله ورأسماله بالعقل . وحتى على الرغم من ذلك ، فإن تطور العقل كان بطيئاً جداً . وإن رجلاً مثل ارسطو كان يمكنه أن يطلق ما شاء من التعميمات العجيبة دون أن يتجشم عناء فحصها والتأكد منها بواسطة «الاجراء السلحفائي» للتجربة والبرهان .

إلا أن الارتفاع المفاجيء العظيم في أسهم العقل حدث منذ أقل من أربعة قرون ، وارتبط بأسماء مثل اسماء غاليليو وكيبلر ونيوتن . ومنذ ذلك اليوم وهذه الأسهم ترتفع وتتضاعف حتى وصلت إلى آلاف أضعافها . لقد استمرت في الارتفاع طوال القرن الثامن عشر حتى بلغت ذروتها في القرن التاسع عشر . ولقد عبّر رجال مثل كومت وميل وماركس عن إيمان غير محدود بالأسلوب

التحليلي . بل إيمانهم وتفاؤلهم كانا من الكبر بحيث أنهم ، في غمرة ذلك ، التهوا عن رؤية القدرة الجيشتالتية ذات الأهمية الكبرى . لقد أعلنوا أن التحليل هو كل شيء وان الانسان لا يحتاج الا الى التحليل لكي يزيد من مكانته ويحس مجتمعه بغير حد . لكن ذلك يشبه القول إنه يمكن تأسيس اقتصاد بلد ما على الأوراق المالية كلية ، بدون وجود أرصدة ذهبية في البنوك . ذلك معناه قطع للجدور . ولذلك فلن يكون من المدهش أن تبدأ أعراض مرض خطير في الظهور على ثقافة مبنية على مثل هذه الأسس . ولن يتم أي تحسّن الا إذا أعيدت فكرة القدرة الجيشتالتية إلى مكانها الصغير . لكن الصحيح ، وهذه ، في الواقع ، هي الثورة الآخذة في التقدم ببطء ولكن باطراد في كثير من الحقول في المئة سنة الأخيرة .

وإنه لمن سوء الحظ أن الذي خلق النظرية الجنسية خلقاً كلياً تقريباً هو رجل يكاد يماثل جون ستوارت ميل في إيمانه بالتحليل وتعاميه عن الجيشتالت . إن ما أنجزه فرويد هو شيء يفوق الوصف والتصور . لكن فرويد مع ذلك ، وفي نواح عديدة ، هو أسوأ شيء حلّ بعلم النفس الحديث .

وهذه الاعتبارات تجعل بالإمكان طرح تعريف أساسي وشامل للوجودية . إن الجيشتالت هو أساس حيواننا ومن ثم تطورنا . فالجيشتالت (أو البدئية) هو جذور الشجرة ، والتحليل والمقل هما الشجرة نفسها ، أي الجزء القائم فوق الأرض . ولقد أعلن القرن التاسع عشر أن الشجرة لا تحتاج إلى جذور ، فعاد الوجوديون وأعلنوا بتحديد أن الجذور لا تحتاج الى الشجرة . (وهكذا هاجم كير كيغارد هيجل ، بينما أعلن هيدجر أنه مهم فقط « بالوجود المحض ») . ومع ذلك فهذه مواقف متطرفة عقيمة . إن أعظم المفكرين الوجوديين مثل نيتشه ورايتهد ووليم جيمس (يمكن كذلك اضافة اسم جون ديوي إلى هذه اللائحة مع بعض التحفظات) بنوا مواقفهم على النظرية المعقولة ، القائلة بأن الشجرة تحتاج الى جذورها في موضعها الصحيح ... تحت الأرض ، بالإلتصاق مع التربة الحية ، مع القوى الحيوية الأساسية . ولقد سلك كل هؤلاء المفكرين

طريقه الخاص في تقرير ذلك ، لكنهم كلهم كانوا متفقين تماماً على الفكرة العامة .

وكما قلت سابقاً ، فان ذلك ينطبق بشكل خاص على الجنس الذي سيبقى غير قابل للفهم بدون اتباع ذلك الاسلوب . وفي الفصول الأولى من هذا الكتاب حاولت أن أظهر فائدة هذا الأسلوب . لكن مشكلة السادية تبين وتؤكد أن هذا الأسلوب لا يمكن الاستغناء عنه . إن احتياج فرويد الى أن يبتكر نظرية رغبة الموت يكشف عن قصوره . لقد اكتشف الحاجة إلى أن يعمق مفهومه نوعاً ما لكي يفسر العدوانية ، لكنه لم يشأ أن يحاول تعميق نظريته عموماً . وهكذا فان رغبة الموت تبقى بمثابة النسر بين حمامات فرويد . وهذا هو عادة مصير أية محاولة لتقليص التعقيدات واختزالها في مفهوم واحد مبتسر جداً . (إن محاولة راسل ووايتهد لإخضاع كل الرياضيات للمنطق في Principia Mathematica مثال آخر على ذلك . لقد بقي « نظامها » ناقصاً غير متمم حين أخذت التناقضات الداخلية في الظهور ، لكن بعد أن حاول راسل عدة حلول وسطية على نسق رغبة الموت) . ما هو اذن البديل الوجودي لوجهة النظر الفرويدية ؟ إنه أولاً الحاجة الى ادراك أن الدافع الجنسي ليس هو القوة الانسانية الدافعة الأساسية . فهو ليس « أساسياً » أكثر من الدافع الى الإصلاح الاجتماعي أو الى مزاولة الرياضيات . وقد يكون أقوى ، لكن ذلك شيء يختلف كلية . لقد أعلن فرويد أن الجنس هو مولد الطاقة العالمي وان كل « التيارات » الأصغر والأقل شأنًا تنبثق منه . وقد حاول أدلر أن يعدل من هذه النظرة وذلك بأن يؤكد أهمية إرادة القوة والحاجة إلى التكيف الاجتماعي واحترام النفس . ويشير كتاب اردري إلى أن تلك النظرة أخذت تظهر كحدث بديهي في علم الحيوان . لكن حتى ذلك ليس أساسياً بالقدر الكافي . وبويس على الرغم من صوفيته أو روحانيته الغامضة ، هو أقرب إلى فكرة موحدة (بكسر الحاء) أساسية حين تحدث عن « سببية أولى » ذات محورين إيجابي وسلي . لكن ذلك يجب الاتّ فهم حرفياً جداً . فان الحقيقة بالنسبة لعالم النفس الوجودي

قد تبدو شيئاً مثل ذلك :

مولد الطاقة هو دافع تطوري بلغ من القوة الهائلة حداً أنه من المستحيل تقريباً أن ندلي بأية تأكيدات أساسية عنه .

لقد كتب هولم يقول : - « إن عملية التطور يمكن تفسيرها فقط بأنها ادخال المزيد والمزيد من الحرية في المادة ... وفي الأميبا ، إذن ، تستطيع أن تقول إن الدافع قد صنع منفذاً صغيراً يستطيع النشاط الحر أن يدخل من خلاله إلى العالم ، وأن عملية التطور كانت هي التوسع التدريجي في هذا المنفذ » . لكن المسألة ليست فقط قيام قوة عاتية بتوسيع المنفذ . إن رغبة الحياة هي شيء يشبه ثوراً في دكان خزف أو ربما يمكن وصفها بفيل يحاول أن يتعلم الخطاطة بالإبرة . وبخفة وسماحة باهرتين بالنسبة لقوة هائلة مثلها ، فإن رغبة الحياة استطاعت أن تبني سلسلة دقيقة من الصمامات والسدود التي يمكن تشبيهها بالمصاهر الكهربائية التي تمنع أي خلل في التيار الكهربائي من أن يؤدي إلى حريق في المنزل . وهذا هو بالضبط دور الجهاز العصبي الذي يقوم بالربط والتنسيق بين اليد والعقل كما يقوم بدور « المصهر » الذي يمنع قدراً كبيراً من الحياة ، من الانحراف إلى داخل العقل بحيث يسبب وعياً ذا عمق وجسامة عظيمين يفوق كثيراً ما تتطلبه مهام التطور الوضعية . كان حاكماً مستبداً قد وضع حداً معيناً لازدياد الأجور ونمو الرفاهية بحجة أنه لو أصبح كل الناس أثرياء فلن يبقى هناك أحد لكي يقوم بأعمال الكناسة وتنظيف المجاري .

ولكن ماذا عن السادية ؟

مقنناً . إن « قيمنا » (أي مفاهيم الخطأ والصواب والحق والباطل) كلها مرتبطة بالفرائز ، والفرائز بدورها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالجهاز العصبي وبالصمامات المختلفة التي تقوم بدور « منع دخول » القدر الكبير من قوة الحياة . ويشير اردري إلى أن غريزة النظام هي غريزة عامة في عالم الحيوان ، حتى حين لا تكون هناك حاجة اجتماعية إلى الأسبقية والتسلسل المقامي . إنها قانون

أساسي من قوانين الطبيعة وهو لا بد أن يكون قانوناً مجحفاً بالنسبة للقلائل إذا ما أريد منه أن يكون عادلاً للجميع . فالأعصاب والفرائز مكرسة كلها لحفظ النظام ومنع الفوضى . ومع ذلك فمن الخطأ أن نتحدث وكأن هناك تعارضاً أساسياً في الهدف بين الأعصاب وبين « الدافع الحياتي » ، فنظام الصمامات برمته هو من خلق الدافع الحياتي .

ومع ذلك ، وكما شاهدنا تكررأ في هذا البحث ، فهذه الصمامات وميكانيكيات التكرار كثيراً ما تظهر كطواغيت فيما يتعلق بالجنس . وهكذا فعندما تضعف الفرائز بسبب ازدياد مفاجيء في تعقد حضارة ما ، يصبح من الممكن الثورة على « الصمامات » . وحينما تضعف الفرائز فإن المخلوق الحي يتجه طبيعياً إلى مصدر القيم ، الى الدافع الحياتي نفسه . ويصبح على الأعصاب المتعبة أن تخفف من قبضتها ومن قيودها على الدافع الحياتي .

ولكن إذا كانت الأعصاب والفرائز هي « رجال البوليس » فينا ، فهي كذلك مصدر القوانين فيما يتعلق بالخطأ والصواب . إن قوة الحياة نفسها لا تهتم في قليل أو كثير بأخطائنا أو صواباتنا الاجتماعية . إنها كقيصر فوق القانون ، وهي تترك مهمة التحقق من أن أتباعها يطوعون القانون لرجال بوليسها . فإذا أصاب رجال البوليس هؤلاء الوهن أو إن تم تجاوزهم وعدم الالتفات إليهم ، فإن أي شيء قد يحدث . ويكتشف القابع المندھش فجأة أن الدافع الحياتي ليس مهتماً بالمحرمات الاجتماعية و « بأفكار الخير والشر » . ويعبر نيتشه عن ذلك تعبيراً تاماً في رسالة لأحد أصدقائه ، يحدثه فيها عن أنه كان يسير يوماً على قمة هضبة حين أحس باقتراب عاصفة ، فاضطر للالتجاء إلى كوخ قريب حيث وجد رجلاً يقتل طفلين . وفي الأحوال العادية فإن منظر الدماء كان سيروعه وسيفرّه ، لكن العاصفة انفجرت في تلك اللحظة . وكتب نيتشه يقول : « غمرني شعور لا يمكنني وصفه بالحمية والسعادة ... البرق والعاصفة هما عالمان مختلفان ، قوى حرة بلا أخلاقية . ارادة صرفة بدون تشويش من العقل ... يا لها من سعادة ويا لها من حرية ! » .

وللحظة واحدة فإن العنصر الديونيسي في الحياة تخطى العنصر الأبولوني ،
واندلقت المياه من الوعاء .

هذه كلها مجرد تشبيهات ورموز طبعاً ، ولذلك فإن لها محاسن ومساوىء
التشبيهات والرموز المعتادة . إلا أنها مع ذلك تفسر طبيعة السادية بصورة أكثر
مباشرة من أي قدر من اللغة التحليلية . إن الأعصاب والفرائز مثل الرقباء
الذين يجرمون الكحول ، والسادي هو الرجل الذي وجد مصدراً للكحول
المصنوعة سراً . وعلى عكس الكحول العادية فإن هذه الكحول تأتي بدون
ضريبة « أخلاقية » .

وهكذا يتم تخطي كل ميكانيكيات وآليات الذنب التي ترتبط بالفرائز .
وهذه الكحول كمعظم الكحول المصنوعة سراً ، أكثر تسميةً بكثير من الكحول
التي تصنع بصفة مشروعة . وهذا هو إذن سبب انحلال وقدهور أمثال هيث
وكريستي .

وماذا عن الرأي الذي أنفى به كل من بويس وبوهم من أن هناك نوعين من
الطاقة تنبعان من « مولد الطاقة » ؟ الواقع ان هذه الفرضية غير ضرورية لتفسير
السادية . فالأعصاب تكون الدائرة الكهربائية « المشروعة » والطاقة تسري في
اتجاه واحد ، من الموجب الى السالب . فإذا ما تمّ تخطي ذلك ، فلا يدري أحد
ما الذي قد يحدث . إن فكرتنا الخاصة عن الخير والشر مرتبطة بسرّيان الطاقة
ذي الاتجاه الواحد هذا . فإذا ما تراكت الطاقة وارتدت على نفسها كالمدّ ،
فسيبدو الخير والشر وكأنها قد انعكسا .

وعلى ذلك فإن بويس مصيب وغير مصيب في إطلاقه صفة « الازدواجية »
على الدافع الحياتي . إن التقليد الديني في الغرب يصرّ على أن « الله خير » . وقد
يكون هذا صحيحاً ، ولكنه على وجه التأكيد ليس صحيحاً بمعنى أن « الله
أخلاقي » . فما هو « خير » بالنسبة للدافع الحياتي هو فوق ادراكنا كلية وعلاقته
بفاهيمنا عن الخير والشر هي علاقة مبهمّة .

الإلا أن بويس مخطيء من ناحية أخرى ، فلماذا يكون من الضروري أن

نفترض وجود نوعين من الطاقة في الدافع الحياتي يرمزان الى الطيبة والقسوة ؟
فالكرامية هي عادة طاقة حيوية أصابها التلف فتمتعت . وما علينا إلا أن
نفكر في الحسد والعقلية الصغيرة المحدودة التي تتميز بها المجتمعات الصغيرة لكي
تدرك أن « الشر » غالباً ما يكون اسماً آخر للحبوط أو السأم ، وهذا هو ما
يعنيه بليك حين يقول : « حين ينغلق الفكر في كهوف » ستظهر عندها جذور
الحب في أعماق الجحيم . « أو لم يكن استبداد وقسوة الطغاة الشرقيين تابعاً من
السأم لدى ما يملكون من بأس وسلطان دون أن يكون هناك أي هدف ؟ إن
العادات الجنسية ، كالعادات الأخرى ، غالباً ما تكون الشيء الوحيد الممكن
عمله .

وسيتضح هذا أكثر لو سردنا هذا المثال :

يتحدث بول دي ريفر عن حالة غريبة من البهيمية تتعلق بفتاة و كلب من نوع
الكلاب البوليسية . وكانت الفتاة سليمة الصحة والتكوين ، لكنها كانت ذات
ميول جنسية قوية . وكثيراً ما كان يثيرها منظر الجياد في مزرعة قريبة وهي
تتزاوج . وفي ليلة ما نزعت ملابسها لترتدي قميص نومها ، عندما دخل كلبها إلى
الغرفة وأبدى اهتماماً ملحوظاً بأعضائها التناسلية ، وهنا سمحت له بأن يلعبها ،
ثم ساعدته أخيراً على أن يضاجعها جنسياً . وسرعان ما تحولت هذه الممارسة إلى
عادة . وحين ضبطت بعد مدة ، أقرت بأنها لم تعد تنجذب إلى الرجال ، وإن
الحيوانات هي وحدها القادرة على إثارتها جنسياً .

ومع ذلك فسيكون من عدم الدقة ، القول بأن هناك دافعاً جنسياً معيناً
عند النساء يتجه الى الحيوانات بدلاً من الرجال ، وإن هذا الدافع قد يصل في
ظروف معينة إلى حد الشذوذ . وبالنسبة لهذه الفتاة فإن الدافع الجنسي الطبيعي
فيها قد « تسمّر » في مرحلة باكراً على منظر جواد يمتطي فرساً .

وقد أقرت بأنها كانت تنساق في أحلام جنسية ، تتعلق بعملية جماع بينها
وبين أحد الجياد أثناء نكاح الكلب لها . إن عضو الكلب التناسلي أصغر بكثير
من أعضاء معظم الرجال التناسلية . لكن المتعة بالنسبة للفتاة كانت عملية

البحائية بالتواصل والإرتباط بين الجواد ، والنكاح والكلب . ذلك أن الكلب كان « أفضل بديل موجود » للجواد ، لأنه أقرب إلى الجواد من الرجل . وهكذا يصبح البديل الأفضل في الجنس عادة وحاجة .

ويمكن تشبيه ذلك برجل فقير جداً اعتاد على أن يتعاطى كحولاً رديئة رخيصة حتى إذا قدم له بعض الويسكي ليشربه وجد أن مذاقه لا يروق له ، فمفّ عنه ؛ والكحول الرديئة هي كحول كالويسكي أيضاً ، وتفضيلها يعود سببه إلى شوائبها وعدم نقائها لا إلى محتواها الكحولي .

وهذا الحال ينطبق على السادية . إن أسباب الإدمان على « الخمر المهرب » غير المصنوع في معمل للخمور العديدة المتنوعة ، يعود إلى الرقواء ، أو إلى الفقر . وفي معظم الحالات فإن « الفقر » هو أحد الأسباب الرئيسية ، وهو المسؤول كذلك عن قدر كبير من السادية الإجرامية . ولكن كيف ينشأ الدافع السادي في إنسان ما في المقام الأول ؟ ولماذا مثلاً كان كورتن هو السادي الوحيد في عائلة مكونة من ثلاثة عشر شخصاً ؟ إن الانحلال الوراثي يلعب دوراً هاماً ، لكنه يؤدي في الغالب إلى بعض الوهن في الدوافع الحياتية وليس إلى رغبة في القسوة والإيذاء . والسادية تنبثق من رد فعل ، وتأثير الدافع الديونيسي على جهاز عصبي أصابه الوهن . والذي نستطيع أن نقرره بقدر معرفتنا هو أن الناس الذين يولدون وفيهم القدرة على تلقي « دقات » مفاجئة من الدافع الحياتي غير الخفف هم من القدرة كالتوائم السيامية . ولو تم توجيه وتسيير حيوية كورتن الزائدة بعناية وترتيب بحيث أبقيت بعيدة عن الجنس بقدر الإمكان ، فمن المحتمل أن يكون كورتن قد أصبح انساناً ناجحاً ومرموقاً بدلاً من مجرم فظيع . إن الدافع الإنحلالي كان قابعاً في كثير من الرجال النابغين . والمركز دي ساد هو طبعاً حالة متطرفة قد يحوز إلصاق صفة الإجرام بها . لكن إيزيدور دوكلس ، الذي كان يكتب بالاسم المستعار لوتريمونت ، يكاد يعتبر من أكبر الشعراء ، ومطولته المسماة Chants de Maldoror تتحدث بلسان أحد « اللامنتمين الرومانسيين » وتزخر بالتهويمات السادية التي لا يمكن اعتبارها « فناً » ، وهي

تهويمات منحلّة وريئة . والذي يقرأ شعر دوكلز يستحيل عليه أن يستسيغه كلية أو يقبل ما يقوله الا إذا كان يجد من المتع أن يقرأ مثلاً عن منظر طفل تقلع عيناه بالأظافر . ومع ذلك فإن مقاطع من المطولة المذكورة أعلاه يمكن مقارنتها بقصيدة رامبو المسماة « Illuminations » كأعظم ما أنتجته فرنسا من الشعر المرسل في أواخر القرن التاسع عشر .

وهذا هو الفارق بين العقلية الإجرامية والعقلية الخلاقة . العقلية الإجرامية تحتوي على عنصر ينبغي رفضه حتى وإن كان جزءاً من التعبير عن حيوية غير عادية . وبينما يمكننا أن نتقبل بذاءات رابليس أو فحش جويس كجزء « مستساغ » من إبداعها ، فأننا لا نتقبل أخطاء واشتطاطات نابغة ما حين يكون في مستهل حياته الأدبية ، بل أننا نفصل هذه الأخطاء والاشتطاطات عن الأجزاء الأحسن في كتاباته ، أو أننا قد نهمل هذه الكتابات تماماً لئلا نقلل من متعتها . إننا إذن نضع خطأ مميزاً بين ما هو ابداعي وما هو عرضي ، والمجرم الإنحلالي الحقيقي هو شيء عرضي كلية . وهو ليس طاقة حيوية تجري لسبب ما على التقيض من مفاهيم الخطأ والصواب فنياً ، بل إنه شيء يتميز عادة بإحساس محزن من السأم والتبدد . والتبدد حين يجري في الأجهزة الحية يكون كالسم . والسادية هي في حقيقة الأمر سمّ وليست جزءاً منفصلاً من الطاقات الحيوية . إنها ، كما قال فرويد ، تختلف عن « الانحرافات » الأخرى لأسباب ظاهرة . فاللواط هو مجرد سوء توجيه للدوافع الجنسية ، وربما يصدر عن عوامل جسدية كالهرمونات . وينطبق هذا على الفتيشية والنكروفيلية اللتين يمكن تبريرهما نوعاً ما على أساس أنها محاولتان لتحقيق تجربة جنسية « صرفة » خالية من العوامل المخففة المعتادة ، أي العوامل الشخصية والاجتماعية . وتأثيرهما الإنحلالي قد لا يزيد عن تأثير العادة السرية . لكن السادية هي ببساطة تسميم للدوافع الجنسية . إنها سمّ ذو أثر إنحلالي هائل وله قابلية التحول إلى عادة مستديمة . وفشل رجل مثل بويس في اجتثاثها من تكوينه وجهازه هو برهان مؤسف على عدم النضوج الذي يظهر مراراً في بواكير أعماله . (إن عملاً يحتوي

على مجموعة مقالات مثل *The Pleasures of Literature* مباهج الأدب ، يكشف عن بعض التشويش في التفكير واللغة ، وعن نزوع إلى الإيغال في شحطات أدبية مبهمه) . وكلا السادية والمازوكية مرض من أمراض الطفولة ، ووسيلة من وسائل تكثيف الدافع الحياتي .

ومع ذلك فإن انهيار « القيم » في مجتمعا ، الذي حمله نيتشه بعمق كبير ، لا بد أن يؤدي حتماً إلى زيادة في السادية ، وفي كل الانحرافات الجنسية الأخرى من العادة السرية إلى النكروفيلية . وينبغي أن ندرك أن هذا الانهيار هو في معظمه انهيار ثقافي . وثقافة مجتمع ما هي النوع من الثقل المقابل لضغوطه الاجتماعية . ولقد حققت العصور الوسطى شيئاً قريباً من التوازن التام عن طريق مجتمع زراعي بسيط وكنيسة ذات سلطان ونفوذ عظيمين . ومنذ ذلك الحين ، تغير الميزان إلى الحد الذي يجعل من مجرد إعادة احياء « الدين » أمراً عقيماً . فنحن نعيش في حضارة ذات ثقافة مادية أساسياً . وقد يقال اعتراضاً أن ثقافتنا التي تستمد جذورها من نيوتن وماركس وفرويد تكاد تكون منقطعة العلاقة بالنسبة المتزايدة للجريمة الجنسية والشذوذ . وهذا غير صحيح . فالحال الاجتماعية المحسنة تمنح حرية أكثر من قبل للذكاء أو العقل البشري . وأي رجل أو امرأة معتدل أو معتدلة الذكاء يمكنه أن يحوز على فرصة التعليم . ويطبيعة الحال فإن رجلاً ذا ذكاء نشيط سيهتم بنوابع الفكر والذكاء المعاصرين أكثر من اهتمامه بالنوابع الأقدم . وعدد النوابع المعاصرين الذين يؤثرون على معظم العقول المدركة هو عدد ضئيل بالفعل . فقبل ٢٥ عاماً كنا نجلد الأسماء السحرية في كتاب ت . س . البيوت وهولم وبودلير ودانتة ولافورج ونيومان الخ . فإذا أضفنا اليهم أسماء جويس وبيكس وبروست فسوف تكتمل القائمة تقريباً . وقبل جيل كانت الأسماء السحرية كلها ، أسماء أشخاص معاصرين : فرويد واينشتاين وويلز وشو وريما نيتشه . وقبل خمسين عاماً كانت الأسماء مثل كارليل ورسكين . وهذه المجموعات من الأسماء تترايط وتلتحم كلها بحيث تكون غطاء واحداً قد لا يمثل واحداً منهم . فمثلاً ، بعد عشرين عاماً من اعتناق نيومان

للديانة الكاثوليكية اجتاحت بريطانيا موجة من اعتناق الكاثوليكية ، وبعد قيام برناردشو وصحبه بتأسيس الجمعية القابية تكونت في انكلترا أول حكومة اشتراكية . ولهذا نجد ان نتائج وتأثيرات « التغيرات الثقافية » أعظم بكثير مما قد يبدو لنا . ومهما تكن درجة الصدق أو الصواب كبيرة أو صغيرة في هذه التعميمات ، فهناك شيء واحد جازم وهو أن أي تغير اجتماعي كبير يجب أن يسبقه تبدل كبير في « القيم » ، أي تغير ثقافي . فاذا كانت إحدى المشاكل الكبرى هي مشكلة الإزدیاد في الجرائم الجنسية ، فان مشكلة الجنس برمتها يجب أن تبحث ببلغة أكثر دقة ، وأكثر مرونة .

ملاحظة : مشكلة منع الجريمة الجنسية .

سبب الإزدیاد المطرد في عدد الجرائم الجنسية في أوروبا وأميركا القدر الكبير من القلق والجزع والخوف . ومن الإنصاف أن نقول بأن كل أصناف الجريمة قد ازدادت ، إلا أن الجريمة والعنف الجنسيين قد سجلا أكبر نسبة من الإزدیاد .

والأرقام هي كما يلي :

كان عدد الجرائم الجنسية عام ١٩٣٨ في انكلترا ٥٠١٨ جريمة . وفي عام ١٩٥١ ارتفع العدد الى ١٤٠٦٣٣ جريمة ، ثم ارتفع الى ١٧٠٧٨ عام ١٩٥٥ . ومنذ ذلك الحين والنسبة ترتفع بصورة منتظمة تقريبا بحيث تسجل ازدياداً بنسبة « ٣٠٠ » بالمئة وقد ازدادت عمليات السطو والإختلاس بنسبة « ٥٠ » بالمئة فقط . أما جرائم العنف فقد تضاعفت ثلاثة اضعاف^(١) .

وفي الولايات المتحدة ما يزيد على ١٥٠٠٠٠ اعتداء جنسياً في العام . والسبب هو بلا شك ، الضغوط والتوترات الاجتماعية المتنامية في مجتمعنا الحضاري الآلي،

١ - هذه الأرقام مستقاة من الكتاب السنوي للموسوعة البريطانية لعام ١٩٥٦ ، إلا أن الإحصائيات الأميركية غير متوفرة مع الأسف ، لكنها تبين على كل حال ازدياداً مماثلاً . وآخر إحصائيات الجريمة في بريطانيا ظهرت عام ١٩٦١ وتبين زيادة تبلغ (٢٦) بالمئة . « المؤلف »

والخطر الدائم المفزع الذي يهددنا بحرب ذرية فانية ، والنزوع الى مزيد من المركزية . وهذا ما يزيد من شعور الفرد « بالتفاهة » ، و « غير الاصحاء عاطفياً » هم أول من يستجيب الى هذه الضغوط . ولما كانت النزعة الإجرامية هي في جوهرها حالة من حالات عدم النضوج الاجتماعي ، فان النتيجة المباشرة هي إذن زيادة في الجريمة . ومن الملاحظ كذلك أن عدد المجرمين « الأحداث » قد ازداد . وقد أشار راينهارت إلى هذا الأمر حينما قال : « حيث تظهر الشهوة كعامل ، فهي تبدو كأنها صارت عضواً تابعاً لعامل مسيطر ، وهو الشهوة التي تسعى وراء لذة القيام بجريمة قاسية مرعبة » . وقضية ليوبولد هي مثال واضح على كلمات راينهارت السابقة .

ولكن المشكلة معقدة وينبغي دراستها في تفصيل .

إن الفكرة البسيطة العادية عن الجريمة ، والتي كانت شائعة في مطلع هذا القرن ، هي أن الجريمة حصيلة الفقر . فاذا ما تغيرت الأحوال الاجتماعية وتحسن نظام التعليم فستختفي الجريمة . وهناك بعض الصحة في ذلك كما يستدل من حالة كورنث الألماني . إلا أن تحسين الأحوال الاجتماعية لن يكون الحل الكلي والنهائي إذا رافق هذا التحسين إزدياد في التصنيع وبالتالي إزدياد في الضغوط الملائمة له والتي تخلق شعوراً بتفاهة الفرد في الفرد ذاته . وبينما قد يؤدي الإصلاح الاجتماعي الى تخفيض نسبة السرقات ، فإن تأثيره على الجرائم الجنسية قد يكون عكسياً . وفي انكلترا كان الفقر منتشرأ في القرن الثامن عشر ، وكانت الجريمة الجنسية العصرية تكاد تكون غير معروفة كما يستدل من كتاب Newgate Calendar chronicles of Crime بلهام .

وفيدوك ، أول رئيس للأمن العام في باريس ، حين دوتن مذكراته ذكر مئات من قضايا القتل والسرقة التي قام بحلها ، ولكنه (كما ذكر) لم يسجل جريمة جنسية واحدة . وتجدر الإشارة هنا الى ان المنحليين المعروفين في التاريخ ، مثل تايبيروس وجيل دي راي والمركيز دي ساد ، كانوا من فئة أصحاب الامتيازات والثراء وليس العكس . ومعظم الجرائم الجنسية المدونة التي حدثت

في القرن الثامن عشر كانت جرائم اغتصاب واختطاف قام بها بعض النبلاء . وفي يومنا هذا ، فالجريمة المنحرفة المثالية تأتي غالباً من السأم وتدعى « جريمة السأم » أي الجريمة التي ليس لها أي دافع معين والتي تنتج عن « الحرية الزائدة » وعن فقدان أي احساس بالهدف .

ويقترح دي ريفر « وجوب إيجاد قوانين لمنع انتشار مختلف الأمراض الوراثية الفاسدة » . فالجرمون الجنسيون ينحدرون غالباً من سلالة من السكيرين والمصابين بالصرع وما شابه ذلك . ومرة أشار البروفسور جوليان هكسلي الى ان المجتمع لا بد من أن يتجاوب في القريب مع فكرة انتقاء النسل لإنتاج مستوى أعلى من « المدراء الإداريين » ويمكن اعتبار فكرة دي ريفر رديفاً طبيعياً لاقتراح هكسلي هذا . فإذا كانت القرائات والوصلات « المرغوبة » ستشجع ، فمن الواضح أن ينبغي عدم تشجيع القرائات غير المرغوبة .

وفي الوقت ذاته ينبغي تكريس وقت وجهد أكثر لدراسة العقلية الإجرامية ، فالدراسات الماثلة للدراسة التي أجراها البروفسور بيرغ عن كورتن هي شيء نادر جداً . ويحوز اعتبار مبادئ التحليل الفرويدية القديمة حائلاً دون معرفة أوسع بعالم الجريمة . ونحن بحاجة الى إعادة النظر في بعض هذه المبادئ . (وسيبحث ذلك بصورة أوسع في الفصل القادم) .

وحتى الآن فإن الإشمئزاز والارتياح اللذين تثيرهما الجريمة الجنسية قد عملا على تعقيد مشكلة الجريمة الجنسية . ولا شك أن الحملة الواسعة التي نظمها الألمان عام ١٩٣٠ لإنقاذ حياة كورتن ، على الرغم من فظاعة جرائمه ، هي شهادة على سعة ادراكهم ، فهي على وجه التحديد اعتراف متمدن بأن قتل القاتل ليس حلاً . فالجرم قد يستطيع أن يكون « مفيداً » للمجتمع رغم كل جرائمه ، إذا ما حُللت عقليته بعناية للوصول الى معرفة الأسباب النفسية والاجتماعية للجريمة . وفي اميركا بالذات فإن معالجة القضية عقيمة وجامدة بحيث تريد في تعقيد مشكلة الانحراف الجنسي . (يمكن ملاحظة ذلك من اللهجة الاخلاقية القوية التي تتضمنها بعض الكتب عن المعتدين الجنسيين ، وهي لهجة توحى لنا أحياناً ،

بأن الكاتب يحاول أن يقنع القراء بأنه لا يكتب عن شغف مريض بموضوع بحثه .) ومثل هذه الأشياء تولد في المحرم الجنسي الشعور بأنه خطير صاحب مشا كل خلقية مستعصية على الحل .

والمقطع التالي المتقول عن راينهارت يوضح هذه النقطة ، وهو يتعلق برجل في الرابعة والثلاثين من عمره ، حكم عليه بالسجن لمدة أربع سنوات لنكاحه صبياً في العاشرة من عمره :

« ما زال ديل يبحث عن منفذ لورطته وحيرته . وقد انغمس في الدين علته يجد خلاصه فيه ، يدعمه في ذلك أفراد من عائلته وبعض من أعضاء الكنيسة الذين يقومون بمساعدته للتأهب في الانخراط في سلك الكهنوت بعد اطلاق سراحه . وبينما لا يوجد هناك أي أمل له في تعديل ميوله الجنسية بحيث يمكنه أن يحقق علاقات جنسية « طبيعية » مع الجنس الآخر ، وهو يأمل في العيش بشكل سعيد ومفيد « كأعزب متبذل قدسي » ، ولكنه يخشى أن يصبح تعلقه الجنسي بالصبيان وعدم قدرته على التسامي لتصعيد ميوله الجنسية بواسطة « مخارج مقبولة اجتماعياً » - أن يصبح مصدرراً لصراع نفسي حاد في داخله ، بقية عمره . »

ومع أنه يستحيل أن ندلي بأي حكم في هذه القضية بدون معرفة المزيد من التفاصيل ، إلا أنه يبدو أن ديل قد اختار طريقاً للخلاص قد يكون أكثر خطورة من الجناية الأصلية . ونتيجة مثل هذه القرارات قد تكون مربعة في كثير من الأحيان^(١) .

وإذا أمكن لدليل أن يتقبل ميوله اللواطية كشيء « طبيعي » بالنسبة له ، وأن يجد متنفساً لهذا الميل في دوائر تعتبر اللواط شيئاً عادياً ، فقد يختفي

١ - في مدينة بليموث بإنكلترا أعيد أحد القسس الى مركزه في الكنيسة بعد أن أمضى مدة في السجن لاعتداله جنسياً على صبي صغير . وبعد عودته شرع في انشاء ناد سري للواط بين الصبيان الذين ينشدون في جوقة الكنيسة . وكان يمنح كل من يصبح أهلاً للعضوية أرنباً واحداً . وأخيراً ضبط ووجهت اليه تهمة ممارسة النكاح مع ١٠٧ أولاد من صبيان الكورس ، كانوا كلهم أعضاء في « نادي الأرانب » . « المؤلف »

صراعه الذاتي تماماً ويتلاشى معه احتمال قيامه باعتداءات أخرى على القاصرين .
وليس من المستغرب في مثل هذه الظروف أن نجد بأن معظم اللواطيين في
أميركا يفضلون التجمع في المدن الكبيرة مثل نيويورك وواشنطن وشيكاغو
ولوس انجلوس ، حيث يساعد الإحساس بالإنتماء إلى جماعة ما ، على التخفيف من
وطأة الضغط الاجتماعي .

ويورد راينهارت عدداً من حالات الاعتداء الجنسي كانت الأحكام القضائية
فيها غير متناسبة على الإطلاق مع الجنايات . هناك مثلاً قضية جلين الذي ذهب
إلى إحدى صالات الرقص ليلتقط فتاة ترضى بأن تشاركه متعة ليلية واحدة .
وبالفعل فقد وجد فتاة دلت تصرفاتها على أنها قد تحقق مسعاه ، وبعد قضاء
أمسية من الرقص والشرب ، تهيج جلين جنسياً ، وحاول أن يبدأ ، ولكن
الفتاة أفهمته بأنها لن تسمح له بأية مداعبة جنسية ، وهي تود أن تذهب إلى
بيتها دون أن يرافقها . فصمت على مضض وتبعها ثم أفقدها الرشد واغتصبها .
وقد حكمت المحكمة بسجنه مدة خمسة عشر عاماً . وكانت هذه أولى جرائمه
الجنسية علماً بأنه أدخل إحدى الإصلاحات بتهمة السرقة . وفي مثل هذه
الظروف ، فالحكم يبدو وحشياً . وقد وصف جلين من قبل ممثل الإدعاء بأنه
« رجل شرير ... لا يتورع عن ارتكاب مثل هذه الجريمة مرة أخرى » . في
حين أن المسؤولين في السجن وصفوه فيما بعد بأنه « بذعن للنظام والانضباط ،
ذكي متعاون وأهل للثقة » . وفوق هذا بأنه « ذو قدرة عقلية فائقة » . ومن
هذا يتضح أن مثل هذه المعاملة هي التي تخلق رجالاً مثل كورتن في المجتمع .

وهناك مثال آخر دفع السخط الخلقي الشديد إلى إصدار حكم قاسٍ على مجرم
جنسي ، وهو رجل في الثانية والأربعين من عمره ، عليه أن يقضي عشرين عاماً
في السجن لإعتدائه على ابنته ذات الخمسة عشر عاماً . وقد وصف رئيس بوليس
البلدة الذي اعتقله الرجل المذكور ، هذه القضية بأنها « أسوأ ما في السجلات » .
إلا أن طبيب السجن النفسي وصف المعتدي واسمه لوك بأنه « يحمل بعض
الصفات العدوانية البسيطة » ، وهو فيما عدا ذلك يخلو من أية « مزايا انحرافية » .

ويقول راينهارت في ملاحظة له ، بأن لوك يعتبر القضية تدخلاً لا مبرر له في شؤونه الخاصة . ويُستدل من التفاصيل التي يوردها راينهارت أن لوك كان عنده بعض المبررات لعمله ، فقد كان على علاقة سيئة مع زوجته التي تمنعت عن منحه أية متعة جنسية لمدة طويلة . وكان عندهما ستة أطفال ، وكانوا فقيرين جداً .
ويقول لوك : « لم نكن نستطيع الذهاب الى أي مكان تقريباً . كنا فقيرين جداً ، وعندنا الكثير من الأطفال . »

وقد علم لوك بأن فنتاه الكبيرتين كانتا تمارسان « علاقات جنسية كثيرة » . وكانت الفتاة ذات الخمسة عشر عاماً تعمل في مطعم رخيص ، وتمارس البغاء السري مع الزبائن لقاء أجر . أما ابنته الكبرى فكانت تعمل في معمل كبير وكان لها عشاق كثيرون . وذات يوم قرر لوك أن يحاول ممارسة الجنس مع ابنتيه ، فأبدت الفتاتان موافقتها على ذلك ، وضاجعهما مرات عديدة . وفجأة ارتابت الأم في الأمر ثم أبلغت البوليس الذي انتزع اعترافات من الفتاتين بعد تهديدهما بادخالهما الاصلاحية (لعلاقتها الجنسية الخارجية) . وكانت النتيجة أن حكم على لوك بالسجن مدة عشرين عاماً .

ويمكن القول جداً هنا بأن التهمة الحقيقية الوحيدة في هذه القضية هي ممارسة النكاح مع فتاتين قاصرتين ، إذ لا يمكن اتهام لوك بأنه قد أفسد أخلاق الفتاتين ، التي كانت فاسدة أصلاً . (في كورنويل بانكلترا حيث يكثر هذا النوع من الجنايات ، فإن الحكم يتراوح بين ثلاثة أشهر وخمس سنوات ، وربما لا يتعمد وضع الجاني تحت المراقبة فقط) .

وفي مثل هذه الظروف فإن « عدائية » لوك الطفيفة لها ما يبررها ، والملاحظات التالية التي أدلى بها لا يصح الحكم عليها بأنها دليل على تفسخه الخلقي غير القابل للتقويم . يقول لوك :

« لا يمكنني أن أرى لماذا يحق لأي إنسان التدخل في الأمر ، فنحن لم نضر أو نؤذي أحداً ... وأنا لم أفعل شيئاً أسوأ مما فعل غيري ، ولا أعرف لماذا هوى الناس الأمر الى هذا الحد . »

وعبر عن اعتقاده بأن النكاح بين الآباء وبناتهم أمر شائع « لكن الآخرين من الذكاء بحيث لا يمكن ضبطهم » .

ويلاحظ راينهارت بأن السجناء الآخرين « يحتملون وجوده بينهم باحتقار وازدراء » (ويبدو أن هذا هو موقف السجناء عامة من المعتدين الجنسيين) ، وقد كان سلوكه في السجن حسناً (لم تكن له سوابق أخرى من أي نوع) ، ولاحظ كاهن السجن بأن لوك لا يبالي بالدين ، وقد علّق لوك على ذلك قائلاً : « أنا على استعداد لأن أقوم بكل ما يطلب مني هنا ، لكنني لا أريد أحداً يقدم لي المحاضرات عن ما الذي ينبغي عليّ أن أفعل أو أن لا أفعل . »

ويورد راينهارت حالتين تبيّن بعض الفسق العائلي ، وتبدو فيها الأحكام قاسية جداً (في واحدة من الحالتين كان الحكم هو عشرون عاماً ، وفي الأخرى ثلاثون) . مع أنه في الحالتين كانت الابنة المعتدى عليها تبلغ الثامنة من العمر فقط . وفي إحدى القضيتين ، التي حكم على الأب فيها بالسجن مدة ثلاثين عاماً ، كان الأب قد مارس الجماع مع ابنته حين كانت في سن الثامنة إلى أن بلغت سن الخامسة عشرة (حين اكتشفت فجأة أنها حبل) . وفي الحالة الثانية قام الأب باغواء ابنتيه الاثنتين بعد أن رفضت زوجته أن تضامعه . إلا أنه بعد القاء القبض عليه (بشكوى من زوجته) ، عادت الزوجة فتولت إلى السلطات بإطلاق سراحه ، بينما راحت ابنتاه تبعثان برسائل تناشد السلطات فيها بإطلاق سراح « بابا العزيز » . ومن الواضح أن الزوجة لم تكن تتصور أن الحكم سيكون قاسياً بهذه الصورة . وهذا يؤدي إلى الافتراض بأن الزوجة لو أدركت عواقب شكواها لما ذهبت إلى البوليس للتبليغ عن زوجها . وهكذا تكون النتيجة أن مثل هذه الأحكام القاسية تدحر الهدف الذي صدرت من أجله أحياناً .

المشكلة إذن معقدة (في أميركا أكثر منها في أوروبا) ، وما يعقدها هو موقف السلطات القضائية من الجريمة الجنسية ، وإلى حدّ ما الضجة الأخلاقية المفتعلة ، وقد ألف فردريك ويرثام كتاباً قوياً ومقنعاً عنوانه « استعراض العنف ، The Show of Violence كرسه للتأكيد على أن دراسة الجريمة أهم

من معاقبتها ، والمشكلة طبعاً ليست بمثل هذه السهولة . فليس هناك العدد الكافي من المبادرات النفسانية أو من الأطباء النفسانيين للقيام بتنفيذ برنامج مفيد ومنسق لدراسة الجرائم والمجرمين . ومع ذلك فإن مثل هذا النقص يمكن تلافيه حالما يتم ادراك ضرورته .

ولتلخيص الأمر نقول : الارتفاع في نسبة الجريمة الجنسية هو من أكبر مشاكل عصرنا ، وهي نتيجة للضغوط التي لا مفر من نشوئها في مجتمع صناعي ، وهي دليل على حالة من المدمية الفكرية والاخلاقية ، وعلى الصعيدين الفكري والاجتماعي ، فإن « المجتمع » لا يمكن أن يفعل شيئاً بالنسبة لهذا الموضوع ، لأن رفاهية المجتمع الفكرية والاخلاقية كانت دائماً في أبدي عدد قليل نسبياً من الأفراد الموهوبين والمسؤولين الذين خلقوا وأبدعوا الفكر الجديد والاتجاهات الجديدة .

أما على الصعيد الاجتماعي فيمكن عمل الشيء الكثير بمجرد اعتبار المشكلة فورية وعاجلة وإدراك الحاجة إلى تعميق أكثر في دراسة الموضوع .

ملحق بالفصل السابع

لفت روبرت اردري اهتمامي إلى اختبار يلقي ضوءاً مثيراً على هذا الموضوع . وهذا الاختبار يدور حول تأثير ازدياد النسل بين الجرذان . وقد أجري في المعهد الوطني للصحة العقلية ، والذي أجراه يدعى كاهون . وضعت مجموعة من الجرذان في غرفة تحتوي على أربعة أقفاص كبيرة ، وبعد زمن قصير برز « زعيان » من الجرذان وراحا يتصرفان بدكتاتورية ظاهرة ، واختار كل منها قفصاً وأقام حريماً له فيه . وتحت هذه التجربة اضطرت بقية الجرذان إلى إيجاد مكان لها في القفصين الباقيين . وكانت تلك متسماً من الفسحة في المكان ، وتوفرت لها كمية كبيرة من الطعام ، لذا لم تنشأ مباشرة أية مضاعفات سيئة بين أفراد المجموعة هذه . الا أنه ، بعد زمن قصير بات يلاحظ أن القفصين

الذين يحتويان على « الزعيمين » وحريمها اخذا يتحولان إلى مجتمعين صحيحين وطبيعيين . في حين أن القفصين « المنبوذين » كانا يتحولان إلى مجتمعين فيها كل صفات الأحياء الفقيرة المتفسخة . فقد كانت نسبة الولادة فيها عالية بشكل غريب : (٨٠) بالمئة في واحد منها و (٩٦) بالمئة في الآخر .

لكن المدهش حقاً - وهو شيء يرتبط بهذا البحث - هو نشوء طبقة اجرامية بين الجرذان المنبوذة . وقد انقسم الجرذان إلى ثلاث فئات :

الزعماء الذين كانوا يقودون حياة شبه طبيعية . الذكور المحكومون الذين انزلوا عن البقية وعاشوا منزوين دون أن يظهروا أية ميول جنسية قوية . و « طبقة المجرمين » .

يقول اردري : « ولم يكن هؤلاء « المجرمون » متسلطين ، كما ولم يكونوا على استعداد للإنصياع أو الولاء . وكانوا يتجمعون جماعات جماعات لمطاردة الاناث ، كما كانوا يأكلون صفار الجرذان الذين هجرتهم أمهاتهم (مع أن الطعام كان متوفراً بكثرة كما قلت) . ومن الطريف أن هناك في حياة الجرذان الجنسية فترة من العزل والتودد قبل عملية الجماع . وقد حافظ الجرذان المتنفذون على هذه العادة حتى في الأقفاص المزدحمة ، لكن المجرمين لم يقوموا بذلك . فمع أنهم لم يقاوموا أبداً سلطة الجرذان المتنفذين إلا أنهم لم يستكينوا أبداً كالجرذان المستسلمين . وقد قال كاهون عنهم « بأنهم ذوو نشاط مفرط وذوو قابلية جنسية مفرطة وكذلك لواطيون . ولقد تحولوا إلى مفتصبين جنسيين وانتهكوا كل عادة جنسية » .

وهذا المثال يشبه إلى حد مدهش الاختبار الذي أجراه كارينتر على نوع من القردة . لقد اكتشف علماء الحيوان منذ زمن أن « غريزة امتلاك الأرض » هي من أقوى الغرائز الحيوانية ، بل قد تكون أعمق حتى من غريزة الجنس . وقد لاحظ عالم الحيوان كارينتر ذلك ، حين قام بانزال عدد كبير من القردة في إحدى الجزر الواقعة قرب بورنوريكو وفي السفينة التي نقلتهم إلى الجزيرة داهم القردة شعور يشبه « الافلاس الاخلاقي » لحرمانهم من بيئتهم الطبيعية على ما يبدو ،

فراحت الامهات تتشاجر مع أطفالها من أجل تنف من الطعام ، وامتنع الأزواج عن حماية زوجاتهم والدفاع عنهن . لكنهم ما أن نزلوا الى الجزيرة حتى قسموا الجزيرة إلى مناطق فيما بينهم ، وانقسموا هم إلى قبائل وجماعات ، وعادت غرائزهم إلى طبيعتها .

وكلا المثالين يمكن اعتباره مرادفاً معقولاً للمجتمع في يومنا هذا . والشيء المهم الذي ينبغي علينا أن نلاحظه ، هو أن الجرذان المجرمة كانت تمتلك طعاماً ومساحة وافرين . أي أن تلك لم تكن حالة من تمرد المحروم . فكل ما حرمت منه هو قدرة التسلط واحترام الذات ، حيث أحست بعدم أهميتها . والواضح أنها كطبقة كانت أقل من طبقة الجرذان المتنفذة ، ولكن أعلى درجة من الطبقة الحكومية والمستسلمة .

والمنزى المفلق لكل هذا يرد في خطاب القاء الدوس هكسلي في مؤتمر للعلماء والمفكرين ، في الثاني من كانون الأول عام ١٩٦٢ بمدينة سانت باربرا . وقد أشار هكسلي إلى أنه بينما ضاعف العالم عدد سكانه المثنيين وخسين مليوناً في السابق خلال (١٦٠٠) سنة ، فإن عدد سكان العالم يبلغ حالياً ثلاثة آلاف مليون نسمة ، وما أن ينتهي هذا القرن حتى يكون هذا العدد قد تضاعف . وما أن يحل عام (٢٠٠٠) حتى تكون الولايات المتحدة قد أصبحت « مدينة هائلة واحدة » ، أما الأقطار الأكثر فقراً فازدياد النسل فيها يجري بنسبة أعظم من البلدان المتطورة ، وهكذا يصبح خطر الحرب أمراً قائماً . وفي مثل هذه الظروف فإنه يبدو من المستحيل أن نأمل في حدوث أي انخفاض في نسبة الجرائم الجنسية .

ومن الطريف أن نلاحظ ما اكتشفه كاهون من أن نسبة من الجرذان المجرمة تحولت إلى اللواطية . وهذا يفسر سبب ازدياد اللواطية في « الحضارات المتفسخة » .

« ليس هناك أسهل من أن تحكم بما له جوهر
وقيمة ، لكن أن تفهمه هو أكثر صعوبة » .

هيجل

الفصل الثامن

السيكولوجية الوجودية

موجز تاريخ علم النفس . فرويد ، يونج ورائك ،
السيكولوجية الوجودية : تاريخها وتطورها . قضية فتاة
غير شرعية . قضية ميدارد بوس عن المريض الذي كان
يعاني من العادات الرغمية . الحالة التي يوردها جبساتل عن
الرغمية . « الحياة الحلوة » لفليني ، وألم شتاينر .
دوستوفسكي وبريوسوف . الخلاصة .

حان الوقت الآن للحديث عن أساليب وأفكار السيكولوجية الوجودية . فهي ذات أهمية رئيسية بالنسبة للبحث الذي يبسطه هذا الكتاب . ويمكن القول بأن السيكولوجية الوجودية هي في الواقع موضوع البحث الرئيسي ، والجنس لم يكن الا المدخل الذي اختير للولوج إليها . والأسلوب الذي بحث فيه موضوع الجنس في هذا الكتاب لا بد وأن يكون قد أهل القارىء للمفهوم الجديد لعلم النفس الذي طوره كل من منكوفسكي وشتراوس وفون جبساتل وبنزوانجر وستورث وبوس ، وكهن وغيرهم في المانيا وسويسرا وفرنسا وأميركا .

وعلم النفس بمفهومه الحاضر نشأ وتبلور على مدى المئة عام الماضية . ومن الجدير أن نلاحظ بأن نموه رافق تطوّر ونمو المجتمع الصناعي .

والاستجابة الناقصة وغير الكافية لبيئة تزداد تعقيداً تسمى نيوروسية . وهذا لا يعني أن « النيوروسية » لم تظهر أول مرة الا في القرن التاسع عشر . فالنيوروسية هي علاقة حيوية الكائن بتعقيد البيئة التي يعيش فيها . وهي درجة نجاح أو فشل الإدراك والاستيعاب . ومن الناحية النظرية ، فإن أي كائن حي يستطيع أن يتعرض للنيوروسية في أي وقت ، ابتداءً من جرثومة الأميبا فما فوق .

وفي انكلترا تمكن العالم النفساني جيمس وورد من انتقاد الموضوع ، من آلية المدارس القديمة وابتكر اسلوباً أكثر فردية ، ينسجم مع اسلوب برنتانو أستاذ هوسرل . وقد تابع رجال مثل جورج فردريك ستاوت ووليم مكدوجال العمل الذي بدأه وورد . وفي دراسة قصيرة بعنوان « الفوضى الحاضرة في علم النفس » ، « The Present Chaos In Psychology » طرح مكدوجال فارقاً

مفياً. يمكن اتخاذه أساساً للسيكولوجية الوجودية . وقد أشار مكدرجال إلى أنه كانت هناك مدرستان رئيسيتان للفكر السيكولوجي (والتسميات منقولة عن نيتشه) ، أي المدرسة الميكانيكية أو الآلية ، والمدرسة الحيوية . وفي عصرنا الحديث فإن الاتجاه الآلي يبتدىء بديكارت ويستمر عن طريق سبينوزا ولوك وهيوم وهارتلي وميلز وسبنسر وبين ، حتى يصل إلى نظرية برتراندرسل السلوكية . وبالمناسبة فإن راسل يتعرض لهجوم عنيف ، فهو يتهم بأنه هبط بالسلوكية (ذلك القزم الحقيق المسخ) إلى « أقصى حضيض العادية والتفاهة » . أما الاتجاه الحيوي أو العضوي فهو روماني في أصله ، وهو يبدأ بباسكال وبوهم مروراً بفوته وشوبنهاور ونيتشه وبرغسون ووليام جيمس وفرويد وهوسرل . ومع أن فرويد ويونج وأدلر ورائك يمكن وضعهم أوتوماتيكياً ضمن المجموعة الثانية ، إلا أنهم يكونون أقلية في الواقع ، لأنه يمكن إضافة المزيد من الأسماء الهامة ليس بينها واحد ينتمي إلى حركة التحليل النفسي (وعلى سبيل المثال كوفكا وويرثايمر وكوهلر ، مؤسسو نظرية جيستالت) .

إن المثقف المصري يميل إلى أن ينسب علم النفس إلى فرويد وتابعيه . وفي الواقع إن فرويد مدين بشهرته إلى الطبيعة المثيرة لنظرياته وما جلبته من دعاية . كما عزي إليه فضل « ابتكار » أشياء كثيرة هي في حقيقة الأمر من الممتلكات المعروفة لعلم النفس الحديث .

(بل إنني قرأت بأن فرويد كان أول من ابتكر مفهوم « الوعي الباطني ») . وهذا لا يعني أنني أقلل من شأن ما أنجزه فرويد، وهو هائل ، أو أنكر عبقريته . لقد كان فرويد مدهشاً في ابداعاته كأرسطوطاليس لكن ابداعاته هذه ينبغي مع الأسف أن تمحص وتفربل بدقة وعناية كما تمحصت وغربلت ابداعات أرسطوطاليس لتقرير الخطأ والصواب . لقد كان فرويد على كل حال مجرد « طبيب » مهتم « بوباء » النيوروسين الذي تولد عن التغيرات الاجتماعية الفجائية السريعة في بداية القرن العشرين . وحقيقة أن افتراضاته ومقدماته المنطقية كانت خاطئة لا يغير من قيمة كثير من استنتاجاته أو يقلل من الأهمية

الاجمالية لانجازاته . ولقد اكتشف وليام رومان هاملتون أنه يمكن إقامة معادلات رياضية متماسكة ومنسجمة على أساس فرضيات خاطئة أو معكوسة . ومن الغريب بمكان أنه بالنسبة للعلم فإن الأساس لا يهم ، بل الذي يهم هو البناء المركب عليه . فالعلم يختلف عن البناء بأنه يمكن تغيير أسسه فيما بعد دون أن يسبب ذلك أي ضرر بالبناء المركب فوقه . ويمكن للرياضيين أن يفسروا استعمال الأرقام الخيالية (مثل الجذر التربيعي لـ ناقص واحد) التي يمكن استعمالها في البناء الرياضي ، كأحجار خفية ، لدعم البناء إلى أن يحين وقت ازالتهما والإستغناء عنها . وحين تزال هذه (الأحجار) الخيالية فإن البناء لن يصيبه أذى ، وهو على وجه التأكيد لن ينهار .

وما لم يستطع فرويد أن يدركه هو أنه إذا كان مريض ما يعاني من النيوروسية فإن أي تحليل ذكي تقريباً ، حسب أية نظرية ، سيكون كفيلاً بحل مشاكل المريض ، وغالباً ما يكون المريض في حاجة إلى (دفعة نفسانية إلى الأمام) فقط ، تمكنه من أن يبذل مجهوداً جديداً للاستيعاب ومن أن يحل مشاكله . ويمكن تشبيه النيوروسية بالديون التي سمح لها أن تتراكم حتى إذا عظم تراكمها نتج عن ذلك افلاس هو الجنون ، بحيث أن المريض يهوي بعدها إلى موقف سلبي من هذه (الديون) فتنشل الطاقة الحياتية وتحل محلها (الانهزامية) وعندها فقد يحدث أي شيء .

وكمعظم علماء النفس القدامى ، لم يفلح فرويد في ادراك أهمية (العمدية) ومدى الدور الكبير الذي تلعبه إرادة المريض . بل راح فرويد يبحث عن أسباب ميكانيكية للحالات مقلداً من شأن حرية وقوة العمدية الإنسانية ومسيئاً تقديرها . ولقد استغرق سيكولوجية وفنمولوجية جيشتالت خمسون عاماً حتى أمكنها أن يكشف بعض الحقائق عن قدرة العقل على تحويل تصورات المسبقة إلى وقائع .

ولقد أدرك فرويد من البداية الجانب السلبي فقط من قدرة العقل هذه . مثل قدرة المريض على أن يفعل المريض للتهرب من مسؤولية ثقيلة ما . لكنه

ينظر إلى نيوروسية انسان ما على أساس خلفية من (نسق اجتماعي) ما أو من إيمان (بالتلاؤم) الكامل مع الحياة أو المجتمع . ولم يخطر له أبداً فيما يبدو أنه ما دام لا يوجد هناك حدّ صعودي للتطور فلا يمكن أن يكون هناك اذن أي (تلاؤم) نهائي ... مع أن شخصاً خلافاً قد يكتشف درجة غير عادية من الصحة والتوازن في سياق طاقته الإبداعية. وهذا التعامي الغريب من قبل فرويد أدّى به إلى القيام بدراسات تحليلية نفسانية سخيفة لعدد من العباقرة ، مثل ليوناردو ودوستوفسكي . وكان في كل هذه الدراسات مدفوعاً بفكرة تحدي عظمة هؤلاء الرجال وتحطيم أمجادهم ومعاملتهم كجرد أناس عاديين (أصبحت عادة فرويد في تحطيم الأمجاد ، مثل عادة برناردشو مفتعلة ومتعبة بعض الشيء) . وقد كان هذا انتصاراً للتجريد على المنطق السلم .

وأحد الانتقادات القديمة التي كانت توجه إلى التحليل النفسي تبين هذا الاسلوب التجريدي . فقد كان بعض الذين يكتبون عن موضوع التحليل النفسي يتساءلون كيف يمكن التأكد من أن المحلل نفسه (طبيعي) تماماً ويبدو أنه لم يكن يخطر لهؤلاء المنتقدين أبداً :

(أ) ان طبيب عيون بعين واحدة أو طبيباً عمومياً برجل واحدة قد يكون أكثر (كفاءة) من رجل (طبيعي) .

(ب) إن علاقة المريض بالنيوروسية مع المحلل هي علاقة أكثر فاعلية بكثير ، من العلاقة بين طبيب ما وأحد المصابين بالسل .

والافتراض المبطن في هذا المنطق هو أن على المحلل النفسي أن يكون معصوماً من الخطأ تقريباً مثلاً يفترض في الكاهن أن يكون على وجه العموم خالياً من أية خطيئة مميّنة . والواقع أن فرويد كان قد أخذ يعتبر نفسه « بابا » وتلاميذه هم الكهنة الذين يحملون كلماته المعصومة عن الخطأ . كل هذا كان بادياً في الانتقادات المذكورة .

وقد كان أدلر ويونج هما أول من طور هذه الانتقادات . لقد شعرا بأن نظرة فرويد كانت « ثقافية وفكرية » جداً في قوة حجتها واسلوبها الاختباري

بالنسبة للإعتقاد الساذج الشائع في القرن التاسع عشر . وقد أعلن أدلر بأن
إصرار فرويد على استرجاع تاريخ المريض الجنسي يوفر للمريض فرصة أخرى
للتهرب من واقع مشاكله الحاضرة ، وأصر على أن عمل العالم النفسي هو إعطاء
المريض نوعاً من « الشحنة العقلية » بحيث يتمكن المريض من أن يقوم بمحاولة
جديدة للتغلب على مشاكله وعلى هروبيته . ونظرة أدلر هذه تكن احتراماً
أكثر حرية الفرد من نظرة فرويد ، وفي نفس الوقت تكن احتراماً كذلك لقوى
العمدية الخفية التي قد تسمح للمريض بعلاج نفسه .

ثم خطا أدلر بعد ذلك خطوة كبيرة في اتجاه سيكولوجية وجودية . فأعلن أن
الإنسان مسير إلى الأمام بإحساس النقص الذي يمتلكه (وهو نفس شعور
النقص الذي دفع الإنسان الأول إلى صنع الأسلحة وتكوين المجتمع) نحو حالة
من شبه الكمال ، « كأنه مسير بتليولوجيا (أي بفلسفة البحث عن غايات
الطبيعة) عياء » . وبالنسبة لأدلر فإن صحة الإنسان ذات علاقة « بقانون
التغلب » ، كما أسماه نيتشه ، والنيوروسية لا تصدر من أصول جنسية ، بل هي
مرتبطة بإرادة القوة للتغلب على النقص . ولقد أصبح مبدأ أدلر فيما يتعلق بمقدرة
النقص شهيراً مثل الليبيدو عند فرويد ، بل إنه كثيراً ما ينسب إلى فرويد .

أما إنشقاق يونج عن فرويد فقد بدأ حين أصدر يونج كتابه « تحولات
ورموز الليبيدو » Transformations and Symbols of Libido عام ١٩١٢ .
وفي هذا الكتاب برهن يونج على أن عقله من غير نوعية عقل فرويد ، فهو لا
يكتفي بعبادة الاستشارة وتاريخ الحالة ، بل هو يهتم كثيراً بالأدب والتاريخ
والميثولوجيا . إذن فإن نظرية فرويد عن التعلق بالأم يجب أن تعطى بعداً
جديداً وذلك بربطها بالأرض الأم ، كالي ، وما إلى ذلك ، وفي أعماله التالية بدا
للمتبعين أن يونج كان عالماً انثروبولوجياً ذا حس ديني عميق أكثر منه عالماً
نفسانياً .

وبالنسبة لفرويد والفرويديين ، فإن هذه الإهتافات الأخرى كانت انحرافاً

عن التدقيق العلمي واعترافاً بعدم المقدرة^(١) .

وعلى كل حال فإن موقفهم كان حكيماً اجمالاً . إن البديهة مهمة ، لكنه لا قيمة لها بالنسبة للعالم « التحليلي » إلا اذا كان بالإمكان دعمها تحليلياً ولقد تبلور هذا النوع من الدعم تبلوراً وثيداً وأليماً بواسطة كوفكا وورثايمر وهو سرل .

أما الإنشقاق الهام الثالث عن الاسلوب الفرويدى فقد كان بطله أوتو رانك ، الذي طور فكرة أدلر القائلة إن العلاج يجب أن يكون عملية « واعية » وليس تخبطاً في عالم من رموز الأحلام المشكوك فيها ، ومن تأثيرات الطفولة . كما أنه توقع الاكتشافات الحديثة في الانثروبولوجيا وفي علم الحيوان بتقريره أن الجنس ليس هو الدافع الأساسي في الحيوان ، كما أنه لم يكن الدافع الأساسي في أسلافنا الأوائل . ثم خلق رانك بعد ذلك نظرية عن الإرادة غير الواعية شبيهة بأراء هوسرل الأخيرة . وقد لخصت ايرا بروغوف الحصلة النهائية لهذه « الثورة » بقولها إنها كانت : « ... نشوء نوع جديد من علم النفس لم يعد يسمى الى تشخيص الإنسان المصري وردة الى « الطبيعة » . إنها تحاول بدلاً من ذلك توفير الوسيلة التي يستطيع الإنسان المصري بواسطتها أن يمارس الماعاني الأكبر للحياة وأن يساهم فيها بكل قدراته . » كما أن هذه الثورة « تعيد تأكيد تجربة الإنسان مع نفسه ككائن روحي » .

وبينا يستحيل انكار القيمة الهائلة لأعمال يونج ورانك الأخيرة إلا أن الاعتراض القديم يظل قائماً الا وهو أن هذه الأعمال غير علمية بصورة خاصة ، وهي تعتمد كثيراً على البدايات والتكهنات الاستيعائية . ومن المهم الانتفاضى

١ - مثال على ذلك أن أرنست جونز الذي كتب سيرة حياة فرويد استعار مني نسخة من كتاب ايرا بروغوف المسمى « Death and Rebirth of Psychology » ثم أعاد إلي الكتاب مع رسالة تقر بأن الكتاب منصف ودقيق على وجه العموم . لكن رسالته دلت على أنه يرفض الاسلوب الجديد رفضاً تاماً . فهو يستمض مثلاً عن كلمة « ضعف » بكلمة « قوة » في احدى الجمل التي تقول إن أبرز ضعف في فرويد يكن في الجبرية التي تغلف كتاباته . « المؤلف »

عن الثغرة القائمة بين الاسلوب العلمي وبين « الإدراكات الحسية الشاعرية » .
وقد يكون لآراء ماري بيكر إدي عن وجود علاقة بين (قوة العقل) وبين
الجسد الإنساني أساس في الواقع ، لأن هذه الآراء تتوقع في الحقيقة على ما تم
تبلوره فيما بعد في نظرية العمدية . لكن هذه الآراء لا يمكن اعتبارها عملية الا اذا
طبقت عليها نظرية جيشتالت والفنمنولوجيا الى الحد الذي تثبت فيه الاختبارات
الخاصة . إن هذه الآراء تقوم على بعض الأسس من جيشتالت والفنمنولوجيا .
وحق إذا ما حدث ذلك ، فان كتاب مسز إدي المسمى « Science and Health »
سيظل أكثر من نتاج مهلهل ومجموعة من الآراء المشتقة ، السيئة
التركيب .

لقد أدرك يونج بحق أن تطوير وعي كهذا يحتاج إلى إعادة خلق (موقف
ديني) من الحياة . فالكاهن مثلاً ، يشعر أنه هو ، والتائب الذي يلجأ اليه ،
منغمسان في المشكلة الكونية للخطيئة الأصلية ، الا أن موقفه مع ذلك ليس
متشائماً . لكن يونج التفت الى (الحقائق الدينية) القديمة واهتم بها كثيراً بحيث
أعاد تفسيرها في محتوى عصري . وربما أن ذلك كان مفيداً بطريقة ما إلا أنه لم
يتقدم بعلم النفس إلى الأمام .

وفي هذا الوقت انبثقت في أنحاء مختلفة من أوروبا المدرسة التي سميت منذ
ذلك الحين بمدرسة (السيكولوجية الوجودية) والتي يعتبرها الكثيرون أعظم
طفرة ثورية إلى الأمام في العلاج النفسي منذ أيام وليام جيمس . ويقول روتو
ماي إن هذه المدرسة ولدت (تلقائياً) وذاتياً بمعنى أن ما من مفكر معين هو
المسؤول عن نظرياتها الأساسية ، اللهم الا إذا قبلنا الرأي الذي يعتبر إما
نيتشه أو كيريفارد هو المؤسس الحقيقي لهذه المدرسة .

ومن رواد هذه المدرسة يوجين منكوفسكي في باريس ، وأروين شتراوس في
ألمانيا ، ثم في . أي . فون جيساتل في ألمانيا كذلك ، وهؤلاء الثلاثة يمثلون
« المرحلة الفنمنولوجية » من الحركة . ثم جاء لودفيج بنزوانجر وإيه . ستورش
وميدارد بوي وجي . بالي وروланд كون وجيه . اتش . فان دن بيرغ

واف. جيه. بويتنديك وغيرهم ممن يمثلون « المرحلة الوجودية » من الحركة .
كنت قد تحدثت سابقاً عن الفنمنولوجيا ، التي يمكن تعريفها ببساطة بأنها
« محاولة أن نكون علميين عن المشاعر » . والاسلوب الكلي لهذا الكتاب كان
اسلوباً فنمنولوجياً ، بمعنى أنه حاول أن يقتصر على التفكير والتأمل المثابرين في
« الحقائق » الخاصة بالجنس ، بدون أية تصورات نظرية مسبقة مثل « الوعي
واللاوعي » ورغبة الموت والعقدة العنصرية الخ . يقول هربرت سيجلبيرغ في
كتابه الرائع الجامع (الحركة الفنمنولوجية) « The Phenomenological
Movement » معرفاً الفنمنولوجيا : (الفنمنولوجيا هي الاستقصاء المنسّق
الترتيبي عن الظواهر ، ليس فقط بمعنى ماذا هو ظاهر ... بل كذلك بالشكل
الذي تظهر فيه الأشياء ...) . ثم هو يضيف تعريفاً آخر أكثر بساطة من
سابقه ، فيقول إن الفنمنولوجيا هي (الطرق التي تكون الأشياء معطاة بها) .
ويعود فيحدد هدف الفنمنولوجيا بأنه (فصل ظواهر تجربتنا اليومية من سياق
حياتنا الساذجة أو العادية ، مع الإحتفاظ بمحتوياتها كاملة بقدر الإمكان) .

ويخصص سيجلبيرغ جزءاً ممتعاً من كتابه لمحاولة في طرح وصف فنمنولوجي
لفكرة (القوة) . وهو يشير إلى أن الهدف من الوصف الفنمنولوجي هو نقل
تجربة مثيرة خاصة إلى شخص لم يمارسها أو يشعر بها من قبل أبداً . (مثال :
حاول أن تصف لأحد الأشخاص ما هو الإحساس الذي يكتنف الإنسان في
حالة أصابته بصدمة كهربائية وكيف أن ذلك الإحساس يختلف عن الإحساس
الناتج عن القفز في مياه باردة في يوم حار . إذا استطعت أن تفعل ذلك بشكل
مقنع فأنت فنمنولوجي ناجح) .

ومن أهم النقاط التي نستنتجها مما كتبه سيجلبيرغ هي أن هذه المحاولة
تؤدي إلى المزيد من الدقة اللغوية وتساعد على تحطيم الإيهام اللغوي . وبكلمة
أخرى « أنها تستخدم الغرض الذي وصفه اليوت بأنه هدف الشعر وهو (تنقية
لهجة العشيرة) .

وسنرى الآن ، كيف أن هذا الأسلوب هو اسلوب ثوري في العلاج النفسي ،

لأن كل علم النفس حتى الآن ، كان قد بدأ . بمجموعة من الانطباعات أو المفاهيم المسبقة ولأنه ، أي الاسلوب ، جعل الحل الذي يطرحه معتمداً على جعل (الحقائق) تتلاءم معه . وبالنتيجة فإن تأثيره على اللغة والدقة كان ساماً . لقد ابتكر كثيراً من الكلمات والتعابير الجديدة ، مما أدى الى الاختلاط والتمعقيد ، لكنه فعل القليل لكي يستكشف ويوضح مفاهيمنا البسيطة .

هذه نقطة ذات أهمية ملحوظة ، ولعل القارئ سيفصح عني للتأكيد عليها . إن الفارق بين الاسلوب القديم والاسلوب الفنمنولوجي قد يتضح أكثر لو أوردنا مقارنة بينهما في حقل الأدب . حين تقرأ لروائي عظيم من القرن التاسع عشر (ديكنز أو دوستوفسكي) فإن عالمك قد يتحول بسبب ما تقرأه ، وسترى الأشياء كما كان ديكنز أو دوستوفسكي يراها . أي أن رؤياها الخاصة قد فرضت عليك مؤقتاً ، كأن تلبس نظارة مثلاً .

ومن جهة أخرى انظر الى الأثر الذي ستخلفه قراءة بعض صفحات من بروس أو جويس ، فعين يخصص بروس نصف صفحة لكي يصف الصوت الصادر عن بداية (دش) فإنه لا يفرض رؤياه الخاصة على القارئ ، بل انه يشحن قدرة القارئ على ملاحظة الشيء ذاته . أي أنه بدلاً من اعطاء القارئ نظارة ، فإنه يعطيه ميكروسكوباً . وهذا ينطبق كذلك على جويس ، فإن وصفه الدقيق لدبلن يشحن قدرة القارئ على ملاحظة التفاصيل الدقيقة ، الصغيرة في مدينته الخاصة .

وفرويد يمكن تشبيهه بديكنز ودوستوفسكي في قصة بعنوان (طفولة زعيم) ، يصف سارتر بشكل متمع الأثر الذي خلفته كتابات فرويد على شاب ريفي بريء ، فإذا بالشاب يتحطم فكرياً وتتغير نظره الى الأشياء ، ولكن نظره الى الأشياء لا تصبح أكثر دقة وتميزاً . وباستطاعة كثير من القراء أن يلاحظوا ذلك من أول قراءة لفرويد وكيف أنها (تغير لون) العالم .

إن الفنمنولوجية لا تعني بتلوين العالم بلون جديد ، بل إنها تريد قبل كل شيء ان تجرد العالم من اللون بقدر الامكان . إنها لا تريد أن تستحدث مفاهيم جديدة

بل ان تصقل المفاهيم القديمة . وهي تريد عن طريق التحليل الدقيق أن تكشف عن التناقضات الداخلية والمعاني الخفية .

كل هذا يفسر الثورة التي قامت في علم النفس حين أدخل كل من منكوفسكي وشتراوس وفون جيساتل أساليب هوسرل على علم النفس . وقد كان تأثير هذه الثورة بأنها هذبت وصقلت اللغة وأعطت أبعاداً جديدة للمفاهيم .

ثم تلت ذلك (المرحلة الوجودية) . وبإمكاننا القول كذلك ان هذه المرحلة هي الاستجابة الحتمية لنوع المشكلة التي واجهها ويواجهها علماء النفس في القرن العشرين . ولقد نمت سيكولوجية فرويد في عصر من الأمن والتفاؤل ، عصر خاضع (للتقاليد) والمحرمات . وهي في جوهرها هجوم على التقاليد والمحرمات .

كان المناخ الفكري في القرن التاسع عشر ميّالاً الى الانعزال والقناعة . وكان هو العصر الذي فسر فيه هربرت سبنسر وماكس مولر (الأساطير) بأنها نتيجة لإساءة الإنسان فهم اللغة . وجاء التحليل النفسي لينسف هذا العالم القانع الراضي بإعلانه ان الجنس والعنف واللاعقلية هي أساس كل المجتمع وكل السلوك الإنساني ، سواء أكان سلوكاً محترماً أم لا . أما عالم منتصف القرن العشرين فهو شيء مختلف تماماً ، إذ لا يستطيع أحد أن يتهمنا بالشعور بكثير من الأمن . فالحروب والثورات حطمت أو كادت ، كل سكينة وطمانينة الإنسان المصري . ونتيجة لذلك فقد تغير نوع النيوروسية ، بحيث أن الأمر لم يعد قضية قوم تدفعهم إلى النيوروسية كثرة المحرمات والتقاليد ، بل قضية قوم يدفعهم إلى النيوروسية (القلق) الذي يغلف القرن العشرين ، وهذا القلق الاجتماعي يخلق المزاج العقلي الذي يجعل الإنسان قادراً على ادراك المشكلة الأساسية للحالة الإنسانية والذي يقربنا كلنا من (عتبة الألم) ... أي الحد الفاصل بين الصحة والمرض . ولقد كان هدف فرويد هو أن يشفي مرضاه عن طريق اخراج كوابثهم الى الضوء ، ربما بالكشف عن أن رجلاً ما كان مصاباً بالرعب من الخصى ، وأنه كان فريسة الشعور بالاثم لتفكيره في قتل أبيه

واغتصاب أمه . وبالنسبة للناس الذين يعيشون في ظل شبح القنبلة الهيدروجينية ، فإن القول بأن مثل هذا التشخيص سيتمكن من أن (يشفيهم) و (يوفق بينهم وبين المجتمع) ، سيبدو قولاً مضحكاً . فنحن نخشى العنف الخارجي خوفاً من العنف الداخلي . وهكذا فإنه من غير المسموح به الافتراض بعد الآن ، كما فعل فرويد ، أن كل النيوروسية لها أساس جنسي وانها تختفي حين يلائم الإنسان نفسه مع المجتمع . إن المجتمع لم يعد مستقراً ، ولذلك فإن التلاؤم معه لم يعد الحل النهائي .

ويمكن تعريف السيكلولوجية الوجودية كما يلي : إنها الاعتراف والادراك بأن مشكلة التلاؤم عند الإنسان يجب أن تكون مع الحياة نفسها وليس مع مجرد المجتمع . وبالنسبة لفرويد والقرن التاسع عشر لم تكن هناك علامة استفهام ضخمة وراء الحياة . فقد كانت الأديان استجابة لحاجة الإنسان إلى رمز أبوي ، وكانت نتاج تغفيله وبرأته وجهله وليس استجابة حقيقية لسر غامض حقيقي . فلم يكن هناك أي سر غامض حقيقي .

والسيكلولوجية الوجودية هي استجابة للحاجة إلى رؤيا أقلّ مادية ، ويمكن تحديد هدفها ببساطة على الوجه التالي: إذا كان الله موجوداً ، فسيكون إذن العالم النفساني المثالي ، لأنه يقول لمرضاه : « هذا هو السبب الذي من أجله أنتم أحياء ، وهذا هو هدفكم وقصدكم ، وهذا هو كيف وضعت أنفسكم في هذه الورطة) ذلك أن أساس نيوروسية القرن العشرين السائدة (إذا جاز إطلاق هذا التعميم للخطأ) ، ليس هو رعب الانسان من لاعقليته الخاصة ، بل هو رعب أعرق من أن الحياة هي ضرب من العبث ، نكتة مريضة . قد يقال ان الايمان الديني هو وحده الذي يستطيع أن يواجه مثل هذه الحالة ، ولكن هذا ليس صحيحاً بالضرورة . ولقد قال ادموند ولسون مرة : (إن الرد على اصرار المستر البيوت على أنه من المشكوك فيه إن كانت الحضارة تستطيع أن تستمر في البقاء بدون الدين ، هو أن علينا أن نجعلها قادرة على الاستمرار) . وهذا هو الرد كذلك على التأكيد القائل بأن (ألم) وتمزق

الانسان المصري يجدان علاجها في الدين . فإن عملية إعادة احياء الدين في القرن العشرين كانت في معظمها ردة الى العصور المظلمة . فالدين يفرض اجاباته الخاصة ، وقد فعل ذلك دوماً . وقد يزعم رجل متدين ان العلم لن يستطيع أبداً أن يجيب على (معضلة الوجود الإنساني) . والجواب على ذلك هو أنه قد نستطيع لو حاولنا . ومن أين نبدأ ؟؟ .

قد نبدأ من تشخيص الدافع الجنسي بواسطة الاسلوب الفنمنولوجي ، وعلى كل حال فهي بداية .

يحمل القول بأن السيكولوجية الوجودية هي سيكولوجية ذات اهتمامات وفرضيات ماثلة لاهتمامات وفرضيات نيتشه وكيريفارد بدلاً من مادية القرن التاسع عشر . وبالضرورة فإن علاقة العالم النفسي بالمريض هي علاقة مختلفة في التحليل النفسي (حسب المدرسة الفرويدية) ويفترض في المحلل أن يكون « خارج » مشاكل مرضاه . أما في السيكولوجية الوجودية فلأن المحلل يعرف تمام المعرفة أنه هو طرف في نفس المعضلة التي تفرض التوتر والضغط على مرضاه . فهو يستطيع أن يساعد المريض في أن يصفى النيوروسيات « غير الجوهرية » من أزمته الأساسية ، بل انه يستطيع كذلك (وهذا يعتمد على قدرته وامكانياته وادراكاته الخاصة) أن يقترح اسلوباً أو وسيلة أكثر جدوى لمعالجة مشاكل مريضه الأساسية . ولكن العلاقة مختلفة . فهي مثل جنديين في مسيرة طويلة ، القوي منهما يساعد الضعيف . الا أن كلاهما في أرض العدو ، ورسالة طائشة قد تقتل أحدهما في أية لحظة .

يورد رولوتاماي مثلاً من شأنه أن يوضح الأسلوب الوجودي ، وهو يخص امرأة ذكية في الثامنة والعشرين كانت تصاب بنوبات لا تستطيع التحكم بها ، من الغضب الجارف ، والقلق العنيف وأعراض صغيرة أخرى . وكانت هذه المريضة طفلة غير شرعية ، جعلتها أمها وغير أمها تحس بأنها غير مرغوب فيها . بل إن أمها صرحت لها يوماً بأنها حاولت أن تجهضها وهي جنين . وبعد أشهر من المعالجة التي حاول المحلل النفسي أثناءها أن يعمق من إدراك

الفتاة لعلاقتها بالوجود ، خبرت الفتاة تجربة كأنها مقبسة من كتاب وليام جيمس (ضروب من التجربة الدينية)

« Varieties Of Religious Experience »

« أذكر يوماً كنت أسير فيه في إحدى المناطق الفقيرة وأنا أشعر بفكرة أنني طفلة غير شرعية . أذكر كيف كنت أتصبب بالعرق وأنا أحاول في ألم أن أتقبل هذه الحقيقة . ثم فهمت كيف يحسّ الإنسان حين يقبل شيئاً ما . قلت لنفسى : انني زنجية وسط البيض ذوي الإمتياز ، أو انني عمياء وسط جماعة من المبصرين . وفي وقت لاحق من ذلك اليوم ، أفقت وخطر لي ما يلي : أنا أتقبل حقيقة أنني طفلة غير شرعية لكنني لم أعد طفلة . اذن فأنا غير شرعية فقط . ماذا بقي إذن ؟ الذي بقي هو أنا موجودة . وما أن تمكنت مني عملية (أنا موجودة) هذه ، حتى خبرت هذه التجربة (للمرة الأولى في حياتي على ما أظن) : نظراً لأنني موجودة فإن لي اذن الحق في البقاء .

والذي حدث هنا هو نشوء ادراك في حقل ليس له أية اصطلاحات حتى الآن . ولعله يمكننا أن نفترض أن المريضة كانت قد فقدت احترامها الأساسي لنفسها واحساسها بضرورة وجودها ، وإن النيوروسية التي نشأت عن ذلك هي فقدان الصلة بالواقع . وفقدان الصلة بالواقع من شأنه أن يؤدي إلى نوع من المستيريا . ومن الواضح أن أحاديث ومناقشات المريضة مع الطبيب النفساني أعاد اليها الإحساس بكرامتها كما أعاد اليها قدرتها على أن تنظر إلى نفسها نظرة جديدة .

(لم تكن المريضة قد تلقت القدر الكثير من التعليم المدرسي التقليدي ، لكنها كانت على قدر كبير من الذكاء ، كما أنها ثقفت نفسها بنفسها ، وهو أمر يدل على إحساس أساسي بوجود هدف . وقد أمكن للتحليل النفساني أن يعيد اليها هذا الإحساس بالهدف) .

ومن الواضح أن هذه هي « سيكولوجية اللامتني » فكلما كان الإنسان أعظم موهبة ، ازدادت الحاجة الى « الاحتكاك بالواقع » . فالبقرة تستطيع

أن تقضي حياتها وهي ترى يهدوء في الحقل دون أن تصيبها أية نيوروسية ، لأنها تحتاج إلى احتكاك ضئيل جداً بالواقع . ولقد عبر شو عن كرهه لمجتمع دبلن كما وصفه جويس في « بوليس » ، وذلك بقوله : « ... إن الحياة التي توفرها دبلن لشبابها هي بلا شك قريبة الشبه بالحياة التي يعيشها الشباب في أي مكان آخر من المناطق المتحضرة في حضارتنا العصرية . وهي مزيج من السخرية العابثة اللامجدية ومن الاستخفاف الذين يخلطان بين ما هو نبيل وجدي وبين ما هو حقير وثافته .. وحين غادرت هذه المدينة التي هي منشأ رأسي خلفت هذه الحقبة ورائي ، ولم أعد أختلط برجال من جيلي حق .. وجدتي مندجاً في النهضة الاشتراكية التي بدأت في أوائل الثمانينات ، بين رجال إنكليز جادين يفلون بالسخط على الشرور الحقيقية والأساسية التي أثرت على كل العالم » . (من مقدمة « اللانضوج » « Immaturity ») ولو بقي شو في مجتمع دبلن هذا ، ولم يستطع الدخول الى حلقة « الرجال الجادين » في لندن ، فلربما أصيب بمثل النيوروسية المذكورة أعلاه . أما في حالة الفتاة ، فإن ذكائها وخبرتها السابقة في تثقيف النفس سهلاً من مهمة الطبيب النفسي . بل إن أية محادثات مطولة مع أي شخص جاد وذكي كانت ستؤدي إلى شفاء الفتاة من نيوروسيتها . ولعله يمكننا الآن أن نرى لماذا قررت هذه الحركة أن تتعاضد مع الوجودية بالشكل الذي خلفه كيريفارد وهيدجر . فالوجودية حاولت أن تخلق اصطلاحات يمكنها أن تميز بين « درجات الوجود » ومن الصحيح أن بعض علماء النفس الوجوديين قد تبنوا بعض إبهامات هيدجر وأقواله الميتافيزيقية السوداء بحماس زائد^(١) بدون أن

١ - ينبغي أن نذكر هنا لمنفعة غير الملمين بالحركة الوجودية أن موقف هيدجر ما زال منذ عدة سنوات ينظر اليه بكثير من الشك .

إن بعض منجزاته لا يرقى إليها الشك أبداً . ومع ذلك فإنه من الصعب أن نظن بأن هيدجر كان فيلسوفاً لا مبال . لقد قال هول يوماً أن الفلاسفة يلبسون الدروع للتأثير على البسطاء ذوي النية السليمة ، لكن هذا الوم يتلاشى حين ترى هذا الشخص المتشع بالدروع يسرق الكعك من بيت المؤونة . وهذا ينطبق بشكل خاص على هيدجر ، فمع أن منشأه وسلوكه رزينين رغماضين كأي فيلسوف ألماني آخر ، فإن القارئ يشعر أحياناً أن من أحد مشاغل هيدجر الرئيسية هو =

يتبينوا الطابع السطحي الذي تتميز به بعض تعميّاته .
إلا أن اللغة على وجه العموم جُعلت أداة في خدمة البصيرة النفسانية ولم
يسمح لها بأن تتحكم بهذه البصيرة وتصبح سيدتها .

ومن الصحيح كذلك أن التفسيرات الوجودية تبدو أحياناً بعيدة عن التصور
كأي تفسيرات واردة في كتابات فرويد أو يونج . يذكر ميدارد بوس مثلاً أن
أحد المرضى كان يعاني من عادة متحركة تدفعه إلى غسل يديه باستمرار . وقد
راودته أحلام عن أبراج الكنائس ، فسّرها المحللون الفرويديون بأنها رموز
لعضو الرجل التناسلي بينما فسّرها المحللون من مدرسة يونج بأنها رموز دينية .
وفي أحد الأيام حلم هذا المريض بأنه دخل إلى مرحاض مقفل وغاص حتى وسطه
في الغائط ، ثم حاول أن يسحب نفسه من الغائط عن طريق التعلق بجبل جرس
يمتد إلى « الجرسية » أي برج الكنيسة . وقد فسّر بوس كل ذلك بأن المريض
قد أغلق قدرات حيوية معينة داخل نفسه ، وأنه كان يرفض بصورة لاواعية
أن يرتقي بنفسه مما خلق فيه احساساً بالذنب . لقد فشل في مواجهة واستيعاب
الناحيتين المتعارضتين في نفسه : الناحية الروحية والناحية الجسدية السفلى .
وقد انتهى هذا التحليل إلى نتيجة فاجحة بعد أن أصيب المريض بنكسة نفسانية
على أثر هذا الحلم .

وقد كان بوس محقاً في تحليله ، إذ يستحيل معرفة ما إذا كان محقاً أم لا ،
بدون معرفة شخصية بالمريض . لكنه يبدو مما أورده بوس أن الحديث عن

= أن « يظهر » نفسه كفكر عميق .

إن هجوم البروفسور كوفمان البارح ضد هيدجر مجحف قليلاً ، لأنه ليس من صلب الموضوع ،
أن هيدجر أصبح من مؤيدي النازية ، وأنه تبرأ من معلمه القديم هومرل (الذي كان يهودياً) .
ثم إنه بعد الحرب حاول جهده أن ينفي عن نفسه أي حماس للنازية . لكن ملاحظات كوفمان
عن الطبيعة « المسرحية » للكثير من تفكير هيدجر هي ملاحظات صائبة إلى درجة تحطم
هيدجر .

إن طبيعة هيدجر المسرحية خداعة ، لأنها على العكس من سارتر ، مستورة بعناية .

« المؤلف »

« انفلاق طاقات روحية وجسدية » داخل نفس المريض ، هو أمر غير محتمل كالتفسيرين الفرويدي والبيونجي .

ومع ذلك ينبغي الإقرار بأن السيكولوجية الوجودية تأتي بإسلوب جديد في معالجة بعض المشاكل كمشكلة العادات الرغمية القاهرة .

يذكر فون جبساتل حالة تتعلق بنفى في السابعة عشرة من عمره ، كانت تتحكم فيه باستمرار تصرفات رغبة القاهرة ، وكاد بسبب ذلك أن ينهار عصبياً ، فقد كان يجلس ساعات على مقعد المرحاض ينتظر أن يتوقف عضوه عن السيلان لأنه كان يعتقد أن أقل نقطة من البول ستسبب رائحة كريهة جداً . وبعد ذلك كان يلف عضوه بورق التواليت ، لكن حتى ذلك كان يبدو له عقيماً ، وكان لا يستطيع أن يتابع القراءة متى قرر أن يقرأ لأن ذهنه كان يتشتت . فقد كانت كل حركاته من نهوضه الصباحي تتم بالرغم منه ، ووجد نفسه يهتم بأنفسه التصرفات . ولقد تملكه هوس من القذارة إلى حد أنه لم يكن يعبر من أي باب دون أن يحذر من ملامسة ثيابه للباب خوفاً من أن تتلوث ، وكان يقرأ أحياناً ، متى وجد مادة للقراءة عن طريق الصدفة وليس عن قصد .

وقد تبدو الحالة شاذة وغير مألوفة بالنسبة للرجل العادي . لكنها لا تختلف كثيراً عن « الحالة » التي يصفها سارتر في « الغثيان » وروكانتان كان كذلك يحلل تجاربه إلى أدق تفاصيلها مما يفقدها أي معنى . إن الكلمة الأساسية في تلك الحالة هي معنى . فالقدرة على التحليل أفلتت بطريقة ما من الزمام ، وهذا شيء ليس غير مألوف في طور المراهقة ، خاصة إذا كان المراهق ذكياً ومقطوع الصلة بأي اختلاط اجتماعي . وجورديف كان سيقول بكل بساطة إن المركز العقلي في المريض كان سيقوم بدور المركز المحرك .

إن رجلاً يريد أن يتعلم الطباعة على الآلة الكاتبة يجب أن يُبقي حسه الانتقادي يقظاً لكي يلاحظ وضع الحروف ويتأكد من أنه يضرب على الحرف الصحيح . فمضى أصبح ماهراً في الطباعة ، فإن المركز المحرك يستلم مهمة العمل بحيث أن يصبح بإمكان الرجل أن يطبع أوتوماتيكياً ، فإذا سمح للعقل بأن

يتدخل في عملية الطباعة ، فإن النتيجة ستكون التشوش التام ومن الملاحظ أن المريض المذكور أعلاه كان يقرأ متى وقعت في يده مادة للقراءة عفواً ، إذ أن العقل ساعته ، كان لا يتدخل في عمل المراكز الأخرى .

والحالة التي أوردتها جيساتز تعود في أصلها إلى الجبوت والفشل وإلى فقدان التوازن في فتي مرهق ليس هناك متنفس جنسي أو اجتماعي لدوافعه . وهناك أشكال أخف من هذه المشكلة تحدث لكثير من المراهقين وهي نتيجة السكون وعدم الحركة ونتيجة الإغراق في تحليل النفس . فكل الطاقات الجنسية والعاطفية تنصب في العقل فتكون النتيجة قيادة سيارة بسرعة خمسين ميلاً في الساعة ، في تعشيق السرعة الأولى . فسوف يسخن الموتور ، ويتحول التوتر الناجم عن ذلك إلى نيوروسية القلق . وإيجاد علاج فعال لذلك يعتمد فقط على تحويل العمل والنشاط بطريقة ما إلى المركز المحرك وإقناع العقل بشكل ما أن يستريح وأن يتوقف عن القيام بدور الدكتاتور . وهذا يحتاج إلى تنسيق داخلي قد يكون فوق طاقة معظم المراهقين . لكنه يمكن التوصل إلى هذا العلاج عن طريق حلول بسيطة كان يسكر المريض أو يقع في الحب (شرط مضاجعة حبيبتة) ، أو ينخرط في سلك الجندية . وجيمس جويس ، الذي يبدو أنه خبير شيئاً شبيهاً بهذه المشكلة ، وجد حلاً مرضياً لها بأنه أخذ ينفق كل نقوده على المومسات وشرب الجمعة . وإنه لمن الصعب القول ما إذا كانت ذلك قد ترك أي أثر سيء دائم عليه ، إلا أن ذلك مشكوك فيه . في فيلم فيديريكو فليني الشهير المسمى « الحياة الحلوة » La Dolce Vita هناك حادثة تحمل كل الصفات التي يتميز بها تاريخ حالة حقيقية . بطل الفيلم ، مارشيلو ، صحفي شاب شريف لكنه غير واثق من نفسه ، يجد نفسه وسط فساد مجتمعات روما ، فيميل إلى الانسياق معه . أما صديقه شتاينر فيبدر لأول وهلة أحد الرموز القليلة في الفيلم للحياة التي لها معنى . وهو علامة طيب وجاد ، يكاد يشبه في وداعته وإنسانيته بعض شخصيات الدوس هكسلي في رواياته الأخيرة .

إنه زوج سعيد لزوجة جميلة وهو أب لطفلين ، كما أنه يتمتع بأصدقاء

لامعين ، وبحياة زوجية مثالية على ما يبدو . وفي احدى الليالي يحضر مارشيلو حفلة أقامها شتاينر في بيته ، وحين يخلو الصديقان مع بعضهما البعض في غرفة نوم الطفلين ، يسر شتاينر إلى مارشيلو بالخوف العميق الذي يحتاجه ، بذلك الألم الكبيرغارددي ، فيقول : « أية حياة ، حتى أشدها بؤساً ، تساوي أكثر من وجود ذي مأوى في عالم كل شيء ، فيه منظم وعملي وله مكانه ... أحياناً تشتد عليّ وطأة هذا الليل ، هذه الظلمة ، هذا الهدوء . إن الأمان هو الذي يخيفني . ربما لأنني لا أثق فيه أكثر من أي شيء آخر . أشعر أنه مجرد مظهر ، وأنه يخفي خطراً متربصاً وراءه . وأحياناً ، أفكر في العالم الذي سيعرفه أطفالي . يقولون بأن عالم الغد سيكون رائعاً . لكن ماذا يعني ذلك ؟ إن حركة واحدة من مجنون تكفي لأن تحطم كل شيء . »

ثم نعلم في مكان لاحق من الفيلم أن شتاينر يفتال طفليه ، وبعدها يطلق النار على نفسه ، فينهار آخر رمز للقوة واللباقة عند مارشيلو .

إن حللاً نفسياً من مدرسة فرويد أو حتى من مدرسة يونج سيجد هذه الحالة بحيرة جداً ، وسيقتضي وقتاً طويلاً في الغوص في ماضي شتاينر باحثاً عن عقد الذنب وغيرها وقد نكون مثل هذه العقد موجودة على كل حال ، كما أنها قد تكون ساهمت في انهيار شتاينر . لولا أنه لا يمكن إدراك الأسباب الأساسية للإنهيار إلا عن طريق السيكولوجية الوجودية . وميزة « الألم » عند كيريفارد هي أنه ليس قلقاً ناتجاً عن خطر أو تهديد معين . كما أنه ليس بالضرورة قلقاً عاماً ناتجاً عن قسوة الحياة ، كقلق إيفان كارامازوف ، بل هو المعرفة بأن الإنسان هو كائن يعيش وهو نائم ، كائن تستغرقه مشاكله الصغيرة ويسير بالفعل وهو فاقد الإدراك تماماً على سور طوله ألف متر ، وحين يشير سارتر إلى « الرعب الأساسي للوجود ، فإنه يكون بذلك دراماتيكياً أكثر من اللازم . هناك بالتأكيد خطر عظيم ، لكن هذا شيء آخر . فالإنسان وحيد في عالم لا يعرف عنه شيئاً سوى ركنه الخاص . وهو الطفل الذي تقبل إحسان عالم الكبار ، فعين بلغ سن الرشد ، وجد نفسه ميالاً إلى أن يتقبل إحسان الكون

كله لكن هناك لحظات ، عند مواجهة الموت أو الألم ، يبدو فيها كل ذلك وهماً مريحاً . كل صباح تطلع علينا الجرائد بأمثلة وشواهد جديدة على قسوة الإنسان ولامبالاته بعذاب الآخرين ، وعن قتل الأطفال وتعذيب الحيوانات . وهناك أوقات تبدو فيها الطبيعة وكأنها هي كذلك قوة حاقة تلتذذ في انزال الكوارث الطبيعية بنا . والإنسان الذي تتكون عنده حساسية خاصة تجاه كل هذه الأشياء سيكون عندها في وضع يمكنه من أن يقدر « الشر الميتافيزيقي » في الكون : أي نوائب الزمن ، وموت الإنسان في النهاية ، والأوهام التي تمنعه من أن يدرك كنه ذلك ، والإحتمال القائم في أن تكون الحياة شركاً وأن يكون الإنسان ضحية يقوم جزّار بتسمينه قبل الذبح .

هل هذه هي أهوال مطلقة ونهائية ؟ أليس ثمة من مهرب ؟

الواقع أنه لا يمكن الإجابة على هذين السؤالين لأننا لم نبدأ بعد في التصدي للمشاكل الحقيقية . هناك أوقات تستمر فيها الحياة في داخلنا بيقين يبالغ حدّاً من القوة بحيث يبدو وكأن أرض الجهول قد تكشفت لنا تحت وهج وميض من النور . ويكون من نتيجة ذلك أننا نغدو مقتنعين أنه سواء أكنّا قادرين على معرفة الإجابة أم لا ، فإن « الحياة » تعرف تماماً إلى أين تقودنا . وإذا كنا قادرين على أن نعمّق بجهد عظيم مدى تفهمنا وإدراكنا الواعي ، فقد نكون أقدر قليلاً على إدراك الهدف والقصد . لولا أنه نظراً لأن حياتنا اليومية مملّاة بالعثرات والعقبات ولأننا نعبها وعيوننا معصوبة بالغمامات ، فإنه من المستحيل أن نعرف أيّاً من الروبيين هي « أعمق » ... رؤيا الرعب أم رؤيا المعنى .

الآن أنه من المهم ألا نخلط بين « الألم » (بالمفهوم الكيريفاردي) وبين الضعف الإنساني ، وأن نفترض أن كل أحرق يطلق الرصاص على رأسه كأنه يخوض غمار معركة مصيرية بين « نعم المطلقة » و « لا المطلقة » . ومعظم حالات النيوروسية هي نتاج العمدية الإنسانية . إننا كأطفال نفكر في كيفية « معاقبة » والديننا إذا ما أساءوا معاملتنا ، فنلجأ عادة إلى تصنع المرض أو الضعف . وتغلغل العادة فينا ، بحيث أننا قد نجد أنفسنا منساقين حين نكبر

الى أن « نعاقب » الحياة لعدم معاملتها إيانا بالعناية والتقدير الذي نستحق . إن قررنا هذا هو قرار واعٍ ، أو شبه واعٍ ، وهو من هذا القبيل : « لا ، لن أستمّر تحت هذه الظروف » ، إذا كان القدر يريدني أن أستمّر فلن عليه أن يتقدم لي بعرض أفضل ، والاّ سأستلقي في مكاني وأرحل عن الوجود .
هذا العنصر الصيبياني قد يكون موجوداً في أصلب الناس ، وقد تثيره فيهم ظروف قاسية جداً .

ومع أن السيكلولوجية الوجودية لا تستطيع أن تفعل شيئاً بالنسبة « للألم » الحقيقي .. الذي لا بد أن يبقى في الإنسان الاّ إذا استطاع الإنسان أن يبلغ الألوهية .. فإنها تستطيع الى حد ما أن تعالج مشكلة الضعف الإنساني هذه . وإنه لمن الأهمية أن ندرك بأن هذا الضعف يعمل كمكبر « للألم الميتافيزيقي » .

ليس هناك من سبب أرضي يجعل رجلاً ذكياً ذا وعي كبير نسبياً « بالواقع » ، بقرر أن ينتحر بسبب فظاعة أو « رعب الوجود » . فحين يكون الإنسان مالمكاً « لتوازنه » ، أي حين تقوم كل مراكزه بعملها بشكل معقول ، فإنه يستطيع أن يقيم توازناً بين ادراكه « للخطر » ومعرفته بقوة وقدرة الإنسان . وهذه الاعتبارات من شأنها أن تبين لنا أنه كان من الممكن لعالم نفسي وجودي متمكن جداً أن يساعد شتاينر ، في حين أنه لا أمل يرجى هناك من أية من المدارس الفرويدية .

من المهم أن نلاحظ قول شتاينر :

« أية حياة ، حتى أشدها بؤساً ، تساوي أكثر من وجود ذي مأوى في عالم كل شيء فيه منظم .. » .

وعليّنا أن نقرر أولاً أن هذا القول يكشف عن قلة نضوج ، فإن شهوراً قليلة في ظروف قاسية تعمية حقاً كفيلة بأن تجعل شتاينر يحس بالحبور والإمتنان لما يملك . ولا بد من أن نعود إلى هذه القضية بعد برهة وجيزة لتفحصها بعناية . لكن الشطر الثاني من هذا القول ، أي ذلك الذي يشير إلى

التنظيم ، تعكس قياراً فكرياً له بعض الأهمية في الثقافة الغربية المعاصرة الا وهو النزوع الى اللاعقلية .

ويظهر ذلك لأول مرة في رواية دوستوفسكي « ملاحظات من تحت ألواح الأرضية » Notes From Under The Floorboards « وفيها يبين لنا « الرجل الصرصار » أنه شخص بلا قوة إرادة ، ولا كرامة واحترام الذات ، أذكي من أن يعجب بنفسه لكنه يمضي فيتحدث عن العصر الألفي العلمي المثالي حين سيكون كل البشر أصحاء وعقليين سعداء . (وهو شيء يشبه تلك الحالة غير الجذابة التي يصورها ولز في « رجال كالآله » Men Like Gods ، ويقول بأنه حين يهلّ هذا اليوم العظيم فسيظل هناك رجل ضئيل ذو أسنان خربة يشب من مكانه ليرفض « السعادة » باسم نوع غريب ما من الحرية ^(١)

وقد عالج الدوس هكسلي فيما بعد الجانب الإجتماعي من هذا الموضوع في روايته « عالم جديد شجاع » « Brave New World » ولعل أبلغ وأروع تعبير عن هذا الموضوع يرد في رواية فاليري بروسوف المسماة

« The City Of The Southern Cross »

ومدينة المستقبل هذه تقع في القطب الجنوبي تحب قبة زجاجية هائلة تبقى درجة الحرارة فيها معتدلة على مدار السنة . ويدير المدينة حفنة من الرأسماليين ويقطنها حشود من الأمال « السعداء » الذين ألزموا بأن يعيشوا ويلبسوا ذات الحياة ، وذات الثياب في مدينتهم السعيدة هذه ، ولم يكن هناك ثمة من استياء أو شكوى ظاهرين ، إلى أن يظهر فجأة مرض غريب اسمه « داء التناقض » . وكان كل من يصيبه هذا الداء يفعل نقيض ما ينوي . فإذا كان يهيم بأن يقبّل

(١) الرجل الصرصار هذا هو ، مثل شتائير ، خليط طريف من الضعف والقوة . وينبغي لذلك أن يكون موضوع دراسة يقوم بها أحد علماء النفس الوجوديين ، وميزة هذا الضعف من الرجال هي أنهم ينزعون إلى الخلط بين قوتهم وضعفهم وإلى الإصرار على أن هذين الحصلتين تعتمدان على بعضهما البعض . ولقد كان دوستوفسكي نفسه من هذا الصنف من الرجال .

زوجته كان يعضها بدلاً من ذلك ، وإذا كان يريد أن يتجه إلى اليمين كان يتجه بالرغم منه إلى اليسار وهكذا . وحين ينتشر هذا الداء قعم الفوضى المدينة إلى أن يقوم ضحايا هذا الداء أخيراً بتدمير المدينة كلية ويخلفونها أكواماً من الخراب . أما وصف مشهد التدمير فهو رائع وعنيف .

هنا يتضح لنا نفس الإصرار على الحاجة إلى « الحرية » بدلاً من مجرد « النظام » . ومثل هذه الاتجاهات نجدها في كثير من أدب القرن العشرين . إلا أنه يتوجب علينا أن ندرك بأن عملية رفض « النظام » هذه قد لا تكون أكثر من حالة من حالات عدم النضوج ، مثل انتحار شتاينر . حين يفقد انسان ما ذاتيته ويفقد الإحساس بأنه « يحيا » (مثل الفتاة « غير الشرعية » التي أشار إليها رولو ماي) ، يصبح كل معنى للنظام أمراً لا يطاق . وهذا الخطأ قد لا يوجد في النظام الاجتماعي وإنما في علاقة المريض « بوجوده » هو .

وهذا من شأنه أن يثير السؤال المتضمن في الجزء الأول من ملاحظة شتاينر : « أية حياة ، حتى أشدها بؤساً ، تساوي أكثر من وجود ذي مأوى ... » . إن نزوع الإنسان إلى عدم تقدير قيمة ما يملك هو موضوع كنا قد بحثناه بالفعل ، وهو مرتبط « بميكانيكية التكرار » وبميل الحياة إلى عدم السماح للإنسان بالإحفاظ بأكثر من واحد بالمئة من مكتسباته . وهدف هذا النظام الميكانيكي هو أن يكون حافظاً على التطور ، أن يمنع الكسل والإسترخاء . وهناك صورة رمزية لهذه الحالة في قصة المعجوز القابعة في زجاجة خلّ والتي لم تكن تتوقف عن الشكوى رغم كل ما كانت الجنيّة الطيبة تفعله من أجل تحسين أحوالها وإسعادها ، إلى أن اضطرت الجنيّة في النهاية إلى أن تعيد المعجوز من القصر الذي أسكنتها فيه إلى زجاجة الخل .

لولا أنه إذا كانت ميكانيكية التكرار هذه قوية جداً ، فإن البشر سيموتون تقريباً من الضجر والحيرة . وبالنتيجة فإنه يبدو أن هناك ميكانيكية نفسانية أخرى ، مرتبطة هذه المرة بالإرادة مباشرة ، مهمتها امتصاص السموم التي ينفضها فيها الضجر والحيرة . حين أعادت الجنيّة المعجوز إلى زجاجة الخل فإنها

بذلك كانت تعني ضمناً أن الخطأ كان بصورة جزئية خطأ المعجوز لأنها استمرت في الشكوى والشعور بالاستياء . صحيح إن ميكانيكية التكرار تتمهد بأن تبقى حسن الإنجاز فينا ، في درجة منخفضة ، إلا أنه حتى مع ذلك ، فإنه يسمح لنا بأن نحفظ بقدر من حسن الإنجاز يكفي لأن يبقينا متفائلين . فإذا نجح الضجر في تحطيم كل حسن الإنجاز ، فإن ذلك يحدث لأن الإرادة كانت هامة وغافية . وهذا دليل على عدم النضوج ، أو على الإنحلال .

في حالة شتاينر هو دليل على عدم النضوج ، أما في حالة المعجوز فهو دليل الإنحلال الناتج من تأصل عادة الاشفاق على النفس فيها .

لقد أشرت في مكان آخر إلى أننا نحتاج إلى مفهوم جديد في السيكولوجية الوجودية ... مفهوم اسمه « عتبة اللامبالاة » (راجع كتابي « ما بعد اللامنتمي »)
(« Beyond The Outsider »)

يبدو أن هناك حالة نفسية أصبح فيها الناس لا يبالون بالمتعة ، وعرضة للإفارة بواسطة الألم . ولا شك أن المعجوز التي لم تستطع أن تتعلم العرفان حين نقلتها الجنسية إلى القصر ، تعلمه فيما بعد حين أعيدت إلى زجاجة الخل . وهذا يحدث عندما نضع أنفسنا في حالة من البلادة الشمورية ، وفقدان الإحساس بسبب استيائنا من شدة الحمل الملقى على وعينا ، ونرفض عندها أن نبتهج لأية متعة . في مسرحية « ست شخصيات - Six Characters » لبيرانديلو ، وفيها يلاحظ بيرانديلو أن التماسه تدفعنا إلى التساؤل في حين أننا نتقبل السعادة كحق من حقوقنا . ولما كان من مصلحة التطور أن نلقى في وضع نبقي مضطربين فيه إلى طرح الأسئلة ، فمن المفهوم إذن أن على ميكانيكية بيولوجية ما ، أن تحاول منعنا من أن نفرق في السعادة . وعلى كل حال فإنه من الممكن أحياناً أن نهزم ميكانيكية التكرار وذلك عن طريق عملية تمويض صعبة ، ومن ثم أن نستفيد من تجربة ذات عمق جديد . (إن الوسائل الأسهل لهزيمة ميكانيكية التكرار مثل المخدرات والكحول الخ ، تهزم نفسها بنفسها لأن الميكانيكية ستزيد من قوتها لدحر هذه الوسائل مما سيجعل الأمر أكثر صعوبة لمتعاطي المخدرات حين

يزول أثر الحذر) . فإذا أمكن للإنسان أن يخلق في نفسه ميلاً إلى التساؤل عن سمادته بمثل القوة التي يتساءل بها عن تعاسته ، فإن ميكانيكية التكرار ستتلاشى بلا شك باعتبارها غير ذات ضرورة بيولوجية .

لولا أن مشكلة الجريمة الجنسية ، وكذلك مشكلة الانحراف الجنسي ، أخذتا فعلاً في الظهور كمشكلتين تمثلان هذا العصر . وليس من الاشتطاط القول أننا نعيش في عصر مزدوج الشخصية . إن المشكلة الرئيسية على زمن فرويد .. أي في بداية القرن العشرين ... كانت هي المستيريا ، التي كانت أول رد فعل عند المريض لتزايد مصاعب وتعقيدات الوجود . وقد جرت محاولات لإعادة التلاؤم بين المريض والمجتمع ، لكنها كانت محاولات ناقصة لم تتمد مجرد السطح . وكانت النتيجة هي الانقسام بين السطح « الناضج » ، والأعماق الفجة المراهقة . والشيزوفرينيا (أي الفصام العقلي) قد تعتبر مرضاً أكثر نضوجاً بقليل من المستيريا ، وإن الانتقال من المستيريا إلى الشيزوفرينيا يدل على أن المجتمع قد حقق تقدماً طفيفاً في حقن ملاءمة الإنسان للأوضاع الجديدة .

إن الازدياد في نسبة الجرائم الجنسية والانحراف الجنسي يتطلب فحصاً جديداً لأصول الدافع الجنسي .

يقول جون دولارد في كتابه « السلالة العنصرية والطبقة في مدينة جنوبية »
« Caste and Class in a Southern Town » .

« يقال إن الانحرافات الجنسية أقل حدوثاً بين الزوج ، وإن ممارسة العادة السرية أندر ، وإن أعمال التشويه والتعريض أقل شيوعاً مما هي عليه بين المرضى البيض . والسبب المزعوم لذلك هو أن التعبير الجنسي الصريح بين الزوج هو أقل تحريماً مما هو بين البيض وإنه تبعاً لذلك ، فإن الضغوط التي قد تدفع الزوج إلى أشكال بديلة للإستمتاع الجنسي غير موجودة بالمرّة ، ويلاحظ دولارد كذلك أن الرجل الأبيض ، يميل إلى أن يحسد الزنجي على حرته الجنسية^(١) .

١ - « وقال الآخر إن الزنجي يحتفظ دائماً بحوالي عشر نساء إلى جانب زوجته كخليات ، =

لكن كتاب دولارد نشر لأول مرة عام ١٩٣٧ . وسيكون من المفيد والطريف لو أمكننا أن نطلع على الاحصائيات الحالية ، أي بعد حوالي ربع قرن من تاريخ نشر الكتاب المذكور . على أن نظرة واحدة على المجلات التي تتخصص في نشر الحوادث الجنسية الحقيقية تبين لنا مدى الارتفاع الحاد في عدد الزوج المنغمسين في الجرائم الجنسية ، وخاصة تلك التي ارتكبت ضد نساء بيض . ويبدو من المحتمل ان تكون نسبة الشذوذ الجنسي قد ارتفعت كذلك . إن دراسة وجودية للدافع الجنسي تكشف عن أن عدم قدرة علم النفس القديم على معالجة قضية الانحراف الجنسي تعود أصلاً إلى افتراض وجود طاقة أساسية اسمها الليبيدو (الطاقة الجنسية الغريزية) وإن دوافع الليبيدو هي أعمق ما يعرفه علم النفس من دوافع . وقد تعزز هذا الاستنتاج بما توصل إليه البيولوجيون الداروينيون من ان الجنس هو الطاقة الدافعة في مجتمع الحيوان . إلا أن علم الحيوان قد أجرى تعديلات على استنتاجاته منذ ذلك الوقت ، ولذا فإن هناك اقراراً وادراكاً متزايدين بأن ارادة بلوغ الأسبقية والأولية ، والحاجة إلى الأرض هي دوافع أكثر عمقاً وتأصلاً حتى من الحافز الجنسي .

= وان امرأة واحدة لا تكفيه » (الصفحة ٣٩٨). يتوضح من تحليل دولارد أن المجتمع الجنسي قريب الشبه في بعض النواحي من فكرة بليك عن الحرية الجنسية الكاملة . وقد صرحت معلمة مدرسة زنجية أن معظم طالباتها مارسن التجربة الجنسية في سن مبكرة . « المؤلف »

الفصل التاسع

نظرية الاستجابة الرمزية

خاتمة

هل من الممكن اذن ان ننقل من تقييم للانحراف الجنسي الى أقوال أكثر
 تعميماً عن « الإنسان » و« الذكاء الانساني » ؟ لقد بحث موريس ميرلو - بونتي ،
 العالم الفنمنولوجي الفرنسي واحد اتباع هوسرل ، هذه المسألة في كتابه
 « فنمنولوجية الادراك » The Phenomenology of Perception . ولقد صب
 ميرلو - بونتي أغلب اهتمامه على مهاجمة « السيكولوجيات المادية » وعلى الاخص
 السيكولوجية السلوكية (التي خصص لها معظم كتابه السابق « تركيب
 السلوك » The Structure of Behaviour الذي نشر عام ١٩٤٢) . ان
 ميرلو - بونتي يحاول على صعيد علمي شديد ان يهدم السلوكية الواطسونية
 و « انعكاسية » بافلوف ، ويبرهن ان نظرية جيشتالت هي وحدها القادرة على
 تفسير السلوك والاستجابات الانسانية تفسيراً تاماً .

ولقد تجاهل هذا الكتاب المادية الكلية كحل محتمل لأصول الدافع
 الجنسي ، نظراً لأنها لا تستطيع حتى ان تبدأ في تفسير الانحراف الجنسي . لقد
 كتب زعيم المدرسة السلوكية جيه . بي . واطسون مرة يقول : « إنه ما من
 سلوكي لاحظ أبداً وجود أي شيء يستطيع ان يسميه وعياً واثارة وخيالاً
 وادراكاً ، ، أو إرادة » . ونظراً لأن واطسون كان في أغلب الظن واعياً حين
 كتب ذلك ، فانه من الصعب ان نتفهم مغزى كلامه تماماً . وعلى كل حال ،
 فانا نستطيع ان نفترض انه ما من أحد في هذه الأيام ينظر بجدية الى تأكيد
 إلى ان الإنسان هو آلة . ومع ذلك فان النظرة الفرويدية تلح ضمناً بأن الإنسان
 هو بالفعل نوع من الآلة وان « وقوده » هي قوة تسمى الليبيدو وان إنساناً
 تكون طاقته الجنسية الفريزية صحية وغير مشوبة سيكون نوعاً ما آلة
 متكيفة .

والنتيجة التي تستخلص من أية دراسة دقيقة للانحراف الجنسي هي ان الليبدو بمفهومها الحالي لا وجود لها .

ولتوضيح ما اعنيه تماماً فسأسوق هذا التشبيه . ان أي شخص « منحرف جنسياً » هو بالنسبة للفرويدى شخص « ذو توجيه خاطيء » . لتصور ان « نفس » الانسان دائرة كبيرة . في وسط الدائرة ، أي في وسط وجود الإنسان ، توجد ثار اسمها الليبدو ، وعلى مسافات متباينة من وسط الدائرة توجد نقاط اسمها « انحرافات » . قرب وسط الدائرة هناك اللعق والمص ، وابتعد منها قليلاً يقع اللواط والفتيشية ، ثم تقع بعدهما السادية وأخيراً وقرب المدار تقبع الجريمة الجنسية . « فمعالجة » منحرف معناها اذن اقناع ميوله الجنسية على ان تتحرك من مكانها وترتد الى الوسط .

إن السيكولوجية الوجودية ترفض هذه الصورة . فاذا عدنا الى رمز الدائرة مرة أخرى ، فان « الميل الجنسي الطبيعي » لا يقع في منتصف الدائرة ، بل في نقطة تقع بين الوسط والمحيط . ووراء « الميل الطبيعي » الى القرب من المحيط تقع الانحرافات المختلفة .

في الصورة الفرويدية يمكن للانسان ان يحقق نوعاً من الاستقرار متى ارتد الى وسط الدائرة (الا اذا تعدى الوسط إلى الجهة الأخرى) . أما في الصورة الوجودية فانه يمكن ردّ « المنحرف » الى « الوضع الطبيعي » ، لكنه يستطيع من هناك ان يتقدم الى ما وراء الجنس ويصبح أكثر قرباً من الوسط . وبكلمة موجزة ، انه يستطيع ان يتعدى ويفقد الدافع الجنسي كلية وان يكون حتى أكثر « طبيعية » من أشد الناس الطبيعيين جنسياً .

وهكذا يتضح على الفور الفرق بين السيكولوجية الفرويدية والسيكولوجية الوجودية . الجنس عند فرويد نوع من النيرفانا . ولعل قصة « مطر » Rain لسومرست موم تمثل فكرة فرويد تمثيلاً تاماً . فالمبشر الذي كان يحاول ان يكتسب سادي طومسون الى طائفته كان في الواقع عجوزاً لوعه الفشل الجنسي كما افضح أخيراً من محاولته اغتصابها . لقد قام بمحاولة فاشلة « للتسامي » عن

خبيته الجنسية ، لكنه لم يملك القدرة الكافية على ذلك . وكان سيكون اسعد حالاً لو أنه تخلّى عن جمل الدين شعاراً يخفي وراءه شهوته الجنسية . فالتسامي عن الجنس هو بديل فقير للشيء الحقيقي ، للتعبير الصحيح عن الليبدو .

إن العالم النفسي الوجودي يجد هذا الرأي (الفرويدى) متعنتاً أكثر من اللازم . تصور شخصاً قادراً مثل بيتر كورتن يقع بين يدي طبيب نفسي وجودي خبير . إن هذا الطبيب قد يتمكن عن طريق تشخيص كورتن واعادة تكييف وتصحيح رغباته وتنبيه ذكائه وقدرته العقلية وتعزيز الحس الجمالي فيه ، قد يتمكن من ان يزيل عنصر السادية منه وان يجعل منه رجلاً طبيعياً . لكن « الإنسان الطبيعي » كما نعرف اليوم ، ليست به حاجة خاصة الى الفكر أو الى الحس الجمالي . انه يستطيع إذا توفر له عمل مريح وجهاز تلفزيون ان يقضي العمر بدون عناء أو شكوى . إن رجلاً مثل كورتن تعلم ان يتخلّى عن عادة الحاق الألم كوسيلة للتعبير الجنسي ، يمكنه كذلك ان يدرك بأن هذه الارادة ذاتها تستطيع ان تجعله مستقلاً عن الجنس تماماً . والتاريخ يزخر بمثل هؤلاء الرجال والنساء ، منهم القديسون والفنانون والمصلحون الاجتماعيون والعلماء رجال ونساء ربما كان فرويد سيعتبرهم اناساً « غير مكتملين » ، اناساً لم يحققوا انفسهم . ولقد قيل مراراً ان فرويد علمنا ان نواجه حقائق غير مفرحة عن انفسنا . قد يكون ذلك صحيحاً ، لكنه في هذه الحالة علمنا ان نواجه كذبة غير مفرحة .

ما هي اذن الاستنتاجات النهائية التي توصلت اليها السيكلولوجية الوجودية . في موضوع الطبيعة الانسانية ؟ هذا السؤال يقفز بنا الى ما وراء علم النفس ، الى حقل الفلسفة . نبدأ فنقول ان دراسة الانحراف الجنسي تظهر لنا انه يمكن تكييف الانسان لجعله يستجيب جنسياً لأي شيء تقريباً . والذي يستجيب له الانسان هو في الواقع « جيشالت » ، مجموعة من العلاقات ، وليس شيئاً محدداً . بعد الاطلاع على حالات مختلفة من الفتيشية فانه يصبح من السهل ان نتصور رجلاً يبلغ حالة القذف لدى مشاهدته منظر مكعب أو مثلث . الجنس شيء ذاتي .

واعني بذلك انه لا توجد هناك بالضرورة اية علاقة بين الطاقة الجنسية والشيء
ان كنت جائعاً فان وجبة من الطعام ستشبعك : واذا امسكت جرة ملتهبة
فانها ستحرقك . أي ان هناك علاقة حقيقية بين معدتك والطعام وبين يدك
والجرة . ونحن نعتبر العلاقة بين الاعضاء التناسلية للذكر والانثى كأنها علاقة
من ذات النوع . الا ان دراسة الانحراف تفند ذلك . والذي يحدث هو أن
العقل يفرض نوعاً من القبول بالنسبة لبعض الاشياء والرموز و « يسمح » بحدوث
قذف يرافق ظهور هذه الاشياء معاً . في كتاب « الجريمة والمجنون الجنسي »
« Crime And The Sexual Psychopath » ، يسرد دي ريفر حكاية فتيشي
كان يفقد التحكم بنفسه حين يرى الصدرىات والكلاسين النسائية جنباً الى جنب .
وفي احد الايام وبينما كان يقود سيارته برفقة زوجته ، أبصر هذه الاشياء معلقة
معاً على جبل الغسيل ، فأوقف السيارة بقرب المكان وقال لزوجته إن عليه أن
ير على احد المنازل في المنطقة . ثم اتجه الى الحديقة المنشورة فيها هذه الاشياء
فانزلها من على جبل الغسيل وفرشها على الارض في الوضع الذي تكون فيه
على جسد امرأة ، وبعد ذلك راح « يحامعها » الى ان ألقى البوليس القبض
عليه . ومن الواضح ان غرائز هذا الرجل اعطت لهذه الرموز النسائية القدر
الكبير من « القبول » بحيث انه أصبح يتأثر بها كما يتأثر رجل « طبيعي » بمنظر
امرأة عارية في الحديقة ، الى حد انه راح يضاجع هذه الرموز . ومثل هذه
الحالات تفند الفكرة القائلة ان الاستجابة الجنسية هي نوع من العلاقة المباشرة
بين الشخص (أي الفاعل) والشيء (أي المفعول به أو هدف الفعل) . انها
في الواقع استجابة الى رموز .

واذ نضع ذلك نصب أعيننا ، لنحاول اذن ان نجري «دراسة فنمنولوجية»
للانسان ، محاولين ان نأخذ بعين الاعتبار فقط ماذا « أعطينا » (بضم الألف)
(علينا ان نذكر بأن تعريف الفنمنولوجية هو «دراسة الشيء المعطى ») .
اننا « معطون » اذن ، على شكل حيوان يسير على قائمتين ، وله « تاريخ حالة »
عمرها أربعة عشر مليون عام (هذا اذا قبلنا بتقديرات ليكي) هذا المخلوق هو

الى حد كبير آلة ، ونحن نعرف بعض الشيء عن الطريقة التي تعمل بها هذه الآلة . انه يعمل فقط حين يكون عنده دافع . فاذا ما سلب منه الدافع والغاية ، فان طاقته ستذوبان تاركين اياه كرجل ثلجي يذوب تحت وهج الشمس .

انه لا يستطيع ان يعمل بدون طاقة ، والطاقة تنبع الى حد ما من مصدر جسدي . لكنها تعتمد كذلك على الارادة . ويمكن ملاحظة ذلك بسهولة حين يستجيب الانسان لحافز جديد ، لنقل مثلاً لازدياد في ظروف حياته القاسية . وهذا الحافز يجعله يركز ارادته ، وبعد فترة يبدأ جسمه في العمل بطاقة اكبر باذابة الشحم الزائد . العمل يعتمد على الطاقة ، والطاقة تعتمد على تركيز الارادة . لكن الارادة تحتاج كذلك الى حافز ، الى غاية .

عند هذه النقطة سيقول الميكانيكيون والماديون : « بالضبط . والغاية يجب ان تأتي على شكل حافز من العالم الخارجي ، كإلاج قطعة من النقود في آلة ميكانيكية تعمل بالنقود » . هذا طبعاً صحيح الى حد ما . لكن حافزاً بسيطاً سيثير فقط استجابة بسيطة . والشيء الغريب فيما يتعلق بالانسان هو ان عالمه الداخلي بأكمله يكتيف نفسه بالنسبة للحافز ، بحيث انه قد يستجيب في اي عدد من الطرق التي جاءت الى الوجود بفعل بعض نشاطات سابقة قامت بها الارادة .

وعند هذه النقطة بالذات تجب مهاجمة السلوكية ، لانه عند هذه النقطة ، وعندها فقط ، يمكن دحض السلوكية دحضاً علمياً .

يقول السلوكي : الانسان يستمد طاقته من الطعام ، من العالم الخارجي . وهو كذلك يستمد الاحساس بالغاية من العالم الخارجي . فما الذي يفرقه اذن عن نوع من الساعة التي يتعباً زنبركها ذاتياً؟ فالقول ان استجاباته هي اكثر «تعقيداً» من الحافز معناه بكلمة اخرى انه هو نفسه آلة اكثر تعقيداً .

ومع ذلك فان الدافع الاساسي في الانسان . وراء كل هذه الاعتبارات المادية يبدو كأنه سعي ارادي وراء مزيد من التعقيد . كيف يمكننا تفسير ذلك

بواسطة الميكانيكية ؟ ان اية آلة قد تكون معقدة ، كما ان رد فعل آلة ما لحالات خطيرة ما قد يكون السمي نحو مزيد من التعقيد . ولكن لماذا نحسّ آلة ما بالرغبة في مزيد من التعقيد بدون اي نوع من الحافز ؟

لنركز اهتمامنا لحظة على فكرة « الغاية » التي هي فيما يظهر حلقة الوصل النهائية في هذه السلسلة . ان احساسنا بالغاية يمكن ان يخف او يزيد بتأثير حافز خارجي . يقول بليك : « اللعنة تزئق ، والبركة ترخي وتريح » . هذا صحيح ، ولكنني استطيع الى حد معين ان اقرر ما اذا كنت سأسمح للبركة بان ترخي . بمعنى آخر ، فان « الحافز » و « الغاية » ليس شيئاً واحداً بأي حال من الاحوال .

هنا قد يقاطعني احد رعاة الميكانيكية ويقول : « لكنك لم تبين لنا بأنه يوجد هناك اي اختيار داخلي حقيقي . بل انك لن تستطيع ان تبين شيئاً كهذا ، لانك متى فعلت شيئاً يصبح الشيء مفعولاً ومنجزاً ، ولن يكون اصرارك على انك فعلته بمحض اختيارك أكثر اقناعاً ومنطقية من اصراري على انك فعلت هذا الشيء لاسباب مختلفة ترتبط كلها بميكانيكيتك الداخلية » .

ومع ذلك فان هذه هي بالضبط النقطة التي استطيع عندها باقتناع ورضى شخصين تأمين ان افند حجة السيكلولوجيين الميكانيكيين واتخطاهم . فمثلاً بينما اقوم الآن بتخطيط هذه الصفحات فأنني احسّ وأعني عقلي يحوم فوق رقعة هائلة من « الحقائق » والافكار ، كصقر يحلّق فوق حقل كبير باحثاً عن الفئران . وأعني بأنني قادر على ان اختار أي عدد اشاء من هذه الحقائق والافكار لتوضيح مبتغاي واسناد حجتي . كما انني اعني ، الى حد معين ، انني قادر على أن اختار الكلمات التي سأعبر بها عن آرائي . (مثلاً ، كنت استطيع أن اقول في الجملة الاخيرة (الكلمات التي سألبس بها آرائي) ، لكن عقلي رفض هذا التعبير أوتوماتيكياً) . اذن فأنني الى حد معين واع وعيلاً مستمراً بحريتي . كما انني استطيع أن ارغم نفسي على الاستمرار في الكتابة حتى بعد أن يكون عقلي قد تعب من (التحليل) مع أن تدبّج نصف صفحة سيستغرق وقتاً أطول مما

استفرقته كتابه الصفحات الثلاث الاخيرة . وهذه ايضا هي عملية اختبار مهما كانت تعتمد على حافظ ما أو حوافز عدة .

لكنني عند هذا الحد احسّ في داخلي استجابة ليست جزءاً من السلسلة البسيطة التي تتكون بالترتيب من الفعل - الطاقة - الإرادة - الغاية - الحافظ . ومع انني اعني ان ارادتي هي شيء كمي سلمي يعتمد على الغاية ، فاني اعني كذلك أن ارادتي تملك هدفاً أو غاية غريبة صغيرة تخصها هي ، ألا وهي البحث عن غاية ، أي في حقيقة الامر التنقيب في وجودي الداخلي بحثاً عن غاية . وهذه الغاية منفصلة تماماً عن الحافظ الخارجي . كأن ارادتي تحاول أن تكون ساكنة صامتة ، وأن تصبح شيئاً كآلة الاستقبال لا لتقاط اية ذبذبة داخلية لغاية ما . إن الارادة ليست قادرة على الاستجابة الى الغاية فحسب ، بل إن مستوى آخر من الغاية يدفع الارادة الى السعي من أجل إعادة الاتصال مع المستوى الرئيسي للغاية . لكن ما هو هذا المستوى الرئيسي ؟ وماذا نستطيع أن نفقه منه أو نعرف عنه عن طريق استخدام الاسلوب الفهمولوجي ؟

عند هذه النقطة يمكننا أن نعود مرة اخرى الى مشكلة الانحراف الجنسي والدافع الجنسي . لان دراسة الغاية الداخلية الذاتية تطرح امامنا اسئلة حول طبيعة الخيلة . ومرة اخرى ، لا بدّ من أن نورد افتراضات قد تبدو للبعض غير ذات موضوع . ان رجلاً جائعاً سيسيل لعابه لدى رؤية طعام شهّي . لكن لعابه سيسيل كذلك لو انه بذل جهداً شعورياً كافياً في تخيل طعام شهّي . سنقول إن الطعام المتخيل يثير استجابة أخف قوة لانه ليس حقيقياً . فالخيلة هنا (تزييف) المظهر (الخارجي) . ان النظرية الساذجة للانحراف الجنسي تقوم على مثل هذه الاسس . الشيء (الحقيقي) فيها هو عضو جاذب من الجنس الآخر . والرجل الذي يمارس العادة السرية مستوحياً صورة امرأة عارية أو ذكورة أي فتية تحضّ امرأة ، عليه أن يتوقع استجابة أخف قوة لأن ما يستوحيه ليس هو الشيء الحقيقي . لكننا رأينا بما تقدم أن ذلك ليس صحيحاً . اذا كان الجاويش برتراند يفضل امرأة ميتة على اخرى حية فان سبب ذلك ان المرأة الحية كانت

(حقيقية) جداً بالنسبة له بحيث أن ذلك كان يعرقل ويقيد الدافع الجنسي عنده . لذلك فانه يفضل جسداً هامداً والاعتماد على مخيلته . وبالطريقة نفسها نذكر أن الضابط (م) صرح بأن العادة السرية يمكنها أن تكون أكثر اشباعاً وارضاءً من الجماع الفعلي لانه يمكن التحكم بها وتوجيهها حسب الطلب بدقة أكثر . يتضح من ذلك ان « الغاية الداخلية » تمنح المוחيات والأهداف الجنسية طابعاً حقيقياً واقعياً وتسمح بالاستجابة لها . لا توجد هناك واقعية خارجية مستقلة عن قوة الخيلة . إن رجلاً فقدت مخيلته حيويتها قد يفقد أي اهتمام بامرأة ما حتى وهو يقوم بمجامعتها . في الجنس ليس هناك من « كائن جنسي » ، بل هناك فقط رمز تلبسه الغاية الداخلية الذاتية فينا ثوباً من الواقعية والحقيقة . وحين يكون هذا الرمز امرأة حية فانتنا نسمي رغبتنا الجنسية وقتها رغبة « طبيعية » .

الآن « الغاية الداخلية » كانت قد بنت ميكانيكية جنسية على فكرة « الغرابة » . فالجنس المتع والمرضي هو ذلك الذي يغزو وينتهك « غرابة » الطرف الآخر . ولهذا السبب نسمي الأعضاء التناسلية « بالأعضاء الخصوصية » . كل شيء يعتمد على فكرة انتهاك الخصوصية . وهذه الميكانيكية تعمل بصورة جيدة معظم الوقت ، الآن « الغاية الداخلية » مع الأسف فاتها ان تضع قيوداً وحراسة على الميكانيكية . وحين تكون قوة الاستجابة الجنسية معتمدة على الغرابة التي تم انتهاكها ، فإن الرجال سيحاولون بالتبعية ان يزيدوا من قوة الاستجابة بالتوغل أكثر فأكثر في الغرابة . ونظراً لأن تمتعهم بالجنس « الطبيعي » يعتمد على الاحساس بانتهاك أحد المحرمات أو المنوعات ، فانهم سيحاولون بالتالي ان يزيدوا من تمتعهم بإضافة أكبر عدد ممكن من صفات التحريم الى المقصود الجنسي . ويمكن ايجاد ذلك بشكل بسيط في الرومانسية الألمانية - في فاجنر ومان مثلاً - وذلك في التركيز على العلاقات الجنسية المحرمة بين الأهل . فاذا كنا على العكس من ذلك نعيش في عصر حضاري يتوقع من الإنسان فيه ان يجامع الأهل ، فإن فكرة مضاجعة الإنسان لأمه أو لأخته ستكون مملة الى

أقصى حد (لأننا نشاهد من كل الوقت) في حين ان فكرة « انتهاك » فتاة غريبة ستكون مثيرة حقاً . وعلى هذا يمكن اعتبار كل الانحرافات الجنسية ، من الخيانات الزوجية الى النكروفيلية ، محاولات لزيادة عنصر الغرابة في العملية الجنسية باضفاء المزيد من الحرمات عليها . والجنس لا يمكن ان يكون « صحياً » و « طبيعياً » على أي مستوى من المستويات ، فهو يعتمد دوماً على انتهاك المهات والمنوعات ، أو هو يعتمد ، كما كان بودلير يقول ، على حسن الخطيئة . وإذا ما قامت لجنة من البيولوجيين وعلماء النفس بدراسة « قوة التطور » يوماً ، فسيكونون محقين اذا ما تساءلوا لماذا جعل اكثار الجنس البشري معتمداً على حسن الخطيئة ، أو إذا اشاروا الى ان هذا المعجز البشري بالذات كان هو السبب في سقوط كثير من الحضارات عن طريق الانحلال الجنسي . وهكذا يمكننا من خلال اجراء دراسة فتنولوجية لأنفسنا ولاستجاباتنا الجنسية ان نتوصل الى نظرية خاصة « بالاستجابة الرمزية » ، يمنح الرمز فيها معنى ما عن طريق الغاية الداخلية . والمرحلة الثانية هي ان نلاحظ ان « الاستجابة الرمزية » لا تقتصر على نشاطنا الجنسي فقط . إن كل « الحس الجمالي » هو كذلك استجابة رمزية . هناك قصيدة مؤثرة للشاعر بيتس اسمها « نحو مطلع النهار » يتحدث فيها عن شلال « كل طفولتي تعدّه عزيزاً » ثم يضي قائلًا :

كنت سألمسه كطفل

لكنني ادر كنت ان اصبعي لم يكن سيلس

إلاّ حجراً بارداً وماء . وثرث

بل رحت اتهم السماء لأنها

سنتت من بين قوائنها ما يقول :

ليس هناك شيء نحبه أكثر من كثير

له قيمة بالنسبة للمستنا .

هذه الأبيات الأخيرة ليست إلا تقريراً لنظرية الاستجابة الرمزية . كيف

يكون شلالاً ما جميلاً وهو مكون من صخور باردة ومياه ليس إلا ؟ وكيف يبصر وورد زورث « اشكالاً غير معروفة من الوجود » في تلة قائمة فوق وندرمير ، بينما التلة هذه ليست أكثر من تراب وعشب ؟ ولماذا تبدو لنا سلاسل الجبال رموزاً للعظمة والتسامق بينما هي مكونة فقط من نفس المواد التي سنجدتها في حدائق منازلنا مع فارق انها متراكمة تراكمياً عظيماً ؟ ولقد ظل الشعراء والفلاسفة يقولون منذ مئات الأعوام ان الجمال ليس معادلة تقوم على علاقة ميكانيكية بين الشخص والمادة ، بل الجمال هو « في عين المشاهد » . إلا أنه لا بد أن يكون هناك « شيء ما » لكي يثير استجابة جمالية . لكن الغاية الداخلية الذاتية لمساعدة كما هي في الجنس ، بمعنى انها لا تصر على الواقع ، بل انها ستسمح بنشوء استجابة تنمعية لرسم ما أو حق لوصف في كتاب .

وقد تشتط بنا الحيرة لحظة هنا فنتساءل هل توجد هناك بالمرّة استجابة صادرة عن العلاقة المباشرة بين الشخص والمادة ، بين الحس والمحسوس ، أم ان الاستجابة كلها رمزية . حين تشعر بالمرض فانك بإمكان عملية تكيف نفسانية ان تهزم المرض . ومن الصعب ان نحدد بالضبط طبيعة عملية التكيف هذه ، فهي ليست فقط عملية ارادة بل انها كذلك نوع من اقناع الذات . وهذا قريب من تأكيد بعض الصوفيين انه لا يوجد هناك « واقع خارجي » . كتب وايتهد مرة : « الناس يقومون في خطأ الحديث عن قوانين طبيعية . لا توجد هناك قوانين طبيعية ، بل هناك فقط عادات مؤقتة للطبيعة » . وقد عبرت السيدة بيكر إدي عن رأيها بأن كل الأمراض هي « استجابة رمزية » ، أو انها بالاحرى ناتجة عن قصور الاستجابة الرمزية ، وانه يمكن التغلب عليها بتجديد الصلة بالغاية الداخلية . والقديسون وكذلك النساك الهنود يدعون انه حق الاتصال بين الحس وبين العالم المادي المحسوس هو وهم ، ويمسكون جرات ملتزمة لاثبات ذلك . والدراسة العلمية « للادراك الحسي للامحسوسات » يشير فيما يبدو الى ان المستقبل « حاضر » فعلاً بمعنى ما ، وانه يمكن التنبؤ به أحياناً بدقة ملحوظة .

كل هذا من شأنه ان يدلل على ان نظرية الاستجابة الرمزية قد تكون قائمة خارج نطاق الجنس والجمالية . لكن كيف يتأتى لنا ان نحقق في العلاقة بين « العقل » و « الواقع الخارجي » حين يكون العقل هو المحقق وحين تتدخل هذه العلاقة المجهولة في التحقيق كذلك ؟ يمكن بالطبع عمل ذلك بنفس الطريقة التي يمكن بها إيجاد قيمة الرقم المجهول (س) في أية معادلة ومسألة رياضية . إن الكائنات البشرية كانت تجد دائماً انه من الأسهل ان ننفي « العقل » ونبحث عن قوانين موضوعية محسوسة في الطبيعة . اما العلم فيحب المعادلات الصحيحة حيث يمكن اثبات كل شيء . وعلى وجه العموم فان العلم قد نجح في صياغة وتركيب معادلاته وفي امال الحقائق التي تستمضي على قوالبه . وفكرة « الحياة » أو « الغاية » هي احدى الأشياء التي فضل العلم في المئتي سنة الأخيرة ان يبقها خارج معادلاته . وهكذا فان الدارونية تخرج بنظرية تطور « ميكانيكي » ، ويطلع علينا واطسون ببيكولوجية ميكانيكية تماماً كما رسم لنا نيوتن وديكارت عالماً ميكانيكياً . وواطسون لم يمن طبعاً ان يقول ضمناً ان الوعي لا وجود له ، والا يصبح ذلك أمراً مضحكاً . لكنه ألمح الى ان الوعي هو مراقب ملهي للكون ، مجرد « شاهد » على ما يجري .

وعلى العكس من ذلك فان نظرية جيشنالت والفنمنولوجية تؤكد ان الوعي يتدخل باستمرار ، في حين ان النظريات الميكانيكية ، من نيوتن إلى فرويد ، تؤكد ان شيئاً ما يحدث « هناك في الخارج » ، وان كل الاستجابات وردود الفعل تعتمد على هذا الذي هو « هناك في الخارج » . وفي نظرها ان الاستجابات تحدث ، وانها ذات صفة « مادية » كالفاء عود ثقاب في برميل بارود .

على ان نظرية الاستجابة الرمزية تنكر ذلك وتؤكد انه لولا الوعي فان الاستجابة لن تحدث ابداً . ويستمر العلم في التحقيق في العالم « هناك في الخارج » معتقداً انه حين تتجمع لديه حقائق ومعادلات كافية فانه يمكن عندئذ « تفسير » العالم . اما نظرية الاستجابة الرمزية فتعلن انه حتى لو فحص كل شبر من العالم

« هناك في الخارج » وحوّل هذا العالم الى معادلات وصيغ ، فان المفتاح (لتفسير العالم) سيبقى ضائعاً ، لأن هذا المفتاح موجود « هنا في الداخل » ، لأنه عبارة عن غاية ذاتية داخلية تفرض الاستجابات وردود الفعل على العالم الخارجي .

تلخيص ومراجعة :

إن هذه الاستنتاجات وملابساتها هي من الأهمية والعظم بحيث انه يحذر بنا ان نتوقف قبل ان نستمر في البحث الى مراحل الأخيرة ونراجعها بطريقة لا تدع أي مجال لسوء الفهم . لأن الذي يتبدّل الآن هو غط جديد كلية من التفكير الذي قد يحدد بلوغ مرحلة أكيدة من مراحل تطور هذا المخلوق الذي يسمى بالإنسان .

لنتمعن أولاً في معطيات البحث الأساسية . هناك من الجهة الواحدة مخلوق اسمه الانسان طاقته التعميرية أقل من مئة عام . والإنسان محاط « بالطبيعة » التي تعمّر أكثر منه والتي هي أعظم منه وأقوى لكنها ليست « حية » بنفس القدر كالإنسان .

السؤال متشعب وهو : ما هو مكان الإنسان في الطبيعة ؟ ما هو مدى أهميته ؟ ما معنى كل شيء ؟

إن الإنسان موجود على الأرض منذ ملايين السنين ، ولكنه أصبح مخلوقاً « متسانلاً » في العدة آلاف سنة الأخيرة .

إلاّ أننا حين نتفحص الثقافة الإنسانية – أي استجابات الانسان الى السؤال القائل : من أنا ؟ – نلاحظ شيئاً طريفاً . لقد سلم الانسان بنفسه جداً طوال الوقت . حاول ان يحلّل الله والطبيعة ، لكنه افترض دائماً ان عليه ان يترك موضوع نفسه هو الى ما بعد . انه « موجود » ، وهذا يكفي كقاعدة يعمل بموجبها .

وحين نستعرض الفكر الإنساني من مصادره الأولى في الأساطير القديمة الى

القرن التاسع عشر ، فانتا سنلحظ ان الانسان كان دائماً ينظر الى نفسه « كمخلوق » في وضع أدنى ، كتلميذ مدرسة تحت مراقبة المعلم أو كابن يخضع لهيمنة والد طاغية . لقد كانت هناك « ثورات » كثيرة في الفكر ، لكنها كانت كلها ثورات ضد رجال آخرين ، أي ضد تلاميذ آخرين في الصف ، لكن ليس ضد المعلم أبداً .

نحن مثلاً ننظر إلى الثائرين الدينيين مثل لوثر وكالفين كرجال ثاروا من أجل مزيد من الحرية وتحذوا سلطة الكنيسة . ومن المذهل اننا حين نتفحص هذين الرجلين عن كتب أكثر فسنتكشف أنها كانت في الجوهر « أكثر محافظة من المحافظين » ، ان كالفين مثلاً أمر بحرق سيرفينوس لأنه أنكر الثالوث المقدس وان ابرز معتقدات لوثر هو ان كل كلمة في الكتاب المقدس صحيحة وصادقة بالحرف الواحد . كان كلاهما في نواح عديدة أكثر رجعية من الكنيسة التي كانا يهاجمها ، بل ان لوثر أعاد المسيحية ألف سنة الى الوراء .

وقد يبدو من المذهل لنا ان كل المفكرين العظام في الماضي كانوا على مثل هذا العمى والجهل فيما يتعلق بالدين ، إلا ان علينا ان نتذكر بأن مثل هذا لم يكن شيئاً مدهشاً أو غريباً بالنسبة لاسلافنا في القرن التاسع عشر ، وان الذي كان يبدو لهم أمراً مدهلاً ، بل وصدمة فظيمة كذلك ، هو تلك الموجة الفكرية الجديدة المسماة « بالرومانسية » والتي هزت قبضتها في وجه الله وصاحت ان الإنسان يجب ان يكون « حراً » ، وان يكون هو حكم نفسه فيما يختص بالخطأ والصواب .

وقد القى الكثيرون اللوم على « العلم » . لكنهم كانوا مخطئين . فالمؤسسون العظام للعلم الحديث - غاليليو وكبار ونيوتن وديكارت - كانوا كلهم رجالاً متدينين جداً ، كما انهم ادخلوا آراءهم الدينية في أسس نظرياتهم العلمية . وقد تثير هذه الجملة الأخيرة الاستغراب لأول وهلة ، ذلك ان أياً من هؤلاء الرجال لم يذكر كلمة « الله » أو المسيح في أعماله العلمية . لكن الله كان موجوداً ضمناً في نظرتهم الى العلم . فالكون في نظرتهم هذه موجود « هناك في الخارج » ،

ينتظر من الانسان ان يتحراه . والله لا يتدخل بالفعل في أعمال الكون ، وانما يسير الكون حسب « قوانين الطبيعة » . لكن الله هو الذي صنع هذه القوانين في مفهومهم وهو الذي قام بتشغيل هذا الجهاز الكوني كله في الأصل . وها هو الإنسان ، على الأرض ، مخلوق ضئيل كالنملة ، يحلق في الكون من خلال مرصاد ، ويجهد نفسه من أجل ان يفهم لماذا صنع الله الكون مثلما هو عليه الآن . ولقد قال نيوتن : « الله هو عالم رياضي » . والشئ المهم فيما يتعلق بهذه الصورة هي انها تصور لنا ان الانسان نملة . انه يستطيع ان « يدرك » كنه الطبيعة باستعمال ذكائه ، لكنه على كل حال مخلوق حقير جداً وثافه جداً .

اعظم هذه الثورات ، بل وربما أعظم ثورة واحدة في تاريخ الفكر الانساني ، كانت تلك التي رافقت ظهور تبدل في الموقف الانساني في مطلع القرن التاسع عشر ، وهو التبدل الذي عبر عنه دوستوفسكي ونيكشه في القول : « الأشياء مشروعة » ، أي أنه لا يوجد هناك إله في السماء وان الانسان هو حكم نفسه فيما يتعلق بالخطأ والصواب .

ماذا يعني هذا بالضبط ؟ لنذكر أن الانسان ، حسب « العلم الجديد » ، كان ما يزال يسلم بنفسه جداً تماماً كما فعل حين كانت الكنيسة في اوج نفوذها وسلطانها . وعلى سبيل التشبيه ، سأقول إن « الانسان » يلعب لعبة « الكشتبان » التي يفرض فيها أن يبحث أحد الحاضرين عن كشتبان خبأه الآخرون في مكان من الغرفة . إن « الانسان » سيبعث في كل ركن وصوب وهو يسلم جداً بأن الكشتبان ليس في جيبه . و « الكشتبان » هنا هو هذا السؤال : « ما هي قوانين الكون ؟ » ولقد استمر الانسان ينقب ويبحث في الكون ، فشال الجبال وحلق في الكواكب والنجوم ووضع معادلات لا حصر لها ولا عذ ، بدون أن يجد كشتبانه . ولقد اعلنت الكنيسة الكاثوليكية قائلة : « الكشتبان مخبأ في جيب القديس بطرس ، وعليكم أن تصدقوا ما يقوله لكم » . واعلن لوثر : « لا ، الكشتبان مخبأ في الكتاب المقدس » . ثم جاء نيوتن واعلن باكبر قدر ممكن من الرصانة : « يمكنكم أن تنسوا القديس بطرس والكتاب المقدس » . (في الواقع

إن نيوتن كتب بحثاً طويلاً عن الكتاب المقدس ، أي التوراة ، لكنه لم يبحث هناك عن « سر الكون » ، بل عن تفاصيل ثانوية قليلة في تأريخ الله . وبالنسبة لنيوتن كانت « السر » هناك في الخارج ، في الكون ، وأنه بالمزيد من العلم والرياضيات ، يمكن اكتشاف هذا السر .

ومكذا تتبدى لنا الآن المعاني الكاملة والمثيرة للقول إن « كل الأشياء مشروعة » . وهذا القول يمكن تقسيمه في الواقع الى ثلاثة معاني مختلفة ، اثنان منها مصيبان والثالث خاطئ (١) لا يمكننا أن نكتشف معنى الصواب والخطأ بالتحديق من خلال مرصاد وإن أي قدر من التقصي لن يمكنه أن يكشف عن غاية الله المتجسدة في الطبيعة . (٢) السبب هو لانه لا يوجد إله « هناك في الخارج » يملك ناصية الصواب والخطأ . (٣) لكن الانسان هو مخلوق صغير بائس ليست عنده كذلك آراء نهائية فيما يتعلق بالصواب والخطأ . إذن فكل الأشياء مشروعة .

هذا القول يلخص الموقف الفكري للرومانسية طوال ١٥٠ عاماً . انه ينطبق على « فاوست غوته » و « لصوص » شيلر مثلما ينطبق على كتابات سارتر وكامو . الا ان سارتر اضاف حاشيته الى الفقرة بأن قال انه مع أن الانسان هو مخلوق بائس ، الا انه يستطيع على الاقل ان يحفظ كرامته بأن يدرك ان عليه ان يختار بين الصواب والخطأ وأنه يستطيع أن يضيف قليلاً الى مكانته « بالالتزام » .

وسرى الآن اية ثورة غير عادية فجرتها هاتان النظريتان اللتان تبدوان اكاديميتين وتكنيكيتين جداً ، واعني بهما الفنمنولوجية وسيكولوجية جيبشالت .

إن ما فعلته هاتان النظريتان هو انهما استبدلتا الفقرة (٣) بأخرى مختلفة تماماً . لقد قالتا ما معناه إن على الانسان أن يبحث عن الكشتبان في جيبه الخاص . لقد مهّد فرويد الطريق لهما طبعاً باصراره على (الوعي الباطني) . فمع أن فرويد لم يكن هو مبتكر فكرة العقل أو الوعي الباطني ، الا انه

شدد وأكد هذه الفكرة بشكل اضافى عليها اهمية جديدة . ولقد بدأت الفقره (٣) تتغير حين قال فرويد : « إن الانسان ليس هو الخلق البسيط والسهل الذي يبدو عليه . ان هذا هو فقط عقله الواعي . تحت هذا العقل يوجد بحر شاسع من الوعي الباطني ، من (العقل) الغريزي لا يعرف عنه الا الشيء القليل جداً » . وبذلك اصبح الانسان شيئاً اكبر واكثر عمقاً .

لكن فرويد يعتقد أن اللاوعي هو بطريقة ما « أقل منزلة » من العقل الواعي . كأن الانسان يحتفظ بقطيع ضخم من الفيلة في حديقة منزله الخلفية . وهذه مرعبة وجبارة ، وقد تدوس حتى منزله هو ، لكنها تظل فيلة ، مجرد حيوانات .

لقد وضعت الفنمنولوجية وسيكولوجية جيشتالت مفهوماً جديداً للوعي . أما أن اللاوعي غير معروف ، فهما تتفقان في ذلك مع فرويد . لكنه يشتمل على مبدأ غريب له القدرة على تحديد القيمة والمعنى ، مبدأ متفوق بكثير على أي شيء في العقل الواعي .

وهكذا يرى أن قول دوستوفسكي « كل الاشياء مشروعة » يتلاشى فوراً . فهو قد بني على سوء فهم ، على الفكرة القائلة انه اذا ما كان هناك أي معنى وقيمة فهما موجودتان « هناك في الخارج » ، وانه اذا لم تكونا موجودتين هناك ، فانهما اذن لا وجود لهما .

والفكرة التي تتحدث عن وجود مصدر القيم في داخل الانسان هي فكرة جديدة وقديمة معاً . مفهوم « النور الداخلي » كان معروفاً منذ بيتر والدو ، مؤسس المذهب الوالدوني في القرن الثاني عشر ، كما انه كان شائعاً منذ ايام جورج فوكس . الا انه مع أن طائفة الكويكرز كانت قد ادركت « النور الداخلي » ، فقد ظلّ الله بالنسبة لهذه الطائفة حقيقة خارجية تتصل بيني الانسان عن طريق نوع من الخط التليفوني . الداخلي . وهذا هو الله الذي اعلن زرادشت موته (في كتاب نيتشه « هكذا تكلم زرادشت ») .

وانا اشك إن كان هوسرل أو علماء النفس الجيشتالتيين قد عنوا أن يقولوا

شيئاً عاماً وميتافيزيقياً كالذي قلته هنا . وقوانينهم كانت فقط طريقة جديدة وممتعة في دراسة العلاقة بين الحس والمحسوس وفي التصدي لمسا كل الادراك الحسي . ولا يمكن أن ندرك قيمة هوسرل وعلماء النفس الجيشتالتيين ادراكاً كاملاً الا في ضوء الوجودية . انهم بتقريرهم الهادىء أن شيئاً ما « هناك في الداخل » هو الذي يفرض الشكل على ادراكاتنا ، قد قلبوا خطى كل الفكر الإنساني في الالفى سنة الاخيرة . والمفكر العصري العظيم الوحيد الذي استطاع ان يتوصل الى استنتاجات مماثلة باتباع اسلوب فكري مستقل هو الفريد نورث وايتهد ، الذي لم يرق الشك حق الآن الى اهميته في الفكر المعاصر للقرن العشرين .

نظرية الاستجابة الرمزية هي مجرد خطوة منطقية واحدة من استنتاجات سيكولوجية جيشتالت والفنمنولوجية . إذا كانت هناك « عمدية » خفية تفرض أشكالاً وانماطاً على ادراكاتنا الحسية ، فربما انها تقوم كذلك بتصوير القيم التي « نراها » في الطبيعة . وهذه القيم تمكس « هدف » العمدية .

ويتضح هذا أكثر ما يتضح في نطاقى الجنس والجمالية . إن سيكولوجية غير فنمنولوجية تحب ان تفسر الانحراف الجنسي على صعيد انه انحراف عن « واقع » جنسي خارجي أساسى . إذا ما أمكن لعالم نفسى ما ان يكتشف على سبيل المثال ان الرجال والنساء يحملون مغناطيسات في اعضاءهم واعضاءهم التناسلية وان مغناطيس الذكر هو عبارة عن قطب شمالي يبدل الى الخارج ومغناطيس الأنثى قطب جنوبي يبدل إلى الخارج ، فإن هذا الوضع سيمثل الأساس « العلمى » والموضوعى المثالى بالنسبة لكل الانحرافات . وعلى ضوء ذلك فان اللواطيين هم رجال انقلب مغناطيسهم صدفة وراح يدل الى الوجهة الأخرى . ولن يحتاج الأمر إلى جهد كبير في التفكير لتفسير الانحرافات الأخرى على هذا الأساس .

لكنه لا توجد هناك مع الأسف « حقائق موضوعية » من هذا القبيل لتفسير السبب الذي من أجله يحس ذكر الحيوان بالرغبة في ايلاج عضوه التناسلي في

عضو الانثى التناسلي . صحيح ان الرائحة الخاصة التي تطلقها انثى بعض الحيوانات السفلى ، تلعب دوراً في جذب الذكر . لكن المشكلة تبقى قائمة : لماذا تثير هذه الرائحة الذكر ؟

اننا نستطيع ان نفسر كثيراً من « العادات » الإنسانية بردها الى عملية التكيف الاجتماعي - أي التكيف من « الخارج » ، وقد بين لنا روبرت اردري مدى أهمية الدور الذي يلعبه التكيف . لكن الرغبة الجنسية أعمق من أية رغبة اجتماعية ، وهي لا يمكن تفسيرها على أساس عوامل خارجية . وان على أية محاولة « لتفسيرها » ان تبدأ على صعيد تركيبى وليس على صعيد تحليلي ، أي انها لا يمكن ان تبدأ « بحقائق » بسيطة ثم تنمو وتتطور من هذه الحقائق ، بل يجب ان تبدأ بفكرة ما تحتوي على معنى القيمة أو « الكال » ، ومن ثم تتقدم الى الداخل . ولذلك فان اسطورة جنة عدن وكذلك اسطورة افلاطون عن « الرجال الكرويين » تبدأن بفكرة قيمة سابقة - أو كال سابق - هي القوة الدافعة وراء المجلس . انها تبدأن بفكرة وجود غاية داخلية وليس وجود استجابة أو رد فعل لشيء ما « هناك في الخارج » . وما هو « هناك في الخارج » لا يفسر الاستجابة ، ويبقى التفسير المقبول الوحيد هو وجود دافع داخلي - دافع تطوري - هو الذي يأمر الاستجابة . إن علينا ان نفترض الطبيعة التطورية لهذا الدافع لأنه يستحيل بدون ذلك ان نجد تعليلاً « لاتجاه » الدافع ، الذي يبدو وكأنه يسعى الى مزيد من التعقيد . إن استجاباتنا الجمالية ، مثلاً ، تبدو وكأنه لا يوجد هناك مسبب مادي أو اجتماعي لها . ذلك انه إذا كانت « الغاية الداخلية » لا تهدف الى شيء أبعد من « الحضارة والمدنية » ، فلا يوجد هنالك تعليل لأن نتأثر بجمال منظر طبيعي ما . بل على العكس فإن « الغاية » قد تجد من الأفضل ان تكيفنا بحيث نكره الطبيعة ، كالأطفال في رواية الدوس هكسلي « عالم جديد شجاع » . لكن جمال الطبيعة مرتبط في اذهاننا بفكرة الخلوة وفكرة الحرية ، وكلا الفكرتين هامتين بالنسبة للتطور . الإنسان في مدينة ذات مليون إنسان آخر هو غنمة ، اما الإنسان وحده مع

الجمال والبحيرات فهو يدرك التحدي في السمي وراء الألوهية .

ومرة أخرى فان مسألة اللون مرتبطة بمشكلة التطور هذه . إن اللون هو من « رواسب » الحس التي ليس بالمقدور تفسيرها للعلم . فنحن نستطيع ان نتفهم لماذا تستجيب العين لموجة من الضوء الأحمر ، لكن أي قدر من التفسير لا يمكنه ان يتعدى معرفتنا للفرق بين الأخضر والأحمر . وهذا يصدق كذلك بالنسبة لمعرفة الفرق بين رائحة الكولونيا ورائحة البيرة أو للفرق بين طعم السندورة وطعم البيض أو بين صوت الكمان وصوت عصفور . ونحن يحلل العالم ، العالم المادي ، فانه يحاول ان يتحرى ويتفحص « الطوب » المصنوع من البناء ، كما انه يتوصل الى إيجاد موجات وكثافات متناسبة ودرجة التبخر الخ . لكننا حين ننظر الى الكون لا نحس بوجود هذه « الطوبات » ، وذلك ليس لأن عالمنا نحن ليس مصنوعاً من الطوب كذلك ؛ لكن طوبنا نحن يتمثل في ألوان وروائح وأصوات ومذاقات وأحاسيس . وهذا هو طوب العمدية ، الطوب الذي تبنى به « الغاية الداخلية » مبانيها . إن أهمية اللون على وجه الخصوص تقع في كون حاسة اللون غير ذات فائدة من وجهة نظر البقاء . وفي حين ان حاسي السمع والشم أقوى في معظم الحيوانات منها في الكائنات البشرية ، إلا ان حاسة اللون غير نامية في معظم الحيوانات . كما ان الاختبارات تدل على ان الأطفال حديثي السن جداً لا يملكون حاسة اللون . وقد يحوز ان أسلافنا قبل ألف عام أو أكثر كانوا يملكون حاسة لون أقل بكثير مما نملك اليوم ، فهناك اشارات قليلة جداً إلى اللون في الشعراء القدامى . فهو ميروم لم يلحظ حتى ان السماء زرقاء ، وكانت حاسة اللون عنده من الضالة بحيث انه كان يشبه البحر بالخمرة لجرد ان كلاما داكن اللون . فاذا صدقت الاسطورة القائلة ان مؤلفي الإلياذة والأوديسه كانوا عمياناً منذ الولادة ، يمكننا ان نتفهم ضحالة حاسة اللون عندهم ، لكن ذلك لا يفسر لماذا يبدو كل الشعراء القدامى مصابين كذلك بنوع من عمى الألوان . والذي يبدو أكثر احتمالاً هو ان حاسة اللون هي ترف لنا وتطور مع المدنية بدون أي سبب عملي سوى ان حاسة الجمال هي حافز هام الى التطور .

إلا أنه بالقدر الذي نحتاج فيه إلى تجنبها لتفاصيل وجزئيات البقاء ، فإنه ليس بمقدورنا أن نمتلك حاسة اللون . ولقد وصف الدرس هكسلي ازدياد حاسة اللون فيه تحت تأثير المسكاليين (وهو نبات يحتوي على مادة مخدرة) . واردف أن هذه الحالة رافقها خول لذيد واحجام أكيد عن التفكير والعمل . ولعله ليس من غير المحتمل أن الكائنات البشرية ستستطيع في غضون الألف عام القادمة أن ترى الأشياء بمثل هذه القوة في حاسة اللون .

من المهم أن نفهم هذه النقطة . فالجمال هو معنى ، مع أنه ليس النوع الوحيد من المعنى . فقد اتمتع بصوت المطر لأنني بستانى ولأن حديقتي تحتاج إلى المطر . وهكذا فإن تمتعني ، أي ادراكي الحسي للمعنى هو نتيجة علاقة بين الشخص والمادة ، والمادة في هذه الحالة هي حديقتي . إلا أنني قد اتمتع بصوت المطر لغير ما سبب على الإطلاق ، أو لنفس السبب الذي يجعلني أتمتع بمنظر طبيعي . وفي هذه الحالة فإنه سيكون من العبث أن ابحت خارجاً عن سبب متعني ، لأنني بهذا سأكون مثل بيتس لا أحس بشيء سوى « حجر بارد وماء » . فالمتعة هي نوع من العلاوة التي تمنحني إياها العمدية الموجودة فيّ ، وهي لا يفترض فيها أن تقودني إلى عمل أي شيء . إنها تعبير عن التأثير الوجداني ، كالتعمليس على قطعة ، هدفها تنمية حيويتي وحاسة الهدف عندي .

هناك اذن نوعان من المعنى : الأول هو علاقة مباشره بين الشخص والمادة ، ودعوة الى العمل ، أي إلى استجابة أكيدة معينة . والثاني هو « علاوة » ولا يتطلب أي نوع من الاستجابة سوى المتعة . ومن الغريب أن قوة الحياة قررت أن تستثني علاقاتنا الجنسية من هذه القاعدة .

وهنا ينبغي أن نلاحظ بأن هكسلي أعلن أن العالم اكتسب معنى أكثر بالنسبة له وهو تحت تأثير المسكاليين ، مع أنه لم يستطع أن يصف لنا هذا المعنى سوى بالتحدث عن « كينونة » أحد الكراسي . ومرة أخرى نواجه بالسؤال الديني الأصلي . لقد حاول بنو الإنسان أن يحللوا ويتحرروا الطبيعة للتوصل إلى المعنى الناتج عن العلاقة المباشرة بين الشخص والمادة ، المعنى الذي وضع في

لطبيعة « من قبل الله » ، وكانت محاولتهم شبيهة بمحاولة التحييد في رسالة مكتوبة بالشفيرة على أمل التوصل الى حل رموزها والنفاذ اليها . ارادوا معنى لا يمكنهم ان يفعلوا شيئاً تجاهه . والزيادة في المعنى التي احس بها هكسلي تحت تأثير المسكالين لم توح له بأن يفعل شيئاً ، كانت مجرد « علاوة » صرفة .

وقد يبدو هنا ان قوة الحياة لا تقدم لنا هذه العلاوة عن طيب خاطر . فنن الامية بكان ان يحتفظ البشر بافكارهم لكي يبنوا المدنية ، ولذا فان اهتمامهم يجب ان يقتصر على الضروريات . الجمال يؤدي إلى السكون ، وعلى أساس هذا المنطق فان فقدان الجمال والمعنى يؤدي إلى توليد الحركة . إذن فان حاسة الجمال والمعنى في الإنسان يجب ان تزداد بعد ان ينال الإنسان حق القعود والاستكانة . وبالتبعة فان القرن التاسع عشر كان مكتظاً بالفنانين والشعراء الذين احسوا انهم قد استحقوا ايجاد معنى في الطبيعة ، لكن « عمديتهم » امتنعت عن دفع مكافآت لهم . كان القرن التاسع عشر قرن السأم ، قرناً رمزته هو فاوست المدرك انه لا يستطيع ان يكتشف المعنى في الكتب ، ورمزه الآخر اوبلوموف المستلقي بخمول في سريره لعدم وجود ما يفعله غير ذلك . وفاوست واوبلوموف يشطحان بافكارهما الى ذكريات الطفولة ، حين كان « المعنى » والجمال موجودين بوفرة .

و « المعنى » الذي ليس هو نتيجة لعلاقة مباشرة بين الشخص والمادة هو بلا شك مفهوم ثوري . « فالمعنى » يعني علاقة ، وليس شيئاً قائماً في حد ذاته ولقد كانت الفينولوجية وسيكولوجية جيشتالت هما اللتين اشارتا الى انه لا يمكن أن تبني علماً على هذا التعريف « للمعنى » ، وانه يجب ان نعتبر ان هناك نوعاً آخر من المعنى ينبثق من الداخل ويعمل باتجاه الخارج .

وهذا المعنى الداخلي يمكن تعريفه كذلك بأنه « قبضة على الحياة » ، أو قبضة على العالم الخارجي ، لأنه تعبير عن اندماج قوة الحياة في العالم الخارجي . والعالم بالنسبة للانسان الواقف على شفا الموت مجرد من أي معنى .

إذن فان هذا التحليل للانحراف الجنسي قد سلط الضوء على مفهوم جديد في علم النفس ، هو مفهوم المعنى غير الخارجي بل الذي ينبثق من عمديّة لا واعية . هنا اذن يوجد أمامنا حقل جديد للاستقصاء . وفي القديم كان كتاب الجنس يخلطون بين هذين النوعين من المعنى . والجنس هو الموضوع المثالي لدراسة هذا « المعنى العمدي » ، لأن الجنس ما هو الا معنى عمدياً . وهنا نجد أنفسنا ميّالين الى طرح السؤال التالي : وماذا عن الفعاليات الإنسانية الأخرى ؟ ماذا عن الفن ، مثلاً ؟ فمن القرن العشرين يمكن تقريباً نعتة بأنه فن انهزامي . أدبنا يزخر بالأبطال المهزومين ، برجال يسحقهم المجتمع واناس يحسّون بالنقص دوماً وأبداً ، في حين ان الموسيقى والرسم اتخذوا طابعاً جمالياً مرادفاً لفكرة « كل الأشياء مشروعة » لكي يغطيا عدم وجود أي شيء يقولانه أو يعبران عنه . وهذا يتأتى نتيجة لاعتبار المعنى أمراً خارجياً ، وللقبول بدون تمييز ولا تفريق بعلم النفس القديم . ولقد تعامى الفنان عن « المعنى النابع من العمديّة » لأنه لا يعرف بوجودها . وهكذا فان الادراك بوجود مثل ذلك المعنى كفيّل بأن يعيد الحيوية الى الفن والادب في وقتنا هذا .

وهذا ، كما يبدو لي ، هو الجواب على السؤال المطروح في أول الكتاب . إن « مصدر الدافع الجنسي » ليس الليبيدو ، بل هو عمديّة لا تقتصر على الجنس وحده وانما تبرز كذلك « المعنى » الكامن في نشاطات الانسان الجمالية والدينية . ويمكننا ان نبين أسلوب عمل هذه العمديّة عن طريق تشبيه . لنتصور ضابطاً جالساً داخل دبابّة وجندياً قابلاً في برج المدفع بالدبابّة يراقب ما حوله . الضابط لا يستطيع ان يرى ما يجري خارج الدبابّة ، وعليه اذن ان يعتمد على ما يقوله له جندي المراقبة القابع في البرج . وقد يقول له الجندي : « هناك منزل مريب ويوجد شيء كالمدفع الرشاش خلف المدخنة » . فيصدر الضابط الأوامر بعدها باطلاق النار على المنزل . الضابط هنا معتمد كلية على مزاح الجندي المراقب ، فاذا كان الجندي من النوع العصبي الذي يرى الاعداء في كل مكان ، فان الضابط يكون عندها في وضع مركز « العمديّة » في الجندي حين تكون

الحواس ، عصبية » .

وهذا المثال يجب الا يؤخذ حرفياً جداً ، لكنه يعطينا ، إذا نظر اليه نظرة سطحية ، صورة صحيحة أساسياً عن عمل « الاستجابة الرمزية » .
إلا ان اهم شيء في « نظرية الاستجابة الرمزية » هي فكرة كون العمدية « اداة خلق المعنى » .

وكما كنت قد أشرت ، فان هذا الرأي يثير أسئلة ظلت مهمة حتى الآن على اعتبار انها تقع خارج نطاق العلم . وفي القرن التاسع عشر ، فان العلم كان يعتبر « المعنى » شيئاً ملازماً للوجود ينبغي اكتشافه بالبحث والتحري . وقد تساءل المثاليون ، من لوك إلى هيجل ، عن صحة هذا الرأي بطريقة تجديدية نوعاً ما ، وأشاروا إلى ان بعض هذا المعنى هو من نتاج الحواس . وقد ذهب بيركلي إلى أبعد مما ذهب الجميع حين أعرب عن اعتقاده بأن العالم هو من تدبير وإيعاز العقل كلية ، وانه سيكشف عن ان يكون حين لا يوجد هناك من يراقبه ، أو على الأقل انه كان سيكشف عن ان يكون لو لم يكن الله موجوداً ليراقبه إلى الأبد . وبشكل ما ، كان بيركلي أقرب الباقين الى مفاهيم التلنولوجية بأن اسند إلى عقل الإنسان قوة من نوع قوة الله . والتلنولوجية تتخذ هنا موقفاً شبيهاً . انها تقول انه يوجد هناك بالفعل شيء اسمه « المعنى الموضوعي » ، لكنه ليس النوع الوحيد من المعنى الذي يلون العالم .

إلا ان هذه الثنائية ليست مرضية تماماً ، فهي تكاد تذكرنا بثنائية الله والشیطان التي يوحىها لنا الجانب الساذج من المسيحية . وقد عبر هـ . ج . ولز عن نوع من الرعب بسبب هذه الثنائية في كتابه Mind at The End of Its Tether وهو كتابه الأخير المتشائم ، حين قال ما مؤداه ان « العقل » و « الطبيعة » هما كخطي سكة حديد يسيران متوازيين بفعل الصدفة منذ ملايين السنين ، لكنهما الآن يفترقان .

ملخص القول انه لا يريد أحد ان يعتقد بأنه يوجد هناك معنى في العالم مستقل تماماً عن الانسان وعن العقل . وكان هذا هو الرأي الذي أدّى إلى

يأس وعمدية أواخر القرن التاسع عشر . ونظراً لأن الفنمنولوجية قد نجحت في حلّ هذه المشكلة القليلة والتغلب على « تشعب الطبيعة الى قسمين » ، فانه يبدو من السخف اذن ان تخلق الفنمنولوجية نوعاً آخر من امثالية . والسؤال الذي نحب ان نوجهه الآن هو : إلى أي حدّ ترتبط العمدية بالطبيعة والزمن ؟ إن حواسنا « عمدية » تتجسد في عالم الأشياء عن طريق الارادة الداخلية . وهذا يعني ان حواسنا هي « رابطة » بين « الارادة الداخلية » والطبيعة . أليس من المحتمل ان تكون هناك روابط أخرى ؟ وتدل الدراسات التي أجراها راين طوال ربع القرن الماضي حول الادراك اللاحسي على ان « الحواس الخمس » قد لا تكون هي التجسيّدات الوحيدة للعمدية المستترة في الإنسان . وهناك احتمال بعيد في ن تكون هناك « حواس أخرى » هي في الوقت الحاضر غير ضرورية بالنسبة للإنسان كما كانت حاسة اللون غير ضرورية بالنسبة للإنسان في عصر هوميروس . وفي الواقع ان الإنسان كان يمتلك دوماً « حاسة » أخرى تميزه عن الحيوان ، وهي الخيال ، القدرة على تصور وتوقع الأحداث . كل الحواس تملك عنصراً « ترقعياً » . الراعي مثلاً يستطيع ان يقنّباً بحالة الجو لليوم التالي من منظر الشمس . وليس هناك من الحيوانات من يمتلك مثل هذه المقدرة التوقعية . لكن الخيال لا يزيد من قوة هذه المقدرة التوقعية فحسب ، بل انه يصلح كذلك لأن يكون اداة « للنضوج » ، بأن يجعل تجارب معينة غير ضرورية للإنسان لأن الإنسان يتوقعها باكتمال تام ، وبذلك يضعف من طغيان الغريزة التي تدفعنا إلى « اكتمال التجربة » ولقد زاد الخيال من استقلال الإنسان أكثر من أي من الحواس الأخرى .

لكننا اذا كنا نمتلك هذه القوى التوقعية ، فإلى أي حدّ إذن تستيرنا « العمدية » حسب توقعات لا نعيها ؟

هذه اسئلة أطرّحها في الوقت الحاضر واطرّكها بلا جواب . وبما يتضح انها موجودة ضمناً في نظرية الاستجابة الرمزية ، لكن « التكن » فيها ضرب من العبث . فالماطلوب هو اسلوب علمي في التحري ، ربما يماثل اسلوب سيكولوجية

جيشتالت أو اسلوب دراسة الادراك اللاحسي . والشئ الذي يبدو واضحاً
أشد الوضوح هنا هو ان المتحري أو الباحث لن يجد أفضل من نفسه هو مادة
للتجربة .

لكن ماذا عن التجربة ؟ إن بإمكان الفنمنولوجية ان تقترح بعض الأساليب
في رصد الأشياء ، لكنها لا تذهب الى أبعد من ذلك . وهنا يبدو ممكناً ان
حقل الجماليّة ، وعلى الأخص تصرف العقل الخلاق ، قد يكون مثالاً لهذا
الغرض . فالفنان العظيم يقوم بعملية الخلق « في خدمة » عمديته ، والفن العظيم
كان دوماً حصيلة تعاون بين الإرادة الواعية والعمدية المستترة . وحين يفقد
الفنان إيمانه بالغاية والمعنى ، فانه ينزع الى ان يلقي بعبء الخلق كله على كاهل
العمدية . وكل الخلق يمكن وصفه بأنه عملية إيمان بالعمدية ، لكن الاشكال
المختلفة من الفن « التجريدي » لا تحتاج الا الى حد ادنى من هذا الايمان .
هذا « الايمان بالعمدية » هو اسم آخر للتوجيه أو التفسير الداخلي . وفشل هذا
التوجيه الداخلي هو ، كما اشرت في مكان آخر^(١) ، الميزة الرئيسية لفن وأدب
القرن العشرين . كثيرون من الكتاب المهتمين بالجمالية عزوا فقدان الثقة والغاية
هذا الى انهيار الدين ، وأشاروا الى ان الفن العظيم كان عادة فناً دينياً . إلا ان
نظرية العمدية ليست أقل من إعادة تثبيت الفكرة المحورية في الدين ، فكرة
الغاية التي هي بطريقة ما شخصية وغير شخصية معاً ، والتي هي ما وراء
الإنسان (ككائن واع) وفي ذات الوقت موجودة في « داخله » . ويبقى ان
نرى الى أي حد تستطيع دراسة العمدية في الفن دراسة علمية ان تجعل الفنان
يعي هذه الدرافع التي هي شخصية وغير شخصية معاً والتي هي ، حين تتحول
الى وعي ، الأساس الرئيسي للفن العظيم . ولعل أفضل شخص يمكن ان
تجري عليه عملية التحري والبحث هذه هو إنسان خلاق يكون كذلك
فنمنولوجياً ذكياً .

١ في كتابي « عصر الهزيمة » The Age of Defeat .

خاتمة :

كان من بين أهداف هذا الكتاب ان يقترح أسلوباً في البحث النفسي ظل مهملًا حتى الآن ، هو الاسلوب الوجودي . لكن هدف الكتاب الرئيسي كان ان يقول ويحاول ان كل الكتاب عن الجنس كانوا حتى الآن يبحثون عن « النسق » أو « النموذج » في غير المكان الصحيح . إن كلمتي « طبيعي » و « عادي » تستعملان كترادفين ، وهذا يعني ان النسق أو النموذج هو شيء موضوعي ، هو جزء من الطبيعة ، واحد من قوانين « أمنا الطبيعة » . كان هدفي هو ان أحاول بأن أبين ان الطبيعة ليس عندها افضليات . الجنس هو تجسيد للعمدية التطورية . ومع ان هذه العمدية لها بكل تأكيد افضليات فيما يتعلق « بالطبيعية » ، فانها لا تتخذ اجراءات فعالة ونافذة جداً لتطبيق هذه الافضليات . وفيما يتعلق بوجود الليبدو ، فانه ليس أصل الدافع الجنسي ، بل هو تجسيد للعمدية ، كالدافع الجمالي والدافع الديني والدافع الاجتماعي . ومن المحتمل ان يكون الإنسان « طبيعياً في الجنس » ، اما ان يكون طبيعياً فوق العادة فعنى ذلك ان يفقد الاهتمام بالجنس كلية إلا لتلك الغاية الواعية التي هي ، كما يقول تولستوي ، انجاب الأطفال . ولا اشك ان برنارد شو محق كذلك في قوله ان الكائنات البشرية خلال عملية التطور ستفقد اهتمامها بالجنس بمعنى كونه مجموعة دوافع جنسية غريزية . إن رد فعلنا الأول لمثل هذه الفكرة هو الوجع والقنوط ، وهو الشعور بأن العالم سيكون كشيء راكداً بلا حراك . ولكننا ننسى ان الركود مرادف لفقدان المعنى ، وان العمدية التي تلفت الرموز الجنسية حالياً بالواقعية أو الحقيقة الظاهرة في حد ذاتها اداة ولسان حال المعنى .

من الصحيح ان هذه النظرية عن العمدية التطورية تتعارض مع معظم مدارس علم النفس القائمة حالياً ، لكن الاعتراض الرئيسي هو على وجود « قوة تطورية » هي في ذات الوقت واعية (بمعنى انها تمتلك غايات ودوافع) وغير واعية . لكن التناقض الظاهري ناشئ من العادة الفرويدية في اعتبار كلمة

لا واعي Unconscious (أي غير الواعي واللاشعوري) مرادفة لكلمة الوعي الباطني Subconscious (أي ما تحت الوعي) . فاذا كانت هناك للعقل طبقة سفلية ، فلماذا لا تكون له كذلك طبقة علوية ، تكون هي أيضاً وراء معرفة وإدراك الوعي ؟ ونظراً لأنه لا يوجد هناك أدنى شك حول وجود عمدية فوق الوعي ، أفلا يكون أكثر معقولية ان نصفها بوعي فائق بدلاً من وعي باطن ؟ إلا ان هذا على كل حال ليس ذا أهمية ، فقد يقال حتى ان كلمة « الوعي الفائق » هي كلمة غير مرغوب فيها نظراً لأنها تعني بطريقة ما انها مفضلة على الوعي . وفي الواقع ان الهدف هو ، ويجب ان يكون دائماً زيادة الوعي . والمشكلة المباشرة هي وضع وتطوير الوسائل والأساليب الكفيلة بنشر الوعي ومدّه إلى ميادين العمدية .

صالح

العقلية الاجرامية

لقد تطرقنا الى مشكلة العقلية الاجرامية عدة مرات في سياق هذا الكتاب . وقد بحثت هذه المشكلة باسهاب في مقال « دراسة جريمة القتل » . وبالنسبة للسيكولوجي الوجودي ، فان المشكلة الممتعة الهامة هي التفريق بين العوامل « الخلاقة » في العقلية الاجرامية وبين العناصر المتفسخة .

شو والجريمة :

إلا ان سؤالاً يبرز أمامنا هنا وهو : هل هناك بالمرّة عنصر « ايجابي » في العقلية الاجرامية ؟ يقول اندرو اندرشافت ، أحد أبطال شو : « بشرت بالاخلاق القوية فعلت بي الجوع حتى اقسمت يوماً ان اكون رجلاً حراً متمتلياً المدة بأي ثمن وان لا شيء سيوقفني إلا رصاصة » ، لا عقل ولا اخلاق ولا حيوات الناس الآخرين ... كنت رجلاً خطراً إلى ان تحققت لي إرادتي . والآن فاني شخص مفيد ومحسن وعطوف » . كلام شو هنا هو تأييد للقول انه ينبغي توفر قدر معين من « الاجرام » من أجل التوصل إلى التعبير عن الذات ، وهو يبرر ذلك بأن يشير إلى ان اندرشافت هو الآن محسن مرموق ومن أصحاب الأعمال المثاليين الذين يحتذى بهم . وسيكون من الممتع والمفيد ان نبحث عن معنى كلمة « اجرامي » في قاموس شو . وهناك الاعلان الهام : « إننا نحكم على فنان حسب أعلى لحظاته وعلى مجرم حسب ادانها » ، وبغض النظر عن اشارة موجزة إلى المجرم المدعو Jack The Ripper جاءت في احدى المقدمات التي كتبها (والتي يتحدث فيها عن « نيوروسية جاك المسكين المريضة ») فان موقف شو من المجرمين هو على وجه العموم موقف عطف . (راجع الحديث الطويل عنهم في الفصل الثالث من مسرحية « الإنسان والإنسان المتفوق » ، Man and Superman ، « رذال الناس وحثالات المجتمع » ، أولئك الذين هم

فوق مستوى الوظائف الاجتماعية العادية ، واولئك الذين هم دون المستوى) .
ومن الواضح ان شو كان يؤمن بأن قسطاً كبيراً من الجريمة هو احتجاج له . ما
يبرره ضد المجتمع . وكان شو يحب ان يقول الاشياء بصراحة ويسمي الأمور
باسمائها ، كما كانت تروق له فكرة ان لصاً ما قد يكون رجلاً أفضل من بقال
شريف مثلاً . لكنه كان مقتنعاً كذلك انه من الحكمة ان يقتل بعض المجرمين
« بطريقة ودية وصريحة وبدون حقد » لأنهم من الخطورة بحيث يجب الا يبقوا
طليقين ولأنه لا ينبغي ان يضعوا حياة رجال آخرين في مراقبتهم . وهو يطور
هذه الفكرة بشكل ممتع في مقدمة « الحبس » Imprisonment ويقترح بأن
نقوم بتدمير كل السجون باعتبارها منبثاً خصباً للجريمة وباعتبار انها تشجع نمو
كل أنواع الشرور . في السجناء والمسجونين على السواء . وهو يعتقد ان
المجرمين المتأصلين الذين تملكهم عادة الاجرام ان يقتلوا « بدون ضغينة » على
أساس انهم مضيعون لوقت المجتمع لا يمكن تقويمهم . لكن معظم المجرمين هم من
مرتكبي الجريمة لأول مرة ويمكن بالتالي تقويمهم بسهولة بالعزل والنبذ
الاجتماعيين .

والنظرية مغرية جداً ، لكن ما تحتويه من صدق ليس مع الأسف الا
« صدقاً شاعرياً » . وتشرح لنا جوزفين بل في كتابها « الجريمة في زمننا »
Crime in our Time . تبدأ الآنسة بل كتابها بفصل يستعرض يوماً واحداً
معيناً من أيام الجريمة في لندن ، فتنحدر يوم السادس من شباط ١٩٦٠ وهو اليوم
الذي وقعت فيه جريمة القتل في نادي التعارف بالمراسلة ، ثم تسرد مجموع وقائع
ذلك اليوم بالذات التي بلغت عنها بوليس لندن . وبمجموعة الوقائع هذه كانت
ستصدم شو فهي تتكون من عدد كبير جداً من الاعتداءات والسرقات وأعمال
السطو وعدة محاولات قتل وخطف طفل (وان يكن الطفل قد استعيد بعد
حوالي ساعة من خطفه ، وكان مصاباً ببعض الحدوش) . إذن ففكرة شو اننا
نستطيع ان نستغني عن البوليس تفتقر إلى دليل أو اسناد في ذلك الفصل بالذات
من كتاب الآنسة بل .

وماذا عن فكرة شو القائلة بأن المجرم قد يكون رجلاً « فوق مستوى » ، أية وظيفة بسيطة في المجتمع ؟ مرة أخرى ، فإن دراسة الجريمة تعطي سنداً ضئيلاً جداً لهذه الفكرة . في مقدمة كتاب « موسوعة جرائم القتل »^(١) Encyclopaedia of Murder نقلت عدداً من جرائم القتل النموذجية . وهي نموذجية بمعنى أنها كلها تكشف عن تلك العبودية لما هو قافه . وكان محور تلك المقدمة هو الفقرة التالية : « إن الايمان بأن القاتل شخص شاذ وغير طبيعي هو جزء من وهم الطبيعة الذي بني عليه المجتمع . فالقاتل يختلف عن باقي الناس في الدرجة (أي كماً) وليس في النوع (أي كيفاً) . ان كل قيمنا مؤقتة ، والذي يفعله القاتل هو انه يستعيز عن القيم المطلقة بما يناسبه ويروق له هو شخصياً » . وسردت قضية ونفورد سميث الذي اغتصب ثم قتل فتاة في ساجينو عام ١٩٤١ . فالقاضي الذي حكم على سميث قال ان تلك الجريمة كانت من افظع الجرائم التي مرت عليه . وفي الحقيقة ان سميث حاول ان يقبل الفتاة فصغته . فما كان منه إلا ان لكها بحيث غابت عن الصواب أو كادت . يقول سميث في اعترافه : « وهنا كان لا بد لي من ان امتلكها » . ثم قتلها بعد ان اغتصبها وذلك على اثر تهديدها له بأنها ستخبر البوليس عنه . وصفة « الفظاعة » التي اطلقها القاضي تكاد لا تنطبق على هذه الجريمة ، لكنها تخدم القصد من اقامة سدّ أو حاجز بين المجتمع والمجرم ، فيصبح حيواناً حبيساً في قفص بدلاً من ان يكون مجرد إنسان مذعور عادي خائب .

ميثاقزينة القتل :

يبدو ان معظم القتل يتلكون صفة غريبة فيهم وهي صفة سوء التقدير والحساب . يحدثنا جيمس جويس عن رجل غريب الصفات كان يصر على ان ينقر بمصاه كل عمود كهرباء كان يمر به . وكثير من الناس الذين نعتبرهم عاقلين تماماً يتلكون مثل هذه النقائص ونقاط الضعف ، كتجنب السير على الشقوق

١ الذي ألفه كولن ولسون بالاشتراك مع باتريشيا بيتان .

بين بلاط الأرصفة مثلاً . ولكن لماذا ؟ فإن ذلك لا يخدم أي قصد عملي . في الواقع انه حصيلة غريبة للضجر . يشير كيريفارد إلى اننا ضجرون نوعاً ما معظم الوقت ، ويقولون ان الحضارة بنيت بسبب الضجر وليس بسبب دافع التقدم وهو كذلك إلى ان الناس يمتلكون القدرة على تطويع أنفسهم بسبب حالة عدم تحقيق الذات المعتادة . إن طالباً ما يحس بالضجر من درس ملول يستطيع مثلاً ان يسلي نفسه الى أبعد الحدود إذا استطاع ان يلقط خنفسة ويضعها تحت قشرة جوز مجوفة . والرد على الضجر هو نوع من الضغط الداخلي ضمن الإنسان . لا يمكن تسميته « غاية » بالضبط ، فهل هي « غاية » تلك التي تبقي الطالب متسلياً بخنفته؟ انها بالاحرى نوع من التركيز ، من توجيه الانتباه . فالانتباه يتوق إلى ان يوجه كما تتوق امرأة مازوكية إلى ان يسيطر عليها رجل . والإنسان يحس احساساً غريباً بعدم الراحة إذا كان اهتمامه موزعاً ومشتتاً . وهذا هو اذن سبب النقر على أعمدة الكهرباء أو تجنب السير على الشقوق من قبل أناس ليس لديهم شيء أهم من ذلك « ليتغلبوا » عليه ، أو عقبة أخرى يركزون عليها ارادتهم .

وهذا هو بوضوح موضوع « قيم » . فلنحاول اذن أن نعرف كلمة « قيم » تعريفاً عملياً . القيم هي ما يحدد ويقرر عملية اختيار . وليس من الضروري أن تكون هذه القيم « ميتافيزيقية » أو دينية ، بل يمكن أن تكون قيماً بسيطة للغاية كالقيمة التي تدفع الحمار الى أن يختار رزمة قن معينة دون أخرى . والرجل الذي « يختار » ان ينقر كل عمود كهرباء بعصاه يشعر بأنه لا توجد في تلك الفترة قضايا أكبر تستأهل أن يختارها .

هذه الاعتبارات هي أساس النفسية الإجرامية ، كأن نقول ان رجلاً يقطن على مسافة نصف ميل من مقر عمله ويمكنه أن يتوجه الى عمله بطريق مباشر ، لكنه يشعر بأنه مضطرب الى أن يسلك الى عمله طريقاً أطول يبلغ عشرة أميال . وسيطن زملاؤه في العمل أحد شيئين : إما أن الرجل يعاني من عقدة الرغبة النفسانية أو انه لم يكتشف بعد وجود طريق مباشر قصير الى مقر عمله . وان

دراسة تجري على معظم الجرائم ستؤدي الى تبين حقائق من هذا القبيل ، ذلك ان هذه الجرائم استدلل على ان « القيم » التي دفعت بالقاتل الى أن يقوم بالعمل الذي اختاره كانت مبنية على سوء تقدير سخيـف. والقاتل مشوش الفكر بشكل سخيـف عادة فيما يتعلق بضغوط الحياة في المجتمع وفيما يتعلق بمعنى حياته هو ومعنى الحياة بصفة عامة . وهو ربما يكون أكثر تشوشاً وارتباكاً من معظمنا ، لكنه ينبغي لنا أن ندرك انه يعاني فقط من شكل أكثر حدة من تلك الحيرة والارتباك التي نحسها كلنا في وجه الوجود .

وفي دراستنا لمشكلة العقلية الاجرامية فاننا نقع في مغالطة تماثل المغالطة الفرويدية عن « الطبيعية » والشذوذ ، وذلك بان نفترض بانه يوجد هناك خط فاصل حقيقي بين سلامة العقل وبين الجنون. في عام ١٨١٢ اغتيل رئيس الوزراء البريطاني سبنسر بيرسفال من قبل مجنون كان يعتقد بانه ضحية مؤامرة لاضطهاده . واعدم المجنون بتهمة القتل. وفي عام ١٨٤٣ اطلق مجنون آخر اسمه مكناجتن النار على سكرتير رئيس الوزراء آنذاك فأرداه قتيلاً. وكان مكناجتن هذا يعتقد كذلك ان الناس كانوا يتآمرون على قتله . وأدت محاكمته الى تثبيت أحكام مكناجتن فيما يتعلق بتحديد الجنون الاجرامي . وتنص هذه الأحكام على أن على المجرم أن يكون مدركاً ادراكاً واعياً لطبيعة عمله أو مدركاً انه ارتكب عملاً خاطئاً قبل ان يجرّم شرعياً . لكننا نستطيع أن نقول فقط ان « القيم » التي دفعت مكناجتن الى ارتكاب جريمة القتل كانت مبنية كلها على أوهام ، في حين أن القيم التي دفعت سيدون الى تسميم المستأجرة القاطنة في منزله للحصول على نقودها كانت مبنية على وهم أكثر تعقيداً وعلى دناءة ثابتة من نفس الجذور النفسانية التي هي كذلك أصل النقر بالعصا على الأعمدة الكهربائية .

حين نسمي أحد الناس « مجنوناً » ، فاننا نعني انه يقوم بأعماله التي يختارها بناء على نظام قيم باطل ومغلوط بشكل واضح ، كأن يتصرف بناء على الاعتقاد بانه نابليون مثلاً . الرسام بنجامين هايدون ، صديق الشاعر كيتس ، كان يرسم طوال حياته بناء على اعتقاده الشخصي بأنه عبقرى . لكنه لم يكن كذلك ،

فهو اذن الى هذا الحد يعتبر « مجنوناً » . كي . إي . لورنس عاش حياته مقتنعاً بأنه ليس عبقرياً ، واختبأ وراء وظيفة ما في سلاح الجو الملكي البريطاني ليتهرب من مسؤولية ان يعيش حياة بمستوى شهرته . لكنه كان عبقرياً ، وتصرفه الأخير كان اذن قائماً على وهم . وعلى هذا فانه كان حسب التعريف مصاباً بمجنون طفيف . لكننا كلنا نعيش على افتراضات معينة تتعلق بما نعتقد اننا نملك أو لا نملك وبما نعتقد اننا نستطيع أن نسهم به في الحضارة وما لا نستطيع .

وقد يبدو لنا أن هناك فارقاً واضحاً جداً بين « افتراضاتنا المعقولة » عن قدراتنا وبين افتراضات واعتقادات مجنون يظن انه يسوع المسيح . وكلما حددنا من ادراكاتنا وضيقناها للتساير حاضراً « معقولاً » وحاجاته ، اتضح هذا الفارق أكثر فأكثر . فاذا ما وسّعت الادراكات بحيث تشمل كذلك جهل الانسان المطبق بنفسه وبطبيعته ، فان الخط الفاصل سيصبح غير واضح . إن هذا الجهل لا يشكل جنوناً ، لكن الجنون ليس أكثر من شكل متطرف ومشوه من هذا الجهل . ولا يمكن فهم الجريمة تماماً إلا اذا أدركنا ذلك . كيف يمكن لأحد مثلاً أن يتوصل الى أي استنتاج فيما يتعلق بقضية ليوبولد ولووب او قضية برنارد ميلز ؟ كان ميلز شاباً في التاسعة عشرة من عمره يعمل كاتباً باحد المكاتب في فونتنجهام . وفي أحد الأيام قرر ميلز أن يرتكب « جريمة كاملة » . فتعرف الى امرأة بريئة مسالمة في احدى دور السينما ، وكانت أم عائلة في الثامنة والأربعين من عمرها ، وأخذها الى بقعة نائية ثم خنقها حتى الموت . بعد ذلك اتصل بالصحف وعرض عليها أن يبيعها القصة ، مدعياً انه هو الذي اكتشف اللجنة حين كان يبحث عن بقعة نائية خاوية يختلي فيها بنفسه لكي ينظم قصيدة . لكن بعض انسجة معطف وجدت عالقة تحت أظافر القتيلة أثبتت للبوليس ان ميلز هو القاتل ، وبعدها بعدة أشهر أعدم ميلز . لكن لماذا ارتكب ميلز جريمة القتل ؟ لأنه كان يريد أن يكون « مختلفاً » ، فقد كان يحاول دائماً أن يحظى باعجاب زملائه في العمل بكتابة الشعر ومشاريع اخرى . كانت جريمة القتل اذن تعبيراً عن الضجر ، كنقر أعمدة الكهرباء .

والشيء نفسه ، مع بعض التعقيد ، ينطبق على « جريمة القرن » ، وهي قضية ليوبولد - لويب . انها من ذلك النوع من القضايا التي كان يمكن لها أن تكون مصدر وحى لدوستويفسكي . كان ناثن ليوبولد وريتشارد لويب طالبين لواطيين بجامعة شيكاغو ، وكان كلاهما ابن مليونير . كان ليوبولد ، أذكى الاثنين ، يعاني من بعض اختلالات غددية كانت تجعله يحس بسهولة بالضجر والتعب . كان ضغط دمه منخفضاً كما كان أيضاً التحول الكيميائي والتجدد في خلاياه واطناً كذلك . وكان بالإضافة الى هذا وذاك مصاباً بفقر الدم وعرضه للكآبة والاغتمام . . حين كان في الرابعة عشرة من عمره قامت مربية منحرفة جنسياً في منزل العائلة بارتكاب عدة أعمال جنسية شاذة معه كما علمته أن يلحق مهبلها . وكان هذا هو سبب نشوء المازوكية عنده . أما ريتشارد لويب فكان أكبر بسنة واحدة من ليوبولد . وكان متين البنية ووسيماً كما كان معتاداً على الكذب وعلى ارتكاب جرائم قافمة . ولذا فقد تحول ليوبولد الى عبده ومطيعه . كانت فكرة قتل صبي في الرابعة عشرة من عمره اسمه بوبي فرانكس هي فكرة لويب ، وربما انه رأى فيها خطوة أولى في الطريق الى أن يصبح الاثنان « أساتذة في الاجرام » . كان رأساهما يمثلان بالفكرة النيتشوية عن الانسان المتفوق . إلا أن ممثل النيابة أعلن بصرامة ان الجريمة كانت جريمة جنسية محضة لا أكثر ولا أقل . ولم يبد الشابان أي ندم أثناء المحاكمة ، وكان يبدو من الواضح أن كل ذلك لم يكن حقيقياً بالنسبة لهما . وقد حكم على الاثنين بالسجن المؤبد .

والمفتاح الى القتل هنا هو النقود ، أي ثروة والديها الطائلة . (كان يسمح لكليهما باعطاء شيكات بأي مبلغ يريدان بدون استشارة والديهما) . وهذا المال الوفير كان معناه انه لم تكن هناك أية « ضغوط » عليها . لم يكن هناك « تحد ورد التحدي » في حياتهما . كانت الحرية غير محدودة ومن ثم ممله . ولأنه لم يكن هناك أبداً أي ضغط اجتماعي عليهما فلم يكونا بحاجة الى أن ينميا في أنفسهما أي نوع من قوة الخلق والشخصية . وفي الحقيقة ان اظهار كل الملابس المحيطة بجريمة القتل التي اقترفاها يحتاج الى عالم نفسي من وزن نيتشه أو باسكال . فالجرم

الحقيقي في هذه القضية كان الحرية .. حرية ميتافيزيقية . ان أهمية هذا الدرس بالنسبة للمجتمع الحديث لا يمكن التحويل منها ، والجريمة كانت بحق « جريمة القرن » في أكثر من ناحية .

لقد أشرت في « دراسة جريمة القتل » الى أن « جريمة السأم » غريبة بالنسبة للقرن العشرين ، واوردت قضايا اذجار ادواردز ونورمان سميث للتدليل . إن قضية ادواردز تبدو وكأنها جريمة قتل ارتكبت احتجاجاً ضد اللامعنى في الحياة . وفي نواح معينة فانها على نسق رواية « الغريب » لكامو . أما نورمان سميث فقد أمسك بمسكس وأطلق الرصاص على امرأة من خلال النافذة . وكان سميث وقتئذ يتفرج على تمثيلية تلفزيونية اسمها « القناصة » ، فقرر أن يحاول القنص هو شخصياً . ولم يكن على أية معرفة بالقتيلة .

النقطة التي أحاول أن ابرهنها هي أن نظامنا الاجتماعي المعقد رفس « القيم » من تحت أقدام معظم الناس . ففي وقت من الأوقات ، كان هناك تأثير كبير للتعاليم والتحذيرات الدينية ضد الجريمة كما كان هناك نفور غريزي من الجريمة عند الناس . أما اليوم فمعظم الناس ما زالوا ينفرون من جرائم القتل أو جرائم العنف ، لكنهم لا يستطيعون أن يجادلوا باسهاب دفاعاً عن « خطأ » الجريمة كما كان يفعل أجدادنا في القرن الثامن عشر . وحين نحقق الغريزة المعادية للجريمة فائناً لا نستطيع أن نفعل شيئاً سوى اعدام القاتل . ان الناس الذين يعيشون في مجتمع هائل ومعقد قد يحسون بان هذا المجتمع « يلغي » وجودهم . هناك مقطع في رواية « من هنا الى الأبد » From Here to Eternity يصور لنا كيف كان البطل جالساً بين رفاقه الجنود يشرب الجمعة ثم كيف يداهم فجأة شعور بالفرح العظيم ، بالتضامن مع « الجيش » على الرغم من قسوة وفضاظة ومتاعب الحياة العسكرية . لكن معظم سكان المدن لا يحسون أبداً بمثل هذا الشعور نحو المدينة والمدينة . ومع ان الفلاح أو العامل في القرن الثامن عشر كان يمكنه أن يدرك أن الحياة « غير عادلة » وان بعض الناس يولدون أغنياء ومحظوظين والبعض الآخر يولدون فقراء ، الا أنه كان يتقبل ذلك ويحس « بالتضامن » مع المجتمع . النظام

الاجتماعي في يومنا هذا أقل ارضاء بشكل عام ، اذ يبدو ان « الحياة » تسبغ الشهرة والثراء باكثر الصور غرابة واستهجانا . وعلى ذلك فان « المواطن المتوسط » يجد من الصعوبة أكثر فأكثر ان يقبل بذلك . فالأحداث الجانحون يتساءلون « لماذا ليس أنا ؟ » حين يشاهدون فيلماً سينمائياً لجيمس دين أو الفيس بريسلي ، والعامل يتساءل « لماذا ليس أنا ؟ » حين يقرأ ان أحد الناس كسب عشرة آلاف جنيه في الرهانات الجماعية التي تجري حول مباريات كرة القدم . والجريمة قد تكون مجرد استجابة لهذا الإدراك الذكي لظلم الحياة في المجتمع الحديث . فمثلاً ان لا أخلاقية البوهيميين البيتنكس كما يصورها جاك كورواك أقل من الاجرام بمرحلة واحدة فقط . والذي يبعث على الدهشة ليس الارتفاع في نسبة الجرائم ، بل هو ان كثيراً من الناس لا يفترون جرائم في حضارة يحسون فيها بانتفاء انسانياتهم تماماً .

ويبقى التناقض قائماً . لقد خلقت المدنية حين قرر بنو البشر ان يتشكلوا في جماعات من أجل حماية النفس . وإن الدرجة العالية من الراحة ومن الثقافة في المدنية المعاصرة هي نتيجة لتعاون ضخم وواسع النطاق لم يكن بمقدور إنسان ما قبل خمسة عاام ان يتصوره . لكن ضخامة حجم العملية تنفي اعضاءها الافراد . وفي أقل من قرن ، تحولت المدن الصغيرة الى مدن كبيرة وتحولت مجموعات المدن الصغيرة إلى مدن عملاقة مثل لندن ولوس انجلس . المدنية ووسائل الراحة تعني زيادة انتفاء الفرد ومن ثم زيادة في معدل النيوروسية والجريمة . وإذا ما استمر هذا الاتجاه وازدادت مشكلة نمو السكان تفاقماً ، فيجب ان نتوقع زيادة مماثلة نسبياً في معدل الجرائم .

وقد تبدو المشكلة في هذا الشكل مستعصية على الحل . وبين الوقت والحين يظهر مصلح ديني ليعلم ان شرورنا ستزداد إلى ان نتعلم كيف نعبد الله معاً كمسيحيين . إن الادراك الأساسي صحيح ، لكن الحل خاطيء . فهم يفكرون عن المسيحية على أساس أنها « فكرة » أو قوة خارجة على حدود الزمان والمكان . لكن دراسة تاريخ الكنيسة سيبين بطلان ذلك ، فالكنيسة لم تحتفظ

بكيانها بفعل فكرة بل بفعل ظروف تاريخية وقوى اجتماعية . الفكرة نفسها هي فكرة عظيمة ، لكن المجتمع لا يحافظ على وحدة كيانه بفكرة مستقلة عن قوى أخرى . والتطلع الى اعادة احياء الكنيسة ليس الا تفكيراً مشوشاً وليس الا رغبة في اعادة عقارب الزمن الى الوراء .

أليس بالامكان فعل أي شيء اذن؟ ليس هناك من إنسان على قيد الحياة يستطيع ان يجيب على هذا السؤال . فالاجابة عليه تحتاج الى عقل الكتروني جبار نغذيه بكل الاحصائيات حول الزيادة في حجم المدن والسكان كما نغذيه بكل الحقائق الخاصة بالارتفاع في نسبة النيوروسية والأمراض العقلية بشكل عام . فقد يكون المجتمع على وشك ان ينفجر كرجل يزداد الضغط فيه بشدة ، وقد يكون الضغط سيستمر في الازدياد باضطراد لمئة سنة أخرى بدون أي خطر .

لكن افتقارنا إلى عقل ما فوق الكتروني متفوق وكذلك إلى الاحصائيات والمعلومات اللازمة ينبغي الا يكون مدعاة للقلق . ذلك انه توجد هناك اجراءات ابسط يمكن اتخاذها . فاننا نستطيع على الأقل الاعتراف بأن الاتجاه إلى نفي الفرد يتفاقم أكثر فأكثر بسبب افتراضاتنا ومعتقداتنا الثقافية ، وبسبب مختلف التراثات التي تلقيناها من القرن التاسع عشر ، من جون ستيوارت ميل ، من ماركس وفرويد وني . اتش . هكسلي وكثير غيرهم وبالمناسبة فان بعضاً من احذق هذه المفاهيم المغلوطة كان قد روج لها مفكرون معاصرون من برتراند راسل إلى هيدجر . وقد يقوم أحد علماء الاجتماع في المستقبل بعمل قيم لو انه درس حالات مجموعة عريضة من المحرمين وحدد الى أي مدى اسهمت التأثيرات الاجتماعية البحتة (كظروف المعيشة في الاحياء الفقيرة الخ) وإلى أي مدى اسهمت التأثيرات الثقافية الأكثر حداقة في عقلية المجرم . إن ذلك سيكون استطراداً منطقياً للأساليب الوجودية في معالجة علم الاجتماع .

فهرست

٥	تعريف لأهداف الكتاب
١١	الفصل الأول : بحث عام حول الانحراف الجنسي
٣٧	الفصل الثاني : اللامميز والدافع الكازانوفي
٧١	الفصل الثالث : أسلوب التحليل
٨٩	الفصل الرابع : ١ - معنى الانحراف
١٢٣	الفصل الخامس : ٢ - معنى الانحراف
١٦٥	الفصل السادس : ٣ - معنى الانحراف
٢٠٥	الفصل السابع : السادية والعقلية الاجرامية
٢٤١	الفصل الثامن : السيكلولوجية الوجودية
٢٩٩	الفصل التاسع : نظرية الاستجابة الرمزية
٣٢٩	ملحق : العقلية الاجرامية

